

**تحفة الداعية والإمام
بدروس
سيرة خير الأنام**

دورس إيمانية وأخلاقية وتربوية

**الجزء الأول
إعداد**

**السيد مراد سلامة
إمام وخطيب ومدرس بالأوقاف المصرية**

الناشر المكتبة المرادية

تحفة الداعية والإمام

بدروس

سيرة خير الأنام

دورس إيمانية وأخلاقية وتربوية

الجزء الأول

إعداد

الشيخ السيد مراد سلامة

إمام وخطيب ومدرس بالأوقاف المصرية

هـ _____ داء

اهدي ثواب هذا الكتاب إلى أبي وعمي رحمهما الله

اهدي ثواب هذا الكتاب إلى أمي رحمها الله

اهدي ثواب هذا الكتاب إلى أخي عبد الحميد وأخي علي رحمهما الله

اسأل الله العظيم أن يرفعهم بكل آية في هذا الكتاب درجة

اسأل الله العظيم أن يكتب لهم بكل حرف فيه حسنة

اسأل الله العظيم أن يغفر لهم بكل حرف فيه سيئة

اسأل الله العظيم أن ينور قبورهم بكل صلاة فيه على نبي صلى الله عليه وسلم

اسأل الله العظيم أن يبني لهم بكل درس في الكتاب قصرا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة



إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

” يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ “. [آل عمران/١٠٢] ” يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا “ [النساء/١]. ” يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا “. [الأحزاب/٧٠ - ٧١].

إن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار ... وبعد،

فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الصورة العملية التطبيقية لهذا الدين، وجميع الطرق الموصلة إلى الله تعالى ثم إلى الجنة موصودة ومغلقة إلا طريقه صلى الله عليه وسلم، ويمتنع أن تعرف دين الإسلام ويصح لك إسلامك بدون معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكيف كان هديه وعمله وأمره ونهيه ومنهجه وسنته؟.

لقد سالم وحارب، وأقام وسافر، وباع واشترى، وأخذ وأعطى، وما عاش صلى الله عليه وسلم وحده، ولا غاب عن الناس يوماً واحداً، ولا سافر وحده.

وقد لاقى صنوف الأذى، وقاسى أشد أنواع الظلم، وكانت العاقبة والنصر له.

بعث على فترة من الرسل، وضلال من البشر، وانحرف في الفطر، وواجه ركاباً هائلاً من الضلال والانحراف والبعد عن الله، والإغراق في الوثنية. فاستطاع بعون الله أن يخرجهم من الظلام إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى ومن الشقاء إلى السعادة، فأحبوه وفدوه بأنفسهم وأهليهم وأموالهم، واقتدوا به في

كل صغيرة وكبيرة، وجعلوه نبراساً لهم يستضيئون بنوره، ويهتدون بهديه فأصبحوا أئمة الهدى وقادة البشرية.

إن سيرته صلى الله عليه وسلم رسمت المنهج الصحيح الآمن في دعوة الناس، وهداية البشر، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة. وما فشلت كثير من المناهج الدعوية المعاصرة في إصلاح البشر إلا بسبب الإخلال بهديه والتقصير في معرفة سنته، ونقص في دراسة منهجه صلى الله عليه وسلم في هداية البشر وإصلاحهم.

وفي هذا السفر المبارك بإذن الله تعالى أضع للداعية والإمام السيرة النبوية في مجموعة من الدروس نظمناها في عقد فريد وبينت للقارئ ما فيها من حكم ودروس وعبر وعظات فهي منهج تربوي ودستور أخلاقي فمادة السيرة النبوية مادة تربوية سلوكية قبل أن تكون معرفية، يأخذ هذا المنهج بأيدي الحيارى إلى فهم ومعرفة سيرة سيد البرايا صلى الله عليه وسلم....

وكان الغرض من كتابتها أن أريح الداعية الإمام من عناء البحث في عشرات الكتب عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم-فياًخذ ذلك البحث منه جهداً ووقتاً والداعية بحاجة إلى كل لحظة من لحظات حياته.... لذ وضعت الكتاب فيجد فيه الداعية والإمام والمحاضر المادة العلمية الجاهزة التي يبحث عنها في هذا العمل المتواضع فهي وجبة علمية جاهزة بإذن الله تعالى

وهذا هو الجزء الأول من سيرة نبينا صلى الله عليه وسلم وما أنا إلا كجامع الأزهار من حديقة النبي المختار صلى الله عليه وسلم -

فاللهم اجعل هذا العمل خالصاً لوجهك الكريم وجعله نصرةً لنبيك الأمين، واجعله زاداً لي وللمؤمنين في الدنيا وفي الآخرة وأعوذ بك أن أقول زوراً أو أغشى فجوراً أو أن أكون بك مغروراً يا رب العالمين.

الشيخ السيد مراد سلامة

إمام وخطيب ومدرس بوزارة الأوقاف

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

hamam4111@gmail.com

الدرس الأول

أهمية السيرة النبوية

الحمد لله لم يزل علياً، ولم يزل في علاه سميّاً، قطرة من بحر جوده تملأ الأرض رياً، نظرة من عين رضاه تجعل الكافر وليّاً، الجنة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشياً والنار لمن عصاه ولو شريفاً قرشياً، أنزل على نبيه ومصطفاه قولاً بهياً {تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً} [مريم: ٦٣]

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) [آل عمران/١٠٢]

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) [النساء/١]

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آدُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) [الأحزاب/٦٩-٧١]

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد -صلى الله عليه وسلم- وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثاتها بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

اللهم لا تعذب جمعاً التقى فيك ولك ولا تعذب ألسناً تخبر عنك ولا تعذب قلوباً تشتاق إلى لذة ونصلي ونسلم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

جاءت له الدنيا فأعرض زاهدا ... يبغي من الأخرى المكان الأرفعا

من ألبس الدنيا السعادة حلّة ... فضفاضة لبس القميص مرّعا

وهو الذي لو شاء نالت كفه ... كل الذي فوق البسيطة أجمعا

مسك به اختتم المهيمن رسله ... وأبان أمر الدين والدنيا معا

نادى إلى الحسنى فلما أعرضوا ... واستكبروا شرع الرماح فأسمعا

والحق ليس بمعتدٍ لكنه ... إن دافعته يد الضلال تدفعا

بعض الأنام إذا رأى نور الهدى ... عرف الطريق ولم يضل المرجعا

ومن البرية معشر لا ينثني ... عن غيّه حتى يخاف ويفزعا

إخوة الإسلام حديثنا في هذا اللقاء الأول مع أهمية دراسة السيرة النبوية فهي لا تتناول سيرة رجل عادي، بل إنها سيرة وحياة أعظم بشر وأفضل نبي صلى الله عليه وسلم ، وهي تشتمل على وقائع حياته صلى الله عليه وسلم، من ميلاده ونسبه، وطفولته وشبابه، وبداية بعثته ونزول الوحي عليه، وأخلاقه وشمائله، ودلائل نبوته ومعجزاته، وجهاده وسلمه، وهديه في المنام والطعام والشراب والنكاح، والتعامل مع الموافقين والمخالفين، و التربية والتعليم، والدعوة والإرشاد، وأحداث حياته كلها حتى التحاقه بالرفيق الأعلى.. وهي كذلك سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم القدوة والأسوة، الذي لا يصح عمل ولا عبادة إلا باتباعه، قال الله تعالى: **{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} (الأحزاب: ٢١).**

موضوع السيرة:

فإن سأل سائل عن موضوع تلك السيرة فإن لها ثلاثة مواضيع و هي :

أما الموضوع الأول؛ وهو حياة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيمثل حياة سيد ولد آدم على ظهر هذه المعمورة عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ وَأَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَمُشَفَّعٍ بِيَدِي لَوْاءِ الْحَمْدِ تَحْتِي آدَمَ فَمَنْ دُونَهُ ^(١) وهل في الدنيا حدث أعظم من حياة سيد ولد آدم فيها، ندرسه ونطلع عليه ونتابع كل صغيرة وكبيرة فيه؟!

والموضوع الثاني وهو حياة صحابته الذين جاهدوا معه، فهم الذين شهد الله تعالى لهم أنهم خير أمة أخرجت للناس **{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: ١١٠].**

(١) - رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد. انظر صحيح الجامع الصغير للألباني ١م ج ٢ ح ١٤٨١ ص ٢١.

وشهد لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم بالخيرية عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمٌ تَسْبِقُ أَيْمَانُهُمْ شَهَادَتَهُمْ وَتَسْبِقُ شَهَادَتُهُمْ أَيْمَانَهُمْ» (٢).

الموضوع الثالث وهو انتشار الإسلام على هذه الأرض: الإسلام الذي كمله الله تعالى ورضيه لهذه الأمة إلى يوم القيامة، كما يقول عز وجل: **{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣].**

فذنن إذا حين ندرس السيرة النبوية المطهرة. ندرس سيرة خير نبي اصطفاه ربه، وندرس سيرة خير أمة أخرجت للناس، وندرس تاريخ خير رسالة أنزلت للناس. ودراسة السيرة النبوية فيها الكثير من الفوائد العظيمة، والمنافع المتعددة، التي ينبغي التعرف عليها والاستفادة منها، ومن هذه الفوائد:

أقول السلف في أهمية دراسة السيرة النبوية

والأهمية دارسة السيرة حرص السلف الصالح على تعليمها لأبنائهم كما يعلمونهم القرآن الكريم فكان زين العابدين بن علي بن الحسين يقول: "كنا نعلم مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نعلم السورة من القرآن". وقال محمد بن سعد بن أبي وقاص: "كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسراياه، ويقول: يا بني هذه مآثر آبائكم فلا تضيعوها". وقال ابن الجوزي: "رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب إلا أن يمزج بالرقائق والنظر في سيرة السلف الصالح، وأصلح سيرة نبينا صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم".

(٢) - متفق عليه. البخاري ١٩٠ / ٥ في الشهادات ومسلم ح ٢٥٣٥ في الفضائل.

وقال أيضا: "وأصل الأصول العلم، وأنفع العلوم النظر في سير الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، قال الله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ افْتَدَاهُ} (لأنعام: ٩٠). وكان الزهري يقول: "علم المغازي والسرايا علم الدنيا والآخرة".

وقال سفيان ابن عيينة: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الميزان الأكبر، فعليه تعرض الأشياء، على خلقه وسيرته وهديه، فما وافقها فهو الحق، وما خالفها فهو الباطل".

وقال ابن القيم في كتابه "زاد المعاد في هدي خير العباد": "ومن هاهنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل. وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقةً بهدي النبي صلى الله عليه وسلم، فيجب على كل من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل به في عداد أتباعه وشييعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقيل، ومستكثير، ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم".

وقال الخطيب البغدادي في كتابه "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع": "تتعلق بمغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم أحكام كثيرة، فيجب كتبها والحفظ لها".

وقال الشيخ علي الطنطاوي في كتابه "رجال من التاريخ": يجب على كل رب أسرة أن يكون في بيته كتاب جامع من كتب السيرة النبوية، وأن يقرأ فيه دائما، وأن يتلو منه على أهله وأولاده، وأن يجعل لذلك ساعة كل يوم، لينشؤوا على معرفة سيرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، فإن سيرته ينبوع الصافي لطالب الفقه، والدليل الهادي لباغي الصلاح، والمثل الأعلى للأسلوب البليغ، والدستور الشامل لكل شعب الخير".

وقال أبو الحسن الندوي: "إن السيرة النبوية وسير الصحابة وتاريخهم رضي الله عنهم من أقوى مصادر القوة الإيمانية والعاطفة الدينية، التي لا تزال هذه الأمة والدعوات الدينية تقتبس منها شعلة الإيمان وتشتعل بها مجامر القلوب، التي يسرع انبساطها وخمودها في مهب الرياح والعواصف المادية، والتي إذا انطفأت فقدت هذه الأمة قوتها وميزتها وتأثيرها وأصبحت جثة هامدة تحملها الحياة على أكتافها".

وقال الدكتور محمد أبو شهبه في كتابه "السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة": "إن خير ما يتدارسه المسلمون، ولا سيما الناشئون والمتعلمون، ويعنى به الباحثون والكتابون دراسة السيرة المحمدية، إذ هي خير معلّم ومثقف، ومهذب ومؤدّب، وأصل مدرسة تخرج فيها الرعيل الأول من المسلمين والمسلمات، الذين قلما تجود الدنيا بأمثالهم، ففيها ما ينشده المسلم، وطالب الكمال من دين ودنيا، وإيمان واعتقاد، وعلم وعمل، وآداب وأخلاق، وسياسة وكياسة (عقل وحكمة)، وإمامة وقيادة، وعدل ورحمة، وبطولة وكفاح، وجهاد واستشهاد."

أولاً: دراسة السيرة عبادة:

إخوة الإسلام: اعلموا برك الله فيكم أن دراسة سيرة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام عبادة من أجل العبادات التي تقوده إلى سعادة الدارين الدنيا والآخرة يقول تعالى: { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا } [الأحزاب: ٢١].

فنحن مكلفون بالافتداء برسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولن نتمكن من الاقتداء والتأسي به ما لم نفقه سيرته وندرسها ونتعرف عليها.

وإن كانت السيرة النبوية هي ما ورد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من قول أو فعل أو تقرير أو صفة، فأفعال النبي -صلى الله عليه وسلم- تبرز أكثر ما يكون في السيرة.

ونحن مكلفون باتباع خيرة هذه الأمة، وأن لا نخرج على سنتهم وهديتهم {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ١٠٠]

كيف نتبع سلف هذه الأمة ما لم نطلع على أعمالهم وجهادهم وسلوكهم؟!

ومن القواعد الشرعية المقررة: إن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب؛ وقد اهتم الجيل الأول من الصحابة والتابعين وتابعيهم بهذه السيرة، كما روى محمد ابن عمر الواقدي عن عبد الله بن عمر بن

علي بن الحسين عن أبيه قال: سمعت علي بن الحسين يقول: كنا نعلم مغازي النبي - صلى الله عليه وسلم - كما نعلم السورة من القرآن^(٣).

ثانياً فهم كتاب الله عز وجل:

أحبتي في الله: و من فوائد دراسة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم أن نفهم القرآن الكريم ونقف على أسباب نزوله فالسير تُعد مواقف وأحداث السيرة النبوية أرضاً خصبة للمفسرين، فقد نزل القرآن مُنْجِماً (مفراً)، تعقيباً على الأحداث، أو تبييناً لإشكال، أو رداً على استفسار، أو تحليلاً لموقف من مواقف السيرة النبوية، فهناك من الآيات القرآنية نزلت في الغزوات والحروب، كتلك الآيات التي تتكلم عن الغزوات في سورة آل عمران والتوبة والأحزاب والفتح والحشر، وآيات نزلت إثر حوادث وقعت، كما حدث في صلح الحديبية، وحادثة الإفك وغيرها من الحوادث والمشاهد، وحتى تُفهم هذه الآيات القرآنية فهماً صحيحاً لا بد من دراسة السيرة النبوية والتي يتبين من خلالها أسباب نزول الكثير من هذه الآيات.. ومما لا ريب فيه أن معرفة أسباب النزول أمر ضروري لمن يتصدى لتفسير كلام الله، لما هو معلوم من الارتباط بين السبب والمسبب، قال الواحدي: "لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها"، وقال ابن دقيق العيد: "بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن"، وقال ابن تيمية: "معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب". ومن ثم فمن الفوائد الهامة من دراسة السيرة النبوية أنها تساعد على الفهم الصحيح للآيات القرآنية، من خلال معرفة تفاصيل الحدث الذي تتحدث عنه الآية الكريمة وسبب نزولها، والموقف التي نزلت فيه، وكيفية تطبيق النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لها، حتى يكاد يستعصي الفهم الصحيح لبعض معاني القرآن الكريم في معزل عن السيرة النبوية المطهرة.

ثالثاً: فهم الأحاديث النبوية:

هناك الكثير من الأحاديث النبوية لا يمكن فهمها فهماً صحيحاً بمنأى عن السيرة النبوية، فمثلاً هناك بعض الأحاديث النبوية التي في ظاهرها شيء من التعارض يُجَلِّبُها ويزيل اللبس منها سيرة وفعل النبي صلى الله عليه وسلم، فقد يرد أمر نبوي ولا يُعلم هل هذا الأمر على الوجوب، أو على الإرشاد، أو هو منسوخ أم لا؟! وقد يرد نهى نبوي عن أمرٍ ولا يُعلم النهي أيضاً هل على التحريم أم لا؟! فتأتي السيرة

(٣) - البداية والنهاية لابن أكثر ٣ / ٢٤١.

النبوية العطرة فتبين لنا الحكم الصحيح في المسألة، حيث أن السيرة النبوية يُراعى في كتابتها وتدوينها الزّمن والتاريخ، بخلاف الكتابة والتدوين للسنة والأحاديث النبوية، ومن هنا كانت أهمية السيرة النبوية في استنباط الحكم الصحيح من بعض الأحاديث التي في ظاهرها شيء من التعارض.

رابعاً: معرفة معجزاته صلى الله عليه وسلم:

نبينا صلى الله عليه وسلم أكثر الرسل معجزة، وأبهرهم آية، فله من المعجزات ما لا يُحَدُّ ولا يُعَدُّ، وقد أُلِّفت في معجزاته المؤلفات الكثيرة، وتناولها العلماء بالشرح والبيان، والدارس للسيرة للنبوية يقف على كثير من معجزاته صلى الله عليه وسلم ودلائل نبوته، التي وقعت وتكررت في أماكن مختلفة، وشاهدها الصحابة الكرام واقعاً حياً أمام أعينهم فكان لها الأثر البالغ في ثباتهم وزيادة إيمانهم، إضافة إلى ما تتركه معرفة هذه المعجزات من أثر في نفوس المسلمين على مرّ العصور من معرفة قدر ومنزلة النبي صلى الله عليه وسلم، قال ابن تيمية: "ومعجزاته تزيد على ألف معجزة"، وقال النووي: "معجزات النبي صلى الله عليه وسلم تزيد على ألف ومائتين".

خامساً: من فوائد دراسة سيرة نبينا عليه الصلاة والسلام: أنها باب من أبواب زيادة الإيمان

وتقويته، وقد قال الله تعالى: (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ) [المؤمنون: ٦٩] ؛ فمعرفة الرسول عليه الصلاة والسلام ومعرفة هديه وآدابه وأخلاقه موجبة لمن حصلت له هذه المعرفة للإيمان إذا كان لم يؤمن ، وموجبة لزيادة الإيمان في حق المؤمن . وكم من أقوام دخلوا في دين الله سبحانه وتعالى من خلال وقوفهم على سيرة النبي الكريم وآدابه الكاملة وأخلاقه الفاضلة ومعاملاته العظيمة صلوات الله وسلامه وبركاته عليه ، روى الإمام أحمد عن أنسٍ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ فَأَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ : يَا قَوْمِ اسْلُمُوا فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءَ رَجُلٍ لَا يَخَافُ الْفَاقَةَ وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لِيَجِيءَ إِلَيْهِ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا فَمَا يُمْسِي حَتَّى يَكُونَ دِينُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا يَمَا فِيهَا .

سادساً: أن في دراسة السيرة عوناً لفهم الدين كله؛ عقيدةً وعبادةً وخلقاً :

ومن فوائد السيرة؛ أنها تساعد على فهم العقيدة الإسلامية؛ بطريقة عملية من خلال السلوك العملي للنبي — صلى الله عليه وسلم — عبر مسيرته الحافلة بمواقف الإيمان والثبات في مواجهة المحن والإيذاء والمساومات. وفي المرحلة المكية تتجلى المعاني الكبرى لعقيدة التوحيد، وتظهر طريقة القرآن المكي في ملاحقة الشبهات العقدية التي يطرحها المشركون خلال هذه المرحلة، وفي ضوء هذا التنزيل

نرى الحكمة النبوية كيف تدمغ هذه الشبهات ، وتفنذ هذه الادعاءات التي أثارها الوثنيون حول توحيد الألوهية ، والبعث بعد الموت ، والجنة والنار ، والوحي والنبوة ، وغيرها من المحاور العقيدية العظمى ، التي تناولتها السيرة النبوية بشكل جامع مانع .

[وأقول دوماً: إن السيرة النبوية هي أعظم المصادر في دراسة العقيدة الإسلامية بعد القرآن الكريم ، فمن عزم على دراسة علم العقائد فعليه بالقرآن ثم السيرة ثم أبواب العقائد في كتب السنة ثم أمهات العقائد للعلماء الأعلام ، ثم يقرأ بعد ذلك ما شاء!]

سابعاً : أن السيرة فيها تعليم للنهج الصحيح في الدعوة إلى الله على بصيرة ، والدعاة إلى الله سبحانه وتعالى حقاً هم أهل الدراية بهديه ونهجه وسيرته صلى الله عليه وسلم ، وقد قال الله تعالى : (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) [يوسف: ١٠٨] فالدعوة إلى الله جل وعلا على بصيرة لا بد فيها من معرفة هديه ونهجه صلوات الله وسلامه عليه في الدعوة إلى الله عز وجل ، والسيرة النبوية مشتملة على بيان هديه عليه الصلاة والسلام في الدعوة من حيث بدأ عليه الصلاة والسلام ، ومن حيث طريقتة وأسلوبه صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى الله عز وجل ، ومن حيث أخلاقه وآدابه وتعاملاته ولين جانبه ورفقه صلى الله عليه وسلم ، إلى غير ذلك من الأمور التي هي مقومات للدعوة إلى الله تبارك وتعالى .

ثامناً : استلهم المستقبل : فالسنن الربانية ثابتة لا تتغير ، ولا تتبدل ، ولا تتحول ، ولا تحابي أحداً . والسيرة ما هي إلا تأريخٌ لأعظم فترة مرت بها البشرية ، فيها أعظم تجربة لبناء أمة هي خير أمة أخرجت للناس ، فيه تجربة لبناء دولة ، هي أعظم دولة ظهرت على كوكب الأرض ، فيها تجربة لإنشاء حضارة ؛ هي أعظم حضارة ظهرت على مر العصور . وهذه الحصيلة الضخمة من الخبرات والتجارب التي حوتها السيرة لا غنى لذي عقل عنها فضلاً عن الحكام والعلماء والفلاسفة والمصلحين ، فالسيرة بمثابة الكشاف الذي تفهم به الحاضر وتستلهم منه المستقبل .

تاسعاً : مدخل للعلوم الشرعية

ومن فوائدها ، أنها تهيب طلاب العلم ، وتجعل لهم سُلماً للعلوم الشرعية الأخرى ، بل نقول : إن السيرة هي أم العلوم الشرعية ؛ ففيها الشرح التطبيقي للعقيدة الإسلامية ، وفيها مظان الأحكام الشرعية ، وأصول الأخلاق النبوية ، وهي صدر التاريخ الإسلامي ، ومقدمة مهمة لدراسة علم الحديث ، ودرس

أساسي لدراسة السياسية الشرعية وأصول الحُكم في الإسلام، ولا غنى لطلاب علوم الاقتصاد الإسلامي من دراسة السيرة لاسيما ما حدث من استقلال الدولة الإسلامية في المدينة عن الاقتصاد اليهودي.

الدرس الثاني

حالة العرب قبل الإسلام

الحمد لله المجيب لكل سائل، التائب على العباد فليس بينه وبين العباد حائل.
جعل ما على الأرض زينة لها، وكل نعيم لامحالة زائل.
حذر الناس من الشيطان وللشيطان منافذ وحبائل.
فمن أسلم وجهه لله فذاك الكيس العاقل، ومن استسلم لهواه فذاك الضال الغافل.
ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تنزهه عن الشريك وعن الشبيه وعن المشاكل.
من للعباد غيره؟ ومن يدبر الأمر؟ ومن يعدل المائل؟ من يشفي المريض؟ من يرعى الجنين
في بطن الحوامل؟

من يجيب المضطر إذا دعاه؟ ومن استعصت على قدرته المسائل؟

من لنا إذا انقضى الشباب وتقطعت بنا الأسباب والوسائل؟

لَبِسْتُ تَوْبَ الرَّجَا وَالنَّاسُ قَدْ رَفَدُوا ... وَقُمْتُ أَشْكُو إِلَى مَوْلَايَ مَا أَجِدُ!
وَقُلْتُ: يَا عُدَّتِي فِي كُلِّ نَائِبَةٍ ... وَمَنْ عَلَيْهِ لِكَشْفِ الضَّرِّ اعْتَمِدُ!
أَشْكُو إِلَيْكَ أُمُورًا أَنْتَ تَعْلَمُهَا ... مَا لِي عَلَى حَمْلِهَا صَبْرٌ وَلَا جَدُّ!
وَقَدْ مَدَدْتُ يَدِي بِالضَّرِّ مُبْتَهَلًا ... إِلَيْكَ يَا خَيْرَ مَنْ مَدَّتْ إِلَيْهِ يَدُ!
فَلَا تَرُدَّنَّهَا يَا رَبَّ! خَائِبَةٌ ... فَبَحْرُ جُودِكَ يَرُوي كُلَّ مَنْ يَرِدُ!

ونصلي ونسلم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) [آل عمران/١٠٢] }

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) [النساء/١] }

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آدُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيبًا (٦٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) [الأحزاب/٦٩ - ٧١] }

أما بعد :

١ - حالتهم الدينية :

كانت حالتهم الدينية من أسوأ الحالات وأشدّها اضطراباً، فكانوا يعبدون الأوثان، وكان أقدم أوثانهم اللات في الطائف، والعزى بوادي نخلة، ومناة بين مكة والمدينة، وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها، بل كان لأهل كل دار بمكة صنم في دارهم يعبدونه، وإذا أراد أحدهم سفراً أو قدم منه تمسح به، بل كان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذها ربا وجعل الثلاثة الباقية أثافي لقدره، وكانوا إذا لم يجدوا أحجاراً يجمعون الرمل ثم يحلبون عليه الشاة ثم يطوفون به تبركاً به وتعظيماً له، وبلغ بهم الأمر أنهم يقتلون أولادهم تقرباً إلى الأصنام ويسبيون كثيراً من أموالهم لها، كما قال الله تعالى عنهم: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ} [الأنعام: ١٤٠].

وقد حالت هذه الوثنية السخيفة بين العرب ومعرفة الله وتعظيمه وتوقيره والإيمان به، وبالיום الآخر وإن زعموا أنها لا تعدو أن تكون وسائط بينهم وبين الله وقد هيمنت هذه الآلهة المزعومة على قلوبهم وأعمالهم وتصرفاتهم، وجميع جوانب حياتهم وضعف توقير الله في نفوسهم قال تعالى: {إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} (سورة الأنعام، الآية: ١٣٦).

أما البقية الباقية من دين إبراهيم عليه السلام فقد أصابها التحريف، والتغيير والتبديل، فصار الحج موسماً للمفاخرة والمنافرة، والمباهاة وانحرفت بقايا المعتقدات الحنفية عن حقيقتها وألصق بها من الخرافات والأساطير الشيء الكثير.

وكان يوجد بعض الأفراد من الحنفاء الذين يرفضون عبادة الأصنام وما يتعلق بها من الأحكام والنحائر وغيرها، ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل، وكان لا يذبح للأنصاب، ولا يأكل الميتة والدم وكان يقول:

أربا واحداً أم ألف رب؟؟ أدين إذا تقسمت الأمور؟

عزلت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الجلد الصبور

فلا عزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمي بني عمرو أزور

ولا غنماً أدين وكان رباً لنا في الدهر، إذا حلمي يسيرُ

ولكن أعبد الرحمن ربي ليغفر ذنبي الرب الغفور (٤)

وممن كان يدين بشريعة إبراهيم، وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، قس بن ساعدة الإيادي: فقد كان خطيباً، حكيماً، عاقلاً، له نباهة، وفضل، وكان يدعو الى توحيد الله، وعبادته، وترك عبادة الأوثان، كما كان يؤمن بالبعث بعد الموت، وقد بشر بالنبى - صلى الله عليه وسلم -، فقد روى أبو نعيم في دلائل النبوة عن ابن عباس قال: (إن قسى بن ساعدة كان يخطب قومه في سوق (عكاظ) فقال في خطبته: سيعلم حق من هذا الوجه -وأشار بيده إلى مكة- قالوا: وما هذا الحق؟ قال: رجل من ولد لؤي بن غالب يدعوكم إلى كلمة الإخلاص، وعيش الأبد، ونعيم لا ينفد، فإن دعاكم فأجيبوه، ولو علمت أنني أعيش إلى مبعثه لكنت أول من يسعى إليه) وقد أدرك النبي - صلى الله عليه وسلم - ومات قبل البعثة^(٥).

ومما كان ينشده من شعره:

في الزاهبين الأولين من القرون لنا بصائر

لما رأيت موارداً للموت ليس لها مصادر

ورأيت قومي نحوها يمضي الأصاغر والأكابر

لا يرجع الماضي إلي ولا من الباقيين غابر

(٤) - السيرة النبوية لابن كثير (١/ ١٦٣).

(٥) - السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة (١/ ٨٠).

أيقنت أنني لا محالة حيث صار القوم صائر^(٦)

كان بعض العرب قد تنصر وبعضهم دخل في اليهودية أما الأغلبية فكانت تعبد الأوثان والأصنام.

٢- أما حالتهم السياسية:

كان سكان الجزيرة العربية ينقسمون إلى بدو، وحضر وكان النظام السائد بينهم هو النظام القبلي، حتى في الممالك المتحضرة التي نشأت بالجزيرة، كملكة اليمن في الجنوب ومملكة الحيرة في الشمال الشرقي، ومملكة الغساسنة في الشمال الغربي، فلم تنصهر الجماعة فيها في شعب واحد، وإنما ظلت القبائل وحدات متماسكة.

والقبيلة العربية مجموعة من الناس، تربط بينها وحدة الدم (النسب)، ووحدة الجماعة، وفي ظل هذه الرابطة نشأ قانون عرفي ينظم العلاقات بين الفرد والجماعة، على أساس من التضامن بينهما في الحقوق والواجبات، وهذا القانون العرفي كانت تتمسك به القبيلة في نظامها السياسي والاجتماعي^(٧).

وزعيم القبيلة ترشحه للقيادة منزلته القبلية وصفاته، وخصائصه من شجاعة ومروءة، وكرم ونحوها، ولرئيس القبيلة حقوق أدبية ومادية، فالأدبية أهمها احترامه وتبجيله، والاستجابة لأمره، والنزول على حكمه وقضائه، وأما المادية فقد كان له في كل غنيمة تغنمها (المرباع) وهو ربع الغنيمة، و (الصفايا) وهو ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل القسمة، و (النشيطة) وهي ما أصيب من مال العدو قبل اللقاء، و (الفضول) وهو ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة، وقد أجمل الشاعر العربي ذلك بقوله:

لك المرباع فينا، والصفايا.

وحكمك، والنشيطة، والفضول^(٨)

ومقابل هذه الحقوق واجبات ومسؤوليات، فهو في السلم جواد كريم، وفي الحرب يتقدم الصفوف، ويعقد الصلح، والمعاهدات.

^(٦) - السيرة النبوية لأبي شهبه (١ / ٨١)

^(٧) - السيرة النبوية لأبي شهبه (١ / ٦٠).

^(٨) - مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، ص ٣١.

والنظام القبلي تسود فيه الحرية، فقد نشأ العربي في جو طليق، وفي بيئة طليقة، ومن ثم كانت الحرية من أخص خصائص العرب، ويعشقونها ويأبون الضيم والذل وكل فرد في القبيلة ينتصر لها، ويشيد بمفاخرها، وأيامها، وينتصر لكل أفرادها محقاً أو مبطلاً، حتى صار من مبادئهم:

(أنصر أخاك ظالماً، أو مظلوماً)

وكان شعارهم:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قل برهانا

والفرد في القبيلة تبع للجماعة، وقد بلغ من اعتزازهم برأي الجماعة أنه قد تذوب شخصيته في شخصيتها، قال دريد بن الصمة:

وهل أنا إلا من غزيرة إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد (٩)

وكانت كل قبيلة من القبائل العربية لها شخصيتها السياسية وهي بهذه الشخصية كانت تعقد الأحلاف مع القبائل الأخرى، وبهذه الشخصية أيضاً كان تشن الحرب عليها، ولعل من أشهر الأحلاف التي عقدت بين القبائل العربية، حلف الفضول، (حلف المطيبين)^(١٠).

وكانت الحروب بين القبائل على قدم وساق ومن أشهر هذه الحروب حرب الفجار^(١١)، وكان -عدا هذه الحروب الكبرى- تقع إغارات فردية بين القبائل تكون أسبابها شخصية أحياناً، أو طلب العيش أحياناً أخرى، إذ كان رزق بعض القبائل في كثير من الأحيان في حدّ سيوفها، ولذلك ماكانت القبيلة تأمن أن تنقض عليها قبيلة أخرى في ساعة من ليلٍ أو نهار لتسلب أنعامها ومؤونها، وتدع ديارها خاوية كأن لم تسكن بالأمس^(١٢).

٣- وأما حالتهم الاقتصادية:

(٩) - السيرة النبوية لأبي شهبه (١ / ٦١).

(١٠) - دراسة تحليلية لشخصية الرسول، د. محمد قلعجي، ص ٣١.

(١١) - دراسة تحليلية لشخصية الرسول، ص ٣٥، ٣٤، ٣٣.

(١٢) - فقه السيرة النبوية، منير الغضبان، ص ٦٠.

فإنما تقوم على السلب والنهب والمعاملات الربوية وأكل الخبائث فكانوا يستحلون ما حرم الله من الميتة والدم، ويحرمون ما أحل الله، حيث حرّموا أنواعا من بهيمة الأنعام وهي البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، فرد الله عليهم بقوله: **{ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ }** (سورة المائدة الآية ١٠٣).

٤ - وأما حالتهم الأسرية:

فكانوا يئدون بناتهم خشية العار، ويقتلون أولادهم تقربا إلى الأصنام أو يقتلونهم خشية الفقر، وكان أحدهم يتزوج ما شاء من النساء دون تقييد بعدد ولا التزام بحقوق الزوجية، وكانوا يحرمون النساء والصغار من الميراث، بل كانوا يرثون زوجة الميت من بعده كما يرثون ماله. . . هذا مجمل حال جاهلية العرب.

الدرس الثالث

حادثة حفر بئر زمزم

الحمد لله الذي جعل القرآن هدايةً للمقبلين، وجعل تلاوته بخضوع تهل دمع الخاشعين، وأنزل فيه من الوعيد ما يهز به أركان الظالمين، وأخبر فيه أن الموت نهايةً لعالمين، وأننا بعد الموت للحساب مبعوثين وأننا سنحاسب عما كنا فاعلين، وسنقف بذل وخضوع بين يدي رب العالمين، **﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾** [الفجر: ٢٣] **﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾** [إبراهيم: ٤٩] ليس هناك فرق بين ملك معظم وإنسان مهين، هذا جزاء من أخلص العمل لله رب العالمين، وهذا عطاء رب الأرباب مالك يوم الدين.

سبحانه من إله عظيم أعز الحق وأخرس المبطلين سبحانه عدد

ما دعاه عباده المساكين سبحانه عدد ما انهمرت دموع النبيين سبحانه جواد كريم قوي متين

أما بعد:

فيا أيها الآباء أيها الإخوة الأعزاء نفق اليوم مع مقدمات ومبشرات بقدوم سيد الكائنات نبداً مع قصة حفر بئر زمزم فما هي تلك القصة وما فيها من دروس وعبر وما فيها من الهامات وإرهاصات هيا أعيروني القلوب و الأسماع:

يروى لنا تلك القصة العجيبة علي بن أبي طالب و قد نقلها لنا عن جده عبد المطلب عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُحَدِّثُ حَدِيثَ زَمْزَمَ حِينَ أَمَرَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بِحَفْرِهَا قَالَ: قَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: إِنِّي لَنَائِمٌ فِي الْحِجْرِ إِذْ أَتَانِي آتٍ فَقَالَ لِي: احْفَرْ طَيْبَةً.

قَالَ: قُلْتُ وَمَا طَيْبَةٌ؟ قَالَ: ثُمَّ ذَهَبَ عَنِّي.

قَالَ: فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ رَجَعْتُ إِلَى مَضْجَعِي فَنِمْتُ فِيهِ، فَجَاءَنِي فَقَالَ: احْفَرْ بَرَّةً.

قَالَ: قُلْتُ وَمَا بَرَّةٌ؟ قَالَ: ثُمَّ ذَهَبَ عَنِّي.

فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ رَجَعْتُ إِلَى مَضْجَعِي فَنِمْتُ فِيهِ، فَجَاءَنِي فَقَالَ: احْفَرِ الْمَضْنُونََةَ.^(١٣)
قَالَ قُلْتُ: وَمَا الْمَضْنُونََةُ؟ قَالَ ثُمَّ ذَهَبَ عَنِّي.

فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ رَجَعْتُ إِلَى مَضْجَعِي فَنِمْتُ فِيهِ، فَجَاءَنِي فَقَالَ: احْفَرِ زَمْرَمَ.
قَالَ: قُلْتُ وَمَا زَمْرَمُ؟ قَالَ: لَا تَنْزِفُ^(١٤) أَبَدًا وَلَا تَذْمُ^(١٥)، تَسْقِي الْحَجِيحَ الْأَعْظَمَ، وَهِيَ بَيْنَ الْفَرَثِ
^(١٦)وَالدَّمِ، عِنْدَ نُقْرَةِ الْغُرَابِ الْأَعْصَمِ،^(١٧) عِنْدَ قَرْيَةِ النَّمْلِ^(١٨).

قَالَ: فَلَمَّا بَيَّن لَهُ شَأْنَهَا وَدَلَّ عَلَى مَوْضِعِهَا، وَعَرَفَ أَنَّهُ قَدْ صَدَقَ، غَدَا بِمَعُولِهِ وَمَعَهُ ابْنُهُ الْحَارِثُ بْنُ
عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَلَيْسَ لَهُ يَوْمِئِذٍ وَلَدٌ غَيْرُهُ، فَحَفَرَ فِيهَا، فَلَمَّا بَدَأَ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ الطِّيَّ^(١٩) كَبْرًا، فَعَرَفَتْ
قُرَيْشٌ أَنَّهُ قَدْ أَدْرَكَ حَاجَتَهُ، فَقَامُوا إِلَيْهِ فَقَالُوا:

يَا عَبْدَ الْمُطَّلِبِ إِنَّهَا بِنْتُ أَبِيْنَا إِسْمَاعِيلَ، وَإِنَّ لَنَا فِيهَا حَقًّا فَأَشْرِكْنَا مَعَكَ فِيهَا.

قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ قَدْ خُصِّصْتُ بِهِ دُونَكُمْ وَأُعْطِيْتُهُ مِنْ بَيْنِكُمْ.

قَالُوا لَهُ: فَأَنْصِفْنَا فَإِنَّا غَيْرُ تَارِكِيكَ حَتَّى نُخَاصِمَكَ فِيهَا.

قَالَ: فَاجْعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مَنْ شِئْتُمْ أَحَاكِمَكُمْ إِلَيْهِ.

قَالُوا: كَاهِنَةُ بَنِي سَعْدِ بْنِ هُدَيْمٍ قَالَ: نَعَمْ.

وَكَانَتْ بِأَشْرَافِ الشَّامِ.

فَرَكِبَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ بَنِي أُمِّيَّةَ، وَرَكِبَ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ نَفْرًا.

^(١٣) - المضنونة: أي الغالية النفيسة التي يضمن بمثلها

^(١٤) - لا تنزف: أي لا يفرغ ماؤها، ولا يلحق قعرها.

^(١٥) - ولا تذم: أي لا توجد قليلة الماء، تقول: أذممت البئر: إذا وجدتها ذميمة، وهي القليلة الماء.

^(١٦) - الفرث: ما يكون في كرش ذي الكرش

^(١٧) - الغراب الأعصم: الذي في ساقه بياض، وهو ضرب من الغربان، والأعصم أيضاً: الوعل في غير هذا الموضع، قيل سمي بذلك

لبياض في ذراعيه، وقيل لاعتصامه في الجبال.

^(١٨) - قرية النمل: الموضع الذي يجتمع فيه النمل

^(١٩) - الطي: حافة البئر.

فَخَرَجُوا وَالْأَرْضُ إِذْ ذَاكَ مَفَاوِزُ، حَتَّى إِذَا كَانُوا يَبْعُضُهَا نَفَدَ مَاءُ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ وَأَصْحَابِهِ، فَعَطِشُوا حَتَّى اسْتَيْقَنُوا بِالْهَلَكَةِ، فَاسْتَسْقَوْا مِنْ مَعَهُمْ فَأَبَوْا عَلَيْهِمْ وَقَالُوا: إِنَّا بِمَفَازَةٍ وَإِنَّا نَخْشَى عَلَى أَنْفُسِنَا مِثْلَ مَا أَصَابَكُمْ.

فَقَالَ عَبْدُ الْمُطَلِّبِ: إِنِّي أَرَى أَنْ يَحْفَرَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ حَفْرَتَهُ لِنَفْسِهِ بِمَا لَكُمْ الْآنَ مِنَ الْقُوَّةِ، فَكَلَّمَا مَاتَ رَجُلٌ دَفَعَهُ أَصْحَابُهُ فِي حَفْرَتِهِ ثُمَّ وَارَوْهُ، حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ رَجُلًا وَاحِدًا فَضِيْعَةٌ رَجُلٍ وَاحِدٍ أَيْسَرُ مِنْ ضِيْعَةِ رَكْبٍ جَمِيعِهِ.

فَقَالُوا: نَعَمْ مَا أَمَرْتَ بِهِ.

فَحَفَرَ كُلُّ رَجُلٍ لِنَفْسِهِ حُفْرَةً ثُمَّ قَعَدُوا يَنْتَظِرُونَ الْمَوْتَ عَطِشًا.

ثُمَّ إِنَّ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: وَاللَّهِ إِنَّ الْإِقَاءَنَا بِأَيْدِينَا هَكَذَا لِلْمَوْتِ لَا نَضْرِبُ فِي الْأَرْضِ وَلَا نَبْتَغِي لِأَنْفُسِنَا لِعِجْزٍ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَرْزُقَنَا مَاءً يَبْعُضُ الْبِلَادِ، ارْتَحَلُوا.

فَارْتَحَلُوا، حَتَّى إِذَا بَعَثَ عَبْدُ الْمُطَلِّبِ رَاحِلَتَهُ انْفَجَرَتْ مِنْ تَحْتِ حُفْهَا عَيْنٌ مَاءٍ عَذْبٍ، فَكَبَّرَ عَبْدُ الْمُطَلِّبِ وَكَبَّرَ أَصْحَابُهُ، ثُمَّ نَزَلَ فَشَرِبَ وَشَرَبَ أَصْحَابُهُ وَاسْتَسْقَوْا حَتَّى مَلَأُوا أَسْقِيَتَهُمْ

ثُمَّ دَعَا قَبَائِلَ قُرَيْشٍ وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ فَقَالَ: هَلُمُّوا إِلَيَّ الْمَاءِ فَقَدْ سَقَانَا اللَّهُ.

فَجَاءُوا فَشَرِبُوا وَاسْتَقَوْا كُلَّهُمْ، ثُمَّ قَالُوا: قَدْ وَاللَّهِ قُضِيَ لَكَ عَلَيْنَا، وَاللَّهِ مَا نُخَاصِمُكَ فِي زَمْزَمَ أَبَدًا، إِنَّ الَّذِي سَقَاكَ هَذَا الْمَاءَ يَهْدِيهِ الْفَلَاوَةُ هُوَ الَّذِي سَقَاكَ زَمْزَمَ، فَارْجِعْ إِلَيَّ سِقَايَتِكَ رَاشِدًا.

فَرَجَعَ وَرَجَعُوا مَعَهُ، وَلَمْ يَصِلُوا إِلَى الْكَاهِنَةِ، وَخَلُّوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَمْزَمَ.^(٢٠)

الدروس المستفادة من حفر زمزم

أولاً: أن في اصطفاء الله لعبد المطلب لنقبة حفر بئر زمزم دليل تهيئة الأجواء بين أهل مكة و القرى التي حولها من يأتي لحج بيت الله الحرام أن لنسل عبد المطلب فضلا و خاصية ليست لأي بطن من بطون قريش

(٢٠) – السيرة النبوية: ابن هاشم: ١: ١٩٣ – ١٩٦ تحقيق الدكتور همام عبد الرحيم سعيد، ومحمد عبد الله أبو صعيبيك، المنار،

الأردن ط. أولى ١٤٠٩ هـ ١٩٨٨ م، وقال فيه الفاسي: رجاله ثقات: انظر شفاء الغرام.

ثانيا: أن النفوس الكبار تسارع إلى فعل الخيرات و تنافس فيه كما نافس أهل مكة عبد المطلب في حفره البئر

ثالثا: معرفة العرب لفضل بئر زمزم قبل الإسلام وجاء الإسلام وبين لنا فضلها وزاد من تشريفها وقد ورد في فضل ماء زمزم أحاديث كثيرة فمنها: ما رواه مسلم في صحيحه في قصة إسلام أبي ذر- رضي الله عنه: عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ زَمْزَمَ فَقَالَ: «إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ، إِنَّهَا طَعَامٌ طَعْمٌ وَشِفَاءٌ سَقْمٌ»^(٢١)

ورواه أبو داود الطيالسي مرفوعا بزيادة: «طعام طعم، وشفاء سقم» وروى الإمام أحمد بسنده عن جابر قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ماء زمزم لما شرب له»^(٢٢)

عن ابن عباس عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ماء زمزم لما شرب له: إن شربته لتستشفى شفاك الله، وإن شربته لشبعك أشبعك الله، وإن شربته لقطع ظمئك قطعه الله، وهي هزيمة»^(٢٣) جبريل، وسقيا الله إسماعيل، ومهما يكن من شيء فقد صحح الحافظ الدمياطي-وهو من الحفاظ المتأخرين المتقنين- حديث: «ماء زمزم لما شرب له»^(٢٤)

رابعا: من صفات عبد المطلب أنه كان مباركا، لا يضع يده في عمل إلا بارك الله تعالى فيه.... حمل المعول، فحفر بئر زمزم، وإذا لم يكن ذا مال في قومه، فقد كان موفورا في كرمه، مباركا له في رزقه، وأكثر قريش فضلا عليهم، وعائدة بالخير على جمهورهم، لا يضمن بخير، ولا يستأثر به، وقد وقاه الله تعالى شح نفسه.

خامسا: إنما خصت بهذه العلامات الثلاث لمعنى زمزم ومائها، فأما الفرت والدم، فإن ماءها طعام طعم، وشفاء سقم، وأما عن الغراب الأعصم، ففيه إشارة إلى ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(٢١) - صحيح مسلم مع المتفق عليه (ص: ٦٩١) (٢٤٧٣) أخرجه البخاري في: ٦٣ كتاب مناقب الأنصار: ٣٣ باب إسلام أبي ذر رضي الله عنه

(٢٢) - مسند أحمد ط الرسالة (٢٣/ ١٤٠) وأخرجه ابن أبي شيبة ٩٥/٨، وابن ماجه (٣٠٦٢)، والعقيلي في "الضعفاء" ٣٠٣/٢، والطبراني في "الأوسط" (٨٥٣) و (٩٠٢٣)، وابن عدي في "الكامل" ١٤٥٥/٤، والأزرقي في "أخبار مكة" ٥٢/٢، والبيهقي في "السنن" ١٤٨/٥، وأبو نعيم في "أخبار أصبهان" ٣٧/٢،

(٢٣) - هزيمة أو همزة: أثر ضربته في الأرض بعقبه، أو بجناحه.

(٢٤) - سبق تخريجه

”ليخربن الكعبة ذو السويقتين من الحبشة“. وأما قرية النمل، ففيها من المشاكلة أيضاً والمناسبة أن
زمزم هي عين مكة التي يردّها الحجيج والعمار من كل جانب، فيحملون إليها البر والشعير وغير
ذلك، وهي لا تحرث ولا تزرع، وقرية النمل كذلك لا تحرث ولا تبذر وتجلب الحبوب إلى قريتها من
كل جان.

الدرس الرابع

نذر عبد المطلب ذبح أحد أولاده

الحمد لله ذو العرش المجيد، والبطش الشديد، الفعال لما يريد، المنتقم ممن عصاه بنار تلظى بدوام الوقيد، المكرم سبحانه وتعالى لمن أطاعه وابتغاه بجنات لا ينفذ نعيمها ولا يغيب، فسبحان الذي قسم خلقه قسمين وجعلهم فريقين فمنهم شقي وسعيد [مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ] [فصلت: ٤٦] ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الواحد الأحد، القيوم الصمد، الذي

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، لا مغيث غير الله،

ولا مجير غير الله، ولا معين غير الله، ولا ناصر غير الله، ولا مفرج لهمومنا وكروبنا إلا الله

فإذا أصابك هم فقل يا الله

وإذا أصابك حزن فقل يا الله

وإذا واجهتك المشكلات فقل يا الله

وإذا اجتمعت عليك الدنيا بأسرها فقل الله، فإنه لا مفرج لكل ذلك إلا الله

أما بعد :

فيا معاشر المحبين : رأينا ما لقيه عبد المطلب من قريش لما أراد أن يحفر بئر زمزم، أحس بالضعف لأنه لم يكن عنده نصير عليهم، ولم يكن عنده إلا ابنه الحارث، فنذر لله تعالى لئن ولد له عشرة بنين، ثم بلغوا معه حتى يمنعه لينحرن أحدهم عند الكعبة.

وفعلا يقدر الله تعالى له، ويرزق عشرة أبناء غير البنات وهم :

١ - الحارث وهو أكبرهم وأمه صفية بنت جندب.

٢ - الزبير وأمه فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية.

٣ - حمزة -رضي الله عنه- وأمه هالة بنت وهيب.

٤ - أبو لهب عبد العزى وأمه آمنة بنت هاجر.

٥ - المقوم وأمه هالة.

٦ - ضرار وهو شقيق العباس وأمه نثلة.

٧ - أبو طالب وأمه فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية.

٨ - عبد الله والد الرسول -صلى الله عليه وسلم- وهو شقيق أبي طالب والزبير.

٩ - العباس -رضي الله عنه- وأمه نثلة.

١٠ - حجل وأمه هالة بنت وهيب.

وأما البنات فست وهن: صفية، وأم حكيم وهي البيضاء، وعاتكة، وأميمة، وأروى، وبرة^(٢٥) (١).

فلما بلغ بنو عبد المطلب عشرة، وعرف أنهم سيمنعونه جمعهم ثم أخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء بالنذر فأطاعوه، وقالوا: كيف نصنع؟ قال: لياخذ كل رجل منكم قدحا ثم يكتب فيه اسمه ثم ائتوني، ففعلوا ثم أتوه، فدخل على (هبل) وهو صنم في جوف الكعبة، وقال لصاحب القداح^(٢٦): اضرب على بني هؤلاء بقداحهم، وأخبره بنذره الذي نذر ففعل الرجل.

خروج القدح على عبد الله:

وكان عبد الله أحب ولد عبد المطلب إليه، وكان يقول: لئن صرف عن عبد الله، فأنا بخير.

فضرب بالقداح فخرج القدح على عبد الله فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة، ثم أقبل به إلى الكعبة ليذبحه فمنعته قريش، ولا سيما إخوته وأخواله من بني مخزوم.

فقال عبد المطلب: فكيف أصنع بنذري؟ فأشاروا عليه أن يأتي عرافة بالحجاز، فيستأمرها فذهب إليها عبد المطلب فلما وصل إليها شرح لها تفاصيل القصة، فقالت: كم الدية فيكم؟ قالوا: عشرة من الإبل،

(٢٥) - الطبقات لابن سعد (١/ ٤١) - البداية والنهاية (٢/ ٦٥٠) - الروض الأنف (١/ ٢٧١).

(٢٦) - الأقداح: هي الأزام التي كانت في الجاهلية عليها مكتوب الأمر والنهي، افعل، ولا تفعل، كان الرجل منهم يضعها في وعاء له، فإذا أراد سفرا أو زواجا أو أمرا مهما أدخل يده، فأخرج منها زلما، فإذا خرج الأمر مضى لشأنه، وإن خرج النهي كف عنه، ولم يفعل. انظر النهاية (٢/ ٢٨١).

قالت : اضربوا القداح على عبد الله ، وعلى عشر من الإبل ، فإن خرجت على عبد الله فزيدها عشرا حتى يرضى ربه ، فإن خرجت على الإبل فانحروها عنه .

*** فداء عبد الله بمائة من الإبل :**

فلما رجعوا قربوا عبد الله ، وعشرا من الإبل فخرج على عبد الله ، فزادوا عشرا ، فخرجت على عبد الله ، فلم يزل يزيد من الإبل عشرا عشرا ، ولا تقع القرعة إلا على عبد الله إلى أن بلغت الإبل مائة^(٢٧) ف وقعت القرعة عليها ، فقالت قريش : لقد رضي ربك يا عبد المطلب ، فقال عبد المطلب : لا حتى أضرب عليها بالقداح ثلاثا ، ففعل ، وفي كل مرة تخرج القداح على الإبل ، ثم نحرت وتركت لا يصد عنها إنسان ، ولا طير ولا سبع .^(٢٨)

دروس وعبر من قصة عبد المطلب و حفر زمزم

إن حادثة وقصة نذر عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم بذبح أحد أولاده ثم الرجوع عن ذلك بفدائه بمائة من الإبل ، فيها دلالة على حفظ الله تعالى لعبد الله والد النبي صلى الله عليه وسلم من الذبح ، والذي تزوج - بعد أن أصبح رجلاً - من آمنة بنت وهب ، وحملت منه برسول الله صلى الله عليه وسلم .

^(٢٧) - (روى ابن سعد في الطبقات الكبرى (١ / ٤١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كانت الدية يومئذ عشرا من الإبل ، وعبد المطلب أول من سن دية النفس مائة من الإبل ، فجرت في قريش والعرب مائة من الإبل ، وأقرها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على ما كانت عليه .

^(٢٨) - انظر الطبقات لابن سعد (١ / ٤١) - البداية والنهاية (٢ / ٦٥٠) - الروض الأنف (١ / ٢٧١) .

الدرس الخامس

قصة حادثة الفيل

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله الذي أراد فقدر، وملك فقهر، وخلق فأمر وعبد فأثاب، وشكر، وعصي فعذب وغفر، جعل مصير الذين كفروا إلي سقر، والذين اتقوا ربهم إلي جنات ونهر، ليجز الذين كفروا بما عملوا، والذين آمنوا بالحسنَى

وأشهد إن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو علي كل شيء قدير

يا رب رضاك خير إلي من الدنيا ... وما فيها يا مالك النفس قاصيها ودانيها

فنظرة منك يا سؤلي ويا أملِي ... خير إلي من الدنيا وما فيها

فليس للنفس أمال تحقّقها ... سوى رضاك فذا أقصى أمانيتها

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفیه من خلقه وحبیبه

بلغ الرسالة وأدى الأمانة وكشف الظلمة وأحاط به الغمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين

إخوة الإسلام ها هو اللقاء يتجدد مع سيرة النبي المصطفى صلى الله عليه و سلم لنقف مع حدث آخر

من الأحداث العظمى التي كانت تبشر ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه حادث الفيل ...

وَأَمَّا حَادِثُ الْفِيلِ فَهُوَ حَادِثٌ عَظِيمٌ، لَمْ يَحْدُثْ مِثْلُهُ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِ، وَكَانَ دَلِيلًا عَلَى ظُهُورِ حَادِثِ

أَكْبَرَ، وَعَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُرِيدُ بِالْعَرَبِ خَيْرًا، وَأَنَّ لِلْكَعْبَةِ شَأْنًا لَيْسَ لِغَيْرِهَا مِنْ بُيُوتِ الدُّنْيَا، وَمَرَكَزِ

الْعِبَادَةِ، وَقَدْ نَبِطَتْ بِهَا رِسَالَةٌ وَدَوَّرَ فِي تَارِيخِ الدِّيَانَاتِ، وَمَصِيرِ الْإِنْسَانِيَّةِ، لِأَبَدٍ أَنْ تُؤَدِّيَهُ، وَأَنَّ تَقْوَمَ

به (٢٩)

(٢٩) - انظر السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي رحمه الله تعالى ص ٧٧

وَكَانَ مِنْ خَبَرِ هَذَا الْحَادِثِ أَنَّ أَبْرَهَةَ الْأَشْرَمَ عَامِلُ النَّجَاشِيِّ عَلَى الْيَمَنِ بَنَى بِصَنْعَاءَ كَنْبِسَةً عَظِيمَةً، لَمْ يَرِ مِثْلُهَا فِي زَمَانِهَا بِشَيْءٍ مِنَ الْأَرْضِ، سَمَّاها الْقُلَيْسَ (٣٠)، ثُمَّ كَتَبَ إِلَى النَّجَاشِيِّ: إِنِّي قَدْ بَنَيْتُ لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ كَنْبِسَةً لَمْ يُبْنَ مِثْلُهَا لِمَلِكٍ كَانَ قَبْلَكَ، وَلَسْتُ بِمُنْتَهَى حَتَّى أَصْرِفَ إِلَيْهَا حَجَّ الْعَرَبِ.

فَلَمَّا تَحَدَّثَتِ الْعَرَبُ بِكِتَابِ أَبْرَهَةَ ذَلِكَ إِلَى النَّجَاشِيِّ، سَمِعَ رَجُلٌ مِنْ وَكَانَ مِنْ خَبَرِ هَذَا الْحَادِثِ أَنَّ أَبْرَهَةَ الْأَشْرَمَ عَامِلُ النَّجَاشِيِّ عَلَى الْيَمَنِ بَنَى بِصَنْعَاءَ كَنْبِسَةً عَظِيمَةً، لَمْ يَرِ مِثْلُهَا فِي زَمَانِهَا بِشَيْءٍ مِنَ الْأَرْضِ، سَمَّاها الْقُلَيْسَ، ثُمَّ كَتَبَ إِلَى النَّجَاشِيِّ: إِنِّي قَدْ بَنَيْتُ لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ كَنْبِسَةً لَمْ يُبْنَ مِثْلُهَا لِمَلِكٍ كَانَ قَبْلَكَ، وَلَسْتُ بِمُنْتَهَى حَتَّى أَصْرِفَ إِلَيْهَا حَجَّ الْعَرَبِ.

فَلَمَّا تَحَدَّثَتِ الْعَرَبُ بِكِتَابِ أَبْرَهَةَ ذَلِكَ إِلَى النَّجَاشِيِّ، سَمِعَ رَجُلٌ مِنْ كِنَانَةَ فَعَزَّ عَلَيْهِ الْأَمْرَ، وَهُوَ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ رَضَعُوا يَلْبَانَ حُبِّ الْكَعْبَةِ وَتَعْظِيمِهَا، لَا يَعْدِلُونَ بِهَا بَيْتًا، وَلَا يَرُونَ عَنْهَا بَدِيلًا، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى الْكَنْبِسَةَ فَدَخَلَهَا لَيْلًا فَلَطَخَ قِبَلَتَهَا بِالْعَذْرَةِ وَجَمَعَ جِيْفًا فَأَلْقَاهَا فِيهَا.

فَغَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ أَبْرَهَةَ وَحَلَفَ لَيْسِيرَنَّ إِلَى الْبَيْتِ حَتَّى يَهْدِمَهُ، ثُمَّ سَارَ بِجَيْشٍ عَظِيمٍ، وَخَرَجَ مَعَهُ بِتِسْعَةِ فَيْلَةٍ أَوْ ثَلَاثَةِ عَشَرَ فَيْلًا، وَاخْتَارَ لِنَفْسِهِ فَيْلًا مِنْ أَكْبَرِ الْفَيْلَةِ، وَكَانَ اسْمُهُ "مَحْمُودًا"، وَسَمِعَتْ بِذَلِكَ الْعَرَبُ، فَذَرَلَتْ عَلَيْهِمْ كَالصَّاعِقَةِ، وَأَعْظَمُوهُ، وَرَأَوْا جِهَادَهُ حَقًّا عَلَيْهِمْ، حِينَ سَمِعُوا بِأَنَّهُ يُرِيدُ هَدْمَ الْكَعْبَةِ بَيْتَ اللَّهِ الْحَرَامِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَجُلٌ وَكَانَ مِنْ أَشْرَافِ أَهْلِ الْيَمَنِ، وَمُلُوكِهِمْ يُقَالُ لَهُ: (دُو نَفَرٍ)، فَدَعَا قَوْمَهُ، وَمَنْ أَجَابَهُ مِنْ سَائِرِ الْعَرَبِ إِلَى حَرْبِ أَبْرَهَةَ، وَجِهَادِهِ عَنِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ، وَمَا يُرِيدُ مِنْ هَدْمِهِ وَإِخْرَابِهِ، ثُمَّ عَرَضَ لَهُ فَقَاتَلَهُ، فَهَزَمَ (دُو نَفَرٍ) وَأَصْحَابُهُ، وَأَخَذَ لَهُ (دُو نَفَرٍ) فَاتِي بِهِ أَسِيرًا، فَلَمَّا أَرَادَ أَبْرَهَةَ قَتْلَهُ قَالَ لَهُ (دُو نَفَرٍ): أَيُّهَا الْمَلِكُ، لَا تَقْتُلْنِي فَإِنَّهُ عَسَى أَنْ يَكُونَ بَقَائِي مَعَكَ خَيْرًا لَكَ مِنْ قَتْلِي، فَفَرَّكَهُ مِنَ الْقَتْلِ وَحَبَسَهُ عِنْدَهُ فِي وَتَاقٍ، ثُمَّ مَضَى أَبْرَهَةَ عَلَى وَجْهِهِ ذَلِكَ يُرِيدُ مَا خَرَجَ لَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِأَرْضِ حَنْعَمٍ عَرَضَ لَهُ (نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبِ الْخَنْعَمِيِّ) فِي قَبِيلَتِي حَنْعَمَ: شَهْرَانَ، وَنَاهِسَ، وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ، فَقَاتَلَهُ فَهَزَمَهُ أَبْرَهَةَ، وَأَخَذَ لَهُ نُفَيْلُ أَسِيرًا، فَاتِي بِهِ إِلَى أَبْرَهَةَ، فَلَمَّا أَرَادَ قَتْلَهُ، قَالَ لَهُ نُفَيْلٌ: أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا تَقْتُلْنِي فَإِنِّي دَلِيلُكَ بِأَرْضِ الْعَرَبِ، وَهَاتَانِ يَدَايَ لَكَ عَلَى قَبِيلَتِي حَنْعَمَ: شَهْرَانَ وَنَاهِسَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَحَلَى سَبِيلَهُ، وَخَرَجَ بِهِ مَعَهُ يَدُّهُ، حَتَّى إِذَا مَرَّ بِالطَّائِفِ خَرَجَ إِلَيْهِ مَسْعُودُ بْنُ مُعْتَبِ الثَّقَفِيِّ فِي رِجَالٍ مِنْ ثَقِيفٍ، فَقَالُوا لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّمَا نَحْنُ عَيْبِدُكَ سَامِعُونَ لَكَ

(٣٠) - لَأَنَّ النَّاطِرَ لَهَا تَسْقُطُ قَلْبِنُوسَتَهُ عَنِ رَأْسِهِ

مُطِيعُونَ، لَيْسَ عِنْدَنَا لَكَ خِلَافٌ، وَلَيْسَ بَيْنُنَا هَذَا الْبَيْتَ الَّذِي تُرِيدُ -يَعْنُونَ اللَّاتَ، وَهُوَ بَيْتٌ لَهُمْ بِالطَّائِفِ كَأَنَّهُ يُعْظَمُونَهُ نَحْوَ تَعْظِيمِ الْكَعْبَةِ-، إِنَّمَا تُرِيدُ الْبَيْتَ الَّذِي بِمَكَّةَ، وَنَحْنُ نَبْعَثُ مَعَكَ مَنْ يَدُلُّكَ عَلَيْهِ، فَتَجَاوَزَ عَنْهُمْ، فَبَعَثُوا مَعَهُ رَجُلًا هُوَ أَبُو رِغَالٍ يَدُلُّهُ عَلَى الطَّرِيقِ إِلَى مَكَّةَ، فَخَرَجَ أَبْرَهَةَ، وَمَعَهُ الدَّلِيلُ حَتَّى أَنْزَلَهُ الْمُعَمَّسَ (٣١)، وَهُنَاكَ أَمَرَ أَبْرَهَةَ أَصْحَابَهُ بِالْغَارَةِ عَلَى نَعَمِ النَّاسِ، فَبَعَثَ رَجُلًا مِنَ الْحَبَشَةِ يُقَالُ لَهُ (الْأَسْوَدُ بْنُ مَقْصُودٍ) عَلَى خَيْلٍ لَهُ، حَتَّى انْتَهَتْ إِلَى مَكَّةَ، فَسَاقَ إِلَيْهِ أَمْوَالَ قُرَيْشٍ، وَغَيْرِهِمْ، فَأَصَابَ مَائَتِي بَعِيرٍ لِعَبْدِ الْمُطَلِّبِ بْنِ هَاشِمٍ جَدِّ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ كَبِيرٌ قُرَيْشٍ وَسَيِّدُهَا، فَهَمَّتْ قُرَيْشٌ، وَكِنَانَةٌ، وَهُدَيْلٌ، وَمَنْ كَانَ بِدَلِكِ الْحَرَمِ بِقِتَالِهِ، ثُمَّ عَرَفُوا أَنَّهُمْ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِهِ، فَتَرَكَوْا ذَلِكَ.

وَبَعَثَ أَبْرَهَةَ (حُنَاطَةَ الْحِمَيْرِيَّ) إِلَى مَكَّةَ، وَقَالَ لَهُ: سَلْ عَن سَيِّدِ أَهْلِ هَذَا الْبَلَدِ وَشَرِيفِهَا، ثُمَّ قُلْ لَهُ: إِنَّ الْمَلِكَ يَقُولُ لَكَ: إِنِّي لَمْ آتِ لِحَرْبِكُمْ، إِنَّمَا جِئْتُ لِهَدْمِ هَذَا الْبَيْتِ، فَإِنْ لَمْ تَعْرِضُوا لَنَا دُونَهُ بِحَرْبٍ، فَلَا حَاجَةَ لِي فِي دِمَائِكُمْ، فَإِنْ هُوَ لَمْ يَرِدْ حَرْبِي فَأَتِنِي بِهِ، فَلَمَّا دَخَلَ (حُنَاطَةَ) مَكَّةَ، وَاجْتَمَعَ بَعْبُدِ الْمُطَلِّبِ أَخْبَرَهُ بِمَا أَمَرَهُ بِهِ أَبْرَهَةَ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَلِّبِ: وَاللَّهِ مَا تُرِيدُ حَرْبَهُ، وَمَا لَنَا بِذَلِكَ مِنْ طَاقَةٍ، هَذَا بَيْتُ اللَّهِ الْحَرَامِ، وَبَيْتُ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنْ يَمْنَعُهُ مِنْهُ فَهُوَ بَيْنَهُ وَحَرَمِهِ، وَإِنْ يُحَلِّقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، فَوَاللَّهِ مَا عِنْدَنَا دَفْعٌ عَنْهُ، فَقَالَ حُنَاطَةُ: فَأَنْطَلِقُ مَعِيَ إِلَيْهِ، فَأَنْطَلَقَ مَعَهُ عَبْدُ الْمُطَلِّبِ، وَمَعَهُ بَعْضُ بَنِيهِ، حَتَّى أَتَى الْعَسْكَرَ فَسَأَلَ عَن ذِي نَفَرٍ، وَكَانَ لَهُ صَدِيقًا، حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَحْبَسِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا ذَا نَفَرٍ هَلْ عِنْدَكَ مِنْ غَنَاءٍ فِيمَا نَزَلَ بِنَا؟ فَقَالَ لَهُ ذُو نَفَرٍ: وَمَا غَنَاءٌ رَجُلٍ أَسِيرٍ بِيَدِي مَلِكٍ يَنْتَظِرُ أَنْ يَقْتُلَهُ غُدْوًا أَوْ عَشِيًّا؟ مَا عِنْدِي غَنَاءٌ فِي شَيْءٍ مِمَّا نَزَلَ بِكَ، إِلَّا أَنْ (أُنَيْسًا) سَائِقَ الْفَيْلِ صَدِيقٌ لِي، وَسَأُرْسِلُ إِلَيْهِ فَأَوْصِيهِ بِكَ، وَأَعْظِمُ عَلَيْهِ حَقَّكَ، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَأْذِنَ لَكَ عَلَى الْمَلِكِ، فَتُكَلِّمَهُ بِمَا بَدَأَ لَكَ، وَيَشْفَعُ لَكَ عِنْدَهُ بِخَيْرٍ إِنْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ: حَسْبِي، فَبَعَثَ ذُو نَفَرٍ إِلَى (أُنَيْسٍ) فَقَالَ لَهُ: إِنَّ عَبْدَ الْمُطَلِّبِ سَيِّدُ قُرَيْشٍ، وَصَاحِبُ عَيْرِ مَكَّةَ، يُطْعِمُ النَّاسَ بِالسَّهْلِ، وَالْوُحُوشَ فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ، وَقَدْ أَصَابَ لَهُ الْمَلِكُ مَائَتِي بَعِيرٍ، فَاسْتَأْذِنَ لَهُ عَلَيْهِ، وَانْفَعَهُ عِنْدَهُ بِمَا اسْتَطَعْتَ.

* دُخُولُ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ عَلَى أَبْرَهَةَ الْحَبَشِيَّ:

(٣١) - الْمُعَمَّسُ: مَوْضِعٌ قُرْبَ مَكَّةَ، فِي طَرِيقِ الطَّائِفِ. انظر معجم البلدان (٥/ ١٨٨).

فَفَعَلَ أَنْيْسُ، وَأَذِنَ أَبْرَهَةَ لِعَبْدِ الْمُطَلِّبِ بِالذُّخُولِ عَلَيْهِ، وَكَانَ عَبْدُ الْمُطَلِّبِ أَوْسَمَ النَّاسِ، وَأَجْمَلَهُمْ، وَأَعْظَمَهُمْ، فَلَمَّا رَأَى أَبْرَهَةَ أَجَلَّهُ، وَأَعْظَمَهُ، وَأَكْرَمَهُ عَنْ أَنْ يُجْلِسَهُ تَحْتَهُ، وَكَرِهَ أَنْ تَرَاهُ الْحَبَشَةُ يَجْلِسُ مَعَهُ عَلَى سَرِيرِ مُلْكِهِ، فَتَزَلَّ أَبْرَهَةُ عَنْ سَرِيرِهِ، فَجَلَسَ عَلَى بَسَاطِهِ، وَأَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَيْهِ إِلَى جَنْبِهِ، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ حَاجَتَكَ؟ فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ التَّرْجُمَانُ، فَقَالَ: حَاجَتِي أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ الْمَلِكُ مَائَتِي بِعِيرٍ أَصَابَهَا لِي، فَلَمَّا قَالَ لَهُ ذَلِكَ، قَالَ أَبْرَهَةُ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: قَدْ كُنْتُ أَعْجَبْتَنِي حِينَ رَأَيْتُكَ، ثُمَّ قَدْ زَهَدْتُ فِيكَ حِينَ كَلَّمْتَنِي، أَتَكَلَّمُنِي فِي مَائَتِي بِعِيرٍ أَصَبْتُهَا لَكَ وَتَتْرُكُ بَيْنَنَا هُوَ دَيْنُكَ وَدَيْنُ آبَائِكَ، قَدْ جِئْتُ لِأَهْدِمَهُ، لَا تُكَلِّمُنِي فِيهِ؟

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَلِّبِ: إِنِّي أَنَا رَبُّ الْإِبِلِ، وَإِنَّ لِلْبَيْتِ رَبًّا سَيِّمْنَعُهُ، فَقَالَ أَبْرَهَةُ: مَا كَانَ لِيَمْتَنَعَ مِنِّي، قَالَ: أَنْتَ وَذَلِكَ.

فَأَمَرَ أَبْرَهَةَ أَنْ يَرُدَّ إِبِلُ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ إِلَيْهِ، فَلَمَّا قَبِضَهَا فَلَدَّهَا (٣٢) النَّعَالَ وَأَشْعَرَهَا (٣٣)(٢) وَجَعَلَهَا هَدِيًّا، وَبَتَّهَا فِي الْحَرَمِ كَيْ يُصَابَ مِنْهَا شَيْءٌ فَيَغْضَبَ رَبُّ الْحَرَمِ، ثُمَّ قَامَ عَبْدُ الْمُطَلِّبِ يَدْعُو اللَّهَ وَيَسْتَنْصِرُهُ، وَهُوَ آخِذٌ بِحَلَقَةِ بَابِ الْكَعْبَةِ وَيَقُولُ:

لَاهُمْ إِنَّ الْمَرْءَ يَمْنَعُ رَحْلَهُ ... فَاْمَنْعَ رِحَالِكَ

لَا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ وَمَحَالَهُمْ ... غَدَوْا مَحَالِكَ

إِنْ كُنْتَ تَارِكَهُمْ وَقَبِلْتَنَا ... فَأَمْرٌ مَا بَدَا لَكَ

وَأَشَارَ عَبْدُ الْمُطَلِّبِ عَلَى قَوْمِهِ بِالتَّفَرُّقِ فِي الشَّعَابِ، وَالتَّحَرُّزِ فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ، تَخَوُّفًا عَلَيْهِمْ مِنْ مَعْرَةِ الْجَيْشِ (٣٤)؛ لِأَنَّهُ رَأَى أَنْ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِأَبْرَهَةَ وَجُنُودِهِ، وَأَنَّ لِلْبَيْتِ رَبًّا سَيِّحْمِيهِ. وَتَهَيَّأَ أَبْرَهَةُ لِذُخُولِ مَكَّةَ، وَعَبَّأَ جَيْشَهُ وَهَيَّأَ فِيهِ، فَلَمَّا كَانَ فِي وَادِي (مُحَسَّرٍ) بَيْنَ مُزْدَلِفَةَ وَمِنَى بَرَكَ الْفَيْلِ، وَلَمْ يَقُمْ لِيَقْدَمَ إِلَى الْكَعْبَةِ، وَيُقَالَ: إِنَّهُمْ لَمَّا وَجَّهُوا الْفَيْلَ إِلَى مَكَّةَ أَقْبَلَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ الْخَثْعَمِيُّ حَتَّى قَامَ إِلَى جَنْبِ الْفَيْلِ، ثُمَّ أَخَذَ بِأُذُنِهِ، فَقَالَ: ابْرُكْ مَحْمُودٌ، فَإِنَّكَ فِي بَلَدِ اللَّهِ الْحَرَامِ، ثُمَّ

(٣٢) - تَقْلِيدُ الْبُذُنِ: أَنْ يُجْعَلَ فِي عُنُقِهَا شِعَارٌ يُعْلَمُ بِهِ أَنَّهَا هَدْيٌ. لِسَانُ الْعَرَبِ (١١/٢٧٦).

(٣٣) - أَشْعَرُ الْبَدَنَةِ: أَعْلَمُهَا، وَهُوَ أَنْ يَشُقَّ جِلْدُهَا أَوْ يَطْعَنَهَا فِي أَسْمِنَتِهَا فِي أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ حَتَّى يَظْهَرَ الدَّمُ وَيَعْرِفَ أَنَّهَا هَدْيٌ. انظُرْ لِسَانَ الْعَرَبِ (٧/١٣٥).

(٣٤) - مَعْرَةُ الْجَيْشِ: أَيُّ أَدَى الْجَيْشِ. انظُرْ النِّهَايَةَ (٤/٢٩١).

أَرْسَلَ أَذُنَهُ، فَبَرَكَ الْفَيْلُ، وَخَرَجَ نُفَيْلٌ يَشْتَدُّ حَتَّى أَصْعَدَ فِي الْجَبَلِ، وَضَرَبُوا الْفَيْلَ لِيَقُومَ فَأَبَى، فَضَرَبُوا رَأْسَهُ لِيَقُومَ فَأَبَى، فَوَجَّهُهُ رَاجِعًا إِلَى الْيَمَنِ، فَقَامَ يَهْرُولُ، وَوَجَّهُهُ إِلَى الشَّامِ، فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَوَجَّهُهُ إِلَى الْمَشْرِقِ، فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَوَجَّهُهُ إِلَى مَكَّةَ فَبَرَكَ.

* وُصُولُ الطَّيْرِ الْأَبَابِيلِ:

فَبَيَّنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣٥) مِنَ الْبَحْرِ، مَعَ كُلِّ طَائِرٍ مِنْهَا: ثَلَاثَةٌ أَحْجَارٍ، حَجْرٌ فِي مَنْقَارِهِ، وَحَجْرَانِ فِي رِجْلَيْهِ، وَحَجْمُ الْحِجَارَةِ كَحَجْمِ الْحُمْصِ أَوْ الْعَدَسِ، لَا يُصِيبُ مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا صَارَ تَنْقَطِعَ أَعْضَاؤُهُ وَيَهْلِكُ، وَلَيْسَ كُلُّهُمْ أَصَابَتْ، وَخَرَجُوا هَارِبِينَ يَبْتَدِرُونَ الطَّرِيقَ الَّذِي مِنْهُ جَاؤُوا، وَيَسْأَلُونَ عَنْ نُفَيْلِ بْنِ حَبِيبٍ لِيَدْلَهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ إِلَى الْيَمَنِ، فَقَالَ نُفَيْلٌ حِينَ رَأَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ مِنْ نِقْمَتِهِ:

* هَلَاكُ أَبْرَهَةَ الْأَشْرَمِ:

وَأَمَّا أَبْرَهَةُ فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِ دَاءً تَسَاقَطَتْ بِسَبَبِهِ أَنْامُهُ (٣٦)، أَنْمَلَةٌ أَنْمَلَةٌ، وَلَمْ يَصِلْ إِلَى صَنْعَاءَ إِلَّا وَهُوَ مِثْلُ فَرْخِ الطَّائِرِ، وَأَنْصَدَعَ صَدْرُهُ عَنْ قَلْبِهِ، فَمَاتَ شَرًّا مَيِّتَةً.

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفَيْلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ } (سورة الفيل آية ١ - ٥).

فَلَمَّا رَدَّ اللَّهُ تَعَالَى الْحَبَشَةَ عَنْ مَكَّةَ، وَأَصَابَهُمْ بِمَا أَصَابَهُمْ بِهِ مِنَ النُّقْمَةِ أَعْظَمَتِ الْعَرَبُ قُرَيْشًا، وَقَالُوا: هُمْ أَهْلُ اللَّهِ، قَاتِلِ اللَّهُ عَنْهُمْ وَكَفَاهُمْ الْعَدُوَّ، وَازْدَادُوا تَعْظِيمًا لِلْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَإِيمَانًا بِمَكَانِهِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَالُوا فِي ذَلِكَ أَشْعَارًا يَذْكُرُونَ فِيهَا مَا صَنَعَ اللَّهُ بِالْحَبَشَةِ، وَمَا رَدَّ عَنْ قُرَيْشٍ مِنْ كَيْدِهِمْ، مِنْهَا مَا قَالَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّبْعَرِيِّ:

تَنَكَّلُوا عَنْ بَطْنِ مَكَّةَ إِنَّهَا ... كَانَتْ قَدِيمًا لَا يَرَامُ حَرِيمُهَا

لَمْ تُخْلَقِ الشُّعْرَى لِيَالِي حُرْمَتِ ... إِذْ لَا عَزِيزَ مِنَ الْأَنْثَامِ يَرُومُهَا

(٣٥) - يتبع بعضها بعضا

(٣٦) - الأنابل: هي رؤوس الأصابع. انظر لسان العرب (١٤ / ٢٩٥).

سَأِئِلُ أَمِيرِ الْجَيْشِ عَنْهَا مَا رَأَى ... وَلَسَوْفَ يُنْبِئِي الْجَاهِلِينَ عَلَيْهَا

سِتُونِ أَلْفًا لَمْ يُؤُوبُوا أَرْضَهُمْ ... بَلْ لَمْ يَعِشْ بَعْدَ الْإِيَابِ سَقِيمُهَا

دَانَتْ بِهَا عَادٌ وَجُرْهُمُ قَبْلَهُمْ ... وَاللَّهُ مِنْ فَوْقِ الْعِبَادِ يُقِيمُهَا

وَقَدْ وَقَعَ هَذَا الْحَادِثُ فِي شَهْرِ الْمُحَرَّمِ قَبْلَ مَوْلِدِ النَّبِيِّ بِخَمْسِينَ أَوْ بِخَمْسٍ وَخَمْسِينَ يَوْمًا، وَكَانَ ذَلِكَ آيَةً مِنَ اللَّهِ، وَمُقَدِّمَةً لِيَعْنَتِهِ نَبِيٌّ يُبْعَثُ فِي مَكَّةَ وَيُطَهِّرُ الْكَعْبَةَ مِنَ الْأَوْثَانِ، وَيُعِيدُ إِلَيْهَا مَا كَانَ لَهَا مِنْ رِفْعَةٍ وَشَأْنٍ، وَتَكُونَ لِدِينِهِ صَلَةٌ عَمِيقَةٌ دَائِمَةٌ بِهِذَا الْبَيْتِ.

وَاسْتَعْظَمَ الْعَرَبُ هَذَا الْحَادِثَ فَأَرَحُّوا بِهِ، وَقَالُوا: وَقَعَ هَذَا فِي عَامِ الْفَيْلِ، وَوُلِدَ فَلَانٌ فِي عَامِ الْفَيْلِ، وَوَقَعَ هَذَا بَعْدَ عَامِ الْفَيْلِ بِكَذَا مِنَ السَّنِينَ

الدرس السادس

فوائد من حادثة الفييل

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ... أظهر الحق بالحق وأخزى الأحزاب ... وأتم نوره ...
وجعل كيد الكافرين في تباب ... أرسل الرياح بشرى بين يدي رحمته وأجرى بفضلته السحاب ...
وأنزل من السماء ماء ... فمنه شجر ... ومنه شراب ... جعل الليل والنهار خلفه فتذكر أولوا الألباب
... نحمده تبارك وتعالى على المسببات والأسباب ... و نعوذ بنور وجهه الكريم من المؤاخذة والعتاب
... ونسأله السلامة من العذاب وسوء الحساب ...

وأشهد أن لا إله إلا الله العزيز الوهاب ... الملك فوق كل الملوك ورب الأرباب ... الحكم العدل يوم
يكشف عن ساق وتوضع الأنساب ... غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ... خلق الناس من آدم
وخلق آدم من تراب ... خلق الموت والحياة ليبلونا وإليه المآب ... فمن عمل صالحا فلنفسه والله عنده
حسن الثواب ... و من أساء فعليها وما متاع الدنيا إلا سراب ...

وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله المستغفر التواب ... المعصوم صلى الله عليه وسلم في الشيبة
والشباب ... خلقه الكتاب ورأيه الصواب وقوله فصل الخطاب ... قدوة الأمم وقمة الهمم ودرة المقربين
والأحباب ... عرضت عليه الدنيا بكنوزها فكان بلاغه منها كزاد الركاب ... ركب البعير ونام على
الحصير وخصف نعله ورتق الثياب ... أضاء الدنيا بسنته وأنقذ الأمة بشفاعته وملا للمؤمنين براحته
من حوضه الأكواب ... اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى الآل والأصحاب ... ما هبت الرياح بالبشرى
وجرى بالخير السحاب ... وكلما نبت من الأرض زرع أو أينع ثمر وطاب ...

إخوة الإسلام في هذه القصة من الدروس والعبر التي ينبغي علينا أن نستلهما و أن نعتبر بهما فيها

١- أن القوة لله جميعا وأن قوى البشر مهما عظمت وبلغت تتضاءل أمام قوة الله وأن البشر مهما

تجبروا ومهما أوتوا من قوة مهم ضعاف أمام سلطان وقوته فأبرهه أرعد وأزبد ليهدمن الكعبة ولم تقف
أمام مقصده القبائل العربية حتى من قاتله انتصر عليهم بل حتى قريش تخلت فانتهت الحماية
البشرية ولم تبق إلا حماية الله وعندها جاءت جنود الله من السماء تحمل العذاب الأليم لأولئك

المستكبرين وكانت النهاية بهلاكهم وإبادة خضرائهم قال تعالى **﴿لَأَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ**

* أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ
كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ {الفيل (١-٥)}

٢- أن قصة أصحاب الفيل كانت معجزة من معجزاته صلى الله عليه وسلم وكانت إرهاباً ومقدمة له وتوكيداً لأمره وتمهيداً لشأنه يقول الماوردي في كتابه أعلام النبلاء ص ١٨٥ (لما دنا مولده الله صلى الله عليه وسلم تقاطرت آيات نبوته وظهرت آيات بركته فكان أعظمها شأناً وأشهرها عياناً وبيانا أصحاب الفيل... إلى أن قال وآية الرسول في قصة الفيل أنه كان في زمانها حملاً في بطن أمه بمكة ولأنه ولد بعد خمسين يوماً من الفيل... فكانت آتيه في ذلك من وجهين :

أحدهما: أنهم لو ظفروا لسبوا واسترقوا فأهلكهم الله تعالى لصيانة رسوله أن يجري عليه السبي حملاً وليداً.

والثاني: أنه لم يكن لقريش من التأله ما يستحقون به دفع أصحاب الفيل عنهم^٢ وما هم أهل كتاب لأنهم كانوا بين عابد صنم أو متدين وثن أو قائل بالزندقة أو مانع من الرجعة لكن ما أراد الله تعالى من ظهور الإسلام تأسيساً للنبوّة وتعظيماً للكعبة وأن يجعلها قبلة للصلاة ومنسكاً للحج).

قال شيخ الإسلام في كتابه الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ص ٢٢ (وكان جيران البيت مشركين يعبدون الأوثان ودين النصارى خير منهم فعلم بذلك أن هذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذ بل كانت لأجل البيت أو لأجل النبي صلى الله عليه وسلم الذي ولد في ذلك العام عند البيت أو لمجموعها وأي ذلك كان فهو من دلائل نبوته).

٣- **أنّ المظلوم إذا دعا ربّه فإنّه ينصره، ولو كان كافراً،** فما بال أيدي الكفار اليوم تصل إلى المظلومين من المسلمين؟ أهانوا على الله أكثر من هوان المشركين؟ أم أنّهم تكبروا عن دعاء الله تعالى، والتضرّع إليه، والافتقار بين يديه؟

٤ - **حادثة الفيل جاءت لتبرز وتعلي مكانة قريش بين سائر القبائل العربية** فهي القبيلة التي حُميت وإن لم تكن هي المقصودة وإنما جاءت تبعاً وأرضها هي الأرض التي حُرست وسائر القبائل انتصر عليها أبرهة واستباح أرضها عندما كان سائراً إلى مكة تقوده الغيرة والحسد النصراني.

قال ابن هشام في السيرة: «فلما رد الله ملك الحبشة عن مكة وأصابهم ما أصابهم من النعمة أعظمت العرب قريشاً وقالوا: هم أهل الله قاتل الله عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم».

قال الله تعالى [أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَفَتِ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبَالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ] {العنكبوت: ٢٧}.

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيرها: «هذا تذكير خاص لأهل مكة وإنما خصوا من بين المشركين من العرب لأن أهل مكة قدوة لجميع القبائل ألا ترى أن أكثر القبائل العربية ينتظرون ماذا يكون من أهل مكة؟ فلما أسلم أهل مكة يوم الفتح أقبلت الوفود من القبائل معلنة إسلامهم».

٥ - التوكل و الاعتماد على الله بعد نفاذ الأسباب : موقف عبد المطلب وهو مشرك يوحى للمسلم بوجود الاعتماد على الله سبحانه وتعالى والتوكل عليه والثقة بنصره فإذا كان هذا كلام عبد المطلب يقولها وهو واثق أن لهذا البيت رباً سيتولى حمايته فماذا يقال للمسلم الذي يغفل عن نصر الله لدينه ونيبه وعباده الصالحين.

٦ - بيان عظمة و شرف البيت الحرام :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأما الكعبة فإن الله شرفها وعظمها وجعلها محرمة فلم يمكن الله أحداً من إهانتها لا قبل الإسلام ولا بعده بل لما قصدوا أهل الفيل عاقبهم الله بالعقوبة المشهورة». روي أن ابن عمر رضي الله عنهما نظر يوماً إلى الكعبة فقال: «ما أعظمك وأعظم حرمتك والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك» رواه الترمذي وقال الألباني: حسن صحيح.

٧-التضحية في سبيل المقدسات:

قام ملك من ملوك حِمير في وجه جيش إبرهة ووقع الملك أسيراً، وقام النفييل بن حبيب الخثعمي ومن اجتمع معه من قبائل اليمن فقاتلوا إبرهة إلا أنهم انهزموا أمام الجيش العرمم وبذلوا دماءهم دفاعاً عن مقدساتهم.

إن الدفاع عن المقدسات والتضحية في سبيلها شيء غريزي في فطرة الإنسان.

٨ -خونة الأمة مخذولون:

فهؤلاء العملاء الذين تعاونوا مع إبرهة وصاروا عيوناً له وجواسيس وأرشدوه الى بيت الله العتيق ليهدمه ، لعنوا في الدنيا والآخرة ، لعنهم الناس ولعنهم الله سبحانه وتعالى وأصبح قبر أبي رغال رمزاً للخيانة والعمالة وصار ذاك الرجل مبعوضاً في قلوب الناس وكلما مر أحد على قبره رجمه.

٩- قصة أصحاب الفيل قصة واحدة من قصص الظالمين المهلكين فالظلم عاقبته وخيمة قال تعالى {

وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ { وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَئِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ * لَّا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ { فَكَايِنٌ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مُعْتَلَّةً وَقَصِرَ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}.

الدرس السابع

نسب النبي ومولده صلى الله عليه وسلم

الحمد لله الذي زين قلوب أوليائه بأنوار الوفاق، وسقى أسرار أحبائه شراباً لذيذ المذاق، وألزم قلوب الخائفين الوجع والإشفاق، فلا يعلم الإنسان في أي الدواوين كتب ولا في أي الفرقين يساق، فأن سامح فبفضله، وان عاقب فبعدله، ولا اعتراض على الملك الخلاق.

وأشهد إن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير شهادة أعدها من أكبر نعمه وعطائه، وأعدّها وسيلة إلي يوم لقاءه

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفیه من خلقه وحبیبه

البشير النذير السراج المنير الذي عم نوره الأفاق، والنور الذي لا يعترض ضيائه كسوف ولا محاق، الحبيب القرب الذي أسري به على البراق، إلي إن جاوز السبع الطباق.

يا سيدي يا رسول الله

يا أجمل ما رأت قط عين ... ويا أكمل ما ولدت النساء

خلقت مبرأ من كل عيب ... كأنك خلقت كما تشاء

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين ونحن معهم يا أرحم الراحمين

إخوة الإسلام نقف في هذا اللقاء مع النبي الهمام صلى الله عليه وسلم لتتعرف على نسبه الشرف ومكانته صلى الله عليه وسلم

أولاً: نسب النبي صلى الله عليه وسلم:

قال القاضي عياض: "لا خلاف أنه أكرم البشر، وسيد ولد آدم، وأفضل الناس منزلة عند الله تعالى، وأعلاهم درجة وأقربهم زلفى" (٣٧) .

(٣٧) - الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/١٠٩) ط: ١، مكتبة الصفا.

وقال الشيخ عبد الله البسنوي: "وخلق جسمه الطيب الطاهر من أظهر الأعراق البشرية، وأطيب الأنساب الاصفائية الإنسانية، وأنفس جواهر النطف الناشئة بين الأمهات والآباء من خيار القرون، وكرام القبائل والأحياء" (٣٨)

وقد أشار إلى ذلك الإمام البوصيري في قصيدته المشهورتين:

قال في البردة:

أبان مولده عن طيب عنصره *** يا طيب مفتتح منه ومختتم

وقال في الهمزية:

لم تزل في ضمائر الكون تختا *** ر لك الأمهات والآباء

وهذا ما يجعل العاقل يتأمل في هذا الأصل الذي خرج منه أفضل الخلق، ليعرف الطريق الذي يخرج منه العظماء، والأرض المباركة التي تثمر هذه الثمار الطيبة.

ومما لا شك فيه أن نسبه صلى الله عليه وسلم كان محفوظاً عند العرب، شهد بشرفه وطهارته العدو قبل الصديق؛ فقد روى الإمام البخاري في صحيحه: ((أن أبا سفيان حين سأله هرقل ملك الروم: كيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب)) (٣٩)

وقد ذكر الإمام البخاري رحمه الله نسب النبي صلى الله عليه وسلم إلى عدنان، فقال: "هو أبو القاسم، محمّد بن عبد الله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس، بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان" (٤٠)

(٣٨) - مطالع النور السني، المنبئ عن طهارة نسب النبي العربي، ص: ١٠

(٣٩) - كتاب بدء الوحي، باب سؤال هرقل عن الوحي

(٤٠) - كتاب مناقب الأنصار: باب مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، ط: الرسالة العالمية (٣٠٧/١١).

قال الإمام ابن القيم في زاد المعاد بعد أن ذكر نسبه عليه الصلاة والسلام إلى عدنان: "إلى هنا معلوم الصحّة، متفقٌ عليه بين النَّسَّابِين، ولا خلاف فيه ألبتة، وما فوق عدنان مختلفٌ فيه، ولا خلاف بينهم أنّ عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام" (٤١)

والأدلة التي وردت في طهارة نسبه صلى الله منها ما هو صريح الدلالة، ومنها ما هو متضمن لذلك.

أولاً: الأدلة الصريحة في طهارة نسب النبي صلى الله عليه وسلم:

روى البيهقي في سننه عن ابن عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا وَلَدَنِي مِنْ سَفَاحِ الْجَاهِلِيَّةِ شَيْءٍ وَمَا وَلَدَنِي إِلَّا نِكَاحَ كِنَاكِحِ الْإِسْلَامِ. (٤٢)

وروى الإمام الطبراني في الأوسط وغيره عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي، لم يصبني من نكاح أهل الجاهلية شيء)). (٤٣)

ويرحم الله تعالى القائل:

حفظ الإله كرامة لمحمد ... آباءه الأمجاد صوناً لاسمه

تركوا السفاح فلم يصبهم عاره ... من آدم وإلى أبيه وأمه

ويرحم الله تعالى القائل:

من عهد آدم لم يزل تحمي له ... في نسلها الأصلاب والأرحام

حتى تنقل في نكاح طاهر ... ما ضم مجتمعين فيه حرام

فبدا كبدر التّم ليلة وضعه ... ما شان مطلعته المنير قتام

فانجابت الظّماء من أنواره ... والنّور لا يبقى عليه ظلام

(٤١) - زاد المعاد، ط: مؤسسة الرسالة، (١/ ٧٠، ٧١).

(٤٢) - أخرجه البيهقي في السنن ٧/ ١٩٠ وذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٢٩٤ وعزاه للطبراني. والحديث حسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٣٢٢٣)

(٤٣) - حسن: أخرجه العدني، وابن عدي، والطبراني في «الأوسط»، كما في «صحيح الجامع» (٣٢٢٥).

وروى أبو نعيم عن ابن عباس، مرفوعاً: ((لم يلتق أبواى قط على سفاح، لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة، مصفياً مهذباً، لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما)).

والأحاديث في هذا الباب كثيرة بلغت مبلغ التواتر المعنوي كما ذكر ذلك الإمام السيوطي في التكميل والمنة، والإمام الباجوري في حاشيته على جوهرة التوحيد.

وقد سهر الإمام هشام بن محمد المعروف بابن الكلبي على مواصلة البحث في نسبه عليه الصلاة والسلام، وتوصل إلى هذه الحقيقة بنفسه، فقال: "كتبت للنبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة أم، فما وجدت فيهن سفاحاً ولا شيئاً مما كان في أمر الجاهلية" (٤٤)

ثانياً: الأدلة المتضمنة لطهارة نسبه صلى الله عليه وسلم:

روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنَا حَتَّى كُنْتُ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ".^(٤٥)

وروى مسلم عن وثلة بن الأسقع، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ».^(٤٦)

وروى الإمام الترمذي في سننه عن العباس بن عبدالمطلب قال: ((قلت: يا رسول الله، إن قريشاً جلسوا يتذكرون أحسابهم بينهم، فجعلوا مثلك كمثلك نخله في كبوة من الأرض، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله خلق الخلق، فجعلني في خير فرقهم، ثم تخير القبائل فجعلني في خير القبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني في خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً)).^(٤٧)

(٤٤) - الشفا (١/ ٢٢)

(٤٥) - مسند أحمد ط الرسالة (١٥/ ٢٣٠) وأخرجه البخاري (٣٥٥٧)

(٤٦) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل: باب فضل نسب النبي - صلى الله عليه وسلم -، رقم: ٢٧٧٦، شرح السنة: ٣٦١٣، والترمذي في سننه، أبواب المناقب: باب ما جاء في فضل النبي - صلى الله عليه وسلم - رقم: ٣٦٠٦ وقال حسن صحيح، انظر الفتح الرباني: ١٧٩ / ٢٠، وانظر أحمد في المسند: ١٠٧ / ٤، والخطيب في تاريخ بغداد: ١٣ / ٦٤.

(٤٧) - أخرجه الترمذي بهذا اللفظ، في كتاب المناقب، باب ما جاء في فضل النبي صلى الله عليه وسلم، ح (٣١١٠)، سنن الترمذي ٩ / ٢٣٠، قال الترمذي: هذا حديث حسن. وأخرجه بنحوه من طريق آخر، ح (٣١١١)، المرجع السابق ٩ / ٢٣٩.

قال القاضي عياض في الشفا: ورُوِيَ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، قال: "نسبًا وصهرًا وحسبًا، ليس في آبائي من لدن آدم سفاح، كلنا نكاح".

وعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩]؛ قال: "من نبي إلى نبي، حتى أخرجك نبيًّا" (٤٨)

ويستخلص مما تقدم أن نقاء المجتمع من الرذيلة، وصفاءه من النذالة، وحفظه لأمانة الطهر والعفة يؤذن بصلاح أبنائه، وحفظهم لهويتهم وشرفهم وعزهم ودينهم، فكلما وجد الطهر في المجتمع ظهرت فضيلته، وكلما ضاع الطهر من المجتمع تشتت وقارب الدمار والخراب.

هذا وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

(٤٨) - الشفا/١/٢٢.

الدرس الثامن

زواج عبد الله بن عبد المطلب بآمنة بنت وهب مولد الهدى و النور صلى الله عليه وسلم

الحمد لله الحكيم الرؤوف الرحيم الذي لا تخيب لديه الآمال، يعلم ما أضر العبد من السر وما أخفى منه ما لم يخطر ببال، ويسمع همس الأصوات وحس دهن الخطوات في وعس الرمال، وير حركة الذر في جانب البر وما درج في البحر عند تلاطم الأمواج وتراكم الأهوال، أفلا يستحي العبد الحقير من مبارزة الملك الكبير بقبح الأفعال

واشهد إن لا اله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير
الكل تحت قهره ونظرة في جميع الأحوال، فتبارك من وفق من شاء لخدمته فشتان ما بين رجال
ورجال عبد الله: يا مسكين:

يا غافلا والجليل يحرسه ... من كل سوء يدب في الظلم

كيف تنام العيون عن ملك ... تأتيه منه فوائد النعم

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفیه من خلقه وحبیب
أنت الذي لما رفعة إلي السما

أنت الذي ناداك ربك مرحبا ... ولقد دعاك لقربه وحباك

ماذا يقول المادحون وما عسى ... أن تجمع الكتاب من معنك

صلى عليك الله يا علم الهدى ... ما اشتاق مشتاق إلى رؤياك

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين
ونحن معهم يا أرحم الراحمين

حديثنا في هذا اللقاء عن زواج عبدالله بن عبدالمطلب من آمنة بنت وهب ورؤيا آمنة أم النبي - صلى
الله عليه وسلم - :

كان عبد الله بن عبدالمطلب من أحب ولد أبيه إليه ، ولما نجا من الذبح وفداه عبدالمطلب بمائة من الإبل ، زوجه من أشرف نساء مكة نسباً ، وهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب . ولم يلبث أبوه أن توفي بعد أن حملت به آمنة ودفن بالمدينة عند أخواله بني (عدي بن النجار) فإنه كان قد ذهب بتجارة إلى الشام فأدرسته منيته بالمدينة وهو راجع ، وترك هذه النسمة المباركة ، وكان القدر يقول له : قد انتهت مهمتك في الحياة وهذا الجنين الطاهر يتولى الله عزوجل بحكمته ورحمته تربيته وتأديبه وإعداده لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور.

العناية به في عالم الغيب

١- أنه نبي قبل نفخ الروح في آدم عليه السلام

اعلم بارك الله تعالى فيك - أن الله تعالى كانت عنايته بنبيه - صلى الله عليه وسلم- في عالم الغيب قبل أن يوجد وذلك لتهيئة العالم إلى رسالته -صلى الله عليه وسلم-

يا مصطفى من قبل نشأة آدم قد كنت نوراً زانه الإشراقُ

وفتحت ختم الفيض من كنز العما والكون لم تفتح له أغلاق

أيروم مخلوقُ ثناءك بعد ما كنت الثناء وشأنك الإطلاق

وظهرت من حمد الوجود بمظهرٍ أثنى على أخلاقك الخلاق

فقد نبي بالرسالة وآدم -عليه السلام- منجدل في طينته:

عَنْ عَرَبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَقُولُ : «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ، وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، وَأَبِي مُنْجِدِلٌ فِي طِينَتِهِ وَسَأْخِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبَشَارَةُ عِيسَى ، وَرُؤْيَا أُمِّي آمِنَةَ الَّتِي رَأَتْ» وَكَذَلِكَ أُمَّهَاتُ النَّبِيِّينَ يَرَيْنَ ، وَأَنَّ أُمَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَتْ حِينَ وَضَعَتْهُ لَهُ نُورًا أَضَاءَتْ لَهَا قُصُورُ الشَّامِ ، ثُمَّ

تَلَا {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا} [الأحزاب: ٤٦] (٤٩)

وقد رواه ابن شاهين في (دلائل النبوة) من حديث أبي هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : متى وجبت لك النبوة ؟

قال : (بين خلق آدم ونفخ الروح فيه) وفي رواية : (وأدم منجدل في طينته ^(٥٠)) ^(٥١)

٢- أخذ العهد والميثاق على الأنبياء أن يؤمنوا به وينصروه:

ومن عناية الله تعالى بنبيه صلى الله عليه وسلم أنه جل جلاله أخذ العهد و الميثاق على جميع الأنبياء أنه لو بعث محمد واحد منكم على قيد الحياة فواجب عليه أن يؤمن به و ينصره قال الله تعالى {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} [آل عمران: ٨١]

قال علي بن أبي طالب وابن عمه ابن عباس -رضي الله عنهما- ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمدا وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه. ^(٥٢)

يقول ابن كثير - رحمه الله- فالرسول محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين هو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر وجد لكان هو الواجب الطاعة المقدم على الأنبياء كلهم ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس : وكذلك هو الشفيق في المحشر في إتيان الرب جل جلاله لفصل القضاء بين عباده وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له والذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين حتى تنتهي النبوة إليه فيكون هو المخصوص به صلوات الله وسلامه عليه ^(٥٣)

^(٤٩) - المستدرک علی الصحیحین للحاکم (٤٥٣/٢) وقال «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرَجْ»

^(٥٠) - منجدل: أي ملقى على الجدالة وهي الأرض. النهاية (١/٧٠٧).

^(٥١) - أخرجه الحاكم (٦٦٥/٢ ، رقم ٤٢١٠) ، والخطيب (٧٠/٣) (صحيح سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٨ / ٥٦ ، المشكاة ٥٧٥٨)

^(٥٢) - تفسير ابن كثير- ط أولاد الشيخ (٣/١٠٠)

^(٥٣) - تفسير ابن كثير- ط أولاد الشيخ (٣/١٠١)

٣- أنه دعوة إبراهيم وبشارة عيسى عليه السلام :

فها هو خليل الرحمن وابنه إسماعيل - عليهم الصلاة والسلام- بعدما فرغا من بناء البيت يتوجه خليل الرحمن إلى الله تعالى بتك الدعوة التي يسأل الله فيها أن يرسل اليهم نبي فيقول {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [البقرة: ١٢٩]

وقال ابن كثير عند هذه الآية: والمراد بذلك محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وقد بعث فيهم كما قال تعالى {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ} [الجمعة: ٢] ومع هذا لا ينفي رسالته إلى الأحمر والأسود لقوله تعالى {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [الأعراف: ١٥٨].^(٥٤)

عن عرياض بن سارية رضي الله عنه، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «وسأخبركم عن ذلك أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي أمينة التي رأت» وكذلك أمهات النبيين يرين، وأن أم رسول الله صلى الله عليه وسلم رأت حين وضعته له نورا أضاءت لها قصور الشام، ثم تلا {يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا} [الأحزاب: ٤٦] «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»^(٥٥) (٦)

* وهو بشارة عيسى عليه السلام :

و من العناية الربانية بخير البرية أنه بشر به في التوراة و الإنجيل قال الله تعالى " الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " .
(الأعراف: ١٥٧)

بشارة التوراة به صلى الله عليه وسلم- :

(٥٤) - تفسير ابن كثير- ط أولاد الشيخ (٩٤ / ٢)

(٥٥) - المستدرک علی الصحیحین للحاکم (٤٥٣ / ٢) وقال «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرَجْهُ»

جاء في التوراة؛ في سفر التثنية الإصحاح (١٧- ١٨- ١٩) على لسان موسى: "قال لي الرب: قد أحسنوا فيما تكلموا، أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فيه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي، أنا أطالبه"^(٥٦) والنص يصف كما ترون تبشير الله -تعالى -لموسى - عليه السلام - بنبي سوف يبعثه من وسط إخوة بني إسرائيل، وأن هذا النبي سيكون مثل موسى، ويخبر النص أيضاً: أن الذي لا يتبع هذا النبي ولا يسمع لكلامه، فإن الله - تعالى - سوف يعاقبه.

إن البشارة تشترط شرطين: الأول أن ذلك النبي من وسط إخوة بني إسرائيل، والثاني أنه مثل موسى. والشرطان السابقان لا ينطبقان إلا على رسول الإسلام -صلى الله عليه وسلم -فهو من أبناء إسماعيل بن إبراهيم -عليهما السلام - وأبناء إسرائيل (يعقوب) هم أبناء إسحاق بن إبراهيم؛ لذلك فالنبي - صلى الله عليه وسلم - من وسط إخوة بني إسرائيل.

بشارات من الإنجيل:

فهو بشارة عيسى -عليه السلام -: أخبرنا الله -تعالى- أن عيسى -عليه السلام -بشّر برسولنا محمد -صلى الله عليه وسلم-: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

وفي إنجيل يوحنا (١٤- ١٥): "إن كنتم تحبونني، فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزياً آخر؛ ليمكث معكم إلى الأبد"^(٥٧).

وفي اللغات الأجنبية: "فيعطيكم باركلييتوس؛ ليمكث معكم إلى الأبد"، والمعنى الحرفي لكلمة (باركلييتوس) اليونانية هو أحمد، وهو من أسماء الرسول -صلى الله عليه وسلم- انظر: نبي أرض الجنوب؛ للعميد م. جمال الدين الشرقاوي، بحث حول كلمة (بارقليط)

من عهد آدم لم يزل تحمي له *** في نسلها الأصلاب والأرحام

^(٥٦) - التوراة؛ في سفر التثنية الإصحاح (١٧- ١٨- ١٩)

^(٥٧) - إنجيل يوحنا (١٤- ١٥):

حتى تنقل في نكاح طاهر* * ما ضم مجتمعين فيه حرام
فبدا كبدر التّم ليلة وضعه* * ما شان مطلعته المنير قتام
فانجابت الظّماء من أنواره* * والنّور لا يبقى عليه ظلام
شكرا لمهديه إلينا نعمة* * ليست تحيط بكنهها الأوهام

الدرس التاسع

ميلاد الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ومرضعاته

الحمد لله الذي أطلع للإسلام في شهر ربيع الأول سعده، ونظم فيه للهدى عقده، حيث أبرز للوجود نبيه وعبده، وأفض عليه من الكمالات مالا يمكن لحاسب أن يعده، وحلاه بالرسالة فبذل في أدائها

جهده، أضاء الوجود بالدعوة إلى الله وحده، أحمده أن جعل أمتنا [آخر الأمم] وخير أمة، وبعث فينا رسولا منا يتلو علينا آياته ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة، أحمده على نعمه الجمّة وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تكون لمن اعتصم بها خير عاصمة، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله للعالمين رحمة، [فدعا إلى كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة، فكشف الله به الغمّة، ومحا بنور سنته الظلمة] صلى الله عليه، صلاة تكون لنا [طريقا إلى الجنة]، وسلم تسليما كثيرا على آله وصحبه^{٥٠} أما بعد، فاتقوا الله عباد الله، وتمسكوا بسنة الحبيب - صلى الله عليه وسلم -، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار عباد الله! ولد - صلى الله عليه وسلم - يتيماً يوم الاثنين من شهر ربيع الأول

قال أعرابي: يا رسول الله، ما تقول في صوم يوم الاثنين؟ فقال - صلى الله عليه وسلم -: "ذاك يوم ولدت فيه، وأنزل عليّ فيه"^(٥٨).

وكان مولده عليه الصلاة والسلام عام الفيل وهو المجمع عليه.

عن قيس بن مخزومة قال: "ولدت أنا ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - عام الفيل"^(٥٩).

عباد الله! أما الآيات التي ظهرت ليلة مولده عليه الصلاة والسلام: عن حسان بن ثابت - رضي الله عنه - قال: والله، إني لغلام يفعه - أي: إذا شبّ ولم يبلغ -، ابن سبع سنين أو ثمان، أعقل كلّ ما سمعت، إذ سمعت يهودياً يصرخ بأعلى صوته على أطمه ب (يثرّب): يا معشر يهود! حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له: ويلك مالك؟ قال: طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به"^(٦٠).

ترقب بدقة من اليهود من قبل أن يولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد أن ولد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وبعد أن بعث - صلى الله عليه وسلم - واليهود يحسدون العرب على ما منّ الله تبارك وتعالى عليهم ببعثة هذا الرسول الكريم.

(٥٨) - رواه مسلم (رقم ١١٦٢).

(٥٩) - "صحيح السيرة النبوية" الألباني (ص ١٣).

(٦٠) - قال الشيخ الألباني في "صحيح السيرة النبوية" (ص ١٤): "إسناده حسن".

وعن أسامة بن زيد - رضي الله عنه - قال: قال زيد بن عمرو بن نفيل، قال لي حبر من أحبار الشام: "قد خرج في بلدك نبي، أو هو خارج، قد خرج نجمه، فأرجع فصدقه واتبعه"^(٦١).

عباد الله! ومن الآيات التي ظهرت عند ولادته - صلى الله عليه وسلم -، أن أمه رأت نوراً خرج منها أضواء لها قصور الشام، كما قال - صلى الله عليه وسلم -: "ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضواء له قصور الشام"^(٦٢).

قال ابن رجب - رحمه الله -: "وخرج هذا النور عند وضعه إشارة إلى ما يجيء به من النور الذي اهتدى به أهل الأرض وأزال به ظلمة الشرك منها، كما قال تعالى: **قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦)** {المائدة: ١٥ - ١٦}. وقال تعالى: **{فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)}** {الأعراف: ١٥٧} [٦٣]

وقال تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦)}** {الأحزاب: ٤٥ - ٤٦}.

وقال تعالى: **{يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩)}** {الصف: ٨ - ٩}.

عباد الله! وفي قوله - صلى الله عليه وسلم -: "أضواء له قصور الشام". قال ابن كثير - رحمه الله -: وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه وثبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله وبها ينزل عيسى ابن مريم ليكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويحكم في الناس بشريعة الإسلام، ولهذا جاء في "الصحيحين" عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

(٦١) - إسناده حسن قاله الشيخ الألباني - رحمه الله - في "صحيح السيرة النبوية" (ص ١٤).

(٦٢) - "السلسلة الصحيحة" (١٥٤٥)، "صحيح السيرة النبوية" الألباني (ص ١٦)، وقد مضى (ص ٣٦).

(٦٣) - "لطائف المعارف" (٨٩).

قال: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك" (٦٤).

والشام هي أرض فلسطين والأردن وسوريا ولبنان وجزء من العراق، وهذه أرض مباركة قد بارك الله فيها في كتابه الكريم في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول: قال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)} [الإسراء: ١].

الموضع الثاني: قال تعالى: {وَوَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١)} [الأنبياء: ٧١].

الموضع الثالث: قال تعالى: {وَلَسَلِيمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} [الأنبياء: ٨١].

قال ابن جرير الطبري: الأرض التي باركنا فيها، يعني الشام.

عباد الله! وجاءت الأحاديث النبوية الكثيرة تخبر عن فضائل الشام.

يقول - صلى الله عليه وسلم -: "طوبى لأهل الشام، طوبى لأهل الشام، طوبى لأهل الشام قالوا: يا رسول الله وبم ذلك؟ قال- صلى الله عليه وسلم -: "تلك ملائكة الله باسطوا أجنحتها على الشام" (٦٥).

وقال - صلى الله عليه وسلم -: سئجندون أجناداً، جند بالشام، وجند بالعراق وجند باليمن

فقام رجل فقال: خر لي يا رسول الله! فقال: "عليكم بالشام .. فإن الله -عز وجل- قد تكفل لي بالشام وأهله".

(٦٤) - صحيح البخاري" رقم (٣٦٤١): (وهم بالشام) من قول معاذ - رضي الله عنه -، وانظر "صحيح مسلم" (١٩٢٠)، "تفسير

ابن كثير" (١/١٨٤)..

(٦٥) - "فضائل الشام" للربيعي تحقيق الألباني (ص ١٢).

قال ربيعة: فسمعت أبا إدريس يحدث بهذا الحديث. يقول: "ومن تكفل الله به فلا ضيعه عليه" (٦٦)

وقال - صلى الله عليه وسلم - : "إني رأيت عمود الكتاب، انتزع من تحت وصادتي فنظرت فإذا هو نور ساطع عمَدَ به إلى الشام، ألا إن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام" (٦٧).

وقال - صلى الله عليه وسلم - : "إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة" (٦٨).

نسأل الله العظيم أن يجعلنا وإياكم من الطائفة المنصورة.

عباد الله! قد سمعتم عن الآيات التي أخبرنا الله فيها أنه قد بارك في بلاد الشام وقد سمعتم عن الأحاديث التي قد جاءت تتكلم عن فضل الشام، وهاهم اليهود يدنسون بلاد الشام فما من تبرج ولا شرك ولا فساد إلا كانت حاضنته - صلى الله عليه وسلم - أم أيمن بركة الحبشية أمة أبيه، وأول من أرضعته ثويبة أمة عمه أبي لهب (٦٩) فمن حديث زينب ابنة أبي سلمة أن أم حبيبة رضي الله عنها أخبرتها أنها قالت: (يا رسول الله، أنكح أختي بنت أبي سفيان، فقال: أو تحبين ذلك؟ فقالت: نعم، لست لك بمخلية، وأحب من شاركني في خير أختي). فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : (إن ذلك لا يحل لي). قلت: فإننا نتحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة. قال: بنت أم سلمة؟ قلت: نعم. فقال: لو أنها لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي، إنها لابنة أخي من الرضاعة، أرضعنتي وأبا سلمة ثويبة، فلا تعرضن علي بناتكن ولا أخواتكن) (٧٠).

وكان من شأن أم أيمن، أم أسامة بن زيد، أنها كانت وصيفة لعبدالله بن عبدالمطلب، وكانت من الحبشة، فلما ولدت آمنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، بعد ما توفي أبوه، فكانت أم أيمن

(٦٦) - فضائل الشام" للربيعي تحقيق الألباني (ص ١٣).

(٦٧) - فضائل الشام" للربيعي تحقيق الألباني (ص ١٤).

(٦٨) - فضائل الشام" للربيعي تحقيق الألباني (ص ١٩).

(٦٩) - وقفات تربوية مع السيرة النبوية، ص ٤٨.

(٧٠) - البخاري، كتاب النكاح، باب (وامهاتكم اللآئي أرضعنكم) رقم ٥١٠١.

تحضنه ، حتى كبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فأعتقها ، ثم أنكحها زيد بن حارثة ثم توفيت بعدما توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بخمسة أشهر^(٧١) .

^(٧١) - مسلم ، كتاب الجهاد ، باب رد المهاجرين الى الأنصار رقم ١٧٧١ .

الدرس العاشر

النبي صلى الله عليه وسلم وحليمة السعدية

الحمد لله أتمَّ النعمةَ على الأمة وأكمل لها دينها، وآتى الحكمةَ أهلها وتممَّ بمحمدٍ مكارمَ الأخلاق كلها. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً نستظلُّ بظلها ونحیی ونموتُ عليها ونلقى الله بها. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله،

دَعَا وَكُل نَوَاحِي الْأَرْضِ مُجْدِبَةً = مُغْبِرَةً فَإِذَا الْغَبْرَاءُ خَضْرَاءُ

أتى جموعَ الطغيانِ فقلها، وليوث الأوثانِ فأذلها، وعقدَ الشركِ فحلها، ودواعيَ الفرقةِ فشلها، وأحقادَ القلوبِ فسلها. بشرَ الأمةَ وأنذرها ودلها، وسقاها بوابلِ أخلاقِ القرآنِ وعلها، وحدَّأها لعلها تعصُّ عليها ولعلها، فإن حادتْ فواهاً لها ومن لها. صلواتُ الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه صلاةً دائمةً إلى يومٍ تَضَعُ كُلُّ ذَاتٍ حَمَلٍ حَمَلَهَا.

جزاه الله عنا كلَّ خيرٍ ولاقتُهُ المسرَّةُ والسَّلامُ

وأسكننا بصحبته جناناً تحيةً أهلها فيها السَّلامُ

”يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقَّ تقاياته ولا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون“

١ - حليمة السعدية مرضعته في بني سعد:

وهذه حليمة السعدية تقص علينا خبراً فريداً، عن بركات الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - التي مستها في نفسها وولدها، ورعيها وبناتها.

عن عبدالله بن جعفر رضي الله عنهما: قال: (لما ولد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قدمت حليمة بنت الحارث، في نسوة من بني سعد بن بكر يلتمسون الرضعاء بمكة قالت حليمة: فخرجت في أوائل النسوة على أتان لي، قمراء^(٧٢)، ومعني زوجي الحارث بن

(٧٢) - قمراء: القمرة لون البياض الى الحمرة.

عبد العزى، أحد بني سعد بن بكر، ثم أحد بني ناضرة، قد أدمت^(٧٣) أتاننا، ومعى بالركب شارف^(٧٤) والله ماتبض^(٧٥) بقطرة لبن، في سنة شهباء^(٧٦) قد جاع الناس حتى خلص إليهم الجهد، ومعى ابن لي، والله ما ينام ليلنا، وما أحد في يدي شيئاً أعلله به، إلا أنا نرجو الغيث وكانت لنا غنم، فنحن نرجوها.

فلما قدمنا مكة فما بقي منا أحد إلا عرض عليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكرهته، فقلنا: إنه يتيم، وإنما يكرم الظئر، ويحسن إليها الوالد، فقلنا: ما عسى أن تضع بنا أمه أو عمه أو جده، فكلُّ صواحبى أخذ رضيعاً، فلما لم أجد غيره، رجعت إليه، وأخذته، والله مأخذته إلا إنى لم أجد غيره، فقلت لصاحبي: والله لأخذنَّ هذا اليتيم من بني عبدالمطلب، فعسى الله أن ينفعنا به، ولا أرجع من بين صواحبى ولا آخذ شيئاً، فقال: قد أصبت.

قالت: فأخذته، فأتيت به الرَّحْلَ، فوالله ما هو إلا أن أتيت به الرَّحْلَ، فأمسيت أقبل ثدياي باللبن، حتى أرويته، وأرويت أخاه، قام أبوه الى شارفنا تلك يلمسها، فإذا هي حافل^(٧٧)، فحلبها، فأرواني وروي، فقال: يا حليلة، تعلمين والله لقد أصبنا نسمة مباركة^(٧٨)، ولقد أعطى الله عليها مالم نتمنَّ، قالت: فبتنا بخير ليلة، شباعاً، وكنا لا ننام ليلنا مع صبينا.

ثم اغتدينا راجعين الى بلادنا أنا وصواحبى، فركبت أتانى القمرء فحملته معى، فوالذي نفسي حليلة بيده لقطعتُ الركب^(٧٩) حتى إن النسوة ليقلن: أمسكي علينا، أهذه أتانك التي خرجت عليها؟ فقلت: نعم، فقالوا: إنها كانت أدمت حين أقبلنا فما شأنها؟ قالت، فقلت: والله حملت عليه غلاماً مباركاً.

(٧٣) - وأدمت: حدثت في ركبتها جروح دامية لاصطكاكها.

(٧٤) - الشارف: الناقة المسنة.

(٧٥) - تبض: لا ترشح قطرة لبن.

(٧٦) - شهباء: سنة مجدبة لا خضرة فيها ولا مطر.

(٧٧) - حافل: كثير اللبن.

(٧٨) - نسمة: نفس.

(٧٩) - قطعت الركب: سبقت الركب.

قالت: فخرجنا، فما زال يزيدنا الله في كل يوم خيراً، حتى قدمنا والبلاد سنة، ولقد كان رعانا يسرحون ثم يريحون، فتروح أغنام بني سعد جياً، وتروح غنمي بطاناً^(٨٠)، حفلاً^(٨١)، فنحلب، ونشرب، فيقولون أما شأن غنم الحارث بن عبد العزى، وغنم حليلة تروح شباعاً حفلاً، وتروح غنمكم جياً. ويلكم اسرحوا حيث تسرح غنم رعاؤهم، فيسرحون معهم، فما تروح إلا جياً كما كانت، وترجع غنمي كما كانت.

قالت: وكان يشب شباباً ما يشبه أحد من الغلمان، يشب في اليوم شباب السنة، فلما استكمل سنتين أقدمناه مكة، أنا وأبوه، فقلنا: والله لا نفارقه أبداً ونحن نستطيع، فلما أتينا أمه، قلنا: أي ظئر! والله ما رأينا صبياً قط أعظم بركة منه، وإنا نتخوف عليه وباء^(٨٢) مكة وأسقامها، فدعيه نرجع به حتى تبرئني من دائك، فلم نزل بها حتى أذنت، فرجعنا به، فأقمنا شهراً ثلاثة أو أربعة فبينما هو يلعب خلف البيوت هو وأخوه في بهم له^(٨٣)، إذ أتى أخوه يشتد، وأنا وأبوه في البدن، فقال: إن أخي القرشي، أتاه رجلان عليهما ثياب بيض، فأخذاه واضطجعا، فشققا بطنه، فخرجت أنا وأبوه يشتد، فوجدناه قائماً، قد انتقع لونه^(٨٤)، فلما رأنا أجهش إلينا، وبكى، قالت: فالتزمته أنا وأبوه، فضممناه إلينا: مالك بأبي وأمي؟ فقال: أتاني رجلان وأضجعاني، فشققا بطني، ووضعوا به شيئاً، ثم رداه كما هو، فقال أبوه: والله ما أرى ابني إلا وقد أصيب، إلحقي بأهله، فرديه إليهم قبل أن يظهر له ما نتخوف منه. قالت: فاحتملناه فقدمنا به على أمه، فلما رأتنا أنكرت شأننا، وقالت: ما رجعكما به قبل أن أسألكما، وقد كنتما حريصين على حبسه؟ فقلنا: لا شيء إلا أن قضى الله الرضاة وسرنا ما نرى، وقلنا: نؤويه كما تحبون أحب إلينا، قال: فقالت: إن لكما شأننا فأخبراني ما هو، فلم تدعنا حتى أخبرناها، فقال: كلا والله، لا يصنع الله ذلك به، إن لابني شأننا، أفلا أخبركما خبره، إنني حملت به، فوالله ما حملت حملاً قط، كان أخف عليّ منه، ولا أيسر منه، ثم أريت حين حملته خرج مني نور أضاء منه أعناق الأبل ببصرى - أو قالت: قصور بصرى - ثم وضعته حين وضعته، فوالله ما

(٨٠) - بطاناً: المتلثة البطون.

(٨١) - حفلاً: كثيرات اللبن.

(٨٢) - الوباء: المرض.

(٨٣) - بهم: صغار الضأن والماعز.

(٨٤) - امتقع لونه: تغير.

وقع كما يقع الصبيان ، لقد وقع معتمداً بيديه على الأرض رافعاً رأسه الى السماء فدعاه عنكما فقبضه ، وانطلقنا) ^(٨٥) .

دروس وعبر

أ- بركة النبي - صلى الله عليه وسلم - على السيدة حليلة! فقد ظهرت هذه البركة على حليلة السعدية في كل شيء، ظهرت في إدرار ثديها وغزارة حليبها، وقد كان لا يكفي ولدها، وظهرت بركته في سكون الطفل ولدها، وقد كان كثير البكاء مزعجاً لأمه يؤرقها ويمنعها من النوم، وإذا هو شبهان ساكن جعل أمه تنام وتستريح، وظهرت بركته في شياهم العجفاوات التي لاتدر شيئاً وإذا بها تفيض من اللبن الكثير الذي لم يعهد.

ب- كانت هذه البركات من أبرز مظاهر إكرام الله له ، وليس أن أكرم بسببه بيت

حليلة السعدية التي تشرفت بإرضاعه. وليس من ذلك غرابة ولا عجب ^(٨٦) ، فخلف ذلك حكمة أن يُحب أهل هذا البيت هذا الطفل ويحنوا عليه ويحسنوا في معاملته ورعايته وحضانتها ، وهكذا كان فقد كانوا أحرص عليه وأرحم به من أولادهم ^(٨٧) .

ج- خيار الله للعبد أبرك وأفضل:

اختار الله لحليمة هذا الطفل اليتيم وأخذته على مضض لأنه لم تجد غيره، فكان الخير كل الخير فيما اختاره الله، وبانت نتائج هذا الاختيار مع بداية أخذه وهذا درس لكل مسلم بأن يطمئن قلبه الى قدر الله واختياره والرضا به ولا يندم على ماضى ومالم يقدره الله تعالى.

د- أثر البادية في صحة الأبدان وصفا النفوس، وذكاء العقول:

^(٨٥) - أبو يعلى في مجمع الزوائد (٨ / ٢٢١)، السيرة النبوية بشرح الخشني: (١ / ٢١٤) من طريق ابن اسحاق وقد صرح ابن اسحاق بالسماع في رواية السيرة، قال الذهبي في السيرة النبوية، ص ٨: هذا حديث جيد الاسناد وله شواهد تقويها ولذلك فالحديث حسن لشواهد.

^(٨٦) - فقه السيرة النبوية للبوطي، ص ٤٤.

^(٨٧) - السيرة النبوية لأبي فارس، ص ١٠٥.

قال الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله-: وتنشئة الأولاد في البادية، ليمرحوا في كنف الطبيعة، ويستمتعوا بجوها الطلق وشعاعها المرسل، أدنى الى تزكية الفطرة، وإنماء الأعضاء والمشاعر، وإطلاق الأفكار والعواطف.

إنها لتعاسة أن يعيش أولادنا في شقق ضيقة من بيوت متلاصقة كأنها علب أغلقت على من فيها، وحرمتهم لذة التنفس العميق والهواء المنعش.

ولاشك أن اضطراب الأعصاب الذي قارن الحضارة الحديثة يعود

-فيما يعود- الى البعد عن الطبيعة، والإغراق في التصنع. ونحن نقدر لأهل مكة اتجاههم الى البادية لتكون عرصاتها الفساح مدارج طفولتهم. وكثير من علماء التربية يود لو تكون الطبيعة هي المعهد الأول للطفل حتى تتسق مداركه مع حقائق الكون الذي وجد فيه ويبد أن هذا حلم عسر التحقيق^(٨٨).

وتعلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في بادية بني سعد اللسان العربي الفصيح وأصبح فيما بعد من أفصح الخلق، فعندما قال له ابوبكر - رضي الله عنه - يا رسول الله ما رأيت أفصح منك. فقال - صلى الله عليه وسلم -: (وما يمنعني وأنا من قريش وأرضعت من بني سعد)^(٨٩).

(٨٨) - فقه السيرة، ص ٦١، ٦٠.

(٨٩) - الروض الأنف للسهيلى (١/ ١٨٨).

الدرس الحادي عشر

حادثة شق الصدر ووفاة أمه وجدّه

الحمد لله الذي لا يسأل عما يفعل، فلا تياس من رحمته ولا تعجل، فسبحانه من أقبل بجلده وبره على من رجع إليه وأقبل، ورأى زلة المسيء وجنح الظلام مسبل، فعامله برأفته وتجاوز عنه برحمته وأمهّل، وجعل للقبول والفضل أوقاتا ليتدارك المقصر ما ضيّع وأهمّل. واشهد إن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير شهادة عبد خضع لهيبه وتذلل وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفیه من خلقه وحبیب یا سیدی یا رسول الله:

جاءت قديما ذرة من نوركم ... قد جمل الرحمن منها يوسف

والله لو جد العباقر كلهم ... في وصف أفضال له لن تعرف

والله لو قلم الزمان من البداية ... لنهاية ظل يكتب ما اكتفى

والله لو قبر النبي تفجرت ... أنواره للبدر ولّى واختمى

تكفيه لقيا في السماوات العلى ... وبحضرة الرب الجليل تشرف

يكفيه أن البدر يخسف نوره ... لكن نور محمد لم يخسفا

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين ونحن معهم يا أرحم الراحمين

إخوة الإسلام حياكم و الله و بياكم نقف اليوم مع اغرب حادثة حدثت للنبي صلى الله عليه وسلم وهو في بني سعد إنها حادثة شق صدره الشريف تعد حادثة شق الصدر التي حصلت له عليه الصلاة والسلام أثناء وجوده في مضارب بني سعد من إرهاصات النبوة ودلائل اختيار الله إياه لأمر جليل^(٩٠).

(٩٠) - فقه السيرة للبوطي، ص ٤٧

عن أنس بن مالك رضي الله عنه : (أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتاه جبريل صلى الله عليه وسلم وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج منه علقة فقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده في مكانه ، و جاء الغلمان يسعون إلي أمه — يعني ظئره — فقالوا : إن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه و هو منتقع اللون ، قال أنس : وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره) رواه مسلم .

عن عرياض بن سارية رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى عليهما السلام ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام واسترضعت في بني سعد بن بكر فبينما أنا في بهم لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض معهما طست من ذهب مملوء ثلجاً فأضجعاني فشقا بطني ثم استخرجا قلبي فشقا فخرجاه منه علقة سوداء فألقياها ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى انقياها رداه كما كان ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه بعشرة من أمته . فوزني بعشرة فوزنتهم ثم قال : زنه بمائة من أمته . فوزني بمائة فوزنتهم ثم قال : زنه بألف من أمته فوزني بألف فوزنتهم فقال : دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنتهم) صحيح^(٩١) .

ثانياً: شق صدره صلى الله عليه وسلم وهو في السنة العاشرة من عمره الشريف :

عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ؛ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ جَرِيئًا عَلَى أَنْ يَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَشْيَاءَ لَا يَسْأَلُ عَنْهَا غَيْرُهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَوَّلُ مَا رَأَيْتَ مِنْ أَمْرِ النَّبُوءَةِ؟ فَاسْتَوَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا، وَقَالَ: لَقَدْ سَأَلْتَ أَبَا هُرَيْرَةَ، إِنِّي لَفِي صَحْرَاءِ ابْنِ عَشْرِ سِنِينَ وَأَشْهُرٍ، وَإِذَا يَكَلِّمُ فَوْقَ رَأْسِي، وَإِذَا رَجُلٌ يَقُولُ لِرَجُلٍ: أَهْوَهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَاسْتَقْبَلَانِي بِوُجُوهِ لَمْ أَرَهَا لِخَلْقِ قَطُّ، وَأَرْوَاحٍ لَمْ أَجِدْهَا مِنْ خَلْقِ قَطُّ، وَثِيَابٍ لَمْ أَرَهَا عَلَى أَحَدٍ قَطُّ، فَأَقْبَلَا إِلَيَّ يَمْشِيَانِ، حَتَّى أَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بَعْضِي، لَا أَجِدُ لَأَحْذِهِمَا مَسًّا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَضِجْهُ، فَأَضْجَعَانِي بِلَا قَصْرِ وَلَا هَضْرٍ، وَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: افْلِقْ صَدْرَهُ، فَهَوَى أَحَدُهُمَا إِلَيَّ صَدْرِي، فَفَلَقَهَا فِيمَا أَرَى، بِلَا دَمٍ وَلَا وَجَعٍ، فَقَالَ لَهُ: أَخْرِجِ الْغِلَّ وَالْحَسَدَ، فَأَخْرَجَ شَيْئًا كَهَيْئَةِ الْعَلَقَةِ، ثُمَّ نَبَذَهَا فَطَرَحَهَا، فَقَالَ لَهُ: ادْخُلِ الرَّأْفَةَ

وَالرَّحْمَةَ، فَإِذَا مِثْلُ الَّذِي أَخْرَجَ أَشْبَهَ الْفِضَّةَ، ثُمَّ هَزَّ إِبْهَامَ رِجْلِي الْيُمْنَى، فَقَالَ: اغْدُ وَأَسْلَمْ، فَرَجَعْتُ بِهَا أَغْدُو بِهِ رِقَّةً عَلَى الصَّغِيرِ، وَرَحْمَةً لِلْكَبِيرِ. (٩٢).

الحكمة من شق صدر النبي صلى الله عليه وسلم

ولا شك أن التطهير من حظ الشيطان هو إرهاب مبكر للنبوة، وإعداد للعصمة من الشر وعبادة غير الله، فلا يحل في قلبه إلا التوحيد الخالص، وقد دلت أحداث صباه على تحقق ذلك فلم يرتكب إثماً ولم يسجد لصنم رغم انتشار ذلك في قريش.

وتحدث الدكتور البوطي عن الحكمة في ذلك فقال: : وليست الحكمة من حادثة شق الصدر -والله أعلم- استئصال غدة الشر في جسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ لو كان الشر مَبْعُهُ غُدَّةً في الجسم أو عَلَقَةً في بعض أُنْحَائِهِ لَأَمَكْنَ أَنْ يَصْبِحَ الشَّرِيرُ خَيْرًا بَعْمَلِيَّةٍ جِرَاحِيَّةٍ. ولكن يَبْدُو أَنَّ الْحِكْمَةَ هِيَ إِعْلَانُ أَمْرِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَهْيِئَتُهُ لِلْعِصْمَةِ وَالْوَحْيِ مُنْذُ صَغَرَهُ بِوَسَائِلِ مَادِيَّةٍ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَقْرَبَ إِلَى إِيْمَانِ النَّاسِ بِهِ، وَتَصْدِيقِهِمْ بِرِسَالَتِهِ. إِنَّهَا إِذْ عَمَلِيَّةٌ تَطْهِيرٌ مَعْنَوِيٌّ، وَلَكِنِهَا اتَّخَذَتْ هَذَا الشَّكْلَ الْمَادِيَّ الْحِسِّيَّ، لِيَكُونَ فِي ذَلِكَ الْإِعْلَانُ الْإِلَهِيُّ بَيْنَ أَسْمَاعِ النَّاسِ وَأَبْصَارِهِمْ. (٩٣).

قال الشيخ الغزالي: وشيء واحد هو الذي نستطيع استنتاجه من هذه الآثار، أن بشراً ممتازاً كمحمد لا تدعه العناية غرضاً للوساوس الصغيرة التي تناوش غيره من سائر الناس، فإذا كانت للشر (موجات) تملأ الآفاق، وكانت هناك قلوب تسرع إلى التقاطها والتأثر بها فقلوب النبيين - بتولي الله لها - لا تستقبل هذه التيارات الخبيثة ولا تهتز لها، وبذلك يكون جهد المرسلين في (متابعة الترقى) لا في (مقاومة التدلي) وفي تطهير العامة من المنكر لا في التطهر منه، فقد عافاهم الله من لوثاته.

قال القسطلاني في المواهب: وهذا الشق روي أنه وقع له - عليه الصلاة والسلام - مرات في حال طفولته إرهاباً، وتقدم المعجزة على زمان البعثة جازئ للإرهاب.

أقول: لقد ذكر العلماء أن هناك قلباً حسيّاً للإنسان يرتبط به - نوع ارتباط - القلب الذي هو محل الكفر والإيمان ومحل الرجاء والخوف والحب والبغض، ولا شك أن الشق الحسي استهدف القلب الثاني

(٩٢) / رواه أحمد (١٣٩ / ٥) ، و ابن حبان (٢٢٢ / ٨ ، ٢٢٣) .

(٩٣) - فقه السيرة للبوطي، ص ٤٧.

الذي هو غيب من الغيب، وإن كان بعض ما يجري فيه وعليه محسناً من الإنسان، هذا القلب يمرض، وتتراكم عليه تراكمات، وتطراً عليه الحجب.

تكرر حادثة الشق بل النبوة أي قبل التكليف فيه إشارة إلى إرادة الله - عز وجل - في أن يبقى قلب محمد على حالة خاصة استصلاحاً وإعداداً، وهذا يفيد أنه حتى أظهر القلوب يحتاج إلى شيء من عالم الأسباب ليبقى على صفاء ونقاء، وتكرر حادثة شق الصدر قبيل الإسراء والمعراج فيه إشارة إلى أن بعض مقامات القلوب يحتاج إلى مزيد من الصفاء القلبي.^(٩٤)

وفاة أمه وكفالة جده ثم عمه

توفيت أم النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو ابن ست سنين بالأبواء بين مكة والمدينة وكانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار تزيهه إياهم، فماتت وهي راجعة به إلى مكة ودفنت بالأبواء وبعد وفاة أمه كفله جده عبدالمطلب، فعاش في كفالته وكان يؤثره على أبنائه أي أعمام النبي - صلى الله عليه وسلم - فقد كان جده مهيباً لا يجلس على فراشه أحد من أبنائه مهابة له، وكان أعمامه يتهيّبون الجلوس على فراش أبيهم، وكان - صلى الله عليه وسلم - يجلس على الفراش ويحاول أعمامه أن يبعده عن فراش أبيهم فيقف الأب الجد بجانبه ويرضى أن يبقى جالساً على فراشه متوسماً فيه الخير وأنه سيكون له شأن عظيم، وكان جده يحبه حباً عظيماً وكان إذا أرسله في حاجة جاء بها وذات يوم أرسله في طلب إبل فاحتبس عليه فطاف بالبيت وهو يرتجل يقول:

رب رد راكبي محمداً رده لي واصنع عندي يداً

فلما رجع النبي - صلى الله عليه وسلم - وجاء بالإبل فقال له: يا بني: لقد حزننت عليك كالمرأة حزناً لا يفارقني ابداً^(٩٥).

ثم توفي عبدالمطلب والنبي - صلى الله عليه وسلم - في الثامنة من عمره^(٩٦)، فأوصى جده به عمه أبا طالب فكفله عمه وحنّ عليه ورعاه^(٩٧).

(٩٤) - الأساس في السنة وفقهها - السيرة النبوية (١/ ١٦٦)

(٩٥) - أخرجه الطبراني في الكبير: ٥٥٢٤ وصححه إبراهيم العلي في صحيح السيرة النبوية، ص ٥٦.

(٩٦) - السيرة النبوية لأبي فارس، ص ١٠١.

(٩٧) - مدخل لفهم السيرة، اليحيى، ص ١١٩.

أرادت حكمة الله أن ينشأ رسوله يتيمًا، تتولاه عناية الله وحدها بعيداً عن الذراع التي تمعن في تدليله والمال الذي يزيد في تنعيمه، حتى لا تميل به نفسه الى مجد المال والجاه، وحتى لا يتأثر بما حوله من معنى الصدارة والزعامة، فيلتبس على الناس قداسة النبوة بجاه الدنيا، وحتى لا يحسبوه يصطنع الأول ابتغاء الوصول الى الثاني^(٩٨) وكانت المصائب التي أصابت النبي - صلى الله عليه وسلم - منذ طفولته كموت أمه ثم جده بعد أن حرم عطف الأب وذاق كأس الحزن مرة بعد مرة كانت تلك المحن قد جعلته رقيق القلب مرهف الشعور، فالأحزان تصهر النفوس وتخلصها من أدران القسوة والكبر والغرور، وتجعلها

دروس وعبر

الحكمة من نشأة النبي صلى الله عليه وسلم يتيماً:

أولاً : وليست وفاة والديه في العشرينات من حياتهما ناشئة عن هزالهما وضعف بنيتهما. ولم يكن محمد - صلى الله عليه وسلم - سليل أبوين سقيمين. وإنما توفاهما الله بعد أن قاما بالمهمة التي وجدا من أجلها، ليتأسى بمحمد - صلى الله عليه وسلم - كل من فقد والديه أو أحدهما وهو صغير، وليكون أذبه وخلقه مع يتمه دليلاً على أن الله تعالى تولى رعايته وتأديبه، وحتى ينشأ قوي الإرادة ماضي العزيمة غير معتمد على أحد في شؤونه، وحتى لا يكون لأبويه أي أثر في دعوته^(٩٩) وحتى لا تتدخل يد البشرية في تربيته وتوجيهه، فيكون الله سبحانه وتعالى هو الذي يتولى تربيته، ولا يتلقى أو يتلقن من مفاهيم الجاهلية وأعرافها شيئاً، إنما يتلقى من لدن الحكيم الخبير فالله سبحانه وتعالى آواه، وسخر له جده وعمه لتهيئة الجانب المادي، بينما كانت التربية النفسية والخلقية والفكرية تعهداً ربانياً، ورعاية إلهية^(١٠٠).

ثانياً: كمال القدوة وشمولها: قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فالنبي صلى الله عليه وسلم أسوة لكل البشر، كبيرهم وصغيرهم، ومن بين الصغار كان اليتامى، ومن بين اليتامى كان يتيم الأب أو الأم أو كلاهما، فكان تحقيقاً لكمال

(٩٨) - فقه السيرة للبوطي، ص ٤٦.

(٩٩) - رسائل الأنبياء، عمر أحمد عمر (٣/ ٢٠).

(١٠٠) - فقه السيرة النبوية للغضبان، ص ٨٤، ٨٥.

الأسوة النبوية أن يكون يتيم الأب والأم؛ ليجد فيه اليتيم أسوته وقدوته، فهنيئاً للأيتام تشبههم برسولهم الكريم، وهنيئاً لهم اشتراكهم معه صلى الله عليه وسلم في صفةٍ من صفاته وهي اليتيم. فاعلموا - يا رعاكم الله - أن الله تعالى قد اختار لكم ما اختاره لأحب الخلق إليه، وقدّر عليكم ما قدّره على نبيكم، فهيا شمروا عن سواعد الجد كما شمرّ نبيكم، وهيا تزيوا بزّي الأخلاق والتقوى الذي كان زيه ورداهه صلى الله عليه وسلم.

ثالثاً : ومن الحكم الظاهرة من يتم النبي صلى الله عليه وسلم: أن ينشأ صلباً قوياً بعيداً عن الترف والدعة، فالله عز وجل يؤهل نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم لأعظم مسؤولية في التاريخ والكون، وهي حمل رسالته وتبليغها إلى البشرية كلها، فكان لا بد أن يتدرب على تحمل المسؤولية منذ صغره، فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعرف منذ صغره حياة الترف والنعومة، وإنما عاش حياة الفقر والخشونة، فرعى الغنم وهو صبي صغير، وقد أخبر أصحابه رضي الله عنهم، بذلك، فقال صلى الله عليه وسلم: (مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ)، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: (نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ)^(١٠١)

(١٠١) - رواه البخاري، (٤١٨/١)، (ج٢٣٠٦).

الدرس الثاني عشر

عمله صلى الله عليه وسلم في الرعي

الحمد لله الذي نور بجميل هدايته قلوب أهل السعادة، وطهر بكريم ولايته أفئدة الصادقين فأسكن فيها وداده، ودعاها إلى ما سبق لها من عنايته فأقبلت منقادة، الحميد المجيد الموصوف بالحياة والعلم والقدرة والإرادة، نحمده على ما أولى من فضل وأفاده، ونشكره معترفين بأن الشكر منه نعمة مستفاده.

وأشهد إن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير شهادة أعدها من أكبر نعمه وعطائه، وأعددها وسيلة إلي يوم لقاءه

تعطف بفضل منك يا مالك الورى فأنت ملاذي سيدي ومعيني

لئن أبعدتني عن حماك خطيئتي فأنت رجائي شافعي وبقيني

ولست أرى لي حجة أبتغي بها رضاك إن العفو منك يقيني

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفیه من خلقه وحبیبه الذي أقام به منابر الإيمان ورفع عماده، وأزال به سنان البهتان ودفع عناده

وشفع في خير الخلائق طرا نبيا لم يزل أبدا حبيبا

هو الهادي المشفع في البرايا وكان له رحیما مستجيبا

عليه من المهيمن كل وقت صلاة تملأ الأكوان طيبا

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين ونحن معهم يا أرحم الراحمين.

ثم أما بعد: فقد اشتد ساعد النبي صلى الله عليه وسلم وأصبح يستطيع العمل والاكْتِسَاب وكان أبو طالب مقلداً في الرزق فعمل النبي - صلى الله عليه وسلم - برعي الغنم مساعدة منه لعمه، فلقد أخبر - صلى الله عليه وسلم - عن نفسه الكريمة وعن إخوانه من الأنبياء أنهم رعو الغنم، أما هو فقد رعاها لأهل مكة وهو غلام وأخذ حقه عن رعيه، ففي الحديث الصحيح قال رسول الله - صلى الله عليه

وسلم - : (ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم فقال : أصحابه : وأنت يا رسول الله؟ وأنا رعيته لأهل مكة بالقراريط)^(١٠٢)، إن رعي الغنم كان يتيح للنبي - صلى الله عليه وسلم - الهدوء الذي تتطلبه نفسه الكريمة، ويتيح له المتعة بجمال الصحراء، ويتيح له التطلع الى مظاهر جلال الله في عظمة الخلق، ويتيح له مناجاة الوجود في هدأة الليل وظلال القمر ونسمات الأشجار

يتيح له لوناً من التربية النفسية من الصبر والحلم والأناة والرأفة والرحمة والعناية بالضعيف حتى يقوى وزم قوى القوي حتى يستمسك للضعيف ويسير بسيره، وارتياح مشاريع الخصب والري وتجنب الهلكة ومواقع الخوف من كل مالا تتيحه حياة أخرى بعيدة عن جو الصحراء وهدوئها وسياسة هذا الحيوان الأليف الضعيف^(١٠٣).

وتذكرنا رعايته للغنم بأحاديثه - صلى الله عليه وسلم - التي توجه المسلمين للإحسان للحيوانات^(١٠٤) (فكان رعي الغنم للنبي - صلى الله عليه وسلم - دربة ومراناً له على سياسة الأمم.

ورعي الغنم يتيح لصاحبه عدة خصال تربوية منها:

١- الصبر: على الرعي من طلوع الشمس إلى غروبها، نظراً لبطئ الغنم في الأكل، فيحتاج راعيها الى الصبر والتحمل، وكذا تربية البشر^(١٠٥).

إن الراعي لا يعيش في قصر منيف ولا في ترف وسرف، وإنما يعيش في جو حار شديد الحرارة، وبخاصة في الجزيرة العربية، ويحتاج الى الماء الغزير ليذهب ظمأه، وهو لا يجد إلا الخشونة في الطعام وشظف العيش، فينبغي أن يحمل نفسه على تحمل هذه الظروف القاسية، ويألفها ويصبر عليها^(١٠٦).

٢- التواضع: إذ طبيعة عمل الراعي خدمة الغنم والإشراف على ولادتها، والقيام بحراستها والنوم بالقرب منها، وربما أصابه ما أصابه من رذاذ بولها أو شيء من روئها فلم يتضجر من هذا، ومع مداومة والاستمرار يبعد عن نفسه الكبر والكبرياء ويرتكز

^(١٠٢) - البخاري، كتاب الاطعمة (٩/ ٤٨٨) رقم ٢٢٦٢. والقيراط جزء من الدينار أو الدرهم.

^(١٠٣) - محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون (١/ ١٧٧).

^(١٠٤) -: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١٠٦).

^(١٠٥) - مدخل لفهم السيرة، اليحيى، ص ١٢٤.

^(١٠٦) - السيرة النبوية لأبي فارس، ص ١١٤، ١١٥.

في نفسه خلق التواضع وقد ورد في صحيح مسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ» قَالَ رَجُلٌ: «إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ تَوْبُهُ حَسَنًا وَتَعْلُهُ حَسَنَةً»، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ»^(١٠٧)، وَغَمَطُ النَّاسِ»^(١٠٨).

٣- الشجاعة: فطبيعة عمل الراعي الاصطدام بالوحوش المفترسة، فلا بد أن يكون على جانب كبير من الشجاعة تؤهله للقضاء ولمنع الوحوش من افتراس أغنامه^(١٠٩).

٤- الرحمة والعطف: إن الراعي يقوم بمقتضى عمله في مساعدة الغنم إن هي مرضت أم كسرت أو أصيبت، وتدعو حالة مرضها وألمها الى العطف عليها وعلاجها والتخفيف من آلامها، فمن يرحم الحيوان يكون أشد رحمة بالإنسان وبخاصة إذا كان رسولا أرسله الله تبارك وتعالى لتعليم الإنسان وإرشاده وإنقاذه من النار وإسعاده في الدارين .

٥- حب الكسب من عرق الجبين:

إن الله قادر على أن يغني محمداً - صلى الله عليه وسلم - عن رعي الغنم، ولكن هذه تربية له ولأمته للأكل من كسب اليد وعرق الجبين ورعي الغنم نوع من أنواع الكسب باليد وصاحب الدعوة يجب أن يستغني عن ما في أيدي الناس ولا يعتمد بدعوته عليهم، فبذلك تبقى قيمته وترتفع منزلته، ويبتعد عن الشبه والتشكيك فيه، ويتجرد عمله لله تعالى، ويرد شبهة الكفرة الظلمة الذين يصورون للناس ان الأنبياء أرادوا الدنيا بدعوتهم^(١١٠) {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ} (سورة يونس، الآية: ٧٨).

هكذا يقول فرعون لموسى، ونظراً لسيطرة حب الدنيا وحطامها على عقولهم يظنون أن أي تفكير وأي حركة مراد بها الدنيا، ولهذا قالت الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم مبينة استغنائها عنهم: {وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ} (سورة هود: الآية ٢٩).

^(١٠٧) - (بطر الحق) هو دفعه وإنكاره ترفعا وتجبرا (غمط الناس) معناه احتقارهم يقال في الفعل منه غمطه يغمطه وغمطه يغمطه [

^(١٠٨) - رواية الإمام مسلم في كتاب الإيمان ١٤٧ (٩١)

^(١٠٩) - السيرة النبوية لأبي فارس، ص ١١٤.

^(١١٠) - مدخل لفهم السيرة، ص ١٣٧.

روى البخاري عن المقدم - رضي الله عنه - عن رسول الله قال: (ما أكل أحدٌ طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده) ^(١١١) .

ولاشك أن الاعتماد على الكسب الحلال تكسب الإنسان الحرية التامة والقدرة على قول كلمة الحق والصدع بها ^(١١٢) وكم من الناس يطأطئون رؤوسهم للطغاة، ويسكتون على باطلهم، ويجاورونهم في أهوائهم خوفاً على وظائفهم عندهم ^(١١٣) .

إن صاحب أي دعوة، لن تقوم لدعوته أي قيمة في الناس إذا ما كان كسبه ورزقه من وراء دعوته أو على أساس من عطايا الناس وصدقاتهم، ولذا كان صاحب الدعوة الإسلامية أحرى الناس كلهم بأن يعتمد في معيشتة على جهده الشخصي أو مورد شريف لا استجداء فيه حتى لا تكون عليه لأحد من الناس منة أو فضل في دنياه فيعوقه ذلك من أن يصدع بكلمة الحق في وجهه غير مبالٍ بالموقع الذي قد تقع من نفسه.

وهذا هو المعنى وإن لم يكن قد خطر في بال الرسول - صلى الله عليه وسلم - في هذه الفترة، إذ أنه لم يكن يعلم بما سيوكل إليه من شأن في الدعوة والرسالة الإلهية، غير أن هذا المنهج الذي هياه الله له ينطوي على هذه الحكمة ويوضح أن الله تعالى قد أراد أن لا يكون في شيء من حياة الرسول قبل البعثة ما يعرقل سبيل دعوته أو يؤثر عليها أي تأثير سلبي، فيما بعد البعثة ^(١١٤) .

إن إقبال النبي - صلى الله عليه وسلم - على رعي الأغنام لقصد كسب القوت والرزق يشير الى دلائل هامة في شخصيته المباركة منها؛ الذوق الرفيع والإحساس الدقيق اللذان جعل الله تعالى بها نبيه - صلى الله عليه وسلم - . لقد كان عمه يحوطه بالعناية التامة، وكان له في الحنو والشفقة كالأب الشفوق، ولكنه - صلى الله عليه وسلم - ما إن أنس في نفسه القدرة على الكسب حتى أقبل يكتسب، ويتعب نفسه لمساعدة عمه في مؤونة الإنفاق وهذا يدل على شهامة في الطبع، وبرّ في المعاملة، وبذل للوسع ^(١١٥) ، والدلالة الثانية تتعلق ببيان نوع الحياة التي يرتضيها الله تعالى لعباده الصالحين في دار

^(١١١) - البخاري، كتاب البيوع رقم ٢٠٧٢.

^(١١٢) - مدخل لفهم السيرة، ص ١٢٨.

^(١١٣) - فقه السيرة للغضبان، ص ٩٣.

^(١١٤) - فقه السيرة للبوطي، ص ٥٠.

^(١١٥) - نفس المصدر، ص ٥٠.

الدنيا، لقد كان سهلاً على الله أن يهيئ للنبي - صلى الله عليه وسلم -، وهو في صدر حياته، من أسباب الرفاهية ووسائل العيش ما يغنيه عن الكدح ورعاية الأغنام سعياً وراء الرزق.

ولكن الحكمة الربانية تقتضي منا أن نعلم أن خير مال الإنسان ما اكتسبه بكّد يمينه ولقاء ما يقدمه من الخدمة لمجتمعه وبني جنسه، وشر المال ما أصابه الإنسان وهو مستلق على ظهره دون أن يرى أي تعب في سبيله، ودون أن يبذل أي فائدة للمجتمع في مقابله^(١١٦).

(١١٦) - فقه السيرة للبطوي، ص ٥٠.

الدرس الثالث عشر

حفظ الله تعالى لنبيه قبل البعثة ولقاء بحيرة الراهب

الحمد لله الذي زين قلوب أوليائه بأنوار الوفاق، وسقى أسرار أحبائه شراباً لذيذ المذاق، وألزم قلوب الخائفين الوجع والإشفاق، فلا يعلم الإنسان في أي الدواوين كتب ولا في أي الفرقين يساق، فأن سامح فبفضله، وان عاقب فبعده، ولا اعتراض على الملك الخلاق.

وأشهد إن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير شهادة أعدها من أكبر نعمه وعطائه، وأعددها وسيلة إلى يوم لقاءه وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفیه من خلقه وحبیبه البشیر النذیر السراج المنیر الذي عم نوره الآفاق، والنور الذي لا يعترض ضيائه كسوف ولا محاق، الحبيب القرب الذي أسري به على البراق، إلى إن جاوز السبع الطباق.

يا سيدي يا رسول الله

يا أجمل ما رأيت قط عين ويا أكمل ما ولدت النساء

خلقت مبرأ من كل عيب كأنك خلقت كما تشاء

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين ونحن معهم يا أرحم الراحمين.

أما بعد: فيا أحباب الحبيب المحبوب حبيب علام الغيوب صلى الله عليه وسلم: في هذا اللقاء نتحدث عن حفظ الله تعالى لنبيه و مصطفاه قبل البعثة و عن لقاء النبي ببخيرة الراهب وما في ذلك من دروس و عبر

حفظ الله تعالى نشأة نبيه-صلى الله عليه وسلم- فلم يسجد لصنم ولم يأكل ما ذبح على النصب ولا ارتكب فاحشة قط رغم أن المجتمع الذي يعيش فيه قد انتشرت فيه المنكرات و المحرمات و عبادة الأوثان و الأصنام ، عَنْ عُرْوَةَ بِنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: حَدَّثَنِي جَارٌ لِحَدِيحَةَ بِنْتِ حُوَيْلِدٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ يَقُولُ لِحَدِيحَةَ: " "

أَيَّ حَدِيثَةٍ ، وَاللَّهِ لَا أَعْبُدُ اللَّاتَ أَبَدًا ، وَاللَّهِ لَا أَعْبُدُ الْعُزَّى أَبَدًا " ، قَالَ : فَتَقُولُ
 حَدِيثَةٌ : خَلَّ اللَّاتَ ، خَلَّ الْعُزَّى ، قَالَ : وَكَأَنْتُ صَنَّمَهُمُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَ ثُمَّ
 يَضْطَجِعُونَ..» (١١٧)

و مما يدل عباد الله على لم يأكل مما ذبح على النصب ما أخرجه البخاري عن عبد الله بن
 عمر - رضي الله عنهما - قَالَ : لَقِيَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - زَيْدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ نُفَيْلٍ
 بِأَسْفَلِ بَلَدِ حِمْيَرَ قَبْلَ أَنْ يَنْزَلَ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْوَحْيِ ، فَقَدِمَتْ إِلَى النَّبِيِّ
 - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سُفْرَةٌ ، فَأَبَى زَيْدٌ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا ، ثُمَّ قَالَ : إِنِّي لَسْتُ أَكُلُ مِمَّا
 تَذْبَحُونَ عَلَى أَنْصَابِكُمْ ، وَلَا أَكُلُ إِلَّا مَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَكَانَ زَيْدٌ يَعِيبُ عَلَى قُرَيْشٍ
 دَبَابِحَهُمْ ، وَيَقُولُ : الشَّاةُ خَلَقَهَا اللَّهُ ، وَأَنْزَلَ لَهَا مِنَ السَّمَاءِ الْمَاءَ ، وَأَنْبَتَ لَهَا مِنَ الْأَرْضِ
 ، ثُمَّ تَذْبَحُونَهَا عَلَى غَيْرِ اسْمِ اللَّهِ؟ - إِنْكَارًا لِذَلِكَ وَإِعْظَامًا لَهُ - (١١٨)

حفظ الله تعالى ان تبدو عورته - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَمْرٍو بْنُ دِينَارٍ ، أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ
 عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ : لَمَّا بُنِيَتِ الْكَعْبَةُ ذَهَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَبَّاسٌ يَنْقُلَانِ الْحِجَارَةَ ،
 فَقَالَ عَبَّاسٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اجْعَلْ إِزَارَكَ عَلَى رَقَبَتِكَ مِنَ الْحِجَارَةِ فَفَعَلَ فَخَرَّ
 إِلَى الْأَرْضِ ، وَطَمَحَتْ عَيْنَاهُ إِلَى السَّمَاءِ ، ثُمَّ قَامَ فَقَالَ : «إِزَارِي إِزَارِي» ، فَشَدَّ عَلَيْهِ
 إِزَارُهُ. (١١٩)

وهذا الحديث يوضح لنا حقيقتين كل منهما على جانب كبير من الأهمية :

١ - أن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كان متمتعاً بخصائص البشرية كلها ، وكان يجد في نفسه ما
 يجده كل شاب من مختلف الميولات الفطرية التي اقتضت حكمة الله أن يجبل الناس عليها ، فكان

(١١٧) - (أخرجه أحمد) ١٧٩٧٦ ، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

(١١٨) - (أخرجه البخاري في فضائل الصحابة رقم ٣٦١٤).

(١١٩) - (أخرجه أحمد ٣/ ٢٩٥ و ٣٨٠ ، والبخاري [٣٨٢٩]).

يحس بمعنى السمر واللهو ويشعر بما في ذلك من متعة، وتحدثه نفسه لو تمتع بشيء من ذلك كما يتمتع الآخرون.

٢ - أن الله عز وجل قد عصمه مع ذلك عن جميع مظاهر الانحراف وعن كل ما لا يتفق مع مقتضيات الدعوة التي هيأه الله لها .

لقاء الراهب بحيرا بالرسول وهو غلام:

خرج أبو طالب إلى الشام، وخرج معه النبي - صلى الله عليه وسلم - في أشياخ من قريش، فلما أشرفوا^(١٢٠) على الراهب^(١٢١)، هبطوا فحلوا رحالهم^(١٢٢)، فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك يسيرون، فلا يخرج إليهم، ولا يلتفت.

فبينما هم يحلون رحالهم جعل الراهب يتخللهم^(١٢٣) حتى جاء فأخذ بيد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال له أشياخ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر^(١٢٤) ساجداً، ولا يسجدان إلا لنبيي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف^(١٢٥) كتفه مثل التفاحة.

ثم رجع فصنع لهم طعاماً، فلما أتاهاهم به، وكان هو في رعية الإبل قال: أرسلوا إلي، فأقبل وعليه غمامة تظله، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى في الشجرة، فلما جلس مال في الشجرة^(١٢٦) عليه، فقال: انظروا إلى في الشجرة مال عليه.

قال: فبينما هو قائم عليهم، وهو يناشدهم^(١٢٧) أن لا يذهبوا به إلى الروم فإن الروم إذا عرفوه بالصفة فيقتلونه، فالتفت فإذا سبعة قد أقبلوا من الروم، فاستقبلهم، فقال: ماجاء بكم؟ قالوا: جاءنا أن هذا

(١٢٠) - أشرفوا: طلوعوا.

(١٢١) - الراهب: زاهد النصارى.

(١٢٢) - حلوا رحالهم: أي انزولها وفتحوها.

(١٢٣) - يتخللهم: يمشي بينهم.

(١٢٤) - خر: سقط.

(١٢٥) - الغضروف: رأس لوح الكتف.

(١٢٦) - ظل الشجرة

(١٢٧) - يناشدهم: يقسم عليهم.

النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبقى طريق إلا بعث إليه بأناس، وإنما قد أخبرنا خبره، بعثنا إلى طريقك هذا، فقال: هل خلفكم أحد هو خير منكم؟

قالوا: إنما اخترنا خيره لك لطريقك هذا، قال: أفرايتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا. قال: فبايعوه وأقاموا معه.

قال: أنشدكم الله أيكم وليه^(١٢٨)؟ قالوا: أبو طالب فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب^(١٢٩).

يستفاد من قصة بحيرا عدة أمور منها:

- ١- إن الصادقين من رهبان أهل الكتاب يعلمون أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - هو الرسول للبشرية، وعرفوا ذلك لما وجدوه من إمارات وأوصاف عنه في كتبهم.
- ٢- إثبات سجود الشجر والحجر للنبي - صلى الله عليه وسلم -، وتظليل الغمام له وميل فئ الشجرة عليه.
- ٣- إن النبي - صلى الله عليه وسلم - استفاد من سفره وتجوّاله مع عمه وبخاصة من أشياخ قريش، حيث اطلع على تجارب الآخرين وخبرتهم، والاستفادة من آرائهم، فهم أصحاب خبرة، ودراية، وتجربة لم يمر بها النبي - صلى الله عليه وسلم - في سنه تلك.
- ٤- حذر بحيرا من النصارى، وبين أنهم إذا علموا بالنبي - صلى الله عليه وسلم - أنه سيقتلونه وناشد عمه وأشياخ مكة ألا يذهبوا به إلى الروم فإن الروم إذا عرفوه بالصفة يقتلونه، لقد كان الرومان على علم بأن مجيء هذا الرسول سيقضي على نفوذهم الاستعماري في المنطقة، ومن ثم فهو العدو الذي سيقضي على مصالح دولة روما، ويعيد هذه المصالح إلى أربابها، وهذا ما يخشاه الرومان.

^(١٢٨) - أيكم وليه: قريبه.

^(١٢٩) - صحيح السيرة النبوية، ص ٥٨، ٥٩.

الدرس الرابع عشر

مشاركة النبي صلى الله عليه وسلم في حرب الفجار وحلف الفضول

الحمد لله الذي لا يسأل عما يفعل، فلا تياس من رحمته ولا تعجل، فسبحانه من أقبل بجوده وبره على من رجع إليه وأقبل، ورأى زلة المسيء وجنح الظلام مسبل، فعامله برأفته وتجاوز عنه برحمته وأمهل، وجعل للقبول والفضل أوقاتا ليتدارك المقصر ما ضيّع وأهمل.

وأشهد إن لا اله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير شهادة عبد خضع لهيبه وتذلل

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفیه من خلقه وحبیب

جاءت قديما ذرة من نوركم قد جمل الرحمن منها يوسف

والله لو جد العباقر كلهم في وصف أفضال له لن تعرف

والله لو قلم الزمان من البداية لنهاية ظل يكتب ما اكتفى

تكفيه لقيا في السماوات العلى وبحضرة الرب الجليل تشرف

يكفيه أن البدر يخسف نوره لكن نور محمد لم يخسفا

وعلي اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين ونحن معهم يا أرحم الراحمين

أما فيا إخوة الإسلام نقف اليوم مع الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم لقومه في حرب الفجار فقد اندلعت هذه الحرب بين قريش ومن معهم من كنانة وبين هوازن وسببها أن عروة الرّحّال بن عتبة ابن هوازن أجار لطيمة^(١٣٠) للنعمان ابن المنذر إلى سوق عكاظ. فقال البرّاض بن قيس ابن كنانة اتجيرها

(١٣٠) - اللطيمة: الجمال التي تحمل الطيب والبز والتجارة.

على كنانة؟ قال نعم وعلى الخلق فخرج بها عروة، وخرج البراض يطلب غفلته حتى قتله، وعلمت بذلك كنانة فارتحلوا وهوازن لا تشعر بهم. ثم بلغهم الخبر، فاتبعوهم، فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم، فاقتتلوا حتى جاء الليل ودخلوا الحرم، فأمسكت عنهم هوازن. ثم التقوا بعد هذا اليوم أياماً وعاونت قريش كنانة^(١٣١) وشهد محمد - صلى الله عليه وسلم - بعض أيامهم، أخرجه أعمامه معهم. وسميت يوم الفجار بسبب ما استحل فيه من حرمت مكة التي كانت مقدسة عند العرب^(١٣٢).
وقد قال - صلى الله عليه وسلم - عن تلك الحرب (كنت أنبئ على أعمامي). أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها^(١٣٣).

وكان - صلى الله عليه وسلم - حينئذ ابن أربع عشرة أو خمس عشر سنة، وقيل ابن عشرين، ويرجح الأول أنه كان يجمع النبال، ويناولها لأعمامه، مما يدل على حداثة سنه.
وبذلك اكتسب الجرأة والشجاعة، والإقدام، وتمرن على القتال منذ ريعان شبابه، وهكذا انتهت هذه الحرب التي كثيراً ما تشبه حروب العرب تبدوها، حتى ألف الله بين قلوبهم، وأزاح عنهم هذه الضلالات بانتشار نور الإسلام بينهم^(١٣٤).

حلف الفضول: كان حلف الفضول بعد رجوع قريش من حرب الفجار، وسببه أن رجلاً من زبيد^(١٣٥) قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل، ومنعه حقه فاستعدى عليه الزبيدي أشراف قريش، فلم يعينوه لمكانة العاص فيهم، فوقف عند الكعبة واستغاث بآل فهر وأهل المروءة ونادى بأعلى صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنفر

ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحجر والحجر

إن الحرام لم تمت كرامته ولا حرام لثوب الغادر الفجر^(١٣٦)

(١٣١) - قريش فرع من كنانة

(١٣٢) - وقفات تربوية مع السيرة النبوية، ص ٥٣

(١٣٣) - السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٢١ - ٢٢٤) السيرة الحلبية (١/ ١٢٧ - ١٢٩).

(١٣٤) - وقفات تربوية، ص ٥٣.

(١٣٥) - زبيد: بلد باليمن.

(١٣٦) - الروض الأنف للسهيلى (١/ ١٥٦، ١٥٥).

فقام الزبير بن عبد المطلب فقال: ما لهذا مترك. فاجتمعت بنو هاشم، وزهرة، وبنو تميم بن مرة في دار عبدالله بن جدعان فصنع لهم طعاماً، وتحالفوا في شهر حرام، وهو ذو القعدة، فتعاقدوا وتحالفوا بالله ليكوننَّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يُرد إليه حقه ما بلّ بحر صوفة، وما بقي جبالاً ثبير وحرأء مكانهما^(١٣٧).

ثم مشوا إلى العاص بن وائل، فانترزوا منه سلعة الزبيدي، فدفعوها إليه.

وسمّت قريش هذا الحلف حلف الفضول وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر.

وفي هذا الحلف قال الزبير بن عبد المطلب:

إن الفضول تعاقدوا وتحالفوا ألا يقيم ببطن مكة ظالم

أمر عليه تعاقدوا وتواثقوا فالجار والمعتز^(١٣٨) فيهم سالم

وقد حضر هذا الحلف النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي هدموا به صرح الظلم، ورفعوا به منار الحق، وهو يعتبر من مفاخر العرب وعرفانهم لحقوق الإنسان^(١٣٩) وقد قال - صلى الله عليه وسلم -: شهدت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام، فما أحب أن لي حمر النعم، وأني أنكته^(١٤٠).

وقال - صلى الله عليه وسلم -: (لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت)^(١٤١).

دروس وعبر وفوائد:

^(١٣٧) - السيرة النبوية لأبي شهبه (٢١٣ / ١).

^(١٣٨) - المعتز: الزائر من غير البلاد.

^(١٣٩) - السيرة النبوية لأبي شهبه (٢١٤ / ١).

^(١٤٠) - صحيح السيرة النبوية، ابراهيم العلي، ص ٥٩ وصححه الألباني

^(١٤١) - السيرة النبوية لابن هشام (١٣٤ / ١) فقه السيرة للغبان، ص ١٠٢.

١ - إن العدل قيمة مطلقة وليست نسبية، وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يظهر اعتزازه بالمشاركة في تعزيز مبدأ العدل قبل بعثته ببعدين، فالقيم الإيجابية تستحق الإشادة بها حتى لو صدرت من أهل الجاهلية^(١٤٢).

٢ - كان حلف الفضول واحة في ظلام الجاهلية وفيه دلالة بينة على أن شيوع الفساد في نظام أو مجتمع لا يعني خلوه من أي فضيلة، فمكة مجتمع جاهلي هيمنت عليه عبادة الأوثان والمظالم والأخلاق الذميمة كالظلم والزنا والربا ومع هذا كان فيه رجال أصحاب نخوة ومروءة يكرهون الظلم ولا يقرونه وفي هذا درس عظيم للدعاة في مجتمعاتهم التي لا تحكم الإسلام، أو يحارب الإسلام^(١٤٣).

٣ - إن الظلم مرفوض بأي صورة، ولا يشترط الوقوف ضد الظالمين فقد عندما ينالون من الدعاة إلى الله، بل مواجهة الظالمين قائمة، ولو وقع الظلم على أقل الناس^(١٤٤) إن الإسلام يحارب الظلم ويقف بجانب المظلوم دون النظر إلى لونه ودينه ووطنه وجنسه^(١٤٥).

٤ - جواز التحالف والتعاهد على فعل الخير وهو من قبيل التعاون المأمور به في القرآن الكريم قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} (سورة المائدة، آية: ٢). ويجوز للمسلمين أن يتعاقدوا في مثل هذا الحال، لأنه تأكيد لشيء مطلوب شرعاً، على ألا يكون ذلك شبيهاً بمسجد الضرار، بحيث يتحول التعاقد إلى نوع من الحزبية الموجهة ضد مسلمين آخرين ظلماً وبغياً، وأما تعاقد المسلمين مع غيرهم على دفع ظلم أو في مواجهة ظالم، فذلك جائز لهم، على أن تلاحظ في ذلك مصلحة الإسلام والمسلمين في الحاضر والمستقبل، وفي هذا الحديث دليل^(١٤٦)، والدليل فيه قوله - صلى الله عليه وسلم - : (ما أحب أن لي به حمر النعم)^(١٤٧) لما يحقق من عدل، ويمنع من ظلم، أو النكت به مقابل حمر النعم. وقوله - صلى الله عليه وسلم - : (ولو دعيت به في

^(١٤٢) - السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١١٢ / ١).

^(١٤٣) - فقه السيرة النبوية للغضبان، ص ١١٠.

^(١٤٤) - فقه السيرة للغضبان، ص ١١٠.

^(١٤٥) - السيرة النبوية لأبي فارس، ص ١٢١.

^(١٤٦) - الأساس في السنة وفقها السيرة النبوية (١ / ١٧٢، ١٧١).

^(١٤٧) - السيرة النبوية لابن هشام (١ / ١٣٤).

الإسلام لأجبت^(١٤٨) طالما أنه يردع الظالم عن ظلم وقد بين - صلى الله عليه وسلم - استعدادة للإجابة بعد الإسلام لمن ناداه بهذا الحلف^(١٤٩) .

هـ -وعلى المسلم أن يكون في مجتمعه إيجابياً فاعلاً، لا أن يكون رقماً من الأرقام على هامش الأحداث في بيئته ومجتمعه، فقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- محط أنظار مجتمعه، وصار مضرب المثل فيهم، حتى ليلقبوه بالأمين وتهفوا إليه قلوب الرجال والنساء على السواء -بسبب الخلق الكريم الذي حبا الله تعالى به نبيه -صلى الله عليه وسلم-، ومازال يزكو وينمو حتى تعلقت قلوب قومه وهذا يعطينا صورة حية عن قيمة الأخلاق في المجتمع، وعن احترام صاحب الخلق ولو في المجتمع المنحرف^(١٥٠)

^(١٤٨) - السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٣٤).

^(١٤٩) - الأساس في السنة (٤/ ١٧٢) ..

^(١٥٠) - فقه السيرة للفضبان، ص ١١١، ١١٠.

الدرس الخامس عشر

تجارته لخديجة وزواجه منها:

الحمد لله منشئ الموجودات، وباعث الأموات، وسامع الأصوات، ومجيب الدعوات، وكاشف الكربات، عالم الأسرار، وغافر الأوزار، ومنجي الأبرار، ومهلك الفجار، ورافع الدرجات، الذي علم وألهم، وأنعم وأكرم، وحكم وأحكم، وأوجب وألزم (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات).

واشهد إن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير.

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفیه من خلقه وحبیبه

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلى يوم الدين ونحن معهم يا أرحم الراحمين

أما بعد: فقد كانت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أرملة^(١٥١) ذات شرف ومال، تستأجر الرجال ليتجروا بمالها، فلما بلغها عن محمد صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه عرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ماتعطي غيره من التجار، فقبل وسافر معه غلامها ميسرة، وقدم الشام، وباع محمد سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد من السلع، فلما رجع إلى مكة وباعت خديجة ما أحضره لها تضاعف مالها.

وقد حصل محمد - صلى الله عليه وسلم - في هذه الرحلة على فوائد عظيمة بالإضافة إلى الأجر الذي ناله، إذ مر بالمدينة التي هاجر إليها من بعد وجعلها مركزاً لدعوته، وبالبلاد التي فتحها ونشر فيها دينه كما كانت رحلته سبباً لزواجه من خديجة بعد أن حدثها ميسرة عن سماحته وصدقه وكريم

^(١٥١) - تزوجها عتيق بن عائذ ثم مات عنها فتزوجها ابوهاة ومات أيضاً.

أخلاقه^(١٥٢) ، ورأت خديجة في مالها البركة مالم تر قبل هذا وأخبرت بشمائله الكريمة ووجدت ضالتها المنشودة فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منبه وهذه ذهبت إليه فتفاته أن يتزوج خديجة^(١٥٣) فرضى بذلك وعرض ذلك على أعمامه ، فوافقوا كذلك ، وخرج معه عمه حمزة بن عبدالمطلب فخطبها إليه وتزوجها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصدقها عشرين بكرة ، وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت رضي الله عنها^(١٥٤) ، وقد ولدت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - غلامين وأربع بنات . وابناه هما :

القاسم ، و به كان - صلى الله عليه وسلم - يكنى وعبدالله ، ويلقب الطاهر والطيب .

وقد مات القاسم بعد أن بلغ سنّاً تمكنه من ركوب الدابة ، ومات عبدالله وهو طفل ،

وذلك قبل البعثة أما بناته فهن : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة . وقد أسلمن وهاجرن إلى المدينة وتزوجن^(١٥٥) . هذا وقد كان عمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - حين تزوج خديجة رضي الله عنها خمساً وعشرين سنة وكان عمرها أربعين سنة^(١٥٦) .

دروس وعبر وفوائد:

- ١ - إن الأمانة والصدق أهم مواصفات التاجر الناجح ، وصفة الأمانة والصدق في التجارة في شخصية النبي - صلى الله عليه وسلم - هي التي رغبت السيدة خديجة في أن تعطيه مالها ليتاجر به ويسافر به إلى الشام ، فبارك الله لها في تجارتها وفتح الله لها من أبواب الخير ما يليق بكرم الكريم .
- ٢ - إن التجارة مورد من موارد الرزق التي سخرها الله لرسوله - صلى الله عليه وسلم - قبل البعثة وقد تدرب النبي - صلى الله عليه وسلم - على فنونها ، وقد بين النبي - صلى الله عليه وسلم - : أن التاجر الصدوق الأمين في هذا الدين يُحشر مع الصديقين والشهداء والنبیین ، وهذه المهنة مهمة

^(١٥٢) - رسالة الأنبياء ، عمر أحمد عمر (٣/ ٢٧) .

^(١٥٣) - مواقف تربوية ، ص ٥٦ .

^(١٥٤) - السيرة النبوية لأبي فارس ، ص ١٢٢ .

^(١٥٥) - السيرة النبوية لأبي فارس ، ص ١٢٢ .

^(١٥٦) - السيرة النبوية لأبي شهبه (١/ ١٢٣، ١٢٢) .

للمسلمين ولا يقع صاحبها تحت إرادة الآخرين واستعبادهم وقهرهم ، وإذلالهم فهو ليس بحاجتهم بل هم في حاجة إليه وبحاجة إلى خبرته وأمانته وعفته .

٣ - كان زواج الحبيب المصطفى للسيدة خديجة بتقدير الله تعالى ولقد اختار الله سبحانه وتعالى لنبيه زوجة تناسبه وتوازره، وتُخفف عنه ما يصيبه، وتعينه على حمل تكاليف الرسالة وتعيش همومه (٣).

قال الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - : وخديجة مثل طيب للمرأة التي تكمل حياة الرجل العظيم، إن أصحاب الرسائل يحملون قلوباً شديدة الحساسية، ويلقون غُبناً

بالغاً من الواقع الذي يريدون تغييره، ويقاسون جهاداً كبيراً في سبيل الخير الذي يريدون فرضه وهم أحوج مايكونون إلى من يتعهد حياتهم الخاصة بالإيناس والترفيه ، وكانت خديجة سباقة إلى هذه الخصال، وكان لها في حياة محمد - صلى الله عليه وسلم - أثر كريم^(١٥٧) .

٤ - نرى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - ذاق مرارة فقد الأبناء، كما ذاق من قبل مرارة فقد الأبوين وقد شاء الله - وله الحكمة البالغة - أن لا يعيش له - صلى الله عليه وسلم - أحد من الذكور حتى لا يكون مدعاة لافتتان بعض الناس بهم، وادعائهم لهم النبوة، فأعطاه الذكور تكميلاً لفطرته البشرية وقضاء لحاجات النفس الإنسانية، ولثلاً يتنقّص النبي في كمال رجولته شاني، أو يتقوّل عليه متقول، ثم أخذهم في الصغر، وأيضاً ليكون ذلك عزاء وسلوى للذين لا يُرزقون البنين، أو يُرزقون ثم يموتون، كما أنه لون من ألوان الإبتلاء، وأشد الناس بلاء الأنبياء^(١٥٨) ، وكأن الله أراد للنبي - صلى الله عليه وسلم - أن يجعل الرقة الحزينة جزءاً من كيانه : فإن الرجال الذين يسوسون الشعوب لا يجنحون إلى الجبروت إلا إذا كانت نفوسهم قد طبعت على القسوة والأثرة وعاشت في أفراح لا يخامرها كدر، أما الرجل الذي خبر الآلام فهو أسرع الناس إلى مواساة المحزونين ومداواة المجروحين^(١٥٩) .

٥ - يتضح للمسلم من خلال قصة زواج النبي - صلى الله عليه وسلم - من السيدة خديجة، عدم اهتمام النبي - صلى الله عليه وسلم - بأسباب المتعة الجسدية ومكملاتها، فلو كان مهتماً بذلك كبقية

^(١٥٧) - فقه السيرة للغزالي، ص ٧٥.

^(١٥٨) - السيرة النبوية لأبي شهبه (١/ ٢٢٤، ٢٢٣).

^(١٥٩) - فقه السيرة، للغزالي، ص ٧٨.

الشباب لطمع بمن هي أقل منه سناً أو بمن لا تفوقه في العمر، وإنما رغب النبي - صلى الله عليه وسلم - لشرفها ومكانتها في قومها فقد كانت تلقب في الجاهلية بالعفيفة الطاهرة.

٦ - وفي زواج النبي - صلى الله عليه وسلم - من السيدة خديجة ما يلجم ألسنة الحاقدين، وأقلام

الحاقدين على الإسلام وقوة سلطانه من المستشرقين وعبيدهم العلمانيين الذين ظنوا أنهم وجدوا في موضوع زواج النبي - صلى الله عليه وسلم - مقتلاً يصاب منه الإسلام وصوروا النبي - صلى الله عليه وسلم - في صورة الرجل الشهواني الغارق في ذاته وشهواته، فنجد أن النبي - صلى الله عليه وسلم - عاش إلى الخامسة والعشرين من عمره في بيئة جاهلية، عفيف النفس، دون أن ينساق في شيء من التيارات الفاسدة التي تموج حوله، كما أنه تزوج من امرأة لها ما يقارب ضعف عمره، وعاش معها دون أن تمتد عينه إلى شيء مما حوله وإن من حوله الكثير وله إلى ذلك أكثر من سبيل، إلى أن يتجاوز مرحلة الشباب، ثم الكهولة، ويدخل في سن الشيوخ، وقد ظل هذا الزواج قائماً حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عاماً، وقد ناهز النبي عليه الصلاة والسلام الخمسين من العمر دون أن يفكر خلالها بالزواج بأي امرأة أخرى، وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان هو الزمن الذي تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية.

ولكن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يفكر في هذه الفترة بأن يضم إلى خديجة مثلها من النساء: زوجة أو أمة، ولو أراد لكان الكثير من النساء والإماء طوع بنانه.

أما زواجه بعد ذلك من السيدة عائشة وغيرهن من أمهات المؤمنين، فإن لكل منهن قصة، ولكل زواج حكمة وسبب يزيدان في إيمان المسلم بعظمة محمد - صلى الله عليه وسلم - ورفعة شأنه وكمال أخلاقه. ^(١٦٠)

اشتراكه في بناء الكعبة الشريفة:

لما بلغ محمد - صلى الله عليه وسلم - خمساً وثلاثين سنة اجتمعت قريش لتجديد بناء الكعبة لما أصابها من حريق وسيل جارف صدع جدرانها. وكانت لاتزال كما بناها إبراهيم عليه السلام رضماً ^(١٦١)

^(١٦٠) - فقه السيرة النبوية للبطوي، ص ٥٤، ٥٣.

^(١٦١) - الرضم: حجارة منضودة بعضها على بعض من غير طين.

فوق القامة، فأرادوا هدمها ليرفعوها ويسقفوها ولكنهم هابوا هدمها، وخافوا منه، فقال الوليد بن المغيرة أنا أبدؤكم في هدمها، فأخذ المعول، ثم قام عليها وهو يقول: اللهم لم نزع، ولا نريد إلا الخير.

وهدم من ناحية الركني: فتربص الناس تلك الليلة وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً، ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله ماصنعنا، فأصبح الوليد غادياً يهدم، وهدم الناس معه حتى انتهوا إلى حجارة خضرة كالأسمنة^(١٦٢) أخذ بعضها ببعض.

وكانوا قد جزؤوا العمل وخصوا كل قبيلة بناحية واشترك سادة قريش وشيوخها في نقل الحجارة ورفعها وقد شارك النبي - صلى الله عليه وسلم - وعمه العباس في بناء الكعبة وكانا ينقلان الحجارة. فقال العباس للنبي - صلى الله عليه وسلم - : اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة، فخر إلى الأرض^(١٦٣) ، وطمحت عيناه إلى السماء ثم أفاق فقال: إزاري إزاري، فشد عليه إزاره^(١٦٤) فلما بلغوا موضع الحجر الأسود اختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، وكادوا يقتتلون فيما بينهم، لولا أن أبا أمية بن المغيرة قال: يامعشر قريش! اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب المسجد. فلما توافقوا على ذلك دخل محمد - صلى الله عليه وسلم - فلما رآه قالوا: هذا الأمين، قد رضينا فلما أخبروه الخبر قال: هلموا ثوباً. فأتوه به. فوضع الركن فيه بيديه ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوا جميعاً. فرفعوه، حتى إذا بلغوا موضعه وضعه بيده ثم بنى عليه.

وأصبح ارتفاع الكعبة ثمانية عشر ذراعاً ورفع بابها عن الأرض بحيث يصعد إليه بدرج، لئلا يدخل إليها كل أحد، فيدخلوا من شأؤوا، وليمنعوا الماء من الشرب إلى جوفها، وأسند سقفها إلى ستة أعمدة من الخشب إلا أن قريشاً قصرت بها النفقة الطيبة عن إتمام البناء على قواعد إسماعيل، فأخرجوا منها الحجر، وبنوا عليه جداراً قصيراً دلالة على أنه منها، لأنهم شرطوا على أنفسهم أن لا يدخل في بنائها إلا نفقة طيبة، ولا يدخلها مهر بغي، ولا يبيع ربا، ولا مظلمة لأحد^(١٦٥) .

دروس وعبر وفوائد:

(١٦٢) - جمع سنام وهو أعلى ظهر البعير.

(١٦٣) - ففعل ذلك فوق.

(١٦٤) - رواه البخاري، كتاب الحج، رقم ١٥٨٣.

(١٦٥) - وقفات تربوية، ص ٥٧؛ انظر: رسالة الأنبياء، عمر أحمد عمر (٣/ ٢٩٠٣٠).

١ - تظهر أهمية الكعبة وقداستها عند قريش ويكفي أن بأشر تأسيسها ورفع قواعدها إبراهيم وإبنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام بأمر من الله تعالى لتكون أول بيت لعبادة الله وحده.

٢ - بنيت الكعبة خلال الدهر كله أربع مرات على يقين، فأما المرة الأولى منها، فهي التي قام بأمر البناء منها إبراهيم عليه الصلاة والسلام يعينه ابنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام، والثانية: فهي تلك التي بنتها قريش قبل البعثة واشترك في بنائها النبي - صلى الله عليه وسلم -، و الثالثة، عندما احترق البيت في زمن يزيد بن معاوية بفعل الحصار الذي ضربه الحصين السكوني على ابن الزبير حتى يستسلم، فأعاد ابن الزبير بنائها وأما المرة الرابعة في زمن عبدالمك بن مروان بعدما قتل ابن الزبير حيث أعاده على ماكان عليه زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - (١٦٦) لأن ابن الزبير بأشر في رفع بناء البيت وزاد فيه الأذرع الستة التي أخرجت منه، وزاد في طوله إلى السماء عشرة أذرع وجعل له بابين أحدهما يدخل منه والآخر يخرج منه، وإثما جرّاه على إدخال هذه الزيادة حديث عائشة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه وألزقته بالأرض وجعلت له باباً شرقياً وباباً غربياً فبلغت به أساس إبراهيم) (١٦٧).

٣ - طريقة فض التنازع كانت موفقة وعادلة، ورضى بها الجميع وحقنت دماء كثيرة، وأوقفت حروباً طاحنة، وكان من عدل حكمه أن رضت به جميع القبائل ولم تنفرد بشرف وضع الحجر قبيلة دون الأخرى، وهذا من توفيق الله لرسوله وتسديده قبل بعثته. إن دخول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من باب الصفا كان قدراً من الله، لحل هذه الأزمة المستعصية، التي حلت نفسياً قبل أن تحل على الواقع، فقد أذعن الجميع لما يرتضيه محمد - صلى الله عليه وسلم -، فهو الأمين الذي لا يظلم وهو الأمين الذي لا يحابي، ولا يفسد وهو الأمين على البيت والأرواح والدماء (١٦٨)

٤ - إن حادثة تجديد بناء الكعبة قد كشفت عن مكانة النبي - صلى الله عليه وسلم - الأدبية في الوسط القرشي (١٦٩)، وحصل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - في هذه الحادثة شرفان، شرف

(١٦٦) - السيرة النبوية للبوطي، ص ٥٨، ٥٧.

(١٦٧) - البخاري، كتاب العلم، رقم ١٢٦.

(١٦٨) - السيرة النبوية لأبي فارس، ص ١٢٥.

(١٦٩) - السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١١٦/١).

فصل الخصومة ووقف القتال المتوقع بين قبائل قريش، وشرف تنافس عليه القوم وأدّخره الله لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ألا وهو وضع الحجر الأسود بيديه الشريفتين، وأخذه من البساط بعد رفعه ووضعه في مكانه من البيت (١٧٠).

ه - إن المسلم يجد في حادثة تجديد بناء الكعبة كمال الحفظ الإلهي وكمال التوفيق الرباني في سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، كما يلاحظ كيف أن الله أكرم رسوله بهذه القدرة الهائلة على حل المشكلات بأقرب طريق وأسهله، وذلك ماتراه في حياته كلها - صلى الله عليه وسلم -، وذلك ما تعلم من معالم رسالته، فرسالته إيصال للحقائق بأقرب طريق، وحل للمشكلات بأسهل أسلوب وأكمل (١٧١).

ومن حفظ الله لنبيه - صلى الله عليه وسلم - في شببته عن أذكار الجاهلية وأدرانها، ومعائبها ما وقع له عندما كان ينقل الحجر أثناء بناء الكعبة ورفع إزاره على رقبتة، فخر إلى الأرض وطمحت عينه إلى السماء ثم أفاق: إزاري إزاري، فشد عليه إزاره، فما روي بعد ذلك عرباناً - صلى الله عليه وسلم - (١٧٢).

الحالة العامة التي وصل إليها الناس:

لخص الأستاذ الندوي الحال التي كان عليها العرب وغيرهم وقتذاك بقوله: كانت الأوضاع الفاسدة، والدرجة التي وصل إليها الإنسان في منتصف القرن السادس المسيحي أكبر من أن يقوم لإصلاحها مصلحون ومعلمون في أفراد الناس، فلم تكن القضية قضية إصلاح عقيدة من العقائد، أو إزالة عادة من العادات، أو قبول عبادة من العبادات، أو إصلاح مجتمع من المجتمعات، فقد كان يكفي له المصلحون والمعلمون الذين لم يخل منهم عصر ولا مصر.

ولكن القضية كانت قضية إزالة أنقاض الجاهلية، ووثنية تخريبية، تراكمت عبر القرون والأجيال، ودفنت تحتها تعاليم الأنبياء والمرسلين، وجهود المصلحين والعلمين، وإقامة بناء شامخ مشيد البنيان، واسع الأرجاء، يسع العالم كله، ويؤدي الأمم كلها، قضية إنشاء إنسان جديد، يختلف عن الإنسان

(١٧٠) - السيرة النبوية لأبي فارس، ص ١٢٦، ١٢٥.

(١٧١) - ابن هشام باسناد حسن (١/ ٢٣١).

(١٧٢) - صحيح السيرة النبوية، ص ١٤٦.

القديم في كل شيء، كأنه ولد من جديد، أو عاش من جديد قال تعالى: {أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ
وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ} (سورة الأنعام، الآية ١٢٢).

قضية اقتلاع جرثومة الفساد واستئصال شأفة الوثنية، واجتثاثها من جذورها، بحيث لا يبقى لها عين
ولا أثر، وترسيخ عقيدة التوحيد في أعماق النفس الإنسانية ترسيخاً لا يتصور فوقه، وغرس ميل الى
إرضاء الله وعبادته، وخدمة الإنسانية، والانتصار للحق، يتغلب على كل رغبة، ويقهر كل شهوة،
ويجرف كل مقاومة، وبالجملة الأخذ بحجز الإنسانية المنحرفة التي استجمعت قواها للوثوب في جحيم
الدنيا والآخرة، والسلوك بها على طريق أولها سعادة يحظى بها العارفون المؤمنون وآخرها جنة الخلد
التي وعد المتقون، ولا تصوير أبلغ وأصدق من قوله تعالى في معرض المن ببعثة محمد - صلى الله عليه
وسلم - (١٧٣): {وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ
بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} (سورة آل عمران، الآية: ١٠٣).

(١٧٣) - انظر: الأساس في السنة وفقها السيرة النبوية، سعيد حوى (١/ ١٨١، ١٨٠).

الدرس السادس عشر

إرهاصات نبوته صلى الله عليه وسلم ونزول الوحي

الحمد لله الذي تفرد بأوصاف عظمته وكمال، وتقديس بعز كبريائه وجلاله، وتوحد بالخلق والإبداع فلا شريك له في أفعاله، وعم كل مخلوق جزيل أفضاله ونواله، هو الأول والأخر بالقدم والبقاء، الظاهر والباطن بالقهر والكبرياء، القدوس الصمد الغني عن جميع الأشياء، الواحد الأحد المنزه عن جميع الأشباه والشركاء.

وأشهد إن لا اله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير.

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفیه من خلقه وحبیبه

ألا يا رسول الله يا خير مرسل عليك صلاة الله لا تتناهي

فيا فوز من صلى عليك من الوری صلاة يعم الكون منها سناها

عليك صلاة الله يا أشرف الوری محلا ويا أعلى البرية جاها

عليك صلاة الله ما هبت الصبا ... وفاح بعرف المسك طيب شذاها

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين

ونحن معهم يا أرحم الراحمين

ثم أما بعد: فبإخوة الإسلام حديثنا في هذا اللقاء عن الأيام الأخيرة قبل البعثة فعندما اقترب الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم من الأربعين سنة حُبَّب إليه الخلاء، فكان يأخذ التمر والماء ويذهب إلى غار حراء الذي يبعد عن مكة بمقدار ميلين تقريباً، وهناك كان يقضي وقته في عبادة الله والتفكير في قدرته العظيمة في الكون، مبتعداً عن شواغل الدنيا، مرتقياً بنفسه عما تتعلق به قلوب أهل الأرض من متاع دنيوي زائل.

* أَوَّلًا: الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ:

أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- مِنَ النُّبُوءَةِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا فِي نَوْمِهِ إِلَّا جَاءَتْ كَفَلَقِ الصُّبْحِ^(١٧٤)، حَتَّى مَضَتْ عَلَى ذَلِكَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ، ثُمَّ بُدِيَ بِالْوَحْيِ -صلى الله عليه وسلم-.

رَوَى الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَاقِ الصُّبْحِ^(١٧٥).

قال الحافظ في الفتح (٣٧٧ / ١٤): وهما بمعنى واحدٍ بالنسبة إلى أمور الآخرة في حق الأنبياء، وأما بالنسبة إلى أمور الدنيا فالصالحات في الأصلِ أخص، فرؤيا النبي كلها صادقة وقد تكون صالحة وهي الأكثر، وغير صالحة بالنسبة للدنيا كما وقع في الرؤيا يوم أُحد.

* ثَانِيًا: حُبُّ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- لِلْخُلُوةِ:

وَلَمَّا تَقَارَبَتْ سِنُّ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- الْأَرْبَعِينَ حَبَّبَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ الْخُلُوةَ، فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَخْلُوَ وَحْدَهُ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَهْجُرُ مَكَّةَ كُلَّ عَامٍ لِيَقْضِيَ شَهْرَ رَمَضَانَ فِي غَارِ حِرَاءِ^(١٧٦)، وَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا تَحَنَّنْتُ^(١٧٧) بِهِ قُرَيْشٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ.

(١٧٤) - قال الحافظ في الفتح (٣٤ / ١): المراد بفلق الصبح ضياؤه، وخص بالتشبيه لظهوره الواضح الذي لا شك فيه.

(١٧٥) - أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب بدء الوحي - باب رقم (٣) - رقم الحديث (٣)

(١٧٦) - أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب بدء الوحي - باب رقم (٣) - رقم الحديث (٣)

(١٧٧) - يَتَحَنَّنْتُ: أي يَتَعَبَّدُ. انظر النهاية (٤٣٢ / ١).

قال ابن أبي جَمْرَةَ فيما نقله عنه الحافظ في الفتح (١٤ / ٣٧٧): الحكمة في تَخْصِيصِهِ -صلى الله عليه وسلم- بِاللَّخْلِيِّ فِي غَارِ حِرَاءٍ أَنَّ الْمُقِيمَ فِيهِ كَانَ يُمَكِّنُهُ رُؤْيَا الكعبةِ، فيجْتَمِعُ لِمَنْ يَخْلُو فِيهِ ثَلَاثُ عِبَادَاتٍ: الخَلْوَةُ، والتَّعَبُّدُ، والنَّظَرُ إِلَى البَيْتِ.

قال الحافظ في الفتح (٩ / ٧٣٦): . . . وهذا يلتفت إلى مَسْأَلَةِ أُصُولِيَّةٍ، وهو أنه -صلى الله عليه وسلم- هَلْ كَانَ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ مُتَعَبِّدًا بِشَرِيعَةِ نَبِيِّ قَبْلَهُ؟ .

قال الجمهور: لا؛ لأنه لو كان تَابِعًا لاسْتَبْعَدَ أَنْ يَكُونَ مُتَّبِعًا، ولأنه لو كَانَ لثُقُلَ مَنْ كَانَ يَنْسَبُ إِلَيْهِ، وقيل: نَعَمْ، واخْتَلَفُوا فِي تَعْيِينِهِ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، والثَّانِي نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، والثالث إبراهيم عليه السَّلَامُ ذهب إليه جماعةٌ واستدلوا بقوله تَعَالَى فِي سُورَةِ النحل آية (١٢٣): **{أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا. . .}**، والرَّابِعُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والخامسُ عيسى عليه السَّلَامُ، والسادسُ بكلِّ شيءٍ بَلَغَهُ عَنِ شَرَعِ نَبِيٍِّّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَحِجَّتِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ آية (٩٠): **{أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ}**، والسَّابِعُ الْوَقْفُ، وَلَا تَخْفَى قُوَّةُ الثَّلَاثِ، وَلَا سِيَمَا مَعَ مَا نُقِلَ مِنْ مَلَازِمَتِهِ -صلى الله عليه وسلم- الْحَجَّ وَالطَّوَّافَ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا بَقِيَ عِنْدَهُمْ مِنْ شَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَكَانَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- يَتَزَوَّدُ لِخَلْوَتِهِ لِبَعْضِ لَيَالِي الشَّهْرِ، فَإِذَا نَفَدَ ذَلِكَ الرَّادُ رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَزَوَّدُ قَدْرَ ذَلِكَ، فَيُقِيمُ فِي حِرَاءٍ شَهْرًا مِنْ كُلِّ سَنَةٍ، وَيَقْضِي وَقْتَهُ فِي التَّفَكِيرِ فِيمَا حَوْلَهُ مِنْ مَشَاهِدِ الْكُونِ، وَفِيمَا وَرَاءَهَا مِنْ قُدْرَةِ مُبْدِعَةٍ، حَتَّى وَصَلَ مِنَ الصَّفَاءِ وَالْإِشْرَاقِ إِلَى مَرْتَبَةِ عَالِيَةِ انْعَكَسَتْ فِيهَا أَشِعَّةُ الْغُيُوبِ عَلَى صَفْحَةِ قَلْبِهِ الْمَجْلُودِ، فَأَصْبَحَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ كَفَلَقِ الصُّبْحِ (١٧٨) .

رَوَى الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بَدَأَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ فِي النَّوْمِ. . . ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ، فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ -وَهُوَ التَّعَبُّدُ- اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ (١٧٩) .

(١٧٨) - انظر فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ص ٨٥.

(١٧٩) - أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب بدء الوحي - باب (٣) - رقم الحديث (٣) - وأخرجه في كتاب التعبير - باب أول ما بدئ به رسول الله - صلى الله عليه وسلم- من الوحي- رقم الحديث (٦٩٨٢) - ومسلم في صحيحه- كتاب الإيمان - باب بدء الوحي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم- رقم الحديث (١٦٠).

وَكَانَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- إِذَا قَضَى جِوَارَهُ ^(١٨٠) مِنْ شَهْرِهِ ذَلِكَ كَانَ أَوَّلَ مَا يَبْدَأُ بِهِ إِذَا انْصَرَفَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بَيْتَهُ الْكَعْبَةَ، فَيَطُوفُ بِهَا سَبْعًا، أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى بَيْتِهِ.

وَوَظَلَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- عَلَى ذَلِكَ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ إِلَى أَنْ جَاءَهُ الْوَحْيُ وَهُوَ فِي إِحْدَى خَلَوَاتِهِ تِلْكَ ^(١٨١).

* ثَالِثًا: تَسْلِيمُ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ عَلَى النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم-:

رَوَى الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: "إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجْرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلَّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ".

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -رضي الله عنه- قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- بِمَكَّةَ، فَخَرَجْنَا فِي بَعْضِ نَوَاحِيهَا، فَمَا اسْتَقْبَلَهُ جَبَلٌ، وَلَا شَجَرٌ إِلَّا وَهُوَ يَقُولُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ^(١٨٢)

وَرَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- حِينَ أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى بِكَرَامَتِهِ، وَابْتَدَأَهُ بِالنُّبُوَّةِ، كَانَ إِذَا خَرَجَ لِحَاجَتِهِ أَبْعَدَ حَتَّى تَحَسَّرَ ^(١٨٣)

^(١٨٠) -الجوار: الاعتكاف. انظر النهاية (٣٠٢/١).

قال الإمام السهيلي في الروض الأثف (١/٤٠٠): والفرق بين الجوار والاعتكاف، أن الاعتكاف لا يكون إلا داخل المسجد، وأما الجوار فإنه قد يكون خارجة

^(١٨١) - أخرج ذلك البخاري في صحيحه - كتاب بدء الوحي - باب رقم (٣) - رقم الحديث (٣) - ومسلم في صحيحه - كتاب الإيمان

- باب بدء الوحي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رقم الحديث (١٦٠).

^(١٨٢) - أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الفضائل - باب فضل نسب النبي - صلى الله عليه وسلم - وتسليم الحجر عليه قبل النبوة -

رقم الحديث (٢٢٧٧).

^(١٨٣) - حسر: انكشف. انظر لسان العرب (٣/١٦٨)..

عَنْهُ الْبُيُوتُ، وَيُفْضِي إِلَى شِعَابِ^(١٨٤) مَكَّةَ وَبُطُونَ أَوْدِيَّتِهَا، فَلَا يَمُرُّ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- بِحَجْرٍ وَلَا شَجَرٍ إِلَّا قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ^(١٨٥)، قَالَ: فَيَلْتَفِتُ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- حَوْلَهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ، وَشِمَالِهِ، وَخَلْفِهِ، فَلَا يَرَى إِلَّا الشَّجَرَ وَالْحِجَارَةَ، فَمَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- كَذَلِكَ يَرَى وَيَسْمَعُ، مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمُكِّثَ، ثُمَّ جَاءَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا جَاءَهُ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ، وَهُوَ بِحِرَاءٍ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ^(١٨٦).

* رَابِعًا: سَمَاعُ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- الصَّوْتِ وَرُؤْيِيَتُهُ الضَّوْءَ:

رَوَى الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- بِمَكَّةَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، يَسْمَعُ الصَّوْتَ، وَيَرَى الضَّوْءَ^(١٨٧) سَبْعَ سِنِينَ، وَلَا يَرَى شَيْئًا، وَتَمَانَ سِنِينَ يُوحَى إِلَيْهِ^(١٨٨)

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ لِحَدِيحَةَ "إِنِّي أَرَى ضَوْءًا وَأَسْمَعُ صَوْتًا، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَكُونَ بِي جُنٌّ"، فَقَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ يَا ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ! ثُمَّ أَتَتْ وَرَقَةَ بِنْتُ نَوْفَلٍ،

^(١٨٤) - الشَّعْبُ: ما انْفَرَجَ بَيْنَ جَبَلَيْنِ. انظر لسان العرب (١٢٦ / ٧).

^(١٨٥) - قال الإمام السهيلي في الرُّوضِ الْأَنْفِ (١ / ٣٩٩): وهذا التَّسْلِيمُ الْأَظْهَرُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ حَقِيقَةً، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْطَقَهُ إِنْطَاقًا كَمَا

خَلَقَ الْحَيَيْنَ فِي الْجَدْعِ. أخرج قصة حنين الجدع: البخاري في صحيحه - كتاب المناقب - باب علامات النبوة في الإسلام - رقم الحديث (٣٥٨٣) (٣٥٨٤) (٣٥٨٥).

^(١٨٦) - انظر سيرة ابن هشام (١ / ٢٧١).

^(١٨٧) - قال القاضي عياض في شرح مسلم (٨ / ٨٥): أي صَوْتُ الْهَاتِفِ بِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَيَرَى الضَّوْءَ أَي نُورَ الْمَلَائِكَةِ، وَنُورَ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى رَأَى الْمَلِكَ بَعِيْنِهِ، وَشَافَهُهُ بِوَحْيِ اللَّهِ تَعَالَى.

^(١٨٨) - أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الفضائل - باب كم أقام النبي -صلى الله عليه وسلم- بمكة والمدينة - رقم الحديث (٢٣٥٣) (١٢٣).

فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: إِنَّ يَكُ صَادِقًا، فَإِنَّ هَذَا نَامُوسٌ^(١٨٩) مِثْلُ نَامُوسِ مُوسَى، فَإِنَّ بُعِثَ وَأَنَا حَيٌّ فَسَأَعِزُّهُ^(١٩٠)، وَأَنْصُرُهُ، وَأُؤَمِّنُ بِهِ^(١٩١).

الدرس السابع عشر

نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم

الحمد لله الواحد القهار. العزيز الغفار. مقدر الأقدار. مصرف الأمور مكور الليل على النهار. تبصرة لأولى القلوب والأبصار. الذي أيقظ من خلقه من اصطفاه فأدخله في جملة الأخيار وفق من اختار من عبيده فجعله من الأبرار. وبصر من أحبه للحقائق فزهدهوا في هذه الدار. فاجتهدوا في مرضاته والتأهب لدار القرار. واجتنب ما يسخطه والحذر من عذاب النار.

وأشهد أن لا إله إلا الله إقرارا بوحديته، واعترافا بما يجب على الخلق كافة من الإذعان لربوبيته. وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وصفيه من خلقه وحببيه المصطفى من خليقته، وأكرم الأولين والآخرين من بريته، أكرم الخلق وأزكاهم وأكملهم، وأعرفهم بالله تعالى وأخشاهم وأعلمهم، واتقاهم وأشدهم اجتهادا وعبادة وخشية وزهادة، وأعظمهم خلقا، وأبلغهم بالمؤمنين تلطفا ورحما أرسله بحق شرعه

^(١٨٩) - النَّامُوسُ: صَاحِبُ سِرِّ الْخَيْرِ، أَرَادَ بِهِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَصَّهُ بِالْوَحْيِ وَالْغَيْبِ اللَّذِينَ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِمَا غَيْرُهُ. انظر النهاية (١٠٤ / ٥).

^(١٩٠) - التَّعْزِيرُ: هَاهُنَا مَعْنَاهُ الْإِعَانَةُ، وَالتَّوْقِيرُ، وَالتَّصَرُّفُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ. انظر النهاية (٢٠٦ / ٣).

ومنه قوله تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ آيَةِ (١٥٧): {فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.

^(١٩١) - أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ - رَقْمَ الْحَدِيثِ (٢٨٤٥).

وشرع حقيقه ، وأحمد بنور برهانه لهب الباطل وأزهقه ، ودمغ بسيف تحقيقه دماغ البيهتان فأزال بخسه ورهقه

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين ونحن معهم يا أرحم الراحمين.

أما بعد:

الحكمة الإلهية من طول المدة الزمنية لإعداد النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة

كانت هذه التهيئة الطويلة مدة أربعين سنة من الإعداد والترتيب والتهيئة النفسية لحمل الأمانة الثقيلة، مع أن الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يعده لذلك في لحظة واحدة، ويثبت قلبه فلا يخاف ولا يتردد، لكن الحكمة من وراء هذا الإعداد الطويل أن ربنا سبحانه وتعالى يعلمنا التأني في التربية، والتدرج في حمل الناس على ما نريد، وحتى لو كان سيحمل رسولاً رسالة؛ فإنه يحمله إياها بالتدرج، والتدرج سنة من سنن الله عز وجل في التغيير والإصلاح، فالتربية تحتاج إلى تدرج، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحتاج أيضاً إلى تدرج.

فحياة الرسول صلى الله عليه وسلم كلها (٦٣) سنة، منها (٤٠) سنة هي سنوات إعداد له ليكون رسولاً، وليتلقى الرسالة، ومنها ثلاثة وعشرون سنة فقط نبوة، وكل ما يريده ربنا منه جعله في (٢٣) سنة، فكل المتغيرات التي يمكن أن تحصل في حياة الناس، وكل الثوابت التي لا يفرط فيها كانت في (٢٣) سنة، لكن لا بد أن تعرف أنك محتاج إلى وقت ومجهود وتربية وإعداد لمن سيحمل هم الأمة الإسلامية، ولا تستعجل، فهذا الرسول صلى الله عليه وسلم يتربى (٤٠) سنة؛ من أجل أن يحمل هم الدعوة، فإذا كان هذا يحصل مع الرسول صلى الله عليه وسلم، فلا يوجد أي معنى للاستعجال في حياتنا، ولا بد أن نفهم هذا الدرس جيداً: التأني في التربية. ^(١٩٢)

قصة نزول الوحي :

عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: " أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، وَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حَبَّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَكَانَ يَأْتِي حِرَاءَ فَيَتَحَنَّنُ

^(١٩٢) - السيرة النبوية - راغب السرجاني (٤ / ٥)

فِيهِ ، وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِي دَوَاتِ الْعَدَدِ ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى حَدِيجَةَ فَتَزَوِّدُهُ لِمِثْلِهَا ، حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ ، وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءَ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فِيهِ ، فَقَالَ : { اِقْرَأْ } [العلق : ١] ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَا أَنَا بِقَارِيٍّ » قَالَ : فَأَخَذَنِي فَعَطَّنِي ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فَقَالَ : { اِقْرَأْ } [العلق : ١] ، فَقُلْتُ : « مَا أَنَا بِقَارِيٍّ » فَأَخَذَنِي فَعَطَّنِي الثَّانِيَةَ ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فَقَالَ : { اِقْرَأْ } [العلق : ١] ، فَقُلْتُ : « مَا أَنَا بِقَارِيٍّ » فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فَقَالَ : { اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } [العلق : ١] حَتَّى بَلَغَ { مَا لَمْ يَعْلَمْ } [العلق : ٥] ، قَالَ : فَرَجَعَ بِهَا تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى حَدِيجَةَ فَقَالَ : زَمَلُونِي زَمَلُونِي فَرَمَلُونَهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ ، فَقَالَ يَا حَدِيجَةُ : مَا لِي؟ فَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ ، قَالَ وَقَدْ خَشِيتُ عَلَيَّ ، فَقَالَتْ لَهُ كَلَّا أَبْشِرْ ، فَوَاللَّهِ : لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ بِهِ حَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزْزِيِّ بْنِ قُصَيٍّ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ حَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا ، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ ، فَكَتَبَ بِالْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْإِنْجِيلِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدِّمِي ، فَقَالَتْ حَدِيجَةُ : أَيُّ ابْنِ عَمِّ اسْمَعُ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ ، فَقَالَ وَرَقَةُ : ابْنُ أَخِي مَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا رَأَى ، فَقَالَ وَرَقَةُ : هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدِّعًا ، أَكُونَ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَوْ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟ فَقَالَ وَرَقَةُ : نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي ، وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ ، أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا ، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوفِّيَ

..(١٩٣)

دروس وعبر

لقد كانت هذه الآيات الكريمة المباركات أول شيء نزل من القرآن الكريم وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقته ، وإن من كرم الله تعالى أن علم الإنسان ما لم يعلم ، فشرفه وكرمه بالعلم ، وهو القدر الذي امتاز به آدم عليه السلام على الملائكة ، والعلم تارة يكون في الأذهان ، وتارة يكون في اللسان ، وتارة يكون بالكتابة بالبنان ^(١٩٤) وبهذه الآيات كانت بداية نبوة محمد صلى الله عليه وسلم

^(١٩٣) - مسند أحمد ط الرسالة (٤٣ / ١١٤) والبخاري (٤٩٥٦) و (٦٩٨٢) ، ومسلم (١٦٠) (٢٥٣) ، وابن أبي عاصم في "الأوائل"

(٩٩) ،

^(١٩٤) - تفسير ابن كثير (٤ / ٥٢٨).

لقد كان هذا الحادث ضخمًا، لقد عبر عنه الشهيد سيد قطب -رحمه الله- في ظلاله فقال: «إنه حادث ضخم، ضخم جدًا، ضخم إلى غير حد، ومهما حاولنا اليوم أن نحيط بضخامته، فإن جوانب كثيرة منه ستظل خارج تصورنا!

إنه حادث ضخم بحقيقته، وضخم بدلالته، وضخم بآثاره في حياة البشرية جميعًا، وهذه اللحظة التي تم فيها هذا الحادث تعد -بغير مبالغة- هي أعظم لحظة مرت بهذه الأرض في تاريخها الطويل.

ما حقيقة هذا الحادث الذي تم في هذه اللحظة؟

حقيقته أن الله جل جلاله، العظيم الجبار القهار المتكبر، مالك الملك كله، قد تكرم -في عليائه- فأراد أن يرحم هذه الخليقة المسماة بالإنسان، القابعة في ركن من أركان الكون، لا يكاد يرى اسمه الأرض، وكرم هذه الخليقة باختيار واحد منها ليكون ملقَى نوره الإلهي، ومستودع حكمته، ومهبط كلماته، وممثل قدره الذي يريده - سبحانه - بهذه الخليقة .. «(١٩٥).

كانت بداية الوحي الإلهي فيها إشادة بالقلم وخطره، والعلم ومنزلته، في بناء الشعوب والأمم وفيها إشارة واضحة بأن من أخص خصائص الإنسان العلم والمعرفة (١٩٦).

وفي هذا الحادث العظيم تظهر مكانة ومنزلة العلم في الإسلام، فأول كلمة في النبوة تصل إلى رسول الله هي الأمر بالقراءة (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) [العلق: ١].

وما زال الإسلام يحث على العلم ويأمر به ويرفع درجة أهله ويميزهم على غيرهم

قال تعالى: (يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

[المجادلة: ١١] وقال سبحانه (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو

الْأَلْبَابِ) [الزمر: ٩].

(١٩٥) - في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٣٦)

(١٩٦) - السيرة النبوية لأبي شهبه (١/ ٢٦٠)

إن مصدر العلم النافع من الله عز وجل، فهو الذي علم بالقلم، وعلم الإنسان ما لم يعلم، ومتى حادت البشرية عن هذا المنهج، وانفصل علمها عن التقيد بمنهج الله تعالى رجع علمها وبالاً عليها وسبباً في إبادتها^(١٩٧) (١).

أنواع الوحي:

تحدث العلماء عن أنواع الوحي فذكروا منها:

١- الرؤيا الصادقة: وكانت مبدأ وحيه صلى الله عليه وسلم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وقد جاء في الحديث «رؤيا الأنبياء وحي»، قال تعالى في حق إبراهيم عليه السلام: «يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ».

٢- الإلهام: وهو أن ينفت الملك في روعه - أي قلبه من غير أن يراه- كما قال عليه الصلاة والسلام: «إن روح القدس نفث في روعي»^(١٩٨) أي: إن جبريل عليه السلام نفخ في قلبي: «أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»^(١٩٩).

٣- أن يأتيه مثل صلصلة الجرس، أي مثل صوته في القوة، وهو أشده، كما في حديث عائشة: أن الحارث - رضي الله عنه - سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشد علي، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول»^(٢٠٠).

٤- ما أوحاه الله تعالى إليه، بلا وساطة ملك، كما كلم الله موسى بن عمران عليه السلام، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعاً بنص القرآن وثبوتها لنبينا صلى الله عليه وسلم في حديث الإسراء^(٢٠١).

٥- أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله تعالى أن يوحيه.

^(١٩٧) - أخرجه الطبراني ١٧٩٠٦، ١٧٩٠٨، بسنده عن قتادة، تفسير القرطبي، (٨/ ٣٤٠).

^(١٩٨) - حديث صحيح بشواهده (زاد المعاد (١/ ٧٨) مؤسسة الرسالة).

^(١٩٩) - (زاد المعاد ١/ ٧٩).

^(٢٠٠) - البخاري، كتاب بدء الوحي رقم ٢.

^(٢٠١) - الرؤى والأحلام في النصوص الشرعية، أسامة عبد القادر ص ١٠٨.

٦- أنه صلى الله عليه وسلم كان يتمثل له الملك رجلاً، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً^(٢٠٢). هذا ما قاله ابن القيم عن مراتب الوحي.

فائدة: هل الوحي كان ينزل على النبي بالقرآن فقط؟ أم كان يشمل السنّة أيضاً؟

الوحي كان ينزل على النبي - صلى الله عليه وسلم - بالقرآن والسنّة سواءً، ومما يدل على ذلك حديث صفوان بن يعلى بن أمية، قال: إنَّ يعلى كان يقول: ليتني أرى رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - حين ينزل عليه، قال: "فبينما النبيُّ - صلى الله عليه وسلم - بالجعرانة وعليه ثوبٌ قد أظلَّ به، معه فيه ناسٌ من أصحابه؛ إذ جاءه أعرابيُّ عليه جبّةٌ متضمّخٌ بطيبٍ، فقال: يا رسول الله، كيف ترى في رجلٍ أحرم بعمره في جبّةٍ بعد ما تضمّخ بالطيب؟ فأشار عمر إلى يعلى بيده أن تعال، فجاء يعلى، فأدخل رأسه، فإذا النبيُّ - صلى الله عليه وسلم - محمّرُ الوجهِ يعطُّ كذلك ساعةً، ثمَّ سرِّي عنه، فقال: ((أين الذي يسألني عن العمرة آنفاً))، فالتبس الرجل، فأُتِيَ به، فقال: ((أما الطيب الذي بك، فاغسله ثلاث مراتٍ، وأما الجبّة، فانزعها، ثم اصنع في عمرتك كما تصنع في حجّك))^(٢٠٣).

فضل المرأة الصالحة: وفي هذا الحديث العظيم فضل المرأة الصالحة، وأنها عون لزوجها في الشدائد، وكم ثبت من رجال في أعسر المواقف بسبب زوجات لهم صالحات، كما فعلت خديجة رضي الله عنها.

أعمال الخير لا تهدي صاحبها إلا إلى خير: وفيه أن أعمال الخير لا تهدي صاحبها إلا إلى خير؛ ولذا حكمت خديجة رضي الله عنها على أن ما يعتري النبي صلى الله عليه وسلم من بوادر الوحي بأنه خير، واستدلت على ذلك بفعله صلى الله عليه وسلم للخير من صلة الرحم، وصدق الحديث، وإكساب المعدوم، وإكرام الضيف، وإعانة الناس على النوائب التي تصيبهم، وفي هذا ترغيب لنا على فعل الخير، وبذل المعروف، والإحسان إلى الناس؛ فإن عقبي ذلك خير للإنسان في دنياه وآخرته.

استشارة أهل العقل والحكمة: ويستفاد من قصة بدء الوحي أن من نزل به أمر مخوف فعليه أن يفضي به إلى من يعلم حكمته ورجاحة عقله ومحبته له؛ ليمحض النصح له، ويدله على الخير، وعلى الناصح أن يهون وقع الأمر على صاحبه، ويؤمنه فيه، ويسري عنه بتوقع الخير فيه.

^(٢٠٢) - زاد المعاد في هدي خير العباد، (١/ ٣٣ - ٣٤).

^(٢٠٣) - البخاري (٤٣٢٩)، ومسلم (١١٨٠).

نية الخير : وفيه أن أهل الخير يتمنون فعل الخير ولو لم يقدرُوا عليه ؛ فيؤجروا على نياتهم ؛ كما تمنى ورقة بن نوفل رضي الله عنه أنه كان شابا لينصر النبي صلى الله عليه وسلم ، فكأنه نصره مع أنه مات في أول البعثة ، وهذا يبين قدر النية وفضلها ، وكم فاتنا من الخير بسبب عدم استحضارها ، فعلينا أن نتفقد قلوبنا ، ونجتهد في إصلاح نياتنا.

الدرس الثامن عشر

فترة انقطاع الوحي والحكمة منها

الحمد لله الذي زين قلوب أوليائه بأنوار الوفاق ، وسقى أسرار أحبائه شرابا لذيذ المذاق ، وألزم قلوب الخائفين الوجل والإشفاق ، فلا يعلم الإنسان في أي الدواوين كتب ولا في أي الفرقين يساق ، فأن سامح فبفضله ، وان عاقب فبعدله ، ولا اعتراض على الملك الخلاق.

واشهد إن لا اله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير شهادة أعدها من أكبر نعمه وعطائه ، وأعدها وسيلة إلي يوم لقاءه

وأشهد أن سيدنا وحبيبنا وشفيعنا محمد عبد الله ورسوله وصفيه من خلقه وحبيبه

البشير النذير السراج المنير الذي عم نوره الآفاق، والنور الذي لا يعترض ضيائه كسوف ولا محاق،
الحبيب القرب الذي أسري به على البراق، إلى إن جاوز السبع الطباق.

أما بعد : قال ابن حجر: وكان ذلك- أن انقطاع الوحي أياما- ليذهب ما كان صلى الله عليه وسلم
وجده من الروع، وليحصل له التشوف إلى العود^(٢٠٤)، فلما تقلصت ظلال الحيرة، وثبتت أعلام
الحقيقة، وعرف صلى الله عليه وسلم معرفة اليقين أنه أضحى نبيا لله الكبير المتعال، وأن ما جاءه
سفير الوحي ينقل إليه خبر السماء وصار تشوفه وارتقابه لمجيء الوحي سببا في ثباته واحتماله عند ما
يعود، وجاءه جبريل للمرة الثانية. روى البخاري عن جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله صلى الله
عليه وسلم يحدث عن فترة الوحي، قال:

«فبينما أنا أمشي سمعت صوتا من السماء، فرفعت بصري قبل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء
قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجلثت منه حتى هويت إلى الأرض، فجلثت أهلي فقلت:
زملوني زملوني، فزملوني، فأنزل الله تعالى: **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ** إلى قوله: **فَاهْجُرْ**، ثم حمي الوحي وتتابع»
(٢٠٥)

١-الوقفه الأولى: مدّة انقطاع الوحي.

اختلفوا في مدّة هذه الفترة، وقد تناقلت بعض الكتب القول بأنّها كانت ثلاث سنوات ! أو سنتين
ونصف ! وكيف لا ينتشر هذا القول وهو مما جزم به الإمام محمد بن إسحاق رحمه الله ؟
وفي ذلك نظرٌ، لأمر:

أ) ليس هناك ما يدلّ على هذا القول، إلّا أثرٌ عن الشعبيّ، وهو مرسلٌ لا يصحّ.

ب) يعارض هذا القول بما نقله الحافظ ابن حجر عن البيهقيّ رحمه الله أنّ مدّة هذه الفترة كانت ستّة
أشهر. وهذا القول أيضا لا دليل عليه، وإثما ذكرناه لنبيّن أنّ القول الأوّل عُرض بمثله.

(٢٠٤) - بالعين المهلة من العدو، وهو الذهاب بسرعة، وفي بعض النسخ «غدا» بالعين المعجمة.

(٢٠٥) - صحيح البخاري كتاب التفسير باب والرجز فاهجر ٢/٧٣٣.

ت) ثم إنه من المقرر أن القرآن نزل في ثلاث وعشرين سنة، ولو قلنا إن فترة الوحي دامت ثلاثة أعوام أو سنتين ونصف للزم أن ينزل القرآن في أقل من ذلك.

ث) جاء ما يبين أن مدة هذه الفترة لم تتعدّ شهرا، وهو رواية لمسلم في الفترة عن جابر رضي الله عنه نفسه، وفيها: أُحَدِّثُكُمْ مَا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((جَاوَرْتُ بِحِرَاءِ شَهْرًا، فَلَمَّا قَضَيْتُ جَوَارِي نَزَلْتُ، فَاسْتَبَطَنْتُ بَطْنَ الْوَادِي، فَتَوَدَّيْتُ، فَتَوَدَّتُ أَمَامِي وَخَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي فَلَمْ أَرِ أَحَدًا.

ثم توديت فنظرت، فلم أر أحدا، ثم توديت فرفعت رأسي فإذا هو على العرش في الهواء - يعني جبربيل عليه السلام - فأخذتني رجفة شديدة، فاتيت حديجة، فقلت: دثروني! فدثروني، فصبوا علي ماء فأنزل الله عز وجل: { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ }.

٢- الوقفة الثانية: الحكمة من وراء هذا الانقطاع.

أعظمها حكم ثلاث:

أ) تسهيل الأمر على النبي صلى الله عليه وسلم:

فإن الوحي عن طريق الملائكة ليس من الأمر السهل الذي يمكن تحمّله، لكونه من عالم الغيب، وأن الإنسان يألف ما يراه ويلمسه ويشاهده، وما سمى الإنسان بالإنسان إلا لأنه يؤنس به.

فلو تتابع مجيء الملك إليه في الأيام الأولى لشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم، فناسب أن ينقطع، حتى يعتاد النبي صلى الله عليه وسلم على مخاطبة الملك شيئا فشيئا.

ومما يدل على مشقة مجيء الملك في صورته ما في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها:

أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلَافَةِ الْجَرَسِ - وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ - فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي، فَأَعْيِي مَا يَقُولُ)).

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا !.

ب) إزالة الخوف عن النبي صلى الله عليه وسلم:

فإنّ الوحي من الصعب تصديقه، لأنّه من عالم الغيب كذلك، حتّى جعل الله الإيمان بالغيب ممّا يميّز المؤمن عن الكافر، فقال تعالى واصفا عباده المؤمنين المتّقين: **{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}** [البقرة: ٣].

ورأينا قول النبي صلى الله عليه وسلم يقول لخديجة: ((أَحْشَى أَنْ بِي جَنَّاتٌ)) . ويوم أوحى إليه قال: ((لَقَدْ حَشَيْتُ عَلَى نَفْسِي ..)) .

لذلك يصاحب الوحي ذلك الرعب والفرع الذي اختلج نفس النبي صلى الله عليه وسلم كما اختلج من قبله:

فالله يقول لموسى عليه السلام: **{يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ}** [النمل: من الآية ١٠].

وعن لوط عليه السلام قال: **{وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ}** [العنكبوت: من الآية ٣٣].

ج) إزالة الشبهة عن الوحي:

فالسرّ في هذا الانقطاع أيضا: ألاّ تبقى هنالك شبهة لمرضى القلوب أنّ ما يجده من الوحي الإلهي إنّما هو من طول التأمّل والتّفكير والعزلة.

فقد غاب عنه الملك جبريل عليه السلام مدّةً وعاد إليه بعد طول غياب بالوحي نفسه دون عزلة ولا تأمّل أو تفكير. فهنا تزول عنه وعن غيره كلّ شبهة.

وأولّ من احتاج إلى إزالة هذه الشبهة عنه هو النبيّ المرسل إليه الوحيّ إليه نفسه.

٣- الوقفة الثالثة: بيان ضعف رواية مدرجة.

مما أدرجه الإمام الزهري رحمه الله في إحدى روايات البخاري قوله : (وَفَتَرَ الْوَحْيُ فِتْرَةً ، حَتَّى حَزَنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا بَلَعْنَا حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا كَيْ يَتَرَدَّى مِنْ رُؤُوسِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ ، فَكَلَّمَا أَوْفَى بِذُرُورَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِيَ مِنْهُ نَفْسَهُ ، تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيْلُ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ! إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا ! فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ جَأَشُهُ ، وَتَقَرُّ نَفْسُهُ ، فَيَرْجِعُ ، فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فِتْرَةُ الْوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ ، فَإِذَا أَوْفَى بِذُرُورَةِ جَبَلٍ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيْلُ ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ) .

وهذه الزيادة لا تصح من وجوه:

أ) تفرد بها معمر بن راشد، دون يونس بن يزيد وعُقَيْل بن خالد، فهي شاذة.

ب) أنها مرسله بل معضلة، فإن الزهري قال: " فيما بلغنا "، قال الحافظ في " الفتح " (٣٠٢/١٢): " وهو من بلاغات الزهري وليس موصولا "، ومن المقرر لدى أهل العلم بالحديث أن بلاغات الزهري كالريح.

ت) أن هذه الزيادة منكورة، فلا يليق أبدا بالنبي صلى الله عليه وسلم أن يحاول قتل نفسه ويتردى من الجبل، وهو القائل صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا)) [رواه البخاري ومسلم].

٤- الوقفة الرابعة: بيان ضعف القول بأن سورة الضحى نزلت بعد هذه الفترة.

اعتمد القائلون بذلك على ما رواه البخاري ومسلم عن جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قال:

احْتَبَسَ جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ : أَبْطَأَ عَلَيْهِ شَيْطَانُهُ ! فَتَرَلَّتْ : { وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) } .

والصحيح: أن انقطاع وفترة الوحي حدث مرتين:

ففي المرة الأولى طالت فترته كما مر.

وفي الثانية: نزلت بعدها سورة الضحى، ولم تطل كالأولى، ويؤيد ذلك أن هذه الفترة تأخرت حتى نزل من القرآن ما شاء الله أن ينزل، وفرض قيام الليل على النبي صلى الله عليه وسلم.

ففي رواية للبخاري عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: اشْتَكَيْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ، فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ! إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أَرَهُ قَرِيبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ! فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: **{ وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) }** قال ابن عباس رضي الله عنه: (مَا تَرَكَكَ وَمَا أَبْغَضَكَ).

٥-الوقفه الخامسة: أول ما نزل من القرآن مطلقا.

حديث عائشة في بدء الوحي نصّ على أنّ أول سورة نزلت هي العلق، وأنّ سورة المدثر نزلت بعد انقطاع الوحي.

فما رواه البخاري عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: **{ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ }** محمول على الأوليّة بالنظر إلى ما بعد الفترة، لا الأوليّة المطلقة.

عوداً إلى مكّة: وهكذا يُرسل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .. وما كان بالأمس حُلماً جميلاً، أصبح اليوم حُماً ثقيلاً .. وما كان بالأمس القريب مجرد إشارات وتلميحات، أضحى اليوم حقائق واضحة .. فدلّه الله تعالى على أنّ قوام الأمر بالعلم بـ **{ اقْرَأْ }**، ومقتضى هذا العلم: **{ قُمْ فَأَنْذِرْ }** وثمره الإنذار:

{ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ }، وأنه محفوف من جميع النواحي بـ: **{ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ }** ..

حتى كانت آخر سورة نزلت من القرآن: **{ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا }** ..

وعند الله تجتمع الخصوم فكانت آخر آية: **{ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ }** [البقرة: (٢٨١)(٢٠٦)]

(٢٠٦) - خمس وقفات مع فترة الوحي الكاتب: عبد الحليم توميات

الدرس التاسع عشر

إِسْلَامُ خَدِيجَةَ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

الحمد لله الذي نور بجميل هدايته قلوب أهل السعادة، وطهر بكريم ولايته أفئدة الصادقين فأسكن فيها وداذه، ودعاها إلى ما سبق لها من عنايته فأقبلت منقادة، الحميد المجيد الموصوف بالحياة والعلم والقدرة والإرادة، نحمده على ما أولى من فضل وأفاده، ونشكره معترفين بأن الشكر منه نعمة مستفاده. وأشهد إن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير شهادة أعدها من أكبر نعمه وعطائه، وأعدّها وسيلة إليّ يوم لقاءه وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفیه من خلقه وحبیبه

الذي أقام به منابر الإيمان ورفع عماده، وأزال به سنان البهتان ودفع عناده

وشفع في خير الخلائق طرا نبيا لم يزل أبدا حبيبا

هو الهادي المشفع في البرايا وكان له رحيمًا مستجيبًا

عليه من المهيمن كل وقت صلاة تملأ الأكوان طيبا

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين
ونحن معهم يا أرحم الراحمين.

أولاً: الأمر الرباني بتبليغ الرسالة:

إخوة الإسلام : بعد نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم بالوحي و جاء الأمر من الله تعالى
بالدعوة إلى دينه بدأ النبي -صلى الله عليه وسلم- يدعوا إلى الإسلام سراً^(٢٠٧) لئلا يفاجئ أهل مكة
بما يهيجهم عليه، فجعل يعرض الإسلام على الصق الناس به من أهل بيته، وأصدقائه، ويعرضه على
كل من يتوسم فيه خيراً ممن يعرفهم بحب الحق، والخير، ويعرفونه بالصدق والصلاح^(٢٠٨).

* إسلام خديجة بنت خويلد رضي الله عنها:

كان أول من آمن به -صلى الله عليه وسلم- من النساء، بل أول من آمن به على الإطلاق زوجته خديجة
بنت خويلد رضي الله عنها.

قال ابن الأثير رحمه الله تعالى: خديجة أول خلق الله أسلم بإجماع المسلمين، لم يتقدمها رجل ولا
امرأة^(٢٠٩).

^(٢٠٧) - قلت: مما يدل على أن الدعوة أول ما بدأت كانت سرية، ما رواه الإمام مسلم في صحيحه - رقم الحديث (٨٣٢) عن عمرو بن
عبسة - رضي الله عنه - قال: . . . سمعتُ برجلٍ بمكةٍ يخبرُ أخباراً، فقعدتُ على راحلتي، فقدمتُ عليه، فإذا رسولُ الله -صلى
الله عليه وسلم- مُستخفياً.

^(٢٠٨) - الرحيق المختوم ص ٧٥.

^(٢٠٩) - انظر أسد الغابة (٥/ ٢٦٠).

وَقَالَ الْحَافِظُ فِي الْإِصَابَةِ: حَدِيْجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ زَوْجُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَأَوَّلُ مَنْ صَدَّقَتْ بِبِعْتِنِهِ مُطْلَقًا (٢١٠)

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَأَمَّنَتْ بِهِ حَدِيْجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَصَدَّقَتْ بِمَا جَاءَهُ مِنَ اللَّهِ، وَوَأَزَّرَتْهُ عَلَى أَمْرِهِ، وَكَانَتْ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَصَدَّقَ بِمَا جَاءَ مِنْهُ، فَخَفَّفَ اللَّهُ بِذَلِكَ عَنْ نَبِيِّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَا يَسْمَعُ شَيْئًا مِمَّا يَكْرَهُهُ مِنْ رَدِّ عَلَيْهِ، وَتَكْذِيبِ لَهُ، فَيَحْزَنُهُ ذَلِكَ، إِلَّا فَرَجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا إِذَا رَجَعَ إِلَيْهَا، تُتَبِّئُهُ وَتُخَفِّفُ عَلَيْهِ، وَتُصَدِّقُهُ وَتُهَوِّنُ عَلَيْهِ أَمْرَ النَّاسِ، رَحِمَهَا اللَّهُ تَعَالَى (٢١١).

دروس و عبر

- ١- فضل خديجة رضي الله عنها، ورباطة جأشها، وصواب رأيها، وفراستها، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((خير نساء أهل الجنة أربع: مريم بنت عمران، وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم، وخديجة بنت خويلد، وآسية امرأة فرعون)) (٢١٢)، وثبت أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((خير نسائها - أي هذه الأمة - خديجة بنت خويلد)) متفق عليه (٢١٣)
- ٢- أن من اتصف بالأخلاق الفاضلة وحرص على مساعدة إخوانه المحتاجين حري بأن يوفق للخير، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((و الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)). رواه مسلم (٢١٤).
- ولذلك ينبغي للمسلم أن يحرص على مساعدة المحتاجين والصدقة على المساكين واليتامى والأرامل، سواء كان ذلك بالمال أو بقضاء حوائجهم، أو بمساعدتهم على قضائهم.
- ٣- فضل الزوجة الصالحة العاقلة، وأنها خير معين لزوجها - بعد الله تعالى - على تحمل الصعاب.
- ٤- أنه ينبغي للمسلم أن يحرص على الاستشارة في الأمور المهمة.

(٢١٠) - انظر الإصابة (٨ / ٩٩)

(٢١١) - انظر سيرة ابن هشام (١ / ٢٧٧).

(٢١٢) - رواه الإمام أحمد في فضائل الصحابة (١٣٣٦ - ١٣٣٩) بأسانيد صحيحة، وصححه الحافظ في الفتح (٧ / ١٣٥).

(٢١٣) - صحيح البخاري (٣٨٦٥)، وصحيح مسلم (٢٤٣٠).

(٢١٤) - صحيح مسلم (٢٦٩٩).

٥ - أنه ينبغي له أن يحرص على استشارة أصحاب الرأي السديد من أهل الصلاح والخبرة، الذين يحرصون على مصلحة من استشارهم، فيشيرون عليه بما يرون أنه خير له وللمسلمين.

وفي المقابل ينبغي أن لا يستشير من عصى الله تعالى وجعل همه الدنيا؛ لأنه لو كان له رأي سديد لما أثر الدنيا القصيرة الفانية على الآخرة الطويلة الباقية، ولم يفكر فيما ينجيه من أهوالها، فشابه من قال الله فيهم: **{ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا }** [الإنسان: ٢٧]

وأيضاً لو كان للعاصي رأي سديد لما عصى الله تعالى وهو يعلم أن المعصية سبب لإحراقه بالنار، وحرمانه من الجنة، وفي صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((كل أمتي يدخلون الجنة، إلا من أبت)) قالوا: ومن أبت يا رسول الله؟ قال: ((من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبت))^(٢١٥)، كما أن العاصي ربما يحمله فسقه على الحسد لمن استشاره، أو يحمله فسقه على أن يشير عليه بأي رأي يخطر بباله دون نظر في مصلحة من استشاره، أو يشير عليه بما فيه مضرة للآخرين، أو معصية .

وكذلك لا يستشير الأحق الذي يضع الأمور في غير موضعها، فيشير عليه بما يضره، وهو يريد أن ينفعه.

٦ - فضل ورقة بن نوفل، وأنه من المؤمنين الموحدين، المشهود لهم بالجنة.

٧ - أن من سنة الله في هذا الكون وجود الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل، بين الأنبياء وأعدائهم من المشركين، وبين أتباع الأنبياء من الدعاة والمصلحين وأعدائهم من الكفار والفساق والمنافقين، فينبغي للداعية إلى الله تعالى أن يتحلى بالصبر والحكمة، وأجره على الله.

٨ - أنه ينبغي للمسلم أن يحرص على مناصرة الأنبياء، وذلك بالدعوة إلى طريقتهم، وبمناصرة الدعوة إلى الله تعالى والأميرين المعروف والناهيين عن المنكر، بشتى الوسائل التي يمكنه القيام بها، وأن يحذر من أن يسلك طريق الكفار والمنافقين والفساق في إيذاء الدعاة إلى الله تعالى سواء أكان ذلك بالقول أم بغيره^(٢١٦). والله أعلم.

^(٢١٥) - صحيح البخاري (٧٢٨٠).

^(٢١٦) - ينظر في شرح قصة إسلام ورقة وبيان بعض فوائدها: شرح مسلم للنووي ٢/ ١٩٧ - ٢٠٤، جامع الأصول: الوحي ١١/ ٢٧٩،

٢٧٨، فتح الباري ١/ ٢٢ - ٢٧، و ٨/ ٧١٦ - ٧٢١، الفتح الرباني: السيرة ٢٠/ ٢٠٧، ٢٠٨

٩ - فضل زيد بن عمرو بن نفيل، وأنه كان من الموحدّين، وأنه يبعث يوم القيامة أمة وحده.

١٠ - أن الفضل لا يكون بالنسب، وإنما بالإيمان والتقوى.

١١ - أن الهداية بيد الله يهبها لمن يشاء، ولهذا لم يستطع النبي صلى الله عليه وسلم هداية عمه أبي طالب إلى الإسلام، لأن الله لم يكتب له ذلك^(٢١٧).

١٢ - إثبات شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لعمه أبي طالب يوم القيامة، فيخفف عنه العذاب من أجل شفاعته، ولكنه لا يخرج من النار.

الدرس العشرون

إِسْلَامُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -:

الحمد لله الذي تفرد في أزليته بعز كبريائه، وتوحد في صمديته بدوام بقائه، ونور بمعرفته قلوب أوليائه، وطيب أسرار القاصدين بطيب ثنائه، وأسبع على الكافة جزيل عطائه، وأمن خوف الخائفين بحسن رجائه، الحي العليم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في أرضه ولا سمائه، القدير لا شريك له في تدبيره وإنشائه.

واشهد إن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو علي كل شيء قدير يا رب

أنا من أنا في الوجود وديعة وغدا سأمضي عابرا في رحلتي

أنا ما مدت يدي إلى غيرك سائل فارحم بفضلك يا مهيمن ذلتي

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفیه من خلقه وحبیبه

^(٢١٧) - ينظر كلام الحافظ ابن القيم الآتي عند بيان فوائد قصة سلمان الفارسي - رضي الله عنه - إن شاء الله تعالى.

خاتم أنبيائه، وسيد أصفياه، المخصوص بالمقام المحمود، في اليوم المشهود، فجمع الأنبياء تحت لوائه

آيات أحمد لا تحد لوصف ولو أنه أملى وعاش دهورا

بشراكموا يا أمة المختار في يوم القيامة جنة وحريرا

فضلتموا حقا بأشرف مرسل خير البرية باديا وحضور

صلى عليه الله ربي دائما ما دامت الدنيا وزاد كثيرا

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين
ونحن معهم يا أرحم الراحمين.

ثم أما بعد:

هو عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، ابْنُ عَمِّ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وهو أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الصَّبِيَّانِ، وُلِدَ
قَبْلَ الْبِعْتَةِ بِعَشْرِ سِنِينَ عَلَى الصَّحِيحِ، فَرُبِّيَ فِي حِجْرِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَلَمْ يُفَارِقْهُ، وَشَهِدَ
مَعَهُ الْمَشَاهِدَ كُلَّهَا إِلَّا غَزْوَةَ تَبُوكَ، وَزَوْجَهُ ابْنَتَهُ فَاطِمَةَ، مَنَاقِبُهُ وَفَضَائِلُهُ كَثِيرَةٌ، حَتَّى قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ:
لَمْ يُنْقَلْ لِأَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَا نُقِلَ لِعَلِيِّ، قُتِلَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فِي صَبِيحَةِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فِي السَّابِعِ
عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ، سَنَةَ أَرْبَعِينَ مِنَ الْهَجْرَةِ. (٢١٨)

إخوة الإسلام يتجدد اللقاء مع سيد الأصفياء صلى الله عليه وسلم لنشرف الآذان بسيرة سيد ولد عدنان
صلى الله عليه وسلم و في هذا اللقاء نقف مع أول من اسلم من الصبيان إنه علي بن أبي طالب رضي
الله عنه-ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم-، ولم يبلغ الحلم حين أسلم، وكان ابن عشر سنين على
الصحيح^(٢١٩)، ولم يعبد الأوثان قط لصغره،

وكان في حجر النبي صلى الله عليه وسلم- قبل أن يوحى إليه، وكان أول من أسلم من
الصبيان^(٢٢١).

(٢١٨) - انظر الإصابة (٤/٤٦٤).

(٢١٩) - قال الحافظ في الفتح (٧/٥٦٦): الأصح في سن علي رضي الله عنه- حين البعث كان عشر سنين.

(٢٢٠) - يقال: نشأ فلان في حجر فلان: أي حفظه وسهره. انظر لسان العرب (٣/٥٩)

(٢٢١) - انظر الروض الأنف (١/٤٢٦) - ودلائل النبوة للبيهقي (٢/١٦١ - ١٦٥) - سيرة ابن هشام (١/٢٨٢).

رَوَى الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ وَابْنُ إِسْحَاقَ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ مُجَاهِدِ بْنِ جَبْرِ قَالَ: كَانَ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، وَمِمَّا صَنَعَ اللَّهُ لَهُ، وَأَرَادَهُ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ: أَنْ قَرِيبًا أَصَابَتْهُمْ أَرْزَمَةٌ شَدِيدَةٌ، وَكَانَ أَبُو طَالِبٍ ذَا عِيَالٍ كَثِيرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِعَمِّهِ الْعَبَّاسِ، وَكَانَ مِنْ أَيْسَرِ بَنِي هَاشِمٍ: يَا أَبَا الْفَضْلِ إِنَّ أَخَاكَ أَبَا طَالِبٍ كَثِيرُ الْعِيَالِ، وَقَدْ أَصَابَ النَّاسَ مَا تَرَى مِنْ هَذِهِ الْأَرْزَمَةِ، فَاذْطَلِقْ بِنَا إِلَيْهِ نُخَفِّفْ عَنْهُ مِنْ عِيَالِهِ، آخِذٌ مِنْ بَنِيهِ رَجُلًا، وَتَأْخِذٌ أَنْتَ رَجُلًا فَتُكْفَلُهُمَا عَنْهُ.

فَقَالَ الْعَبَّاسُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: نَعَمْ، فَاذْطَلِقْنَا حَتَّى آتِيَا أَبَا طَالِبٍ، فَقَالَ لَهُ: إِنَّا نُرِيدُ أَنْ نُخَفِّفَ عَنْكَ مِنْ عِيَالِكَ حَتَّى تَتَكَشَّفَ عَنِ النَّاسِ مَا هُمْ فِيهِ، فَقَالَ لَهُمَا أَبُو طَالِبٍ: إِذَا تَرَكْتُمَا لِي عَقِيلًا فَاصْنَعَا مَا شِئْتُمَا، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلِيًّا -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، وَأَخَذَ الْعَبَّاسُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- جَعْفَرًا -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ عَلِيُّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حَتَّى بَعَثَهُ اللَّهُ نَبِيًّا، فَاتَّبَعَهُ عَلِيُّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وَآمَنَ بِهِ، وَصَدَّقَهُ، وَأَخَذَ الْعَبَّاسُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- جَعْفَرًا -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَلَمْ يَزَلْ جَعْفَرُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- مَعَ الْعَبَّاسِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- حَتَّى أَسْلَمَ، وَاسْتَعْنَى عَنْهُ ^(٢٢٢).

عن عفيف الكندي - رضي الله عنه - قال: جننت في الجاهلية إلى مكة، وأنا أريد أن أبتاع لأهلي من ثيابها وعطرها، فنزلت على العباس بن عبد المطلب، قال: فأنا عنده، وأنا أنظر إلى الكعبة، وقد حلقت الشمس، فارتفعت، إذ أقبل شاب حتى دنا من الكعبة، فرفع رأسه إلى السماء، فنظر، ثم استقبل الكعبة تماما، إذ جاء غلام حتى قام عن يمينه، ثم لم يلبث إلا يسيرا حتى جاءت امرأة، فقامت خلفهما، ثم ركع الشاب، فركع الغلام، وركعت المرأة، ثم رفع الشاب رأسه، ورفع الغلام رأسه، ورفعت المرأة رأسها، ثم خار الشاب ساجداً، وخر الغلام ساجداً، وخرت المرأة، قال: فقلت: يا عباس إنني أرى أمراً عظيماً. فقال العباس: أمر عظيم، هل تدري من هذا الشاب؟ قلت: لا، ما أدري. قال: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي، هل تدري من هذا الغلام؟ قلت: لا، ما أدري. قال: علي بن أبي طالب ابن عبد المطلب ابن أخي. هل تدري من هذه المرأة؟ قلت: لا، ما أدري. قال: هذه خديجة بنت خويلد زوجة ابن أخي هذا الذي ترى، حدثنا أن رب السماوات

^(٢٢٢) - أخرج ذلك: الحاكم في المستدرک - کتاب معرفة الصحابة - باب كفاية النبي - صلى الله عليه وسلم - ليعيال أبي طالب - رقم

الحديث (٦٥٢٢) - وابن إسحاق في السيرة (٢٨٢/١)

والأرض أمره بهذا الدين الذي هو عليه، فهو عليه، ولا والله ما علمت على ظهر الأرض كلها على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة. قال عفيف: فتمنيت بعد أني كنت رابعهم^(٢٢٣)

دروس و عبر

١- أن الحق لا يعرف بكثرة الرجال، بل إن أكثر الخلق يكرهون الحق ويحاربونه، قال الله تعالى: **{وأكثرهم للحق كارهون} [الزخرف: ٧٨]**، وقد قال عدونا الشيطان الرجيم كما حكى الله تعالى عنه: **{قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين} [الأعراف: ١٦، ١٧]**، ولهذا تجد اليوم أكثر أهل الأرض في ضلال، فالمنتسبون إلى الإسلام لا يشكلون سوى سدس العالم أو أقل، وإذا أمعنت النظر في هذا السدس وجدت أكثرهم غثاء كغثاء السيل، بل إن الكثير منهم لا يصلي، فهم من عداد الكفار الضالين، لما رواه مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((بين الرجل وبين الكفر والشرك ترك الصلاة))^(٢٢٤)، وبعضهم قد وقع في الشرك بعبادة القبور أو بالغلو في الصالحين، أو بغير ذلك.

٢- أن أتباع الأنبياء -وبالأخص في أول أمرهم- هم الفقراء، وقد ثبت عن هرقل ملك الروم أنه قال لأبي سفيان - رضي الله عنه -: فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقال أبو سفيان: بل ضعفاؤهم. ثم قال هرقل في آخر كلامه: سألتك أشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل. رواه البخاري^(٢٢٥)، وذلك لأن أصحاب المال أو الجاه قد يمنعمهم مالهم أو جاههم من اتباع الحق تكبراً أو خوفاً على جاههم، فيتلاعب بهم الشيطان، فيكونون أتباعاً له، بدلاً من أن يكونوا عباداً لخالقهم ورازقهم

٣- أنه ينبغي للداعية الصبر على ما يلاقيه في سبيل دعوته، واستعمال الوسائل التي تحمي دعوته من السرية وغيرها.

٤- أنه ينبغي للداعية استعمال كل أسلوب مباح يرجى أن يكون نافعاً لاقتناع المدعوين بدين الإسلام أو بالتمسك بتعاليمه، ولعله من أجل هذا أخفى أبو زر - رضي الله عنه - إسلامه على بريدة ونعيم لما

^(٢٢٣) - رواه ابن سعد ٨ / ١٧، ١٨، والنسائي في خصائص علي (٥)، والطبري في تاريخه ٢ /

^(٢٢٤) - صحيح مسلم (٨٢).

^(٢٢٥) - صحيح البخاري (٧).

جاء بهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ثم نطق بالشهادة قبلهما، كأنه لتوه أسلم، ليقتديا به، مع أنه قد أسلم قبل ذلك.

هـ- أن العاقل يجب عليه قبول الحق وإن أعرض عنه، ليكون من السابقين إلى الخير، ولئلا يباغته الأجل وهو معرض عنه، فيشقى في الدنيا والآخرة.^(٢٢٦)

الدرس الحادي العشرون

إسلام زيد بن حارثة - رضي الله عنه - :

أيها الأحباب الكرام يتجدد اللقاء مع إمام الأتقياء صلى الله عليه وسلم و مع أول من أسلم من الموالى انه ثم أسلم مَوْلَاهُ هو زَيْدُ بنِ حَارِثَةَ بنِ شُرْحَيْبِلَ، أبو أسامة، وحبُّ رسولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-، كان لخديجةَ أَوْلًا، فوهبتهُ إلى رسولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- قَبْلَ النُّبُوَّةِ، فَتَبَّأَهُ، فكان يُقال له: زيدُ بن محمد، ولم يَزَلْ كذلك حتى أنزل اللهُ: {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ} "الأحزاب آية هـ"، وهاجرَ وشَهِدَ بَدْرًا وما بَعْدَهَا، إلى أن بَعَثَهُ رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- عامَ ثمانٍ للهجرةِ أميرًا على جيشِ مُؤْتَةَ، فلقوا الرومَ هنالك في جَمْعٍ عَظِيمٍ في معركةِ مُؤْتَةَ، فقتلَ هنالك - رضي اللهُ عنه-، وعُمُرُهُ خمس وخمسونَ سنةً.^(٢٢٧)

وهو أولُ مَنْ أسلمَ مِنَ المَوَالِي، ويُقالُ لَهُ حِبُّ النَبِيِّ -صلى الله عليه وسلم-، وهو الذي آثرَ رسولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- على والدِهِ وأهلِهِ.

^(٢٢٦) - قصص إسلام الصحابة (ص: ٢٣)

(٢٢٧) - انظر الإصابة (٢/ ٤٩٤).

وَسَبَبٌ وَجُودِهِ عِنْدَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ وَحَسَنُهُ، وَابْنُ إِسْحَاقَ فِي السَّيْرَةِ: أَنَّ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ قَدِمَ مِنَ الشَّامِ بَرَقِيقٍ، فِيهِمْ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، فَقَالَ لَهَا: اخْتَارِي أَيَّ هَؤُلَاءِ الْغُلَمَانِ شِئْتِ، فَهُوَ لَكَ، فَاخْتَارَتْ زَيْدًا فَأَخَذَتْهُ، فَلَمَّا رَأَاهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَعْجَبَهُ فَاسْتَوْهَبَهُ مِنْهَا، فَوَهَبَتْهُ لَهُ، فَأَعْتَقَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَتَبَّنَاهُ، فَكَانَ يُدْعَى زَيْدَ بْنَ مُحَمَّدٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبُوهُ حَارِثَةُ قَدْ جَزَعَ عَلَيْهِ جَزَعًا شَدِيدًا، وَبَكَى عَلَيْهِ حِينَ فَقَدَهُ، وَقَالَ فِيهِ:

بَكَيْتُ عَلَى زَيْدٍ وَلَمْ أَدْرِ مَا فَعَلَ ... أَحْيِيَّ فَيَرْجِي أَمْ أَتَى دُونَهُ الْأَجَلَ

فَوَ اللَّهُ مَا أَدْرِي وَإِنِّي لَسَائِلٌ ... أَغَالِكَ بَعْدِي السَّهْلُ أَمْ غَالِكَ الْجَبَلُ

وَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ لَكَ الدَّهْرُ أُوبَةً (٢٢٨) ... فَحَسْبِي مِنَ الدُّنْيَا رُجُوعُكَ لِي بَجَلُ (٢٢٩)

تُذَكِّرُنِيهِ الشَّمْسُ عِنْدَ طُلُوعِهَا ... وَتَعْرِضُ ذِكْرَاهُ إِذَا غَرَبَهَا أَفَلُ (٢٣٠)

وَإِنْ هَبَّتِ الْأَرْوَاحُ هَيَّجَنَ ذِكْرَهُ ... فَيَا طَوَّلَ مَا حُزْنِي عَلَيْهِ وَمَا وَجَلَ

سَأَعْمَلُ نَصًّا (٢٣١) الْعَيْشُ فِي الْأَرْضِ جَاهِدًا ... وَلَا أَسَامُ التَّطَوَّافَ أَوْ تَسَامُ الْإِبِلَ

حَيَاتِي أَوْ تَأْتِي عَلَيَّ مَنِيَّتِي ... فَكُلُّ أَمْرِي فَإِنْ وَإِنْ غَرَّهُ الْأَمَلُ

فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ بِمَكَّةَ قَدِمَهَا لِيَفْدِيَهُ، فَدَخَلَ حَارِثَةَ وَأَخُوهُ عَلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: يَا ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ! يَا ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! يَا ابْنَ هَاشِمٍ! يَا ابْنَ سَيِّدِ قَوْمِهِ! أَنْتُمْ أَهْلُ الْحَرَمِ، وَجِيرَانُهُ وَعِنْدَ بَيْتِهِ، تَفُكُونَ الْعَانِي، وَتَطْعِمُونَ الْأَسِيرَ، جِئْنَاكَ فِي ابْنِنَا عِنْدَكَ، فَاثْمُنْ عَلَيْنَا، وَأَحْسِنْ إِلَيْنَا فِي فِدَائِهِ، فَإِنَّا سَتَرْفَعُ لَكَ فِي الْفِدَاءِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "مَنْ هُوَ؟" قَالَ: زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، فَدَعَى رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- زَيْدًا، فَقَالَ لَهُ: "إِنْ شِئْتَ فَأَقِمْ عِنْدِي، وَإِنْ شِئْتَ فَانْطَلِقْ مَعَ أَبِيكَ"، فَقَالَ زَيْدٌ: بَلْ أَقِيمُ عِنْدَكَ، وَمَا أَنَا بِالَّذِي أَخْتَارُ عَلَيْكَ أَحَدًا، أَنْتَ مَنِّي بِمَكَانِ الْأَبِ وَالْأُمِّ،

(٢٢٨) - الأوب: الرجوع. انظر لسان العرب (١/٢٥٨).

(٢٢٩) - البجل: العجب. انظر لسان العرب (١/٣١٩).

(٢٣٠) - أفلت الشمس: غابت. انظر لسان العرب (١/١٦٧).

(٢٣١) - النص: منتهى الأشياء ومبلغ أقصاها. انظر لسان العرب (١٤/١٦٣).

فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا زَيْدُ أَتُحْتَارُ الْعُبُودِيَّةَ عَلَى الْحُرِّيَّةِ، وَعَلَى أَيْبِكَ وَعَمَّكَ وَأَهْلَ بَيْتِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ شَيْئًا، مَا أَنَا بِالَّذِي أَحْتَارُ عَلَيْهِ أَحَدًا أَبَدًا، فَلَمْ يَزَلْ زَيْدٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- حَتَّى بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَصَدَّقَهُ، وَأَسْلَمَ، وَصَلَّى مَعَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ} (سورة الأحزاب آية رقم (٥)). قَالَ: أَنَا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ^(٢٣٢)

* **بَنَاتُ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم-:** كَذَلِكَ سَارَعَ إِلَى الْإِسْلَامِ بَنَاتُ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم-، لِأَنَّهُ لَا شَكَّ فِي تَمَسُّكِهِنَّ قَبْلَ الْبِعْثَةِ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ أَبُوهُنَّ مِنَ الْإِسْتِقَامَةِ، وَحُسْنِ السَّيْرَةِ، وَالْتَنَزُّهِ عَمَّا كَانَ يَفْعَلُهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَالْوُقُوعِ فِي الْآثَامِ، وَفِي اقْتِدَائِهِنَّ بِأُمَّهِنَّ فِي الْمَسَارَعَةِ إِلَى الْإِيمَانِ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَأَمَّا بَنَاتُهُ -صلى الله عليه وسلم- فَكُلُّهُنَّ أَدْرَكْنَ الْإِسْلَامَ، فَأَسْلَمْنَ وَهَاجَرْنَ مَعَهُ -صلى الله عليه وسلم-^(٢٣٣)

^(٢٣٢) - أخرج ذلك: الترمذي في جامعه - كتاب المناقب - باب مناقب زيد بن حارثة - رضي الله عنه - رقم الحديث (٤١٤٩) -

وابن إسحاق في السيرة (١/ ٢٨٤)

^(٢٣٣) - انظر سيرة ابن هشام (١/ ٢٢٧).

الدرس الثاني والعشرون

تابع الدعوة السرية

الحمد لله قدم نبينا على كل نبي أرسله، وكتابتنا على كل كتاب أنزله، وجعل أمتنا الأخيرة الأولة،
فله الشكر من معتقد أنه به وله، لا غنى إلا في طاعنه ولا اعز إلا في التذلل لعظمته، حمدا لمن له البقاء
والدوام، حمدا لمن أخرجنا بنوره الحق وهديه القيم من غياهب الظلام، حمدا لربنا اللطيف والخبير،
القاهر السميع والبصير، الفالق الإصباح والنوى مجير من به استجار، حمدا له منزل الأنفال والأعراف
والإنسان والأنعام، على نبيه محمدا افضل خلقه عليه افضل الصلاة والسلام

أما بعد: فيا إخوة الإسلام كما رأينا بدا النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الإسلام سرا و بدأ
بأقرب الناس إليه ثم انتقل إلى أصدقائه فهيا لنى ثمرة تلك الدعوة

إِسْلَامُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-

التعريف بأبي بكر رضي الله عنه : هو عبد الله بن عثمان بن عامر القرشي التيمي، صديق هذ
الأمّة، وخليفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. ولد بعد الفيل بسنتين وأشهر، صحب النبي -صلى
الله عليه وسلم- قبل البعثة، وسبق إلى الإيمان، واستمر معه طول إقامته بمكة، ورافقه في الهجرة، وفي
الغار، وفي المشاهد كلها إلى أن مات -صلى الله عليه وسلم-، كان لقبه عتيقا، واشتهر به، وهو أفضل
هذه الأمّة بعد نبيها -صلى الله عليه وسلم-، ومناقبه تفوق الحصر.

تُوْفِي -رضي الله عنه- يوم الاثنين في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة من الهجرة، وهو ابن ثلاث وستين سنة. (٢٣٤)

إسلام أبي بكر رضي الله عنه : أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ خَارِجِ بَيْتِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ -رضي الله عنه- فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِالرَّسُولِ -صلى الله عليه وسلم- مِنَ الرِّجَالِ الْبَالِغِينَ الْأَحْرَارِ، وَكَانَ صَدِيقًا لِلنَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- قَبْلَ الْبِعْثَةِ، وَهُوَ أَصْغَرُ مِنَ الرَّسُولِ -صلى الله عليه وسلم- بِسَنَتَيْنِ وَنِصْفٍ تَقْرِيبًا، وَكَانَ يَعْلَمُ مِنْ صِدْقِهِ، وَأَمَانَتِهِ، وَحُسْنِ سَجِيئِهِ، وَكَرَمِ أَخْلَاقِهِ مَا يَمْنَعُهُ مِنَ الْكُذْبِ عَلَى الْخَلْقِ، وَلِهَذَا مَا إِنَّ ذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ بَادِرَ إِلَى تَصَدِيقِهِ، وَلَمْ يَتَلَعَّمْ.

قَالَ الرَّسُولُ -صلى الله عليه وسلم- عَنْهُ : " مَا دَعَوْتُ أَحَدًا إِلَى الْإِسْلَامِ إِلَّا كَانَتْ عِنْدَهُ كِبُورَةٌ " (٢٣٥)، وَنَظَرٌ، وَتَرَدُّدٌ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ، مَا عَكَمَ (٢٣٦) عَنْهُ حِينَ ذَكَرْتَهُ لَهُ، وَمَا تَرَدَّدَ فِيهِ " (٢٣٧)

الأدلة على تقدم إسلام أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-:

قُلْتُ: الأدلة كثيرة على أن أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- أول من أسلم من الرجال، فمن ذلك ما رواه الترمذي في جامعِه بسندٍ حسنٍ عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: قال أبو بكر -رضي الله عنه- عند ما بُويِعَ بالخِلافةِ: أَلَسْتُ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَا؟ أَلَسْتُ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ؟ (٢٣٨)

قال: سألت ابن عباس -رضي الله عنه-: من أول من أسلم؟، فقال -رضي الله عنه-: أبو بكر الصديق، ثم قال: أما سمعت قول حسان -رضي الله عنه-:

(٢٣٤) - انظر الإصابة (٤/ ١٤٥).

(٢٣٥) - الكِبُورَةُ: هي الوَقْفَةُ كَوَقْفَةِ الْعَائِرِ، أَوِ الْوَقْفَةُ عِنْدَ الشَّيْءِ يَكْرَهُهُ الْإِنْسَانُ. انظر النهاية (٤/ ١٢٧).

(٢٣٦) - قال ابن هشام في السيرة (١/ ٢٨٨): عَكَمَ: أي تَلَبَّثَ.

(٢٣٧) - أورد هذا الحديث ابن الأثير في جامع الأصول (٨/ ٥٨٥) -وعزاه إلى الديلمي في مسند الفردوس عن ابن مسعود -رضي الله عنه- وأخرجه ابن إسحاق في السيرة (١/ ٢٨٨) وإسناده منقطع.

(٢٣٨) - أخرجه الترمذي في جامعِه - كتاب المناقب - باب في مناقب أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- رقم الحديث (٣٩٩٧) - وأورده ابن الأثير في جامع الأصول - رقم الحديث (٦٤٢٢).

إِذَا تَذَكَّرْتَ شَجْوًا (٢٣٩) مِنْ أَخِي ثِقَةً فَادْكُرْ أَخَاكَ أَبَا بَكْرٍ بِمَا فَعَلَا

التَّالِيَّ التَّانِيَّ الْمَحْمُودُ مَشْهُدُهُ وَأَوَّلُ النَّاسِ مِنْهُمْ صَدَقَ الرَّسُلَا

والتَّانِيَّ اتَّئِنِّينَ فِي الْعَارِ الْمُنِيفِ وَقَدْ طَافَ الْعَدُوُّ بِهِ إِذْ صَعَدَ الْجَبَلَا

وَكَانَ حِبًّا (٢٤٠) رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمُوا مِنْ الْبَرِيَّةِ لَمْ يَعِدِلْ بِهِ رَجُلَا

خَيْرُ الْبَرِيَّةِ اتَّقَاهَا وَأَرَأَفَهَا بَعْدَ النَّبِيِّ وَأَوْفَاهَا بِمَا حَمَلَا (٢٤١)

قَالَ الْإِمَامُ السُّهَيْلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: فِي مَدْحِ حَسَّانَ الَّذِي قَالَ فِيهِ، وَسَمِعَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يُنْكِرْهُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ أَوْلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الرَّجَالِ (٢٤٢)

وَرَوَى الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَأَسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي؟" مَرَّتَيْنِ (٢٤٣)

بركة أبي بكر الصديق ودعوته للإسلام:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا أَسْلَمَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ، وَدَعَا إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، . . . وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مُؤَلَّفًا (٢٤٤) لِقَوْمِهِ، مُحَبَّبًا سَهْلًا، وَكَانَ أَنْسَبَ قُرَيْشٍ لِقُرَيْشٍ، وَأَعْلَمَ قُرَيْشٍ بِهَا وَبِمَا، كَانَ فِيهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَكَانَ رَجُلًا تَاجِرًا، ذَا خُلُقٍ (٢٤٥)

(٢٣٩) - الشَّجْوُ: الْحُزْنُ. انظر النهاية (٤٠١/٢).

(٢٤٠) - الْحِبُّ: أَي مَحْبُوبُهُ. انظر النهاية (٣١٦/١).

(٢٤١) - أخرج الحاكم في المستدرک - كتاب معرفة الصحابة - باب استنشاده - صلى الله عليه وسلم - في مدح الصديق - رقم الحديث

(٤٤٧٠) - وأخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة رقم الحديث (١٠٣) - وأخرجه البغوي في معجم الصحابة عن ابن عباس رضي

الله عنهما - بسند حسن - وانظر الأبيات في ديوان حسان بن ثابت - رضي الله عنه - ص ١٧٩.

(٢٤٢) - الرَّوْضُ الْأَنْفُ (٤٣١/١).

(٢٤٣) - أخرج البخاري في صحيحه - كتاب فضائل أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - باب قول النبي - صلى الله عليه وسلم -:

"لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا" - رقم الحديث (٣٦٦١).

(٢٤٤) - قال الإمام السندي في شرح المسند (١٠٧/١٥): أَي هُوَ مَحَلٌّ وَمَطْنَةٌ لِلْإِلْفِ، لِحُسْنِ خُلُقِهِ، وَكَرَمِ طَبْعِهِ، وَمَحَبَّتِهِ لغيرِهِ، مَثَلُ

مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ.

(٢٤٥) - يُقَالُ: رَجُلٌ نَسَابَةٌ: أَي بَلِيغُ الْعِلْمِ بِالْأَنْسَابِ. انظر النهاية (٣٩/٥).

وَمَعْرُوفٍ، وَكَانَ رِجَالُ قَوْمِهِ يَأْتُونَهُ، وَيَأْلَفُونَهُ لِعَيْرٍ وَاحِدٍ مِنَ الْأَمْرِ، لِعَلِمِهِ، وَتِجَارَتِهِ، وَحُسْنِ مُجَالَسَتِهِ، فَجَعَلَ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَإِلَى الْإِسْلَامِ مَنْ وَثِقَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ، مِمَّنْ يَعُشَاهُ، وَيَجْلِسُ إِلَيْهِ (٢٤٦)

ذَكَرَ مَنْ أَسْلَمَ عَلَى يَدِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -

فَأَسْلَمَ بِدَعَائِهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : عَثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ، وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ فَكَانَ هَؤُلَاءِ النَّفَرُ الَّذِينَ سَبَقُوا النَّاسَ هُمْ الرَّعِيلُ الْأَوَّلُ، وَطَلِيعَةُ الْإِسْلَامِ.

فَجَاءَ بِهِمْ أَبُو بَكْرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حِينَ اسْتَجَابُوا لَهُ، وَأَسْلَمُوا وَأَصْبَحُوا مِنْ جُنُودِ الْإِسْلَامِ الْمُخْلِصِينَ لِدَعْوَتِهِ.

ثُمَّ تَلَاهُمْ جَمْعٌ آخَرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْأَوَائِلِ وَهُمْ: أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ، وَأَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الْأَسَدِ ، وَالْأَرْقَمُ بْنُ أَبِي الْأَرْقَمِ، وَعَثْمَانُ بْنُ مَطْعُونٍ وَأَخُوهُ قُدَامَةُ وَعَبْدُ اللَّهِ ، وَعُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ نُفَيْلٍ ، وَأَمْرَأَتُهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ الْخَطَّابِ ، وَأَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، وَأُمُّ الْفَضْلِ، وَهِيَ لُبَابَةُ الْكُبْرَى بِنْتُ الْحَارِثِ ، وَخَبَّابُ بْنُ الْأَرْتِّ ، وَعُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ ، وَعُمَيْرُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ أَخُو سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ حَلِيفُ بَنِي زُهْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.*

تَسَامَعُ النَّاسُ دَعْوَةَ الْإِسْلَامِ:

ثُمَّ بَدَأَ النَّاسُ يَتَسَامَعُونَ بِرِسَالَةِ الْإِسْلَامِ، وَسَارَعَ الْفُقَرَاءُ إِلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، فَأَسْلَمَ مَسْعُودُ بْنُ رَبِيعَةَ الْقَارِي ، وَسَلَيْطُ بْنُ عَمْرٍو ، وَأَخُوهُ حَاطِبٌ ، وَعِيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَأَمْرَأَتُهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ سَلَامَةَ ، وَخُنَيْسُ بْنُ حُدَافَةَ وَعَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ ، وَأَخُوهُ أَبُو أَحْمَدَ عَبْدُ بْنُ جَحْشٍ ، وَجَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَأَمْرَأَتُهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ ، وَحَاطِبُ بْنُ الْحَارِثِ ، وَأَمْرَأَتُهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ الْمُجَلَّلِ ، وَأَخُوهُ حَطَّابُ بْنُ الْحَارِثِ ، وَأَمْرَأَتُهُ فُكَيْهَةُ بِنْتُ يَسَارٍ ، وَمَعْمَرُ بْنُ الْحَارِثِ ، وَالسَّائِبُ بْنُ مَطْعُونٍ ، وَالْمُطَّلِبُ بْنُ أَزْهَرَ ، وَأَمْرَأَتُهُ رَمْلَةُ بِنْتُ أَبِي عَوْفٍ ، وَنُعَيْمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّحَّامِ ، وَبِلَالُ بْنُ رَبَاحِ الْحَبَشِيُّ ، وَمُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ ، وَعَمْرُو بْنُ عَبْسَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

(٢٤٦) - انظر سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٦).

أَسْلَمَ هَوْلَاءَ سِرًّا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَجْتَمِعُ بِهِمْ، وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى الدِّينِ مُسْتَخْفِيًّا، لِأَنَّ الدَّعْوَةَ كَانَتْ لَا تَزَالُ فَرْدِيَّةً وَسِرِّيَّةً، وَكَانَ الْوَحْيُ قَدْ تَتَابَعَ وَحَمِيَّ بَعْدَ نُزُولِ أَوَائِلِ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ، وَكَانَتْ الْآيَاتُ وَقِطْعُ السُّورِ الَّتِي تَنْزَلُ فِي هَذَا الزَّمَانِ آيَاتٍ قَصِيرَةً، ذَاتَ فَوَاصِلٍ رَائِعَةٍ مَنِيَعَةٍ، وَإِقَاعَاتٍ هَادِيَةٍ خَلَابَةٍ تَتَنَاسَقُ مَعَ ذَلِكَ الْجَوْ هَامِسِ الرَّقِيقِ، تَشْتَمِلُ عَلَى تَحْسِينِ تَرْكِيبَةِ النَّفْسِ، وَتَقْبِيحِ تَلْوِيئِهَا بِالشَّهَوَاتِ، تَصِفُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ كَأَنَّهُمَا رَأْيَا عَيْنٍ، تَسِيرُ بِالمُؤْمِنِينَ فِي جَوْ آخَرَ غَيْرِ الَّذِي فِيهِ الْمُجْتَمَعُ البَشَرِيُّ آنَذَاكَ. (٢٤٧)

دروس وعبر:

- ١- أن أبا بكر رضي الله عنه هو أفضل الصحابة - رضي الله عنهم -.
- ٢- أنه ينبغي للمسلم المبادرة إلى الاعتذار ممن أخطأ عليه وعدم التسوية في ذلك، ومثله من وقع في معصية من معاصي الله تعالى، فيجب عليه أن يبادر إلى التوبة منها.
- ٣- أنه ينبغي أن يعرف لأهل الفضل فضلهم.
- ٤- أنه من كانت له سوابق حسنة كثيرة ينبغي أن تغتفر زلاته اليسيره.
- ٥- أن العفو والصفح عن زلات الآخرين خلق إسلامي رفيع اتصف به أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.
- ٦- أن اعتراف المسلم بخطئه وطلب العفو عنه ممن أخطأ عليه فضيلة من الفضائل وخلق كريم لا يتصف به إلا أهل العدل والإنصاف.
- ٧- أن وقوع الخطأ من أهل الفضل لا يقدر في فضلهم، فكل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون.
- ٨- أنه ينبغي على الإنسان إذا ظلم غيره أن يبادر إلى طلب المسامحة والعفو ممن ظلمه.
- ٩- أنه يستحب للجليس أن يلاحظ ويراعي حال جليسه ومن يخاطبه وما يظهر على وجهه من تغير فرح أو حزن أو غضب، ولهذا لاحظ أبو بكر - رضي الله عنه - تغير وجه النبي صلى الله عليه وسلم، وعمل على إيضاح الأمر الذي كان سبباً في تغير وجهه عليه الصلاة والسلام.

(٢٤٧) - الرحيق المختوم مع زيادات (ص: ٣٢)

١٠- أن الركبة ليست من العورة، وإنما هي نهاية العورة، لأن عورة الرجل التي يحرم عليه أن يظهرها أمام الآخرين هي من السرة إلى الركبة.

١١- جواز مدح الإنسان في وجهه إذا كان في ذلك مصلحة وأمن على المدوح من العجب أو الاغترار بهذا المدح

الدرس الثالث والعشرون

إسلام سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه -

الحمد لله البعيد في قُربه، القريب في بعده، المتعالي في رفيع مجده، عن الشيء وضده، الذي أوجد بقدرته الوجود بعد أن كان عَدَمًا، وأودع كل موجود حكمًا، وجعل العقل بينهما حكَمًا، ليميز بين الشيء وضدّه، وألهمه بما علّمه فعلم مرّ مذاق مصابه من حلاوة شهبه. فمن فكر بصحيح قصده، ونظر بتوفيق رُشده، علم أن كل مخلوق موثوق في قبضتي شقائه وسعده، مرزوقٌ من خزائن نعمه ورفدهواشهد إن لا اله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفیه من خلقه وحبیبه

صلوا على هذا النبي الكريم تحظوا من الله بالأجر العظيم

وتظفروا بالفوز من ربكم وجنة فيها نعيم مقيم

طوبى لعبد مخلص في الوری صلی علی ذاك الجناب الكريم

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين ونحن معهم يا أرحم الراحمين

هو سعد بن أبي وقاص، وأبو وقاص، اسمه: مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، يلتقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في كلاب.

عن سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - قال: ما أسلم أحد في اليوم الذي أسلمت فيه، ولقد مكثت سبعة أيام وإني لثلث الإسلام. رواه البخاري^(٢٤٨).

^(٢٤٨) - صحيح البخاري: مناقب الأنصار، باب إسلام سعد (٣٨٥٨)، وهذا حسب علمه - رضي الله عنه - وإلا فقد أسلم قبله أربعة بإجماع أهل العلم، وقد كان الصحابة في هذا الوقت يخفون إسلامهم. البداية والنهاية ٥ / ٨٠، فتح الباري ٧ / ٨٤، ١٧٠

وعن سعد بن أبي وقاص أيضاً أنه قال لما شكاه أهل الكوفة بالعراق إلى عمر بن الخطاب، فقالوا: إنه لا يحسن يصلي وكان ممن شكاه بعض بني أسد فقال - رضي الله عنه - : (إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله، وكنا نغزو مع النبي - صلى الله عليه وسلم - وما لنا طعام إلا ورق الشجر، حتى إن أحدنا ليضع كما يضع البعير أو الشاة ماله خلط، ثم أصبحت بنو أسد تُعزّرنِي على الإسلام - أي تعيرني بأني لا أحسن أصلي - قال سعد: (لقد خبت إذاً وذل عملي) رواه البخاري^(٢٤٩) .

عن مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ - رضي الله عنه - أَنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِ آيَاتٌ مِنَ الْقُرْآنِ قَالَ حَلَفْتُ أَمْ سَعْدٍ أَنْ لَا تُكَلِّمَهُ أَبَدًا حَتَّى يَكْفُرَ بِدِينِهِ وَلَا تَأْكُلَ وَلَا تَشْرَبَ قَالَتْ زَعَمْتَ أَنَّ اللَّهَ أَوْصَاكَ بِوَالِدَيْكَ فَأَنَا أُمُّكَ وَأَنَا أَمْرُكَ بِهِذَا قَالَ مَكَثْتُ ثَلَاثًا حَتَّى غَشِيََ عَلَيْهَا مِنَ الْجَهْدِ فَقَامَ ابْنُ لَهَا يُقَالُ لَهُ عِمَارَةٌ فَسَقَاهَا فَجَعَلَتْ تَدْعُو عَلَى سَعْدٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَةَ {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا }
[العنكبوت: ٨]، {وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي

الدُّنْيَا مَعْرُوفًا } [لقمان: ١٥] قَالَ وَأَصَابَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - غَنِيمَةً عَظِيمَةً فَأِذَا فِيهَا سَيْفٌ فَأَخَذَتْهُ فَأَتَيْتُ بِهِ الرَّسُولَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقُلْتُ تَقْلِنِي هَذَا السَّيْفَ فَأَنَا مَنْ قَدْ عَلِمْتَ حَالَهُ فَقَالَ رُدُّهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ فَانْطَلَقْتُ حَتَّى إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أُلْقِيَهُ فِي الْقَبْضِ^(٢٥٠) لَأَمْتِنِي نَفْسِي فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ أَعْطِنِيهِ قَالَ فَشَدَّ لِي صَوْتَهُ رُدُّهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ قَالَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ) قَالَ وَمَرِضْتُ فَأَرْسَلْتُ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَتَانِي فَقُلْتُ دَعْنِي أَقْسِمَ مَالِي حَيْثُ شِئْتُ قَالَ فَأَبَى قُلْتُ فَالْنِّصْفَ قَالَ فَأَبَى قُلْتُ فَالْثُلُثَ قَالَ فَسَكَتَ فَكَانَ بَعْدَ الثُّلُثِ جَائِزًا قَالَ وَأَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ فَقَالُوا تَعَالَ نُطْعِمَكَ وَنَسْقِيكَ حَمْرًا وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تُحَرَّمَ الْحَمْرُ قَالَ فَأَتَيْتُهُمْ فِي حَشٍّ وَالْحَشُّ الْبُسْتَانُ إِذَا رَأْسُ جَزُورٍ مَشُوبٍ عِنْدَهُمْ وَزِقٌّ مِنْ حَمْرٍ قَالَ فَأَكَلْتُ وَشَرِبْتُ مَعَهُمْ قَالَ فَذَكَرْتُ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرِينَ عِنْدَهُمْ فَقُلْتُ الْمُهَاجِرُونَ خَيْرٌ مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَ فَأَخَذَ رَجُلٌ أَحَدَ لَحْيِي الرَّأْسِ فَضْرَبَنِي بِهِ فَجَرَحَ بَأَنْفِي فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَخْبَرْتُهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيَّ - يَعْنِي نَفْسَهُ - شَأْنَ الْحَمْرِ (إِنَّمَا الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ). (٢٥١) .

^(٢٤٩) - صحيح البخاري (٣٧٢٨).

(٢٥٠) - هو الوضع الذي تجمع فيه الغنائم.

(٢٥١) - صحيح مسلم (١٧٤٨).

الفوائد والعبر:

١- فضل السابقين الأولين من المسلمين، قال الله تعالى: {لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [الحديد: ١٠] وفضل من سبق إلى خير فاقتدى به من سواء.

٢- فضل سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه -.

٣- أن الحق لا يعتبر بكثرة العدد، وإنما بموافقة شرع الله تعالى.

٤- أن بر الوالدين وصلة الأرحام حق واجب، ولكن حق الله تعالى أوجب، فإذا تعارض حق الله تعالى مع رضى أحد سواه وجب تقديم حق الله تعالى، عَنْ عَلِيٍّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَا طَاعَةَ لِبَشَرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ» (٢٥٢).

٥- وجوب الثبات على دين الله والصبر على الأذى فيه.

٦- عظم أمانة الصحابة -رضي الله عنهم -ولهذا لم يأخذ سعد رضي الله عنه شيئاً من الغنيمة قبل قسمتها، لأن هذا من الغلول المحرم، ولهذا ينبغي للإنسان الحذر من الوقوع في أي نوع من أنواع الغلول، ومن ذلك أن يأخذ الإنسان مالاً من بيت مال المسلمين - وهو الذي يسميه العامة: مال الحكومة - بغير حق، فإن هذا من أعظم الغلول الذي ورد في شأنه وعييد شديد.

٧- أنه يحرم على الإنسان أن يتصرف في ماله بما يخالف شرع الله تعالى.

٨- بيان أضرار الخمر.

(٢٥٢) - أخرجه ابن أبي شيبة (٥٤٤/٦)، رقم (٣٣٧٠٩). وأخرجه أيضاً: أحمد (١٢٩/١، ١٠٦٥)، وابن حبان (٤٣٠/١٠)، رقم

الدرس الرابع والعشرون

إسلام عثمان بن عفان - رضي الله عنه -

الحمد لله الذي تفرد بجلال ملكوته ، وتوحد بجمال جبروته وتعزز بعلو أحديته ، وتقدس بسمو صمديته ، وتكبر في ذاته عن مضارعة كل نظير ، وتنزه في صفائه عن كل تناه وقصور ، له الصفات المختصة بحقه ، والآيات الناطقة بأنه غير مشبهه بخلقه .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير ، شهادة موقن بتوحيده ، مستجير بحسن تأييده

يا واحد في ملكه أنت الأحد ولقد علمت أنك الفرد الصمد

لا أنت مولود ولست بوالد كلا ولا لك في الورى كفوا أحد

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفیه من خلقه وحبیبه

هذا النبي محمد خير الورى ونبيهم وبه تشرف آدم

وله البها وله الحياء بوجهه كل الغنى من نوره يتقسم

يا فوز من صلى عليه فانه في جنة المأوى غدا يتنعم

صلى عليه الله جل جلاله ما راح حاد باسمه يترنم

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين
ونحن معهم يا أرحم الراحمين

إخوة الإسلام حياكم الله تعالى وبيياكم وجمعنا الله في الدنيا على طاعته و في الآخرة في مستقر رحمته
: يتجدد اللقاء مع سيرة سيد الأتقياء و إمام الأنبياء صلى الله عليه وسلم لنقف مع أحد السابقين إلى
الإسلام السابقين إلى الخيرات ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه-

التعريف به رضي الله عنه : عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي أمير
للمؤمنين أبو عبد الله وأبو عمرو، وأمه أروى بنت كُرَيْز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، وأمها
البيضاء بنت عبد المطلب عمّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولد بعد الفيل بست سنين على الصحيح، وكان ربعة حسن الوجه رقيق عظيم اللحية بعيد ما بين
المنكبين.

أسلم قديماً قال ابن إسحاق: كان أبو بكر مؤلفاً لقومه فجعل يدعو إلى الإسلام من يثق به فأسلم على
يده فيما بلغني الزبير وطلحة وعثمان وزوجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ابنته رقية وماتت عنده
أيام بدر، فزوجه بعدها أختها أم كلثوم فلذلك كان يلقب ذا النورين.

وجاء من أوجه متواترة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشره بالجنة وعده من أهل الجنة وشهد
له بالشهادة. (٢٥٣)

و لندع الحث لعثمان ليحدثنا عن مناقبه رضي الله عنه عن عبيد الله بن عدي بن الحيار: أن المسور
بن مخزومة وعبد الرحمن بن الأسود قالاً له: ما يمنعك أن تكلم أمير المؤمنين عثمان في شأن أخيه
الوليد بن عقبة (٢٥٤)، فقد أكثر الناس فيه؟ فقصدت لعثمان حين خرج إلى الصلاة، وقلت: إن لي حاجة
وهي نصيحة. قال: يا أيها المرء، أعوذ بالله منك، فأنصرفت، إذ جاء رسول عثمان فأتيته فقال: ما
نصحتك؟ فقلت: إن الله عز وجل بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق، وأنزل عليه الكتاب،
وكنت ممن استجاب لله ورسوله، فهاجرت الهجرتين، وصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم،
ورأيت هديه، وقد أكثر الناس في شأن الوليد. قال: أدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال:
فقلت: لا، ولكن خلص إلي من علمه ما يخلص إلى العذراء في سترها. قال: فقال: أما بعد، فإن الله

(٢٥٣) - الأساس في السنة وفقهها - السيرة النبوية (٤/ ١٦٣١)

(٢٥٤) - وهو أخو عثمان - رضي الله عنه - لأمه، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولاه الجزيرة بأرض العراق، ثم نقله عثمان
منها إلى الكوفة، فشرب الخمر وهو أمير عليها، فأخر عثمان إقامة الحد عليه ليتأكد من عدالة الشهود. ينظر: فتح الباري ٧/ ٥٦.

تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ، فَكَنْتُ مِمَّنْ اسْتَجَابَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَمَنْتَ بِمَا بَعَثَ بِهِ، ثُمَّ هَاجَرْتَ الْهَجْرَتَيْنِ - كَمَا قُلْتَ - وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَفِي رِوَايَةٍ: وَنَلْتُ صَهْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَايَعْتَهُ، فَوَاللَّهِ مَا عَصَيْتَهُ وَلَا غَشَشْتَهُ حَتَّى تُوْفَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ أَبُو بَكْرٍ مِثْلَهُ، ثُمَّ عُمَرُ مِثْلَهُ، ثُمَّ اسْتَخْلَفْتَ، أَفَلَيْسَ لِي مِنَ الْحَقِّ مِثْلَ الَّذِي لَهُمْ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: فَمَا هَذِهِ الْأَحَادِيثُ الَّتِي تَبْلَغُنِي عَنْكُمْ؟^(٢٥٥) أَمَا مَا ذَكَرْتَ فِي شَأْنِ الْوَلِيدِ فَسَنَاخِذُ فِيهِ بِالْحَقِّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. ثُمَّ دَعَا عَلِيًّا، فَأَمَرَهُ أَنْ يَجْلِدَهُ. فَجَلَدَهُ ثَمَانِينَ.^(٢٥٦)

رَوَى ابْنُ سَعْدٍ بِسَنَدِهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ حَارِثِ التَّمِيمِيِّ قَالَ: لَمَّا أَسْلَمَ عَثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ أَخَذَهُ عَمَهُ الْحَكَمُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمِيَّةٍ فَأَوْثَقَهُ رِبَاطًا وَقَالَ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ آبَائِكَ إِلَى دِينٍ مَحْدُوثٍ؟ وَاللَّهِ لَا أَحْلُكَ أَبَدًا حَتَّى تَدَعَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الدِّينِ، فَقَالَ عَثْمَانُ: وَاللَّهِ لَا أَدْعُهُ أَبَدًا وَلَا أَفَارِقُهُ، فَلَمَّا رَأَى الْحَكَمُ صَلَابَتَهُ فِي دِينِهِ تَرَكَهُ.^(٢٥٧)

الفوائد والعبر:

١- فضل الخليفة الراشد عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وبيان عدله وإقامته لحدود الله وأنه لا تأخذه في الله لومة لائم، وأنه لا يحابي في ذلك أحدا.

٢- فضل الصحابة على من بعدهم.

٣- أنه يجب على المسلم مناصحة ولي الأمر إذا رأى ما يحتاج إلى مناصحته فيه، وذلك فيما بينه وبينه، كما فعل هذا التابعي الجليل، ويحرم عليه أن يجهر بذلك أمام عامة الناس، لئلا يوغر صدورهم عليه، فيحصل من ذلك ضرر، كما حصل في آخر خلافة الخليفة الراشد عثمان بن عفان، لما

^(٢٥٥) - قال في الفتح ٧/ ٥٧: ((كأنهم كانوا يتكلمون في سبب تأخيره إقامة الحد على الوليد)).

^(٢٥٦) - صحيح البخاري: فضائل الصحابة (٣٦٩٥)، ومناقب الأنصار (٣٨٧٢)، وينظر في إسلامه أيضاً المصنف لابن أبي شيبة:

الفضائل ١٢/ ٥٣.

(٢٥٧) - ابن سعد ج ٣/ ٥٥. الموسوعة في صحيح السيرة النبوية - العهد المكي (ص: ٢٩٠)

تجراً بعض الناس على الكلام فيه أمام العامة ، فأوغروا الصدور ضده وكان من أعظم أضرار ذلك قتله – رضي الله عنه – والذي لا تزال الأمة تعاني من آثاره إلى اليوم^(٢٥٨) .

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((من كانت عنده نصيحة لذي سلطان فليأخذ بيده فليخل به ، فإن قبلها قبلها ، وإن ردها كان قد أدى الذي عليه))^(٢٥٩) .

٤ – أنه يجب على الحاكم أن يقيم الحدود كما شرعها الله تعالى ، وألا تأخذ في ذلك لومة لائم ، وأن يقيمها على كل من وجب إقامة الحد

^(٢٥٨) – ينظر شرح رياض الصالحين لشيخنا محمد بن عثيمين ، باب أمر ولاة الأمور بالرفق برعاياهم (شرح حديث معقل بن يسار : مامن عبد يسترعيه الله صلى الله عليه وسلم).

^(٢٥٩) – رواه الإمام أحمد (١٥٣٣٣) ، وابن أبي عاصم في السنن ، باب كيف نصيحة الرعية للولاة (١٠٩٦ – ١٠٩٨) ، والبخاري في الكبير ١٨ / ٧ ، ١٩ ، والحاكم ٣ / ٢٩٠ وسنده حسن.

الدرس الخامس والعشرون

دار الأرقم بن أبي الأرقم أول مركز سلامي في الإسلام

الحمد لله العليم الحكيم العزيز الغفار، القهار الذي لا تخفى معرفته على من نظر في بدائع مملكته بعين الاعتبار، القدوس الصمد التعالي عن مشابه الأغيار، الغني عن جميع الموجودات فلا تحويه الجهات والأقطار، الكبير الذي تحيرت العقول في وصف كبريائه فلا تحيط به الأفكار، الواحد الأحد المنفرد بالخلق والاختيار، الحي العليم الذي تساوى في علمه الجهر والإسرار، السميع البصير الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار.

واشهد إن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفيه من خلقه وحبیب

إن الصلاة على المختار إن ذكرت في مجلس فاح منه الطيب إذ نفحا

محمد أحمد المختار من مضر أركى الخلائق جمعا أفصح الفصحا

صلى عليه إله العرش ثم على أهليه والصحب نعم السادة النصحا

وعلي اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين ونحن معهم يا أرحم الراحمين

أما بعد :....أحبتني في الله يتجدد اللقاء مع سيرة إمام الأتقياء صلى الله عليه وسلم و نقف اليوم مع أول مركز إسلامي بل مع أول جامعة خرجت الأبطال والقادة والأمراء والخلفاء تذكر كتب السيرة أن اتخاذ دار الأرقم مقراً لقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم كان بعد المواجهة الأولى، التي برز فيها سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - . قال ابن إسحاق: «كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه

وسلم إذا صلوا ذهبوا في الشعاب ، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم ، فبينما سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شُعب من شعاب مكة إذ ظهر عليه نفر من المشركين وهم يصلون ، فناكروهم ، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم ، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلحى بغير فشجه ، فكان أول دم أهرق في الإسلام^(٢٦٠) .

أصبحت دار الأرقم السرية مركزاً جديداً للدعوة يتجمع فيه المسلمون ، ويتلقون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كل جديد من الوحي ، ويستمعون له -عليه الصلاة والسلام- وهو يذكرهم بالله ، ويتلو عليهم القرآن ، ويضعون بين يديه كل ما في نفوسهم وواقعهم فيريهم ، عليه الصلاة والسلام على عينه . كما تربى هو على عين الله عز وجل ، وأصبح هذا الجمع هو قرّة عين النبي صلى الله عليه وسلم^(٢٦١) .

كان اختيار دار الأرقم لعدة أسباب منها :

١ - أن الأرقم لم يكن معروفاً بإسلامه ، فما كان يخطر ببال أحد أن يتم لقاء محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه بداره .

٢- أن الأرقم بن الأرقم - رضي الله عنه - من بني مخزوم ، وقبيلة بني مخزوم هي التي تحمل لواء التنافس والحرب ضد بني هاشم . فلو كان الأرقم معروفاً بإسلامه فلا يخطر في البال أن يكون اللقاء في داره ؛ لأن هذا يعني أنه يتم في قلب صفوف العدو .

٣- أن الأرقم بن أبي الأرقم كان فتى عند إسلامه ، فلقد كان في حدود السادسة عشرة من عمره ، ويوم تفكر قريش في البحث عن مركز التجمع الإسلامي ، فلن يخطر في بالها أن تبحث في بيوت الفتیان الصغار من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بل يتجه نظرها وبحثها إلى بيوت كبار أصحابه ، أو بيته هو نفسه عليه الصلاة والسلام .

فقد يخطر على ذهنهم أن يكون مكان التجمع على الأغلب في دور بني هاشم ، أو في بيت أبي بكر - رضي الله عنه - أو غيره ، ومن أجل هذا نجد أن اختيار هذا البيت كان في غاية الحكمة من الناحية الأمنية ، ولم نسمع أبداً أن قريشاً داهمت ذات يوم هذا المركز وكشفت مكان اللقاء^(٢٦٢) .

^(٢٦٠) - انظر : ابن هشام (١/ ٢٣٦) .

^(٢٦١) - انظر : التربية القيادية (١/ ١٩٨) .

^(٢٦٢) - السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (ص : ٩٩)

أبرز سمات المرحلة السرية: ربي النبي صلى الله عليه وسلم في تلك المرحلة على الفهم الصحيح والشامل والراسخ بالقضاء والقدر وأثره في القلب والنفوس وحياة الأمة المسلمة ، ولقد ظهر أثرا هذه الركيزة تحديدا فيما عندما بدأت وصلات التعذيب والتنكيل والاضطهاد.

رباهم على معرفة حقيقة الإنسان وقدرة ومكانته في الكون وفي منظومة الخلق ، وأجاب لهم على كل تساؤلات الفطرة ، وعلاقة الإنسان بربه عز وجل وبالكون كله ، وأن الأصل في الإنسان التوحيد والفطرة.

رباهم على تعظيم أوامر الله - عز وجل - والاستجابة لها ومعرفة قدرها ، والقيام بواجب العبادة المفروضة وقتها - الصلاة - وتعظيمها ، وأن العبادة هي غاية الخلق وسبب وجودهم

رباهم على تزكية أخلاقهم وتأديب نفوسهم وتطهير قلوبهم من أدران الجاهلية التي كانت تعج بالمنكرات ورذائل الأخلاق وسيء العادات ، من خلال ربط أخلاقياتهم وسلوكياتهم بالإيمان والثواب والعقاب.

رباهم على معرفة عدوهم الحقيقي وقدر عداوته وسببها وطبيعتها وذلك من خلال سرد أخبار الأولين وقصص المرسلين وعاقبة المكذابين ومصير المتقين.

وقد أتبع الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أجل الوصول لتلك المعاني الإيمانية والركائز التربوية منهجا موحدا في التربية والتعليم يعتمد على مادة دراسية علمية واحدة وهي مادة القرآن الكريم ، وحي السماء الذي كان غضا طريا على قلوب الصحابة بردا وسلامة ، وهداية واشادا وتقويما وتعلينا ، لذلك كان تلاميذ مدرسة النبوة الأولى - دار الأرقم - هم أعظم رجال الإسلام ، وبناة الأمة وحماتها ، وطلبة الصفوف ، وصفوة المسلمين وخلاصة المؤمنين.

وها هي أبرز سمات المرحلة السرية:

١-الانتقائية:

فالخطاب في تلك المرحلة كان خطاباً يحمل سمة الخصوصية والانتقائية والفردية ، ويعتمد الاتصال المباشر بين الداعية -رسول الله- ومن يدعو، ويقوم على دعوة من يثق فيهم ويرتبط معهم بعلاقات وروابط وثيقة ، أي دعوة خصوص الناس دون عمومهم ، والتركيز حركياً على الدعوة الفردية دون

الجماعية، وهذه الانتقائية جعلت عدد من يدخل في الإسلام في تلك المرحلة قليلاً مقارنة بالجهد المبذول.

٢- الحبيطة والحذر:

فقد اتسمت حركة المسلمين بدعوتهم بالحبيطة والحذر الشديد، وارتفاع الوعي الأمني، حيث يتم التحرك في أطر ضيقة من خلال البيوت والأسر ومجالس الأصدقاء، وكان الرسول -صلى الله عليه وسلم- حريصاً على السرية مع الحبيطة والحذر، ويشدد على أصحابه في ذلك، ويتضح لنا ذلك في قصة إسلام أبي ذر الغفاري -رضي الله عنه-، وقد رواها الإمامان البخاري ومسلم، وسيأتي مسلم طويل ومستفيض، وسيأتي البخاري أوضح في بيان السرية والحبيطة والحذر، وفيه:

”أن أبا ذر أرسل أخاه أنيساً ليأتيه بخبر النبي -صلى الله عليه وسلم-، فلم يستطع أن يجتمع معه، فتجهز للرحيل الى مكة، فأتى المسجد فالتمس رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنهم، حتى أدركه بعض الليل اضطجع، فرآه علي -رضي الله عنه- فعرف أنه غريب، فلما رآه تبعه، ولم يسأل واحد منهما صاحبه حتى أصبح، ثم احتمل قريته وزاده الى المسجد، وظل ذلك اليوم ولا يراه النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى أمسى، فعاد الى مضجعه، ومر به علي فقال: أما آن للرجل يعلم منزله، فأقامه فذهب به معه لا يسأل أحد فيهما صاحبه عن شيء، حتى إذا كان يوم الثالث فعاد الى مثل ذلك، فأقام معه فقال: ألا تحدثني بالذي أقدمك؟ قال أبو ذر: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلت، ففعل، فأخبره، قال علي: فإنه حق وإنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فإذا أصبحت فأتبعني، فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك، قمت كأني أريق الماء -يعنى التبول-، وإن مضيت فأتبعني حتى تدخل مدخلي، ففعل، فانطلق يقفو حتى دخل على النبي -صلى الله عليه وسلم- ودخل معه، فسمع من قوله وأسلم مكانه“. [البخاري، كتاب مناقب الأنصار، رقم ٣٨٦١].

وفى هذا الحديث يتضح مدى ارتفاع الوعي الأمني عند الصحابة، والإجراءات الدقيقة والتفاصيل الكثيرة التي كانوا يتبعونها مع تبليغ الدعوة. وهذه الحبيطة والحذر وسرية الدعوة لم تكن خوفاً وجبناً كما يظن الجهال وغيرهم ممن تأثر بكلام المستشرقين، بل كانت إعمالاً لمبدأ قرآني عظيم في أخذ الحذر والاستعداد والحفاظ على الكيان في مراحلها المبكرة.

٣- تجنب الصدمات:

الدعوة كانت في مهدها غضة طرية، قليل أنصارها، ضعيف بناؤها، مازالت تحبو وتحسس خطواتها الأولى، لذلك فمن الحكمة تجنب أي نوع من الصدمات المبكرة التي ستكون إيذاناً بضياع الدعوة وهلاك أنصارها، ولعل ذلك من الحكم العظيمة في بناء الدعوات وإقامة المجتمعات، فالله -عز وجل- لم يشرع للمسلمين الجهاد ضد أعدائهم إلا بعد الهجرة وإقامة الدولة المسلمة.

لذلك كان الرسول -صلى الله عليه وسلم- ينظم أصحابه على شكل خلايا صغيرة، وأسر دعوية حتى يتجنب مسألة التجمعات الكبيرة التي تلفت الانتباه وتستفز الجمهور الجاهل بطبيعة وكُنْه هذه التجمعات، وكان الواحد من الصحابة إذا حفظ شيئاً من القرآن تولى أمر رجل أو رجلين أو أهل بيت ما، يعلمهم في حلقات تعليم خاص، فمثلاً كان خباب بن الأرت يعلم سعيد بن زيد وزوجته فاطمة بنت الخطاب.

أيضاً كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يأمر من أسلم من أهل مكة بأن يسر بإسلامه، ويأمر من أسلم من غير أهلها أن يلحق بأهله ويعود الى قبيلته حتى تظهر الدعوة ويشتد عودها، كما حدث مع أبي ذر، إذ أمره أن يلحق بقبيلته غفار، وكذلك مع حدث مع عمر بن عبسة إذ قال له النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد إسلامه: "الحق بقومك إذا أخبرت أنني قد خرجت فاتبعني". وفي رواية عن مسلم: "إنك لا تستطيع يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس، ولكن ارجع الى أهلك، فإذا أخبرت...". [مسلم - كتاب صلاة مسافرين وقصرها].

واتضح أيضاً مدى حرص النبي -صلى الله عليه وسلم- على الابتعاد عن الصدمات، إنه مع أول صدام وقع بين المسلمين والمشركين وسالت فيه الدماء، أمر الصحابة بالدخول الى دار الأرقم بن أبي الأرقم حرصاً على عدم سفك مزيد من الدماء أو التورط في صراع غير متكافئ في تلك المرحلة يؤذي الدعوة ويضرها أضعاف ما ينفعها.

٤-التنظيم الدقيق:

اعتمد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- السرية كأسلوب مؤقت لصرف أنظار طواغيت قريش الذين اتصفوا بالشدة لكل من يحاول المساس بعقائدهم ومصالحهم، وعقائدهم هي جزء من مصالحهم لأنها وسيلة من وسائل تحقيقها.

ولضمان نجاح السرية وتحقيق أهدافها المرحلية اعتمد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مبدأ التنظيم الدقيق وهيكله الأفراد المنتسبين لكيان الدعوة الوليد، بين ملقين ومستمعين، فقسم الصحابة إلى مجموعات صغيرة تتواصل فيما بينها، على شكل هرمي رأسه الرسول -صلى الله عليه وسلم- ثم أقرب الصحابة منه وأكثرهم اتصالاً به وحفظاً وفهماً وتلقياً لتعاليم الوحي المتجددة، وقصة إسلام عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- تكشف بجلاء طبيعة هذا التنظيم الدقيق والهيكل الهرمي لعمل الدعوة، فهناك عصب رسالي يمتد إلى كل خلية من خلايا الجسد الإسلامي ممثلاً بالدعاة والمبلغين الذين يتحملون مسؤولية تثقيف أبناء الحركة؛ فالسابقون إلى الإسلام والذين تشرّبوا من الدين الجديد وتعلموا مبادئه، يصبحون فيما بعد معلمين ومربين لمن آمن حديثاً، وهذا النمط التنظيمي يشكل السمة العامة للعلاقة البنائية التي كانت قائمة بين أبناء الكيان الإسلامي الأول. فالرسالة لا تكتفي من الفرد بأن يعلن إسلامه ويقوم بالعبادات فقط، فبالإضافة إلى هذه الواجبات الدينية هناك مسؤوليته كمسلم نحو الكيان الدعوي ورسالته، وهي جزء من مسؤوليته الإسلامية.

نموذج آخر يرسم لنا الصورة التي كانت عليها الجماعة المسلمة والمسؤولية الدعوية والتربوية الملقاة على عاتق كل فرد فيها، عندما آمن طليب بن عمير جاء إلى أمه أروى بنت عبد المطلب فقال: قد أسلمت وتبعت محمداً، فقالت أمه: إن أحق من آزرت وعضدت ابن خالك، والله لو كنا نقدر على ما يقدر عليه الرجال لمنعناه وذدنا عنه، فقلت: يا أم فما يمنعك أن تسلمي وتتبعيه فقد أسلم أخوك حمزة؟! فقالت: انتظر ما يصنع أخواتي ثم أكون إحداهن. وظل يرغبها للإسلام قائلاً: أني أسألك بالله إلا أتيته وسلمت عليه وصدقته وشهدت أن لا إله إلا الله. وأخيراً قالت: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

أهم الدروس والعبر:

- ١- التربية هي لب الدعوات وأساس الحركات وأولي المحطات، ونقطة البدء الأساسية لأي عمل دعوي.
- ٢- ضرورة اهتمام الدعاة بأسرهم وبيوتهم التي تمثل قاعدة انطلاقهم للمجتمع الصحيح والنقي، وهذا ظاهر من بداية دعوة الرسول لأهل بيته وخاصة أهله.

٣- الداعية الناجح هو الذي يستطيع أن يفتح علي كل شرائح المجتمع ، ويتجاوز كل الحدود الموهومة من فوارق سنية وطبقية ، ويقيم علاقات مفتوحة مع كل الناس ، وهذا ظاهر من إسلام العديد من الشباب علي يد أبي الصديق.

٤- حسن الأخلاق ، والعشرة الطيبة ، والثقافة العالية ، والكرم والجود ، كلها مفاتيح القلوب المغلقة ، والنفوس الأبية ، وهي من أهم أدوات الداعية في نشر دعوته ، وهذا ظاهر من إسلام معظم من أسلم في تلك المرحلة علي يد أبي بكر الصديق.

٥- القائد الناجح والداعية الذكي هو الذي يمتلك خطاً بديلة ، ويتخذ قرارات سريعة ، تقيه وتقي دعوته شر تهوور البعض ، وحقد البعض ، وتحفظه من صدمات لا تحمد عقباه ، ويتضح ذلك من دخول الرسول صلي الله عليه وسلم وأتباعه دار الأرقم بن أي الأرقم بعد صدام شعاب مكة.

٦- المنهج التربوي الصحيح ، هو المنهج الذي يؤتي ثماره ، ويراعي تلبية حاجات القلب والنفس والعقل ، ويجيب علي تساؤلات البشر الكثيرة ، وهو ما لم يكن في أي منهج بشري ، ولم يكن إلا في وحي السماء ، الذي استخدمه الرسول - صلي الله عليه وسلم - في تربية أصحابه وتهيئتهم لأعظم المهام ، وهي مهمة نشر الدعوة ونصرة الدين

الدرس السادس والعشرون

إسلام عمرو بن عبسة السلمي

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ، وَمَا تَحِيلُ مِنْ أَنْتَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ، عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ.

الحمد لله، أصبحت له الوجوه ذليلة عانية، وحذرت النفوس مجدة ومتوانية، ذم الدنيا إذ هي حقيرة فانية، وشوق لجنه قطوفها دانية، وخوف صرعى الهوى أن يسقوا من عين آنية.

أحمده على تقويم شانيه، وأستعيذه وأستعيذه من شر كل شان وشانية، وأحصن بتحقيق التوحيد إيمانيه، أحمده وهو العليم العالم بالسر والعلانية، فالسر عنده علانية.

صلى الإله على النبي محمد

وعلى جميع بناته ونسائه وعلى جميع الصّحب والإخوان

وعلى صحابته جميعاً والألي تبعوهم من بعد بالإحسان

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [آل عمران: ١٠٢]

ترجمته: عمرو بن عبسة السلمي أبو نجيح جاء النبي صلى الله عليه وسلم في أول الإسلام فأسلم ثم استأذنه في اللحوق بقومه والمكث معه فأذن له في الرجوع الى قومه فخرج إليهم ودعاهم إلى الإسلام^(٢٦٣)

قصة إسلامه: عن أبي أمامة قال: قال عمرو بن عبسة السلمي: "كنت وأنا في الجاهلية، أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء، وهم يعبدون الأوثان، فسمعت رجلاً بمكة يخبر

(٢٦٣) - مشاهير علماء الأمصار - العلمية (ص: ٥١)

أَخْبَارًا، ^(٢٦٤) فَفَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي، فَفَدِمْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْتَخْفِيًا، ^(٢٦٥) جُرَاءُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ قَالَ: أَنَا نَبِيٌّ، فَقُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: أَرْسَلَنِي اللَّهُ، فَقُلْتُ: وَيَأَى شَيْءٍ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: أَرْسَلَنِي بِصَلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحِّدَ اللَّهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ، قُلْتُ لَهُ: فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: حُرٌّ وَعَبْدٌ، (قَالَ وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ) فَقُلْتُ: إِنِّي مُتْبِعُكَ، قَالَ: إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا، ^(٢٦٦) أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ؟ وَلَكِنْ أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي، ^(٢٦٧) قَالَ: فَذَهَبْتُ إِلَى أَهْلِي، وَفَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ، وَكُنْتُ فِي أَهْلِي، فَجَعَلْتُ أَتَخَبَّرُ الْأَخْبَارَ، وَأَسْأَلُ النَّاسَ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، حَتَّى قَدِمَ عَلَيَّ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةَ، فَقُلْتُ: مَا فَعَلَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي قَدِمَ الْمَدِينَةَ؟ فَقَالُوا: النَّاسُ إِلَيْهِ سِرَاعٌ، ^(٢٦٨) وَقَدْ أَرَادَ قَوْمُهُ قَتْلَهُ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ، فَفَدِمْتُ الْمَدِينَةَ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَعْرِفُنِي؟ قَالَ: نَعَمْ، أَنْتَ الَّذِي لَقَيْتَنِي بِمَكَّةَ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: بَلَى، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي عَمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ وَأَجْهَلُهُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الصَّلَاةِ؟ قَالَ: صَلِّ صَلَاةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ ^(٢٦٩) حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَتَّى تَرْتَفِعَ، فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حِينَ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ، ثُمَّ صَلِّ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ، مَحْضُورَةٌ، حَتَّى يَسْتَقِيلَ الظُّلُّ بِالرُّمْحِ ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ، فَإِنَّ حِينَئِذٍ، تُسَجَّرُ جَهَنَّمُ، فَإِذَا أَقْبَلَ الْفَيْءُ فَصَلِّ ^(٢٧٠)، فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ، حَتَّى تُصَلِّيَ الْعَصْرَ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ، حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ، فَإِنَّهَا تَغْرُبُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ ^(٢٧١)، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ، ^(٢٧٢) قَالَ: فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَالْوُضُوءُ؟ حَدَّثْتَنِي عَنْهُ، قَالَ: مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقْرَبُ وَضُوءَهُ فَيَنْمَضُضُ وَيَسْتَنْشِقُ فَيَنْتَثِرُ إِلَّا حَرَّتْ حَطَايَا وَجْهِهِ وَفِيهِ وَخَيَاشِيمِهِ، ثُمَّ إِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ إِلَّا حَرَّتْ حَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ إِلَّا حَرَّتْ

^(٢٦٤) - يريد النبي صلى الله عليه وسلم، أي: أنه يخبر بأخبار لا يخبر بها غيره في عصره، ومراده ما ذكره صلى الله عليه وسلم من أن الله تعالى أرسله، وما يتلو من القرآن، وما يدعو إليه من التوحيد.

^(٢٦٥) - جرأء: جمع جريء، من الجرأة وهي الإقدام والتسلط.

^(٢٦٦) - أي لا تستطيع إظهار دينك بمكة، لأذى قريش لمن يسلم.

^(٢٦٧) - أي ارجع إلى أهلك واعبد الله عندهم، فإذا سمعت أن الله أظهر ديني وصارت الغلبة له على الكفر، وأعز الله المسلمين فأتني

^(٢٦٨) - أي أن الناس يتبعونه، ويدخلون في دينه

^(٢٦٩) - أي اترك الصلاة في هذا الوقت الذي هو وقت نهي، والمراد أنه لا تصلي فيه النوافل التي ليس لها سبب.

^(٢٧٠) - أي إذا بدأ الظل في الزيادة جهة المشرق - وذلك بعد زوال الشمس - فإن هذا الوقت ليس وقت نهي عن الصلاة.

^(٢٧١) - قيل: إن الشيطان يذني قرنيه من الشمس عند طلوعها، لتطلع بين قرنيه، من أجل أن يكون من يسجد للشمس مصلياً له.

^(٢٧٢) - أي أن الكفار الذين يعبدون الشمس يسجدون ويصلون للشمس في هذا الوقت.

خَطَايَا يَدِيهِ مِنْ أَنْامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رِجْلَيْهِ مِنْ أَنْامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَفَرَّغَ قَلْبَهُ لِلَّهِ، إِلَّا أَنْصَرَفَ مِنْ خَطِيبَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، فَحَدَّثَ عَمْرُو بْنُ عَبْسَةَ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَبَا أُمَامَةَ صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو أُمَامَةَ: يَا عَمْرُو بْنُ عَبْسَةَ، انْظُرْ مَا تَقُولُ، فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ يُعْطَى هَذَا الرَّجُلُ؟ فَقَالَ عَمْرُو: يَا أَبَا أُمَامَةَ، لَقَدْ كَبَّرْتَ سِنِّي، وَرَقَّ عَظْمِي، وَاقْتَرَبَ أَجَلِي، وَمَا بِي حَاجَةٌ أَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ، وَلَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، لَوْ لَمْ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا (حَتَّى عَدَّ سَبْعَ مَرَّاتٍ) مَا حَدَّثْتُ بِهِ أَبَدًا، وَلَكِنِّي سَمِعْتُهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ". (٢٧٣). رواه مسلم (٢٧٤)

الفوائد والعبر:

- ١ - أنه ينبغي للمؤمن وللداعية أن لا ييأس من ظهور الحق واتباع الناس له، فإن نصر الله قريب، ومن نصر الله نصره الله كما قال تعالى: {إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد: ٧]، فهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في بداية دعوته ليس معه على دين الإسلام سوى حر وعبد، وكانوا مختلفين لا يستطيعون إظهار دينهم ولا الدعوة إليه، وأراد قومه قتله صلى الله عليه وسلم وقتلوا بعض أصحابه، فصبر صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه وثابروا في سبيل نشر هذا الدين العظيم، حتى عبد الله وحده وانتشر التوحيد والإيمان، وزال الشرك وعبادة الأوثان في كثير من بقاع الأرض، واتسعت دولة الإسلام، وبلغت حدودها من الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن البحر الأسود شمالاً إلى بحر العرب جنوباً؛ بل إن الدعوة إلى هذا الدين بلغت أرجاء المعمورة كما قال صلى الله عليه وسلم: ((لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعز عزيز أو ذل ذليل)) (٢٧٥).
- ٢ - أنه ينبغي للعبد أن يسير على الحق ولو أعرض عنه أكثر الخلق، ليفوز بسعادة الدنيا والنجاة في الآخرة.

- ٣ - أن أعداء الحق من الكفار والمنافقين والفساق في كل زمان لا يألون جهداً في حرب الدين الصحيح - دين الإسلام - ومنع تطبيقه في الأرض، وحرب الدعاة إليه، ومنعهم من نشره، ومن الأمر بالمعروف

(٢٧٣) - ينظر في شرح ألفاظ هذا الحديث: التمهيد (٤/ ١٢/٦)، شرح النووي لمسلم (٦/ ١١٥ - ١١٨)، طرح التثريب (٢/ ١٩٥، ١٩٦)

(٢٧٤) - صحيح مسلم: صلاة المسافرين، باب إسلام عمرو بن عبسة (٨٣٢).

(٢٧٥) - رواه أحمد (٤/ ٦)، وابن حبان (١، ٦٧، ٦٦٩٩) وإسناده صحيح.

والنهي عن المنكر، كما قال تعالى في حق الكفار والمنافقين: **{يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}** [التوبة: ٣٢] ، وكما قال تعالى في حق عموم العصاة والفساق: **{وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا}** [النساء: ٢٧]

٤ - أنه يجب على المسلم أن يتعلم أحكام دينه التي يحتاج إليها، كما أنه ينبغي له أن يسأل أهل العلم عما يجهله من دين الله تعالى، ليعبد ربه على بصيرة، وليسلم من فتن الشبهات والشهوات - بإذن الله تعالى -.

٥ - أن في نهيه صلى الله عليه وسلم عن الصلاة في هذه الأوقات فوائد وأحكام كثيرة أهمها:

أولاً: سد الذرائع التي توقع في الشرك.

ثانياً: تحريم التشبه بالكفار في عباداتهم، ومثلها ما اختصوا به من عادات، سواء أكان ذلك في اللباس أم في الهيئة، وفي الحديث الصحيح: ((من تشبه بقوم فهو منهم)) كما أن تشبه المسلم بهم علامة على ضعف شخصيته، وشعوره بالنقص، وأنهم أفضل منه فلذلك رضي أن يكون تابعاً لهم، وهذا خطأ ظاهر، فإن المسلم أفضل من جميع الكفار، والنظرة الصحيحة إلى الكافر هي ما أخبر عنها ربنا جل وعلا في قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ}** [محمد: ١٢].

قصة إسلام عبد الله بن مسعود رضي الله عنه-

الحمد لك يا الله جعلت الفردوس لعبادك المؤمنين تُرُلاً؛ فلك الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، الحمد لله الذي يسرّها لنا، ويسرّ الأعمال الصالحة لنا؛ فلم يتخذ السالكون إلى الله سواها شغلاً، وسهل لهم سبلها فلم يسلكوا سواها سبلاً، خلقها قبل أن يخلقهم، وأسكنهم إياها قبل أن يوجدهم، وحفّها بالمكاره ليلبّوهم أيهم أحسن عملاً، وأودعها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وفوق ذلك: { خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا } [الكهف: ١٠٨].

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، شهادة أدخرها لي ولكم إلى يوم المصير، شهادة عبده وابن عبده وابن أمته، ومن لا غنى به طرفة عين عن رحمته وفضله ومنه وكرمه، ولا مطمع له في الفوز بالجنة والنجاة من النار إلا بمنه وكرمه ورحمته. وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، أرسله الله رحمة للعالمين، وقدوة للعالمين، ومحجة للسالكين، وحجة على العباد أجمعين، شرح الله به الصدور، وأنار به العقول، وفتح به أعينا عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً:

قَدْ كَانَ هَذَا الْكُونُ قَبْلَ وُصُولِهِ شُؤْمًا لظالمه وللمظلوم

لَمَّا أَطَّلَ مُحَمَّدٌ زَكَتِ الرُّبَا وَاخْضَرَ فِي البُسْتَانِ كُلِّ هَشِيمٍ

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد :

ترجمته: عبد الله بن مسعود بن الحارث بن شمش بن مخزوم بن صاهلة بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل حليف بنى زهرة وقد قيل إنه عبد الله بن مسعود بن عاقل بن شمش بن قار بن مخزوم بن صاهلة بن الحارث بن سعد بن هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر كنيته أبو عبد الرحمن ممن شهد بدرًا وسائر المشاهد وكان من فقهاء الصحابة عليهم أجمعين سكن الكوفة مرة كان يلي بيت المال بها ومات بالمدينة سنة ثنتين وثلاثين وأوصى ان يدفن بجانب قبر عثمان بن مظعون فصلى عليه الزبير بن

العوام ودفن بالبقيع وكان له يوم مات بضع وستون سنة وكانت أمه أم عبد بنت الحارث بن زهرة بن كلاب^(٢٧٦)

عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: كنت غلاماً يافعاً^(٢٧٧) أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط بمكة، فأتى عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وقد فرّأ من المشركين، فقال: ((يا غلام هل عندك لبن تسقيناً؟)) قلت: إني مؤتمن، ولست بساقيكما. قال: ((فهل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل بعد؟)) قلت: نعم، فأتيتهما بها، فاعتقلها أبو بكر، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الضرع، فدعا، فحفل الضرع^(٢٧٨)، وأتاه أبو بكر بصخرة منقورة، فحلب، ثم شرب هو وأبو بكر، ثم سقياني، ثم قال للضرع: ((اقلص))، فقلص. فلما كان بعد أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت، فقلت: علمني من هذا القول الطيب - يعني القرآن -، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنك غلام معلّم))^(٢٧٩) فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعني فيها أحد.

وعن ابن مسعود أيضاً قال: لقد رأيتني سادس ستة، ما على ظهر الأرض مسلم غيرنا^(٢٨٠)

الفوائد والعبر:

- ١- أنه يجب على المؤتمن أن يحافظ على الأمانة التي أوتمن إياها.
- ٢- أنه يجب قبول الحق ممن قاله ولو كان كافراً.
- ٣- في هذا الحديث معجزة من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم.
- ٤- أن القرآن هو أطيب الكلام وأحسن الحديث، وقد شهد بذلك الكفار فضلاً عن المسلمين، وقد روى البيهقي أن الوليد بن المغيرة سمع القرآن فكانه رق له، فأنكر عليه قومه من المشركين، فقال لهم: ((و الله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيدته مني، ولا بأشعار

(٢٧٦) - مشاهير علماء الأمصار (ص: ٢٩)

(٢٧٧) - أي: شاباً قارب البلوغ

(٢٧٨) - أي اجتمع فيه اللبن

(٢٧٩) - رواه الطيالسي (٣٥٣)، وأحمد (٣٥٩٨، ٤٤١٢)، وقد صحح إسناده الذهبي في سير النبلاء ١/ ٤٦٥.

(٢٨٠) - رواه الطبراني (٨٤٠٦)، والحاكم ٣/ ٣١٣ بإسناد صحيح، رجاله ثقات، رجال الصحيح. وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي

الجن مني، و الله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، و الله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة^(٢٨١)، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو، وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته^(٢٨٢)

٥— أهمية الحفظ للقرآن وغيره من النصوص المهمة كالسنة والمتون العلمية، فحفظ العلم سبب للعمل به، و سبب لاستحضار النص عند التعليم والدعوة والتوجيه.

٦— أهمية أخذ العلم عن أهله، وقراءة القرآن على من هو متقن لقراءته، ليسلم المتعلم من الخطأ والزلل، ولهذا قال بعض أهل العلم: ((لا تأخذ العلم عن صحفي ولا عن مصحفي))، وقال غيره: ((من كان معلمه كتابه كان خطؤه أكثر من صوابه)).

٧— فضل ابن مسعود - رضي الله عنه - وسعة علمه، وقد روى البخاري عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال: ((و الله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه))^(٢٨٣)، ورواه مسلم من طريق شقيق بن سلمة بنحوه، ثم قال شقيق: فجلست في حلق أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فما سمعت أحداً يرد ذلك عليه ولا يعيبه^(٢٨٤).

^(٢٨١) - الطلاوة: الحسن والبهجة والرونق، كما في اللسان (مادة: طلي).

^(٢٨٢) - رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٣٤) وإسناده محتمل للتحسين، وقال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء ١/ ٣٢٣.

^(٢٨٣) - صحيح البخاري (٥٠٠٢).

^(٢٨٤) - قصص إسلام الصحابة (ص: ٣٤-٣٥)

الدرس الثامن والعشرون

قصة إسلام أبي ذر رضي الله عنه

ترجمته: قال ابن كثير في ترجمته:

أبو ذر الغفاري واسمه جُنْدُبُ بن جُنَادَةَ على المشهور، أسلم قديماً بمكة فكان رابع أربعة أو خامس خمسة وهو أول من حيا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحية الإسلام، ثم رجع إلى بلاده وقومه، فكان هناك حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فهاجر بعد الخندق ثم لزم رسول الله صلى الله عليه وسلم حضراً وسفراً، وروى عنه أحاديث كثيرة، وجاء في فضله أحاديث كثيرة، كان أبو ذر - رضي الله عنه - من قبيلة غفار الواقعة بين مكة والمدينة، وقد اشتهرت هذه القبيلة بالسطو، وقطع الطريق على المسافرين والتجار وأخذ أموالهم بالقوة. وكان - رضي الله عنه - قبل إسلامه يأبى عبادة الأصنام، وينكر على من يشرك بالله، ولما سمع بأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - أرسل أخاه، ليعلم له علم - النبي صلى الله عليه وسلم - ويسمع من قوله ثم يأتيه، فانطلق الأخ حتى أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر فقال له: " رأيتك يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاماً ما هو بالشعر "، فقال أبو ذر: ما شفيتني مما أردت، وعزم على الذهاب بنفسه لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: (قَالَ أَبُو ذَرٍّ - رضي الله عنه - : كُنْتُ رَجُلًا مِنْ غِفَارٍ (وَكَاثُوا يُحِلُّونَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ ، فَخَرَجْتُ أَنَا وَأَخِي أُنَيْسٌ ، وَأُمُّنَا ، فَنَزَلْنَا عَلَى خَالٍ لَنَا ، فَأَكْرَمَنَا خَالُنَا وَأَحْسَنَ إِلَيْنَا ، قَالَ: وَقَدْ صَلَّيْتُ يَا ابْنَ أَخِي قَبْلَ أَنْ أَلْقَى رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - بِثَلَاثِ سِنِينَ ، فَقُلْتُ: لِمَنْ؟ ، قَالَ: لِلَّهِ ، فَقُلْتُ: فَأَيْنَ تَوَجَّهْتُ؟ ، قَالَ: أَتَوَجَّهْتُ حَيْثُ يُوَجِّهُنِي رَبِّي ، أَصَلِّي عِشَاءً ، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ ، أَلْقَيْتُ كَأَنِّي خِفَاءٌ^(٢٨٥) حَتَّى تَعْلُونِي الشَّمْسُ ، فَقَالَ أُنَيْسٌ: إِنَّ لِي حَاجَةً بِمَكَّةَ فَآكُفْنِي ، فَاذْهَبْ أُنَيْسُ حَتَّى أَتَى مَكَّةَ ، فَزَاتَ عَلَيَّ^(٢٨٦) ثُمَّ جَاءَ ، فَقُلْتُ: مَا صَنَعْتَ؟ ، قَالَ: لَقَيْتُ رَجُلًا بِمَكَّةَ عَلَى دِينِكَ ، يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ ، فَقُلْتُ: فَمَا يَقُولُ النَّاسُ؟ ، قَالَ: يَقُولُونَ: شَاعِرٌ ، كَاهِنٌ ، سَاحِرٌ- وَكَانَ أُنَيْسٌ أَحَدَ الشُّعْرَاءِ - قَالَ أُنَيْسٌ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ ، فَمَا هُوَ

(٢٨٥) - الخفاء: الكساء ، وكل شيء غطيت به شيئاً فهو خفاء. النهاية (١٣٢ / ٢)

(٢٨٦) - أي: تأخر.

بِقَوْلِهِمْ ، وَلَقَدْ وَضَعْتُ قَوْلَهُ عَلَى أَقْرَاءِ الشُّعْرِ^(٢٨٧) فَمَا يَلْتَمِمْ عَلَيَّ لِسَانَ أَحَدٍ بَعْدِي أَنَّهُ شِعْرٌ ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَصَادِقٌ ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ، فَقُلْتُ لَهُ : اكْفِنِي حَتَّى أَذْهَبَ فَأَنْظُرَ(قَالَ : نَعَمْ ، وَكُنْ عَلَيَّ حَدْرًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ شَفِئُوا لَهُ^(٢٨٨) وَتَجَهَّمُوا) فَأَخَذْتُ جِرَابًا وَعَصَا ، ثُمَّ أَقْبَلْتُ إِلَى مَكَّةَ ، فَجَعَلْتُ لَهَا أَعْرِفُهُ ، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْأَلَ عَنْهُ(فَتَضَعْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ^(٢٨٩) فَقُلْتُ : أَيَّنَ هَذَا الَّذِي تَدْعُوهُ الصَّابِيَّ ؟ ، فَأَشَارَ إِلَيَّ فَقَالَ : الصَّابِيَّ ، فَمَالَ عَلَيَّ أَهْلُ الْوَادِي بِكُلِّ مَدْرَةٍ وَعَظْمٍ حَتَّى خَرَرْتُ مَعْشِيًّا عَلَيَّ ، فَارْتَفَعْتُ حِينَ ارْتَفَعْتُ كَأَنِّي نُصَبُ أَحْمَرَ^(٢٩٠) فَأَتَيْتُ زَمْرَمَ ، فَغَسَلْتُ عَنِّي الدَّمَاءَ ، وَشَرِبْتُ مِنْ مَائِهَا ، وَلَقَدْ لَبِثْتُ يَا ابْنَ أَخِي ثَلَاثِينَ ، بَيْنَ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ ، مَا كَانَ لِي طَعَامٌ إِلَّا مَاءُ زَمْرَمَ ، فَسَمِنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَتْ عُنُقُ بَطْنِي^(٢٩١) وَمَا وَجَدْتُ عَلَيَّ كَبِدِي سُخْفَةً جُوعٍ^(٢٩٢) قَالَ : فَبَيَّيْنَا أَهْلَ مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ قَمْرَاءَ إِضْحِيَّانَ^(٢٩٣) إِذْ ضُرِبَ عَلَيَّ أَسْمِخْتِهِمْ^(٢٩٤) فَمَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ أَحَدٌ ، وَأَمْرَاتَيْنِ مِنْهُمْ تَدْعُوَانِ إِسَافًا وَنَائِلَةً ، فَأَتَانَا عَلَيَّ فِي طَوَافِهِمَا ، فَقُلْتُ : أَنْكِحَا أَحَدَهُمَا الْأُخْرَى ، فَمَا تَنَاهَتَا عَنْ قَوْلِهِمَا^(٢٩٥) فَأَتَانَا عَلَيَّ ، فَقُلْتُ : هُنَّ مِثْلُ الْحَشْبَةِ ، غَيْرَ أَنِّي لَا أَكْنِي^(٢٩٦) فَأَنْطَلَقْنَا تُولُولَانَ وَتَقُولَانَ : لَوْ كَانَ هَاهُنَا أَحَدٌ مِنْ أَنْفَارِنَا ، " فَاسْتَقْبَلَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَبُو بَكْرٍ وَهُمَا هَابِطَانِ ، فَقَالَ : مَا لَكُمَا؟ " ، فَقَالَتَا : الصَّابِيُّ بَيْنَ الْكَعْبَةِ وَأَسْتَارِهَا ، فَقَالَ : " مَا قَالَ لَكُمَا؟ " ، قَالَتَا : إِنَّهُ قَالَ لَنَا كَلِمَةً تَمَلُّ الْفَمَ^(٢٩٧) " فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَتَّى اسْتَلَمَ الْحَجَرَ ، وَطَافَ بِالْبَيْتِ هُوَ وَصَاحِبُهُ ، ثُمَّ صَلَّى ، فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ " قَالَ أَبُو دَرٍّ : فَكُنْتُ أَنَا أَوَّلَ مَنْ حَيَّاهُ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ ، فَقُلْتُ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ : " وَعَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ ، ثُمَّ قَالَ : مَنْ أَنْتَ؟ " ، فَقُلْتُ : مِنْ غِفَارٍ ، "

(٢٨٧) - أَيُّ : طُرُقُهُ وَأَنْوَاعُهُ . شرح النووي على مسلم - (ج ٨ / ص ٢٣٦)

(٢٨٨) - أَيُّ : أَبْغَضُوهُ . النهاية في غريب الأثر - (ج ٢ / ص ١٢٣٥)

(٢٨٩) - يَعْنِي : نَظَرْتُ إِلَى أَعْضَائِهِمْ فَسَأَلْتَهُ ، لِأَنَّ الضَّعِيفَ مَأْمُونُ الْغَائِلَةِ غَالِيًّا . شرح النووي على مسلم (ج ٨ / ص ٢٣٦)

(٢٩٠) - يَعْنِي مِنْ كَثْرَةِ الدَّمَاءِ الَّتِي سَأَلَتْ ، وَالنُّصْبُ : الصَّمَمُ ، وَالْحَجْرُ كَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ تَنْصِبُهُ وَتَدْبِحُ عِنْدَهُ ، فَيَحْمَرُّ بِالْدمِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ

تَعَالَى : { وَمَا دْبِحَ عَلَى النُّصْبِ } شرح النووي على مسلم - (ج ٨ / ص ٢٣٦)

(٢٩١) - أَيُّ : انْتَنَتُ لِكثْرَةِ السَّمَنِ وَأَنْطَوْتُ . شرح النووي (ج ٨ / ص ٢٣٦)

(٢٩٢) - هِيَ رِقَّةُ الْجُوعِ ، وَضَعْفُهُ ، وَهَزَالُهُ . شرح النووي (ج ٨ / ص ٢٣٦)

(٢٩٣) - (قَمْرَاءَ) : مُقَمَّرَةٌ ، طَالِعُ قَمْرُهَا ، وَالْإِضْحِيَّانِ : هِيَ الْمُضْبِئَةُ . النووي (٨ / ٢٣٦)

(٢٩٤) - الْمُرَادُ بِأَصْمِخْتِهِمْ هُنَا : آذَانُهُمْ ، أَي نَامُوا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ } أَي أَنْمَأْنَاهُمْ . شرح النووي (ج ٨ / ص ٢٣٦)

(٢٩٥) - أَيُّ : مَا انْتَهَمَا عَنْ قَوْلِهِمَا ، بَلْ دَامَتَا عَلَيْهِ . شرح النووي (٨ / ٢٣٦)

(٢٩٦) - أَيُّ : قَالَ لَهُمَا وَمِثْلُ الْحَشْبَةِ بِالْفَرْجِ ، وَأَرَادَ بِذَلِكَ سَبَّ إِسَافٍ وَنَائِلَةٍ . وَغَيْظُ الْكُفَّارِ بِذَلِكَ . شرح النووي (ج ٨ / ص ٢٣٦)

(٢٩٧) - أَيُّ : عَظِيمَةٌ ، لَا شَيْءَ أَقْبَحَ مِنْهَا . شرح النووي (ج ٨ / ص ٢٣٦)

فَأَهْوَى بِيَدِهِ فَوَضَعَ أَصَابِعَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ " ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : كَرِهَ أَنْ ائْتَمَيْتُ إِلَى غِفَارٍ ، فَذَهَبْتُ أَخْذُ بِيَدِهِ ، فَقَدَعَنِي صَاحِبُهُ^(٢٩٨) وَكَانَ أَعْلَمَ بِهِ مِنِّي ، " ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ : مَتَى كُنْتَ هَاهُنَا؟ " ، فَقُلْتُ : قَدْ كُنْتُ هَاهُنَا مُنْذُ ثَلَاثِينَ ، بَيْنَ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ ، قَالَ : " فَمَنْ كَانَ يُطْعِمُكَ؟ " ، فَقُلْتُ : مَا كَانَ لِي طَعَامٌ إِلَّا مَاءٌ زَمْرَمٌ ، فَسَمِنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَتْ عُنُقُ بَطْنِي ، وَمَا أَجِدُ عَلَى كَبِدِي سُحْفَةً جُوعٍ ، فَقَالَ : " إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ ، إِنَّهَا طَعَامٌ طُعِمَ^(٢٩٩) " ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَتُذَنُّ لِي فِي طَعَامِهِ اللَّيْلَةَ ، فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَبُو بَكْرٍ ، وَانْطَلَقْتُ مَعَهُمَا ، فَفَتَحَ أَبُو بَكْرٍ بَابًا ، فَجَعَلَ يَتَيْضُ لَنَا مِنْ زَيْبِ الطَّائِفِ - وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ طَعَامٍ أَكَلْتُهُ بِهَا - ثُمَّ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - (فَقُلْتُ لَهُ : اعْرِضْ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ ، " فَعَرَضَهُ " ، فَاسْلَمْتُ مَكَانِي ، فَقَالَ لِي : " يَا أَبَا ذَرٍّ ، اكْتُمْ هَذَا الْأَمْرَ ، وَارْجِعْ إِلَى بَدَلِكَ ، فَإِذَا بَلَغَكَ ظُهُورُنَا فَأَقْبِلْ) (فَإِنَّهُ قَدْ وُجِّهَتْ لِي أَرْضٌ دَاتٌ نَحْلٌ ، لَا أَرَاهَا إِلَّا يَثْرِبَ ، فَهَلْ أَنْتَ مُبْلَغٌ عَنِّي قَوْمِكَ؟ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَنْفَعَهُمْ بِكَ ، وَيَأْجُرَكَ فِيهِمْ) (فَقُلْتُ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ ، لَأَصْرَحَنَّ بِهَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ ، فَجِئْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ وَقَرِيشُ فِيهِ ، فَقُلْتُ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، فَقَالُوا : قُومُوا إِلَى هَذَا الصَّابِي ، فَقَامُوا ، فَضْرِبْتُ لِأَمُوتَ^(٣٠٠) فَأَدْرَكَنِي الْعَبَّاسُ ، فَأَكَبَّ عَلَيَّ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ : وَيَلَكُمْ ، تَقْتُلُونَ رَجُلًا مِنْ غِفَارٍ؟ ، وَمَتَجَرَّكُمْ وَمَمْرُكُمْ عَلَى غِفَارٍ؟ ، فَأَقْلَعُوا عَنِّي ، فَلَمَّا أَنْ أَصْبَحْتُ الْغَدَ ، رَجَعْتُ فَقُلْتُ مِثْلَ مَا قُلْتُ بِالْأَمْسِ ، فَقَالُوا : قُومُوا إِلَى هَذَا الصَّابِي ، فَصْنِعَ بِي مِثْلَ مَا صْنِعَ بِالْأَمْسِ ، وَأَدْرَكَنِي الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيَّ ، وَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ بِالْأَمْسِ (فَأَتَيْتُ أُنَيْسًا ، فَقَالَ : مَا صَنَعْتَ؟ ، فَقُلْتُ : صَنَعْتُ أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ ، فَقَالَ : مَا بِي رَغْبَةٌ عَنْ دِينِكَ^(٣٠١) فَإِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ ، فَأَتَيْنَا أُمَّنَا ، فَقَالَتْ : مَا بِي رَغْبَةٌ عَنْ دِينِكُمَا ، فَإِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ ، فَاحْتَمَلْنَا حَتَّى أَتَيْنَا قَوْمَنَا غِفَارًا فَاسْلَمَ نِصْفُهُمْ ، وَكَانَ يَوْمُهُمْ أَيَّمَاءُ بَنِي رَحْضَةَ الْغِفَارِيِّ ، وَكَانَ سَيِّدُهُمْ وَقَالَ نِصْفُهُمْ : " إِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْمَدِينَةَ " أَسْلَمْنَا ، " فَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْمَدِينَةَ " ، فَاسْلَمَ نِصْفُهُمْ الْبَاقِي)^(٣٠٢)

(٢٩٨) - أي: كَفَنِي وَمَنَعَنِي. شرح النووي على مسلم - (ج ٨ / ص ٢٣٦)

(٢٩٩) - أي: تُشْبِعُ شَارِبَهَا كَمَا يُشْبِعُهُ الطَّعَامُ. شرح النووي (ج ٨ / ص ٢٣٦)

(٣٠٠) - أي: ضربه ضربا يريدون به قتله ، وليس مجرد تعذيبه.

(٣٠١) - أي: لَأَكْرَهُهُ ، بَلْ أَدْخُلُ فِيهِ. شرح النووي (ج ٨ / ص ٢٣٦)

(٣٠٢) - أخرجه أحمد ١٧٤/٥ ، ومسلم "٢٤٧٣" في فضائل الصحابة : باب من فضائل أبي ذر ،

دروس وعبر من قصة إسلام أبي ذر رضي الله عنه

وفي قصة إسلام أبي ذر رضي الله عنه دروس وعبر نذكر منها:

أولاً. شيوع ذكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين القبائل وأكثر من ساهم في ذلك مشركوا قريش بما اتخذوه من منهج التحذير والتشويه لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولما جاء به، حتى وصل ذكره قبيلة غفار.

ثانياً. تميز أبي ذر بأنه رجل مستقل في رأيه لا تؤثر عليه الإشاعات، ولا تستفزّه الدعايات فيقبل كل ماتنشره قريش، ولذلك أرسل أخاه يستوثق له من خبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعيداً عن التأثيرات الإعلامية.

ثالثاً. شدة اهتمام أبي ذر بأمر الرسول - صلى الله عليه وسلم -، فلم يكتف بالمعلومات العامة التي جاء بها أخوه أنيس، بل أراد أن يقف على الحقيقة بعينيها؛ حيث أن مجال البحث ليس عن رجل يأمر بالخير فحسب وإنما عن رجل يذكر أنه نبي ولذلك تحمل المشاق والمتاعب وشظف العيش، والغربة عن الأهل والوطن في سبيل الحق، فأبو ذر ترك أهله واكتفى من الزاد بجراب وارتحل إلى مكة لمعرفة أمر النبوة^(٣٠٣).

رابعاً. التأني والتريث في الحصول على المعلومة، حيث تأنى أبو ذر - رضي الله عنه -، لما يعرفه من كراهية قريش لكل من يخاطب الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وهذا التأني تصرف أممي تقتضيه حساسية الموقف، فلو سأل عنه، لعلمت به قريش، وبالتالي قد يتعرض للأذى والطرْد، ويخسر الوصول إلى هدفه الذي من أجله ترك مضارب قومه وتحمل في سبيله مصاعب ومشاق السفر.

خامساً. الاحتياط والحذر قبل النطق بالمعلومة: حين سأل علي - رضي الله عنه - أبا ذر - رضي الله عنه - عن أمره وسبب مجيئه إلى مكة، لم يخبره بالرغم من أنه استضافه ثلاثة أيام، إمعاناً في الحذر، فاشترط عليه قبل أن يخبره أن يكتف عنه، وفي ذات الوقت أن يرشده، فهذا غاية في الاحتياط، وتم ما أراد.

^(٣٠٣) - السيرة النبوية (دروس وعبر) في تربية الأمة وبناء الدولة (٤/ ٢٨٨) الوحي وتبليغ الرسالة، د. يحيى البيحي، ص ٩١ إلى

سادسا. التغطية الأمنية للتحرك: تم الاتفاق بين علي وأبي ذر رضي الله عنهما على إشارة، أو حركة معينة، كأنه يصلح نعله، أو كأنه يريق الماء وذلك عندما يرى علي - رضي الله عنه - من يترصدهم، أو يراقبهم، فهذه تغطية أمنية لتحركهم اتجاه المقر (دار الأرقم)، هذا إلى جانب أن أبا ذر كان يسير على مسافة من علي، فيُعد هذا الموقف احتياطاً، وتحسباً لكل طارئ، قد يحدث أثناء التحرك.

سابعا هذه الإشارات الأمنية العابرة تدل على تفوق الصحابة رضي الله عنهم في الجوانب الأمنية، وعلى مدى توفر الحس الأمني لديهم وتغلغله في نفوسهم، حتى أصبح سمة مميزة لكل تصرف من تصرفاتهم الخاصة والعامة، فأنت تحركاتهم منظمة ومدروسة فما أحوجنا لمثل هذا الحس الذي كان عند الصحابة بعد أن أصبح للأمن في عصرنا أهمية بالغة في زوال واستمرار الحضارات وأصبحت له مدارسه الخاصة وتقنياته المتقدمة، وأساليبه

ووسائله المتطورة، وأجهزته المستقلة، وميزانياته ذات الأرقام الكبيرة، وأضحت المعلومات عامة والمعلومات الأمنية خاصة، تباع بأغلى الأثمان، ويضحى في سبيل الحصول عليها بالنفس إذا لزم الأمر. وما دام الأمر كذلك، فعلى المسلمين الاهتمام بالناحية الأمنية، حتى لا تصبح قضايانا مستباحة للأعداء، وأسرارنا في متناول أيديهم^(٣٠٤).

ثامنا. صدق أبي ذر في البحث عن الحق ورجاحة عقله وقوة فهمه، فقد أسلم بعد عرض الإسلام عليه. تاسعا. حرص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واهتمامه بأمن أصحابه وسلامتهم، حيث أمر أبا ذر بالرجوع إلى أهله وكتمان أمره حتى يظهره الله.

عاشرا. شجاعة أبي ذر وقوته في الحق فقد جهر بإسلامه في نوادي قريش ومجتمعاتهم تحدياً لهم وإظهاراً للحق^(٣٠٥)، وكأنه فهم أن أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بالكتمان ليس على الإيجاب بل على سبيل الشفقة عليه فاعلمه بأنه أن به قوة على ذلك ولهذا أقره النبي - صلى الله عليه وسلم - على ذلك، ويؤخذ منه جواز قول الحق عند من يخشى منه الأذية لمن قاله وإن كان السكوت جائزاً والتحقيق أن ذلك مختلف باختلاف الأحوال، والمقاصد وبحسب ذلك يترتب وجود الأجر وعدمه^(٣٠٦)

(٣٠٤) - دروس في الكتمان، محمود خطاب، ص ٩.

(٣٠٥) - الوحي وتبليغ الرسالة، ص ٩٥.

(٣٠٦) - فتح الباري (٧/ ١٣٤).

الحادي عشر. كان موقف أبي ذر مفيداً للدعوة وساهم في مقاومة الحرب النفسية التي شنتها قريش ضد الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وكانت ضربة معنوية أصابت كفار مكة في الصميم بسبب شجاعة ورجولة أبي ذر وقدرته على التحمل، فقد سالت الدماء من جسده ثم عاد مرة أخرى للصدع بالشهادة.

الثاني عشر. مدافعة العباس عن المسلمين وسعيه لتخليص أبي ذر من أذى قريش دليل على تعاطفه مع المسلمين وكان أسلوبه في رد الاعتداء يدل على خبرته بنفوس كفار مكة حيث حذرهم من الأخطار التي ستواجهها تجارتهم عندما تمر بديار غفار^(٣٠٧).

الثالث عشر. امتثل أبو ذر للترتيبات الأمنية التي اتخذها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في مكة، فمع تعلق أبي ذر بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وحببه له وحرصه على لقائه، إلا أنه امتثل أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في مغادرة مكة إلى قومه واهتم بصلاح وهداية الأهل ودعوته للإسلام، فبدأ بأخيه، وأمه وقومه^(٣٠٨).

^(٣٠٧) - السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ٤٥).

^(٣٠٨) - السيرة النبوية (دروس وعبر) في تربية الأمة وبناء الدولة (٤/ ٢٩٢)

الدرس التاسع والعشرون

قصة إسلام ضماد بن ثعلبة الأزدي

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة أدخرها لي ولكم إلى يوم المصير {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ... إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: ٨٨ - ٨٩]، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، أرسله الله رحمةً للعالمين، فشرح به الصدور، وأنار به العقول، وفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

ترجمته: ضماد بن ثعلبة الأزدي.

من أزد شنوءة، كان صديقاً للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجاهلية وكان رجلاً يتطبيب، ويرقي، ويطلب العلم، أسلم أول الإسلام، قاله أبو عمر.^(٣٠٩)

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ ضِمَادًا، قَدِمَ مَكَّةَ مِنْ أَزْدِ شَنْوَةَ وَكَانَ يُرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ،^(٣١٠) فَسَمِعَ سَفَهَاءَ أَهْلِ مَكَّةَ يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ، فَقَالَ: لَوْ رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَشْفِيَهُ عَلَى يَدَيَّ، قَالَ: فَلَقِيَهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أُرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ إِنَّ اللَّهَ يَشْفِي عَلَى يَدَيَّ مِنْ شَاءَ فَهَلْ لَكَ،^(٣١١) فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِي اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلِّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَا بَعْدُ»، فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكُهَنَةِ، وَقَوْلَ السَّحَرَةِ، وَقَوْلَ الشُّعْرَاءِ، فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، وَلَقَدْ بَلَغْتَ نَاعُوسَ

(٣٠٩) - أسد الغاية ط العلمية (٥٦ / ٣)

(٣١٠) - أي يعالج بالرقية من الجنون ومس الجن، وسمي الجن ((الأرواح)) لأنهم لا يراهم الناس، فهم كالروح والريح.

(٣١١) - أي هل لك أن أرقيك وأعالجك.

الْبَحْرِ^(٣١٢) - هَكَذَا قَالَ عَبْدُ الْأَعْلَى، وَإِنَّمَا هِيَ قَامُوسُ الْبَحْرِ - هَاتِ يَدَكَ أُبَايَعُكَ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَبَايَعَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَعَلَى قَوْمِكَ»، قَالَ: وَعَلَى قَوْمِي فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً فَمَرُّوا بِقَوْمِهِ، فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْجَيْشِ: هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ شَيْئًا؟، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَصَبْتُ مِنْهُمْ مَطَهْرَةً^(٣١٣)، فَقَالَ: رُدُّوهَا؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ ضِمَادٌ (..). لَفْظُ ابْنِ مُنْتَنَى^(٣١٤) ..

دروس وعبر من إسلام ضماد بن ثعلبه

وفي قصة إسلام ضماد - رضي الله عنه - الكثير من الفوائد والعبر التي ينبغي الوقوف معها والاستفادة منها، ومنها:

الحلم النبوي: عرض ضماد على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معالجته من مرض الجنون، وهذا موقف يثير الغضب، لكن النبي - صلى الله عليه وسلم - استقبل ذلك بحلم وصبر، فقد كان - صلى الله عليه وسلم - لا تستغزه الشدائد، ولا تغضبه الإساءات، فقد اتسع حلمه حتى جاوز العدل إلى الفضل مع من أساء إليه وجهل عليه

رحابة الصدر فيه غير خافية من أجلها عظمت فيهم مكانته

وقد تضافرت الأخبار وكثرت المواقف الدالة على اتصافه - صلى الله عليه وسلم - بالحلم، فكان أحلم الناس، يتجاوز عن المسيء، وينصحه ويدعوه، فيشرق ويضيء قلبه بالإسلام، كما حدث مع أبي سفيان يوم جيء به إليه - صلى الله عليه وسلم - فقال له - مع شدة إيذائه له - : (ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟، قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك) رواه الطبراني .

خُطبة الحاجة:

^(٣١٢) - ((ناعوس)) بالنون هو قعر البحر ولجته ووسطه. وفي بعض النسخ ((ناموس)) بالميم، وفي بعضها ((قاعوس)) والمعنى واحد.

ينظر شرح مسلم للنووي ٦/ ١٥٨، ١٥٧.

^(٣١٣) - المطهرة بكسر الميم وفتحها، وهي إناء يتطهر فيه.

^(٣١٤) - صحيح مسلم: الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٦٨).

في إسلام ضماد - رضي الله عنه - ظهرت بركة خطبة الحاجة ، فهذه الخطبة التي استفتح النبي - صلى الله عليه وسلم - بها رده على ضماد يقال لها : خطبة الحاجة ، وقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - كثيرا ما يجعلها بين يدي خطبه ومواعظه ، وكان يعلمها أصحابه ، وهي تحوي الكثير من الفوائد ، بل حوت أصل الدين وقاعدته وهو توحيد الله - عز وجل - ، ونفي الشرك عنه ، واشتملت على أنواع التوحيد ، وفيها ثناء العبد على الله بما يستحقه ، واستعانته بربه ومولاه ، واستغفاره من ذنوبه ، وفيها تفويض الأمر إلى الله ، والإيمان والإقرار بأن الهداية بيد الله سبحانه وحده ، فمن شاء هداه ، ومن شاء أضله ، وفيها ذكر الشهادتين ، وهما مفتاح الدخول في الإسلام ، ومفتاح الجنان ، وقد أفردها الشيخ الألباني برسالة خاصة بها .

البلاغة النبوية:

من مظاهر عظمة النبي - صلى الله عليه وسلم - ودلائل نبوته أنه أوتي جوامع الكلم ، وعظيم البيان ، وحلاوة المنطق ، فكان يتكلم بالكلام الموجز ، القليل اللفظ الكثير المعاني ، وهو ما يسره الله له من البلاغة والفصاحة ، ولذا فإن ضمادا - رضي الله عنه - لما سمع منه - صلى الله عليه وسلم - خطبة الحاجة ، ولم يسمع منه أكثر من ذلك ، قال : " فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بلغن ناعوس البحر " ، مع أنه - رضي الله عنه - ، سمع الكثير من كلام أهل الشعر والبلاغة ، ولكنه علم أن هذا الكلام الذي سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم له طابع خاص ، يختلف تماما عما اعتاد عليه ، ولو أن أحدا من الناس تكلم بمثل هذا الكلام من قبل ، ما حكم ضماد بنبوة النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ومن ثم فكلامه وبلاغته - صلى الله عليه وسلم - ، من دلائل نبوته ، قال الله تعالى : { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ } (التَّجْمِ الْآيَةِ ٣ : ٤) ، ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " فَضَّلْتُ عَلَى النَّبِيِّاءِ بَسِئًا: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَهْرًا وَمَسْجِدًا ، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً ، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ " (٣١٥).

{ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } (القصص من الآية: ٥٦) :

(٣١٥) - أخرجه أحمد "٤١١/٢-٤١٢" ، ومسلم "٥٢٣" "٥" ، والترمذي في إثر حديث رقم "١٥٥٣" ، "٢/٤٣٣" ، "٥/٩" ، والبيهقي

الهداية بيد الله وحده، فكم سمع الكثير من الكفار كلام النبي - صلى الله عليه وسلم -، بل من آيات القرآن الكريم، ولم يؤمنوا، بل ازدادوا ضلالة وغواية، وهذا ضمام لم يسمع من النبي - صلى الله عليه وسلم - إلا كلمات معدودة ليست من القرآن، بل من كلامه - صلى الله عليه وسلم -، لكنه آمن بغير تردد ولا تحير، وهذا يؤكد أن الهداية بيد الله وحده، وأنه كم في المحن من منح، فدعاية قريش وتشويههم للنبي - صلى الله عليه وسلم - واتهامهم له بالجنون، حمل ضمام الأزدي - رضي الله عنه - على السير للنبي - صلى الله عليه وسلم - من أجل رقيته وعلاجه، فكانت الحرب الإعلامية المكينة ضد النبي - صلى الله عليه وسلم - سبباً في إسلام ضمام بل وإسلام قومه جميعاً، قال الله تعالى: { وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ } (البقرة من الآية: ٢١٦) .

أدب ورجاحة عقل ضمام - رضي الله عنه - :

ظهر أدب ضمام مع الله في علمه بالله، وما ينبغي إثباته لله - عز وجل -، حيث ذكر لنفسه أنه يرقى - أي يعالج -، وأثبت لله - سبحانه - أنه هو الشافي، حيث قال: " لعل الله يشفيه على يدي "، ومن بالغ أدبه أنه علق الشفاء بمشيئة الله، فمع الأخذ بأسباب الشفاء، يبقى الأمر لله يشفي من يشاء، فقال ضمام: " وإن الله يشفي على يدي من شاء "، وهذا الأدب مع الله من قبل رجل لم يسلم بعد .

أما أدبه مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإنه لم يصفه أو يصف إليه أي كلمة مما اتهمه بها سفهاء مكة، من أنه شاعر أو كاهن أو مجنون، فكل ما قاله: " يا محمد، إني أرقى من هذه الريح "، فلم ينطق بلفظ الجنون، مع أنه اللفظ الذي سمعه من سفهاء مكة، فلم يُعد على سمعه - صلى الله عليه وسلم - ما قالوه حتى لا يؤذيه، كما أن من أدبه أنه قال آخر مقالته للنبي - صلى الله عليه وسلم: " فهل لك " بأسلوب عرض، لا بأسلوب أمر أو استهزاء .

أما رجاحة عقله - رضي الله عنه - فقد استعرض في ذهنه في وقت قصير، قول الكهنة والسحرة والشعراء، وقارنه بكلام النبي - صلى الله عليه وسلم -، فتبين أنه رسول من عند الله ..

فسبحان الله، دخل ضماد على النبي - صلى الله عليه وسلم - يرقيه مما اتهمه به سفهاء مكة، فخرج من المجلس وقد أسلم هو وقومه، ولعل إسلامه - رضي الله عنه - جاء ببركة أدبه مع الله - عز وجل -، وأدبه مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .^(٣١٦)

^(٣١٦) - موقع إسلام ويب

الدرس الثلاثون

الدرس الجهر بالدعوة

الحمد لله الذي وفق العاملين لطاعته فوجدو سعيهم مشكورا، وحقق آمال الآملين برحمة فمنحهم عطاء موفورا، وبسط بساط كرمه للتائبين فأصبح وزرهم مغفورا، وأسبل من نعمه على الطالبين وابلا غزيرا، سبحانه فتح الباب للطلبيين، وأظهر غناه للراغبين، وأطلق للسؤال السنة القاصدين، وقال في كتابه المبين ((ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين))
وأشهد إن لا اله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير
وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفيه من خلقه وحبیب
الذي سبح نفسه بما أولاه من وده، فقال جل وعلى ((سبحان الذي أسرى بعبده))
يا سيدي يا رسول الله :

أنت الذي تستوجب التفضيلا فصلوا عليه بكرة وأصيلا

ملئت بنبوته الوجود فأظهرا بحسامه الدين الصحيح فأسفرا

ومن لم يصلي عليه كان بخيلا فصلوا عليه وسلموا تسليما

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين
ونحن معهم يا أرحم الراحمين

في السنة الرابعة من مبعثه صلى الله عليه وسلم: نزل قوله تعالى: { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ
الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ } [سورة الحجر ١٥ / ٩٤ - ٩٥].

قال ابن إسحاق: ثم إن الله عز وجل أمر رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يصدع بما جاءه منه، وأن
يبادي الناس بأمره، وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمره،
واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين -فيما بلغني- من مبعثه، ثم قال

اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: { فَاصِدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ } ، وَقَالَ تَعَالَى: { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } (٣١٧).

رَوَى الإِمَامُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: مَا زَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مُسْتَحْفِيًّا، حَتَّى نَزَلَتْ: { فَاصِدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ } فَخَرَجَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ^(٣١٨).

* الدَّعْوَةُ فِي الْأَقْرَبِينَ:

بَدَأَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِتَنْفِيذِ أَمْرِ رَبِّهِ، فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ فَعَلَهُ أَنْ دَعَا جَمِيعَ ذَوِيهِ وَأَهْلِ قَرَابَتِهِ، وَعَشِيرَتِهِ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، وَنَفَرٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، فَاجْتَمَعَ أَرْبَعُونَ أَوْ خَمْسَةَ وَأَرْبَعُونَ رَجُلًا، فَصَنَعَ لَهُمْ مِدًّا مِنْ طَعَامٍ عَلَيْهِ رَجُلٌ شَاةٌ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، وَبَقِيَ الطَّعَامُ كَمَا هُوَ كَانَتْهُ لَمْ يُمْسَ، ثُمَّ دَعَا بِعُمَرَ^(٣١٩) مِنْ لَبَنِ، فَشَرِبُوا حَتَّى رَوَوْا وَبَقِيَ الشَّرَابُ كَأَنَّهُ لَمْ يُمْسَ، فَلَمَّا انْتَهَوْا مِنْ طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ بَدَأَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُخْبِرُهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَرَادَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنْ يُكْمِلَ كَلَامَهُ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ، فَابْتَدَرَهُ أَبُو لَهَبٍ الْكَلَامَ، وَقَالَ:

هَؤُلَاءِ هُمْ عُمُومَتُكَ وَبَنُو عُمُومَتِكَ فَتَكَلَّمْ بِمَا تُرِيدُ وَدَعْ الصُّبَاةَ^(٣٢٠)، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ لِقَوْمِكَ بِالْعَرَبِ قَاطِبَةً طَاقَةً، وَأَنَّ أَحَقَّ مَنْ أَحَذَكَ فَحَبَسَكَ بَنُو أَبِيكَ، إِنْ أَقَمْتَ عَلَيَّ مَا أَنْتَ عَلَيَّ، فَهُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْ تَتَّبَعَ عَلَيَّكَ بَطُونُ قُرَيْشٍ وَتُمِدَّهَا الْعَرَبُ، فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا جَاءَ عَلَيَّ بِنِي أَبِيهِ بِشَرٍّ مِمَّا جِئْتُهُمْ بِهِ.

فَتَفَرَّقَ الْقَوْمُ، وَلَمْ يُكَلِّمُهُمْ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ.

ثُمَّ دَعَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ثَانِيَةً، وَصَنَعَ لَهُمْ مِنَ الطَّعَامِ مِثْلَ مَا صَنَعَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا، ثُمَّ خَطَبَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ أَحْمَدُهُ وَأَسْتَعِينُهُ، وَأُؤْمِنُ بِهِ، وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ"، ثُمَّ قَالَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "إِنَّ الرَّائِدَ^(٣٢١) لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ، وَاللَّهُ لَوْ كَذَّبَتْ النَّاسَ جَمِيعًا مَا كَذَّبْتُكُمْ، وَلَوْ غَرَرْتُ النَّاسَ جَمِيعًا مَا

^(٣١٧) -سيرة ابن هشام (١/ ٢٩٩).

^(٣١٨) - تفسير الطبري (٧/ ٥٤٩)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٥٥١).

^(٣١٩) - العُمَرُ: بضم العين وفتح الميم، هُوَ الْقَدْحُ الصَّغِيرُ. انظر النهاية (٣/ ٣٤٥).

^(٣٢٠) - يُقَالُ: صَبَأَ فُلَانٌ إِذَا خَرَجَ مِنْ دِينٍ إِلَى دِينٍ غَيْرِهِ، وَكَانَتْ الْعَرَبُ تُسَمِّي النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الصَّائِيَّ، لِأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ دِينِ قُرَيْشٍ إِلَى دِينِ الْإِسْلَامِ. انظر النهاية (٣/ ٣).

^(٣٢١) - أصلُ الرَّائِدِ: الَّذِي يَتَّقِدُ الْقَوْمَ يُبْصِرُ لَهُمُ الْكَلَاءَ وَمَسَاقِطَ الْغَيْثِ. انظر النهاية (٢/ ٢٥٠).

غَرَرْتُكُمْ، وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ خَاصَّةً، وَإِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَاللَّهِ لَتَمُوتَنَّ كَمَا تَتَأَمُونَ، وَلَتُبْعَثَنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ، وَلَتَحَاسِبَنَّ بِمَا تَعْمَلُونَ، وَلَتَجْزُونَ بِالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا، وَبِالسُّوءِ سُوءًا، وَإِنَّهَا لَجَنَّةٌ أَبَدًا أَوْ لَنَارٌ أَبَدًا، وَاللَّهِ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَلِّبِ مَا أَعْلَمُ شَابًا فِي الْعَرَبِ جَاءَ قَوْمَهُ بِأَفْضَلَ مِمَّا جِئْتُكُمْ بِهِ، إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ تَعَالَى أَنْ أَدْعُوَكُمْ إِلَيْهِ، فَأَيْكُمْ يَبِاعِنِي عَلَى أَنْ يَكُونَ أَخِي وَصَاحِبِي؟”

فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: مَا أَحَبَّ إِلَيْنَا مُعَاوَنَتَكَ، وَأَقْبَلْنَا لِتَصِيحَتِكَ، وَأَشَدَّ تَصَدِيقًا لِحَدِيثِكَ، وَهَوْلَاءِ بَنُو أَبِيكَ مُجْتَمِعُونَ، وَإِنَّمَا أَنَا أَحَدُهُمْ غَيْرَ أَنِّي أَسْرَعُهُمْ إِلَى مَا تُحِبُّ، فَاْمُضْ لِمَا أَمَرْتَ بِهِ، فَوَاللَّهِ لَا أَزَالُ أَحْوُطُكَ، وَأَمْنَعُكَ غَيْرَ أَنْ نَفْسِي لَا تُطَاوِعُنِي عَلَى فِرَاقِ دِينِ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ^(٣٢٢).

ثُمَّ تَكَلَّمَ سَائِرُ الْقَوْمِ كَلَامًا لَيْنًا غَيْرَ أَبِي لَهَبٍ فَإِنَّهُ قَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَلِّبِ! هَذِهِ وَاللَّهِ السُّوَاءُ، خُذُوا عَلَى يَدَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَ عَلَى يَدَيْهِ غَيْرُكُمْ، فَإِنْ أَسْلَمْتُمُوهُ حِينَئِذٍ ذَلَلْتُمْ، وَإِنْ مَنَعْتُمُوهُ فَتَلْتُمْ.

فَقَالَتْ صَفِيَّةُ عَمَّةُ الرَّسُولِ -صلى الله عليه وسلم- لِأَبِي طَالِبٍ: أَيُّ أَحْيَى! أَيَحْسُنُ بِكَ خُذْلَانُ ابْنِ أَخِيكَ؟ فَوَاللَّهِ مَا زَالَ الْعُلَمَاءُ يُخْبِرُونَ أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِضِيِّ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ نَبِيٌّ فَهُوَ هُوَ.

فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: هَذَا وَاللَّهِ الْبَاطِلُ وَالْأَمَانِيُّ، وَكَلَامُ النِّسَاءِ فِي الْحِجَالِ^(٣٢٣)، إِذَا قَامَتْ بُطُونُ قُرَيْشٍ، وَقَامَتْ مَعَهَا الْعَرَبُ فَمَا قُوَّتُنَا بِهِمْ؟ فَوَاللَّهِ مَا نَحْنُ عِنْدَهُمْ إِلَّا أَكْلَةُ رَأْسٍ^(٣٢٤)، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: وَاللَّهِ لَنَمْنَعَنَّه مَا بَقِينَا^(٣٢٥)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرَيْشًا. فَاجْتَمَعُوا. فَعَمَّ وَخَصَّ. فَقَالَ: ”يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَلِّبِ أَنْقِدُوا

^(٣٢٢) - أخرج ذلك كله: الإمام أحمد في مسنده - رقم الحديث (١٣٧١) وأخرجه في فضائل الصحابة - رقم الحديث (١٢٢٠) -

وإسناده صحيح.

^(٣٢٣) - الْحَجَلَةُ: بَيْتٌ كَالْقَبَةِ يُسْتَرُّ بِالنِّيبِ، وَتُجْمَعُ عَلَى حِجَالٍ. انظر النهاية (١/ ٣٣٤).

^(٣٢٤) - مَا هُمْ إِلَّا أَكْلَةُ رَأْسٍ: أَي قَلِيلٍ، قَدْرٌ مَا يُشْبِعُهُمْ رَأْسٌ وَاحِدٌ. انظر لسان العرب (١/ ١٧١).

^(٣٢٥) - انظر الكامل في التاريخ (١/ ٦٦٠)، وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (٢/ ٣٢٢).

أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكَ مِنَ النَّارِ. فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا. غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَابُلَهَا بَيْلَالَهَا". (٣٢٦)

وفي رواية: " يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا. يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا. يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ سَلِّبِي بِمَا شِئْتِ. لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا".

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ وَرَهْطَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ. خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا. فَهَتَفَ: " يَا صَبَاحَاهُ " فَقَالُوا: مَنْ هَذَا الَّذِي يَهْتَفُ؟ قَالُوا: مُحَمَّدٌ. فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: " يَا بَنِي فُلَانٍ يَا بَنِي فُلَانٍ يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ " فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ فَقَالَ: " أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟ " قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا. قَالَ: " فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ". قَالَ فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ أَمَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا؟ ثُمَّ قَامَ: فَتَزَلَّتْ هَذِهِ السُّورَةُ: تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَقَدْ تَبَّ.

دروس وعبر

الفائدة الأولى: الحديثان دليلان على أن من فقه الدعوة البداءة بالأقربين، وأن لهم حق تخصيصهم بالدعوة على خلاف ما عليه بعض الدعاة من الاهتمام بالأبعدين وإهمال الأقربين.

قال ابن حجر رحمه الله: " والسر في الأمر بإنذار الأقربين: أولاً: أن الحجة إذا قامت عليهم تعدت إلى غيرهم، وإلا فكانوا علة للأبعدين في الامتناع، وأن لا يأخذه ما يأخذ القريب للقريب من العطف والرأفة فيحابيهم في الدعوة والتخويف، فلذلك نصّ له على إنذارهم " [الفتح (٨ / ٥٠٣)].

الفائدة الثانية: الحديث دليل على سرعة استجابة الرسول صلى الله عليه وسلم لأمر الله تعالى، وامتناله للأمر بإنذار عشيرته، وعدم تأخير البيان عن وقت الحاجة.

الفائدة الثالثة: مناداة النبي صلى الله عليه وسلم لأسماء من قريش يجتمع معهم في نسبه بعد الأمر بالأقربين أخذ منه العلماء أن الأقرب للرجل من كان يجمعه معه جد أعلى، وأن القريب هو من الجد الرابع فما دون، ومن فوّه لا يدخل في الأقارب، واختاره شيخنا ابن العثيمين رحمه الله.

(٣٢٦) - أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الإيمان - باب في قوله تعالى: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ - رقم الحديث (٢٠٤)

قال ابن عثيمين-رحمه الله: " وكذلك نقول في صلة الأقارب الذين تجب صلتهم، هم الذين يشاركونك في الجد الرابع فما دون، وأما من سواهم، أو من فوقهم فإنهم لا يدخلون في اسم القرابة" (٣٢٧)

الفائدة الرابعة: الحديثان دليان على شجاعة النبي صلى الله عليه وسلم حيث قام الموقف وأمام سادات قريش صادعاً بالحق من غير خوف ولا محاباة، وفيه شفقتة صلى الله عليه وسلم على أقاربه وحرصه عليهم حيث قال: " " أَنْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ " وقال صلى الله عليه وسلم " فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ " وهكذا ينبغي للداعية أن يظهر حرصه وشفقتة على المدعويين.

الفائدة الخامسة: حديث أبي هريرة رضي الله عنه فيه دلالة على غاية كرم النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال لفاطمة رضي الله عنها "سَلِينِي بِمَا شِئْتِ" وفي حديث عائشة عند مسلم أنه قال لعمته صفية وابنته فاطمة رضي الله عنهما ولبني عبد المطلب "سلوني من مالي ما شئتم" أي فإني أعطيك من مالي أي شيء تسألونه، ولكن لا تسألوني دفاعاً عنكم عند الله تعالى إن لم تسلموا وتعملوا خيراً" فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً " وهذا شاهد لقوله تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] إذ أن النجاة من عذاب الله بالتقوى لا بالنسب.

الفائدة السادسة: حديث أبي هريرة رضي الله عنه دليل على أن القريب له حق الصلة وإن كان كافراً، لكن ليس له ولاية، لأن الموالاتة لأهل الحق لا أهل الباطل، وفيه دليل على أنه يجوز إعطاء الكافر غير الحربي من المال لقوله صلى الله عليه وسلم " سلوني من مالي ما شئتم " ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨].

قال ابن عثيمين رحمه الله: " فبيّن الله أنه لا ينهانا أن نعطي الكافر، أو نبره بالصدقة، والهدية، والهبة، بشرط ألا يكون قاتلنا في الدين، وأخرجنا من ديارنا، أما إذا كان قاتلنا في الدين فلا كرامة له" (٣٢٨)

(٣٢٧) - [التعليق على مسلم لابن عثيمين (١ / ٣٢٤)].

(٣٢٨) - [المرجع السابق (١ / ٧٢٢)].

الفائدة السابعة: حديث ابن عباس رضي الله عنه فيه دلالة على أهمية التوطئة للدعوة وأن من الأساليب الدعوية المناسبة تقرير المدعوين بما يتفق به معهم ويكون مدخلاً لدعوته، فالنبي صلى الله عليه وسلم أقرهم أولاً في مهام أمورهم وشأنهم بصدقه ثم دعاهم للتوحيد.

الفائدة الثامنة: في حديث ابن عباس رضي الله عنه بيان سبب نزول سورة المسد.

الدرس الحادي والثلاثون

موقف قريش من النبي صلى الله عليه وسلم

الحمد لله الذي لا يسأل عما يفعل، فلا تياس من رحمته ولا تعجل، فسبحانه من أقبل بجوده وبره على من رجع إليه وأقبل، ورأى زلة المسيء وجنح الظلام مسبل، فعامله برأفته وتجاوز عنه برحمته وأمهل، وجعل للقبول والفضل أوقاتا ليتدارك المقصر ما ضيّع وأهمل.

واشهد إن لا اله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير شهادة عبد خضع لهيبه وتذلل

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفیه من خلقه وحبیب

يا سيدي يا رسول الله:

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين ونحن معهم يا أرحم الراحمين

أيها الإخوة الأحباب نقف في هذا اللقاء مع موقف كفار مكة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن دعوته لتتعرف على الشبهة التي أثاروها فلماذا اعترض كفار مكة على نبوة النبي صلى الله عليه

أولاً: اعتراضهم على الوحدانية:

إخوة الإسلام لقد اعترض كفار مكة على دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لأنه ينادي بوحدانية الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا شريك له في ملكه ولا سند ولا بد أن نعي أن أهل مكة كانوا يؤمنون أن الذي خلقهم و أوجدهم هو الله تعالى كما ورد ذلك في غير ما أية من القرآن الكريم تبين لنا تلك الحقيقة قال تعالى: **{وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}** [لقمان: ٢٥].

و لكنهم أيها الأحباب كانوا يؤمنون بالشفعاء الذين يشفعون لهم عند الله و هم الأصنام التي يعبدونها من دون الله لأنها تقربهم من الله جل جلاله قال تعالى: **{أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ وَالدِّينَ اتَّخَذُوا مِنْ**

دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} (٢) [الزمر: ٣].

وقد انتقلت عبادة الأصنام إليهم من الأمم المجاورة لهم، ولهذا قابلوا الدعوة إلى التوحيد بأعظم إنكار وأشد استغراب قال تعالى: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ - أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ - وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ - مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ} (٤) [ص: ٤ - ٧].

ولم يكن تصورهم لله تعالى ولعلاقته بخلقه صحيحاً، إذ كانوا يزعمون أن لله تعالى صاحبة من الجن، وأنها ولدت الملائكة، وأن الملائكة بنات الله - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

فكانت الآيات تنزل مبيّنة أن الله عز وجل خلق الجن والملائكة كما خلق الإنس، وأنه لم يتخذ ولداً، ولم تكن له صاحبة، قال تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا (١) لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ - بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الأنعام: ١٠٠ - ١٠١].

ومبيّنة أن الجن يقرون لله بالعبودية، وينكرون أن يكون بينهم وبينه علاقة نسب: {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} [الصافات: ١٥٨].

ومطالبةً المشركين باتباع الحق وعدم القول بالظنون والأوهام: {إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمَعُونَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دَخَلُوا عَلَيْهِمْ أَن يُصَلُّوا عَلَيْهِمْ وَسِيَّئًا يَسْمَعُونَ إِنْ تُسَبِّحُوا عَلَيْهِمْ إِذَا سَبَّحُوا لِلَّهِ حَمْدًا كَمَا سَبَّحُوا لَهُ وَرَأَى الْمُؤْمِنِينَ إِذَا كَفَرُوا} [النجم: ٢٧ - ٢٨].

وموضحةً أنه لا يعقل أن يمنح الله المشركين البنين، ويكون له بنات، وهن أدنى قيمة في رأيهم من البنين: {أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا} [الإسراء: ٤٠].

ومحملةً المشركين مسئولية أقوالهم التي لا تقوم على دليل: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ} [الزخرف: ١٩].

ثانياً: كفرهم بالآخرة:

و من أسباب اعتراض كفار مكة على النبي صلى الله عليه وسلم انهم كانوا لا يؤمنون باليوم الآخر و بالبعث و بالنشور و النبي يدعو الناس و يخبرهم بان هناك بعث و نشور و ان هناك جزاء عقاب لذا قابل المشركون هذا الأمر بالسخرية والتكذيب: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ - أَفْتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ} [سبأ: ٧ - ٨] فقد كانوا ينكرون بعث الموتى: {وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} [الأنعام: ٢٩].

وهام ويقسمون على ذلك بالأيمان المغلظة. {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ - لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ} [النحل: ٣٨، ٣٩]

وكانوا يظنون أنه لا توجد حياة في غير الدنيا، ويطلبون إحياء آبائهم ليصدقوا بالآخرة: قال تعالى: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ - وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّوتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ - قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ - وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئِدِ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ} [الجن: ٢٤ - ٢٧].

وفاتهم أن الذي خلقهم أول مرة قادر على أن يحييهم يوم القيامة، قال مجاهد وغيره: جاء أبي بن خلف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده عظم رميم، وهو يفتته ويذروه في الهواء، وهو يقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال صلى الله عليه وسلم: «نعم يميتك الله تعالى، ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار» ونزلت هذه الآيات {أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ - وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَتَسَىٰ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ - قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} [يس: ٧٧ - ٧٩].

ثالثاً: اعتراضهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم:

و كان من شبه الكفار التي جعلتهم لا يقبلون الدعوة و الرسالة انهم كانوا يعتقدون ان الرسل لا بد ان تكون ملائكة لا بشر و ا وان يكون معه ملك يؤيده في دعوته : {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ

الهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا { [الإسراء: ٩٤] } وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقَضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ { [الأنعام: ٨] } وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ { [الأنعام: ٩] } أي لو بعثنا إلى البشر رسولاً من الملائكة لكان على هيئة الرجل يمكنهم مخاطبته والأخذ عنه ، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشر^(٣٢٩)

وكانوا يريدون رسولاً لا يحتاج إلى طعام وسعى في الأسواق: { وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا - أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا } [الفرقان: ٧، ٨] وكانهم لم يسمعوا بأن الرسل جميعاً كانوا يأكلون ويسعون ويعملون { وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا } [الفرقان: ٢٠].

انهم اعترضوا عليه لكنه فقيرا لا مال له : ويريدون أن يكون الرسول كثير المال كبيراً في أعينهم: { وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف: ٣١]. يريدون الوليد بن المغيرة بمكة وعروة بن مسعود الثقفي بالطائف^(٣٣٠).

رابعاً: موقفهم من القرآن الكريم:

كذلك لم يصدقوا أن القرآن الكريم منزل من الله واعتبروه ضرباً من الشعر الذي كان ينظمه الشعراء، مع أن كل من قارن بين القرآن وبين أشعار العرب يعلم أنه مختلف عنها: { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ - لِيُنذَرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ } [يس: ٦٩، ٧٠] وكيف يكون القرآن شعراً وقد نزل فيه ذم للشعراء الذين يضلون الناس، ويقولون خلاف الحقيقة^(٣٣١). { وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٣٣٢) - أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ - وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ } [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٦]. فهو كلام الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم وليس شبيهاً بقول

^(٣٢٩) - رسالة الأنبياء (٣/ ٥٧).

^(٣٣٠) - رسالة الأنبياء (٣/ ٥٨).

^(٣٣١) - نفس المصدر (٣/ ٥٩).

^(٣٣٢) - يعني الضالون.

الشعراء، ولا بقول الكهان: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ - وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ - وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَدَّكَّرُونَ - تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} [الحاقة: ٤٠ - ٤٣].

وقد أدرك الشعراء قبل غيرهم أن القرآن الكريم ليس شعراً^(٣٣٣) ومن فرط تكذيبهم وعنادهم قالوا: إن محمداً يتعلم القرآن من رجل أعجمي^(٣٣٤) كان غلاماً لبعض بطون قريش، وكان بياغاً يبيع عند الصفا، وربما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذلك كان أعجمي اللسان لا يعرف من العربية إلا اليسير، بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه، ولهذا قال تعالى {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ} [النحل: ١٠٣].

أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن من فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة من رجل أعجمي؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل^(٣٣٥).

واعترضوا على طريقة نزول القرآن، فطلبوا أن ينزل جملة واحدة، مع أن نزوله مفرقاً أدعى لتثبيت قلوب المؤمنين به وتيسير فهمه وحفظه وامتناله: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا} [الفرقان: ٣٢].

فلما اعترض المشركون على القرآن، وعلى من أنزل عليه بهذه الاعتراضات تحداهم الله بأن يأتوا بمثله، وأعلن عن عجز الإنس والجن مجتمعين عن ذلك: {قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء: ٨٨].

بل هم عاجزون عن أن يأتوا بعشر سور مثله: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتِطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ - {فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ} [هود: ١٣، ١٤].

(٣٣٣) - نفس المصدر (٥٩ / ٣)

(٣٣٤) - تهذيب السيرة (١ / ٧٤، ٩٠)

(٣٣٥) - تفسير ابن كثير (٢ / ٥٨٦).

وحتى السورة الواحدة هم عاجزون عنها: (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ—} أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [يونس: ٣٧ - ٣٨].

فعجزهم مع أن الفصاحة كانت من سجايهم، وكانت أشعارهم ومعلقاتهم في قمة البيان دليل على أن القرآن كلام الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله وأقواله، وكلامه لا يشبه كلام المخلوقين^(٣٣٦)

الدرس الثاني والثلاثون الابتلاء والتنكيل بمن أسلموا

تعذيب سمية بنت الخياط واستشهادها

^(٣٣٦) - رسالة الأنبياء (٣/ ٦٦).

الحمد لله الغفور الذي ستر بستره وأجمل، الشكور الذي عم بيره وأجزل، الرحيم الذي أتم إحسانه على المؤمنين وأكمل، الواحد الأحد القدوس الصمد الأول المنفرد بالعز والكمال فلا ينتقص عزه ولا يتحول، الحي العليم القدير السميع البصير المتكلم بكلام قديم لا يتغير ولا يتبدل، أحمدته على ما أنعم وأكرم وتفضل

واشهد إن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفیه من خلقه وحبیب

الذي أوحى إليه الكتاب ونزل، ونهج للمتقين طريق الهداية وسهل

يا مصطفى من قبل نشأة آدم والكون لم يفتح له إغلاق

أيروم مخلوق ثناؤك بعدما أثنى على أخلاقك الخلاق

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين ونحن معهم يا أرحم الراحمين

ترجمتها رضي الله عنها:

سمية أم عمار بن ياسر وهي سمية بنت خباط كانت أمة لأبي حذيفة بن المغيرة المخزومي، وكان ياسر حليفاً لأبي حذيفة، فزوجه سمية، فولدت له عماراً، فأعتقه أبو حذيفة.

وكانت من السابقين إلى الإسلام، قيل: كانت سابع سبعة في الإسلام.

وكانت ممن يعذب في الله عزَّ وجلَّ أشد العذاب. (٣٣٧)

إسلام سمية بنت خياط رضي الله عنها: قبيل ظهور الإسلام قديم ياسر بن عامر رضي الله عنه من

اليمن إلى مكة وأقام بها، فحالفه أبو حذيفة بن المغيرة وزوجه سمية بنت خياط رضي الله عنها وهي

كانت أمةً له، ولما ولدت سميةً عماراً أعتقها أبو حذيفة، ثم لما جاء الله بالإسلام أسلم ياسر وعمار

وسمىة^(٣٣٨) ، فقيل: إنَّ سمىة كانت سابع سبعة في الإسلام^(٣٣٩) ، فعن مجاهد رحمه الله أنه قال: أوَّل من أظهر الإسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر الصديق، وبلال بن رباح، وصهيب، وخباب بن الأرت، وعمار بن ياسر، وسمىة أم عمار رضي الله عنهم أجمعين^(٣٤٠) .

تعذيب سمىة بنت خياط رضي الله عنها:

كانت سمىة بنت خياط رضي الله عنها بعد إسلامها ممن يُعذَّب في الله عزَّ وجلَّ لترجع عن دينها، فلم تفعل، وكانت يومئذٍ عجوزًا كبيرةً ضعيفةً^(٣٤١) ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمرُّ بسمىة وزوجها وابنها عمَّار رضي الله عنهم وهم يُعذَّبون في رمضاء مكة^(٣٤٢) ، فيقول: "صَبْرًا يَا آلَ يَاسِرٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةُ"^(٣٤٣) .

وفاة سمىة بنت خياط رضي الله عنها:

سمىة بنت خياط رضي الله عنها هي تلك الشهيدة التي زحفت نحو الموت دون أن تتنازل لأبي جهل عن شيءٍ من إسلامها^(٣٤٤) ، فإنَّها كما قال جابر رضي الله عنه: «يقتلونها فتأبى إلا الإسلام»^(٣٤٥) .

(٣٣٨) - ابن سعد: الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ= ١٩٩٠م، ١/٤، ١٠١.

(٣٣٩) - ابن منده: المستخرج من كتب الناس للتذكرة والمستطرف من أحوال الرجال للمعرفة، تحقيق: عامر حسن صبري التميمي، وزارة العدل والشؤون الإسلامية البحرين، إدارة الشؤون الدينية، ١٦/٢، ٥١٦.

(٣٤٠) - ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد الجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ= ١٩٩٢م، ٤/١٨٦٤.

(٣٤١) - ابن سعد: الطبقات الكبرى، ٨/٢٠٧، وابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ= ١٩٩٢م، ٢/٣٨٤.

(٣٤٢) - بن إسحاق: السير والمغازي، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ= ١٩٧٨م، ص ١٩٢، و

(٣٤٣) - الحاكم في المستدرک (٥٦٤٦) سكت عنه الذهبي في التلخيص، والمعجم الكبير للطبراني (٢٠٧٩٠).

(٣٤٤) - محمد الصوياني: السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، ١/٩١.

(٣٤٥) - ابن كثير: البداية والنهاية، دار الفكر، ١٤٠٧هـ= ١٩٨٦م، ٣/٥٩.

وظلّت على رفضها حتى مرّ بها أبو جهل فطعنها في قبلها موضع عفافها فماتت رحمها الله ورضي عنها وأرضاها^(٣٤٦) ، وكان ذلك قبل الهجرة^(٣٤٧) ، وهي أول شهيدة في الإسلام^(٣٤٨) ، ولمّا قُتِل أبو جهل يوم بدر قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم لعمار رضي الله عنه: "قَتَلَ اللهُ قَاتِلَ أُمَّكَ"^(٣٤٩) .

إيمان لا يتزعزع وشهادة: السيدة سمية رضي الله عنها ظلت مع الفئة المؤمنة، يعذبون بالأبطح في رمضاء مكة، وكان رسول الله يمر بهم ويدعو الله -عز وجل- أن يجعل مثوهم الجنة، وأن يجزيهم خير الجزاء، وتبقى سمية تحت العذاب ومحاولات مستميتة لردّها عن دينها، لكن رحمة الله بها أمكنت الإيمان من قلبها، فهانت روحها، ولم يهن دينها، وإذا بالفاجر أبي جهل يرميها بحربة في موطن عفتها، ولم يرحم ضعفها كإنسان، ولم يرحم ضعفها كامرأة، كما لم يرحم ضعفها ولا عجزها كامرأة مسنة لا تقوى على العذاب.

السيدة سمية نالت الشهادة بعد أن طعنها أبو جهل بحربته، لتكون أول شهيدة في الإسلام، لتكون سيرتها رسالة لبنات جنسها على مر الأيام والسنين، للشد على دينهن بكل ما يمكن، فلا يوجد أعلى من الدين.

لم تنته قصة سمية باستشهادها، فبقي الجزء الآخر المتعلق بقاتلها أبي جهل لعنه الله، الذي لقي جزاءه في غزوة بدر الكبرى، حين طعنه شبلا الإسلام معاذ بن الحارث، وأخوه معوذ بن الحارث، ولكنه لم يمت على أثر طعناتهما بسبب ضخامة جسده، لكنه لفظ أنفاسه الأخيرة على يد عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي أجهز عليه.

هل ذكرتك سمية بحدث أو أحداث مشابهة في زماننا؟.. إن حملت لك سيرتها مشاهد وذكريات لأحداث تراها في الشاشات، فدعني أذكرك بمقولة النبي صلى الله عليه وسلم لعمار بن ياسر، بعد مقتل عدو الله أبي جهل: "قتل الله قاتل أمك يا عمار" رواه ابن سعد، ووصف ابن حجر سنده بالصحيح.

^(٣٤٦) - البيهقي: دلائل النبوة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى - ١٤٠٥هـ، ٢/٢٨٢، وابن كثير: البداية والنهاية،

^(٣٤٧) - ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ٤/١٨٦٤.

^(٣٤٨) - ابن سعد: الطبقات الكبرى، ٨/٢٠٧، وأبي نعيم: معرفة الصحابة، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر،

الرياض، الطبعة الأولى ١٩٩٨هـ = ١٩٩٨م، ٤/٢٠٧، وابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ٤/١٨٦٤،

^(٣٤٩) - ابن سعد: الطبقات الكبرى، ٨/٢٠٧.

تعذيب عمار بن ياسر رضي الله عنهما :

روى الإمام أحمد عن عُمَانَ رضي الله عنه قال : أَقْبَلْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آخِذًا بِيَدِي نَتَمَشَّى فِي الْبَطْحَاءِ ، حَتَّى أَتَى عَلَيَّ أَبِي عَمَّارٍ وَأُمِّي يُعَذِّبَانِ ، فَقَالَ أَبُو عَمَّارٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، الدَّهْرُ هَكَذَا . فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((اصْبِرْ !)) ثُمَّ قَالَ : ((اللَّهُمَّ اغْفِرْ لآلِ يَاسِرٍ)) .
وفي رواية الحاكم والبيهقي قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((أَبْشِرُوا آلَ عَمَّارٍ ، وَآلَ يَاسِرٍ ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةُ)) ..

وكان الشيخ ياسر رضي الله عنه يسخر من العذاب ، وأراد أن يقول للناس أجمعين أنه لا يخشى السَّيِّطَ ولا القيود ، بل هو يتزيّن بها للجنة ، ويرجو أن يكون أول شهيد في الإسلام ..

كان أمام المعذبين الآخرين صورتان رهيبتان :

الأولى : صورة العذاب الهائل النازل بالمؤمنين ، لا طاقة لهم بالصبر عليه ، مما خارت له قواهم .

فقد روى ابن إسحاق عن سعيد بن جبيرة قال : قلت لعبد الله بن عباس رضي الله عنه : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العذاب ما يُعذرون به في ترك دينهم ؟ قال : نعم ، والله إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه ، حتى ما يقدر أن يستوي جالسا من شدة الضر الذي نزل به ، حتى يُعطيهم ما سألوه من الفتنة ، حتى يقولوا له : آلاّت والعزى إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم .

أما الصورة الأخرى ، فكانت لآل ياسر ومن معهم ، فإنهم حين رأوا منهم ذلكم الصبر والجلد ، صبروا وثبتوا .

الدرس الثالث والثلاثون

خباب بن الأرت رمز الصمود

الحمد لله الحكيم الرؤوف الرحيم الذي لا تخيب لديه الآمال، يعلم ما أضمر العبد من السر وما أخفى منه ما لم يخطر ببال، ويسمع همس الأصوات وحس دهس الخطوات في وعس الرمال، وير حركة الذر في جانب البر وما درج في البحر عند تلاطم الأمواج وتراكم الأهوال، أفلا يستحي العبد الحقير من مبارزة الملك الكبير بقبح الأفعال

واشهد إن لا اله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير الكل تحت قهره ونظره في جميع الأحوال، فتبارك من وفق من شاء لخدمته فشتان ما بين رجال ورجال عبد الله: يا مسكين:

يا غافلا والجليل يحرسه من كل سوء يدب في الظلم

كيف تنام العيون عن ملك تأتيه منه فوائد النعم

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفیه من خلقه وحبیب أنت الذي لما رفعة إلي السما

أنت الذي ناداك ربك مرحبا ولقد دعاك لقربه وحباك

ماذا يقول المادحون وما عسى أن تجمع الكتاب من معنك

صلى عليك الله يا علم الهدى ما اشتاق مشتاق إلي رؤياك

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين ونحن معهم يا أرحم الراحمين

ترجمته رضي الله عنه- : خباب بن الأرت بن جندلة، كان فاضلا من السابقين الأولين، من أوائل من أظهر إسلامه وعذب لأجل ذلك عذابا شديدا، شهد بدرا وما بعدها من المشاهد مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ، يكنى أبا يحيى، وقيل يكنى أبا عبدالله وقيل أبا محمد. روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - . روى عنه مسروق بن الأجدع وأبو أمامة صدي ابن عجلان، وعلقمة بن قيس النخعي وابنه عبدالله بن خباب وأبو وائل شقيق بن سلمة وغيرهم.

قال مجاهد: أول من أظهر إسلامه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وأبو بكر، وخباب، وبلال، وصهيب، وعمار.

وعن الشعبي قال: سألت عمر خبابا عما لقي من المشركين، فقال: يا أمير المؤمنين، انظر إلى ظهري، فنظر، فقال ما رأيت كالיום. قال خباب: لقد أوقدت لي نار وسحبت عليها فما أطفأها إلا ودك ظهري.

وعن أبي ليلى الكندي قال: قال عمر لخباب: "ادن، فما أحد أحق بهذا المجلس منك إلا عمار، قال: فجعل يريه بظهره شيئا يعني من آثار تعذيب قريش له" رواه ابن ماجه (٣٥٠).

عَنْ خَبَابِ بْنِ الْأَرْتِّ، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ فِي يَمِينِ قَبْلِكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيَجْعَلُ فِيهِ، فَيَجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيَشَقُّ بِأَثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّكِيبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذُّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» . (٣٥١)

روى البخاري ومسلم عن خباب رضي الله عنه قال: "كُنتُ قَبِيئًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ [أي: عبدًا]، وَكَانَ لِي عَلَى الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ دَيْنٌ، فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ، قَالَ: لَا أُعْطِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: لَا أَكْفُرُ حَتَّى يُمِيتَكَ اللَّهُ ثُمَّ تُبْعَثَ. قَالَ: دَعْنِي حَتَّى أَمُوتَ وَأُبْعَثَ فَسَأَوْتِي مَالًا وَوَلَدًا فَأَفْضِيكَ ! فَتَزَلْتُ: { أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا } (مريم الآية ٧٧). (٣٥٢)

أنزل الله في موقفه قرآنا يخلد موقفه وتتلوه الأمة كلها ..

(٣٥٠) - ابن ماجه (١٥٣/٥٤/١) قال البوصيري في الزوائد: "هذا إسناد صحيح".

(٣٥١) - البخاري (٤٧٣٢/٥٤٨/٨).

(٣٥٢) - أصول الاعتقاد (٥٥٨/٣٧٥/٢) والإبانة (١٩/٢٤٥-٢٤٤/١٢/١) والشريعة (١٦٩/٢١٦/١) والفتاوى (١٧٥/٣) والسنة لعبدالله

(٢٤).

ولكنهم لما رأوا إصراره على تمسكه بهذا الدين، وتمسكه بهدي النبي الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم، عزموا على أن يذيقوه أشد ألوان العذاب، وأمر كؤوس العقاب..

عن الشعبي عن خباب بن الأرت قال: "لم يكن أحدٌ إلا أعطى ما سأله يوم عذبهم المشركون، إلا خباب بن الأرت، كانوا يُضجعونه على الرضف (هي الحجارة الحامية)، فلم يستقلوا منه شيئاً".^(٣٥٣)

موقفه من المبتدعة: - روى ابن وضاح عن عبدالله بن خباب قال: بينما نحن في المسجد ونحن جلوس مع قوم نقرأ السجدة ونبكي فأرسل إلي أبي، فوجدته قد احتجز معه هراوة له فأقبل علي فقلت: يا أبت مالي مالي؟ قال: ألم أرك جالسا مع العمالقة ثم قال: هذا قرن خارج الآن.^(٣٥٤)

وعن صالح أبي الخليل قال: مر خباب بابنه وهو مع أناس يجادلون في القرآن فانقلب غضبان فأعد له سوطا أو خطاما أو نسعة، فلما انقلب الفتى وثب عليه من غير أن يأتيه فضربه ضربا عنيفا، فلما رأى الجد من أبيه قال: قد علمت أنك إنما تريد نفسي فعلى ماذا؟ فما رد عليه شيئا فجعل يضربه فقال: يا أبت، قد أرى أنك تريد نفسي، فمه؟ قال: ألم أرك مع قوم يجادلون في القرآن؟ قال: يا أبت إني لا أعود. فكان إذا مر بهم يدعونه، قال: فيقول: لا، إلا أن تقبلوا مني ما قبل أبي من نبي الله. قال: فيقولون له: إنه قد كان بعد النبي - صلى الله عليه وسلم - أمور أو أحداث.^(٣٥٥) (٢)

وأحب خباب العلم، وحرص على سماع القرآن ونشره بين إخوانه المسلمين، ففي أيام الدعوة الأولى كان خباب يدرس القرآن مع سعيد بن زيد وزوجته فاطمة بنت الخطاب، عندما دخل عليهم عمر بن الخطاب.

وجاءت الهجرة، فأسرع خباب ملبياً أمر النبي صلى الله عليه وسلم، فهاجر إلى المدينة، وهناك آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين تميم مولى خراس بن الصمة -رضي الله عنهما-، وشارك خباب في جميع غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، وأظهر فيها شجاعة وفروسية، وظلَّ محباً للجهاد في سبيل الله، وشارك خباب في الفتوحات أيام أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب -رضي الله عنهما-.

^(٣٥٣) - أبو نعيم في "الحلية" (١/١٤٤)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٧٧/٤)

^(٣٥٤) - ابن وضاح (ص. ٥٢).

^(٣٥٥) - ابن وضاح (ص. ٥٢-٥٣).

ثم نزل خباب في الكوفة وبنى لنفسه بيتا متواضعا عاش فيه حياة زاهدة، وبالرغم من هذه الحياة البسيطة، كان يعتقد أنه أخذ من الدنيا الكثير، فكان يبكي على بسط الدنيا له، وكان يضع ماله كله في مكان معروف في داره لكي يأخذ منه كل محتاج من أصحابه الذين يدخلون عليه، وفي مرضه الذي مات فيه دخل عليه بعض الصحابة، فقالوا له: أبشر يا أبا عبد الله، ترد على محمد صلى الله عليه وسلم الحوض، فأشار خباب إلى أعلى بيته وأسفله قائلاً: كيف بهذا؟! وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنه يكفي أحدكم مثل زاد الراكب) [ابن ماجه]، ولقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أملك درهماً، وإن في جانب بيتي (الآن) لأربعين ألف درهم.

وطلب خباب كفنه، فلما رآه بكى، وقال: لكن حمزة -رضي الله عنه- لم يوجد له كفن إلا بردة ملحاء إذا جعلت على رأسه قلصت (انضمت) عن قدميه، وإذا جعلت على قدميه قلصت عن رأسه، حتى مدت على رأسه، وجعل على قدميه الإذخر.

ودخل عليه بعض أصحابه فقال لهم: إن في هذا التابوت (الصندوق) ثمانين ألف درهم، والله ما شددت لها من خيط ولا منعته من سائل، ثم بكى، فقالوا: ما يبكيك؟ قال: أبكى أن أصحابي مضوا ولم تنقصهم الدنيا شيئاً، وأنا بقينا بعدهم حتى لم نجد لها موضعاً إلا التراب. وفي عام (٣٧ هـ) سعدت روح خباب إلى بارئها ودفن بالكوفة، ولما عاد علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- من معركة صفين، مر بقبر خباب؛ فقال: رحم الله خباباً، أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهداً، وابتلى في جسمه أحوالاً.

الدرس الرابع والثلاثون

بلال بن رباح رمز التضحية والثبات

الحمد لله الذي تفرد بالعز والجلال، وتوحد بالكبرياء والكمال، وجلّ عن الأشباه والأشكال، ودل على معرفة فزال الإشكال، وأذل من اعتز بغيره غاية الإذلال، وتفضل على المطيعين بلذيق الإقبال، بيده ملكوت السماوات والأرض ومفاتيح الأقفال، لا رادّ لأمره ولا معقب لحكمه وهو الخالق الفعال. وأشهد إن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير هو الأول والآخِر والظاهر والباطن الكبير المتعال، لا يحويه الفكر ولا يحده الحصر ولا يدركه الوهم والخيال.

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفيه من خلقه وحبیبه الذي أیده بالمعجزات الظاهرة، والآيات الباهرة، وزينه بأشرف الخصال ورفعته إلى المقام الأسنى، فكان قاب قوسين أو أدنى، وخلع الجمال.

جل الذي بعث الرسول رحيمًا ليرد عنا في المعاد جحيمًا

وبه نرجى جنة ونعيمًا أضحى على الرب الكريم كريمًا

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين ونحن معهم يا أرحم الراحمين

بطاقة تعريف وتشريف:

هو بلال بن رباح الحبشي القرشي التيمي، مولى سيدنا أبي بكر رضي الله عنهما، وقد ذكروا في ترجمته عدة كنى له؛ فهو أبو عبد الله، ويقال: أبو عبد الكريم، ويقال: أبو عبد الرحمن، ويقال: أبو عمرو. كان حبشيًا من الأرقاء الذين يعيشون في مكة، وقد ولد فيها، وأمه حمامة مولاة لبني جمح كنية بلال: أبو عبد الله.

بلال-رضي الله عنه-أول من أسلم من العبيد:

أحباب الحبيب صلى الله عليه وسلم: ومن أوسمة الشرف التي نالها بلال رضي الله عنه أنه أول من أسلم من العبيد ليتحرر بذلك من رق العبودية للبشر لينال شرف العبودية لله الواحد الأحد روى مسلم عن أبي أمامة، قال: قَالَ عَمْرُو بْنُ عَبْسَةَ السُّلَمِيُّ: كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْآلُوتَانَ، فَسَمِعْتُ بَرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا، فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي، فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُسْتَحْفِيًا جُرْءًا عَلَيْهِ قَوْمُهُ،

فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: «أَنَا نَبِيٌّ»، فَقُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: «أَرْسَلَنِي اللَّهُ»، فَقُلْتُ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ، قَالَ: «أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوحَدَ اللَّهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ»، قُلْتُ لَهُ: فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: «حُرٌّ، وَعَبْدٌ»، قَالَ: وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ أَبُو بَكْرٍ، وَبِلَالٌ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ، فَقُلْتُ: إِنِّي مُتَّبِعُكَ. ((٣٥٦)).

صبر بلال-رضي الله عنه - على الابتلاء:

لم يكن إسلام بلال رضي الله عنه أمراً هيناً على الكافرين بل كان صفة قوية للظلمة الذين استعبدوا الناس و ساموهم سوء العذاب لقد شعر بلال رضي الله عنه أنه انطلق إلى أفق رحب لا يعرف الحدود و لا يعرف الأحساب و الأنساب فلا نسب و لا حسب إلا الإسلام أبي الإسلام لا أب لي سواه لذا وقف بلال رضي الله عنه كالجبل الأشم في وجه عاصفة الكفر والتعذيب و العنصرية فلم يهن عزمه ولم يضعف إيمانه... عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: " أَوَّلُ مَنْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ سَبْعَةٌ: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَبُو بَكْرٍ، وَبِلَالٌ، وَحَبَابٌ، وَصُهَيْبٌ، وَعَمَارٌ، وَسُمَيَّةُ أُمُّ عَمَّارٍ. قَالَ: فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَنْعَهُ عَمُّهُ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَمَنْعَهُ قَوْمُهُ، وَأَخَذَ الْآخَرُونَ فَالْبُسُومُ أَدْرَاعَ الْحَدِيدِ، ثُمَّ صَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ حَتَّى بَلَغَ الْجَهْدُ مِنْهُمْ كُلَّ مَبْلَغٍ، فَأَعْطَوْهُمْ مَا سَأَلُوا، فَجَاءَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ قَوْمَهُ بِأَنْطَاعِ الْأَدَمِ فِيهَا الْمَاءُ فَالْقَوْمُ فِيهِ، وَحَمَلُوا بِجَوَانِبِهِ إِلَّا بِلَالًا، فَلَمَّا كَانَ الْعِشِيُّ جَاءَ أَبُو جَهْلٍ فَجَعَلَ يَشْتِمُ سُمَيَّةَ وَيَرْفُثُ، ثُمَّ طَعَنَهَا فَقَتَلَهَا، فَهِيَ أَوَّلُ شَهِيدٍ اسْتَشْهِدَ فِي الْإِسْلَامِ، إِلَّا بِلَالًا فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللَّهِ حَتَّى مَلُوهُ، فَجَعَلُوا فِي عُنُقِهِ حَبْلًا، ثُمَّ أَمَرُوا صَبِيَانَهُمْ أَنْ يَشْتَدُوا بِهِ بَيْنَ أَحْشَبِيِّ مَكَّةَ، فَجَعَلَ بِلَالٌ يَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ " ((٣٥٧)).

روى ابن سعد عن عروة بن الزبير قال: كَانَ بِلَالُ بْنُ رَبَاحٍ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَكَانَ يُعَذَّبُ حِينَ أَسْلَمَ لِيَرْجِعَ عَنْ دِينِهِ. فَمَا أَعْطَاهُمْ قَطُّ كَلِمَةً مِمَّا يُرِيدُونَ. وَكَانَ الَّذِي يُعَذِّبُهُ أُمِيَّةُ بِنْتُ خَلْفٍ. ((٣٥٨)).

روى ابن سعد عن عمير بن إسحاق قال: كَانَ بِلَالٌ إِذَا اسْتَدُّوا عَلَيْهِ فِي الْعَذَابِ قَالَ: أَحَدٌ أَحَدٌ. فَيَقُولُونَ لَهُ: قُلْ كَمَا نَقُولُ. فَيَقُولُ: إِنَّ لِسَانِي لَا يُحْسِنُهُ. ((٣٥٩)).

(٣٥٦) - (مسلم/ حديث: ٨٣٢)

(٣٥٧) - (الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ ص١٧٦)

(٣٥٨) - («الطبقات الكبرى» (٣/ ٢١٣ ط الخانجي):

(٣٥٩) - (الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ ص١٧٥).

أين نحن من بلال ، بلال يتعرض للعذاب والقتل حتى يترك الإسلام ، وله في ذلك دليل من كتاب الله لكنه يصبر على الأذى والعذاب في سبيل الله تعالى ، نعم يتقرب إلى الله بالصبر على العذاب ، ولا يترك دينه .

ومنا اليوم من يفسد ويفسق ويفعل المعاصي ، ويقترب الإثم ، ويأتي الذنوب ، وهو يتنعم بنعم الله عليه ، فشتان بين الاثنين .

الرعييل الأول يتقربون إلى الله بفعل الطاعات ، والخير والبر والقربات ، ومنا اليوم من يتقرب إلى الله بالمعاصي ، لأنه واقع فيها لا محالة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

جزى الله خيراً عن بلال وصحبه عتيقاً وأخزى فاكها وأبا جهل
عشية همًا في بلال بسوءة ولم يحذروا ما يحذر المرء ذو العقل
بتوحيده ربّ الأنام وقوله شهدت بأن الله ربّي على مهل
فإن تقتلونني تقتلونني ولم أكن لأشرك بالرحمن من خيفة القتل

نزل القرآن الكريم في شأن بلال رضي الله عنه وأصحابه الفقراء :

وها هو الإسلام يعلي من الشأن الضعفاء والفقراء يقدمهم على الأحساب والأنساب والأعراف فلا عز إلا عز الطاعة ولا شرف إلا شرف الإيمان وان كان صحابه عبدا عربيا أو حبشيا ، أو روميا عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : قال : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِتَّةَ نَفَرٍ ، فَقَالَ الْمَشْرُكُونَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِثُونَ عَلَيْنَا ، قَالَ : وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ ، وَرَجُلٌ مِنْ هُدَيْلٍ ، وَبِلَالٌ وَرَجُلَانِ _ لَسْتُ أَسْمِيهِمَا _ فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ ، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ _ لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَطْمَعُ فِي إِسْلَامِ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ _ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : { وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ } [الأنعام ٥٢] ((٣٦٠)) .

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : مرّ الملأ من قريش على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار . فقالوا : يا محمد أرضيت بهؤلاء؟ فنزل فيهم القرآن : [وأنذر به الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ] إلى قوله : [أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ] [الأنعام : ٥١ - ٥٣] ((٣٦١)) .

(٣٦٠) - أخرجه الإمام مسلم في فضائل الصحابة برقم (٤٦)

(٣٦١) - مسند الإمام أحمد : ٤٢٠/١ .

إن هؤلاء الفقراء والمساكين المنكسرين خير من أولئك العظماء المتكبرين ، إن أافية هؤلاء المؤمنين أشرف من وجوه أولئك الكفرة ، إن أقدام هؤلاء خير من رؤوس أولئك ، لأن هؤلاء مؤمنون ، موحدون ، طاعون ، وأولئك مكذبون ، متكبرون ، محادون لله ورسوله .

جهاد بلال رضي الله عنه-:

انطق بلال رضي الله عنه يحمل سيف و يحمل روح على كفه يجاهد في سبيل الله و ليردع هؤلاء الكفار الذين يصدون عن سبيل الله يقول ابن سعد رحمه الله (شَهَدَ بِلَالٌ بِنَ رَبَاحٍ بَدْرًا وَأَحَدًا وَالْحَنْدَقَ وَالْمَشَاهِدَ كُلَّهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.) ((٣٦٢))

الخازن رسول الله بلال رضي الله عنه الأمين:

إخوة الإسلام : لقد نال بلال رضي الله عنه ثقة رسول الله صل الله عليه و سلم و ذلك لصدقه و أمانته فولاه رسول الله صلى الله عليه و سلم منصب الخازن و أتمانه رسول الله على خزائن الطعام عَبْدُ اللَّهِ الْهُوزَنِيُّ ، قَالَ : لَقِيتُ بِلَالًا مُؤَدِّنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَلَبَ فَقُلْتُ لَهُ : يَا بِلَالُ حَدِّثْنِي كَيْفَ كَانَتْ نَفَقَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَ : " مَا كَانَ لَهُ شَيْءٌ أَنَا كُنْتُ الَّذِي أَلِي ذَلِكَ مِنْهُ مُنْذُ بَعَثَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى تُوفِّيَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَكَانَ إِذَا أَتَاهُ الْإِنْسَانُ الْمُسْلِمُ فَيَرَاهُ عَارِيًا يَأْمُرُنِي بِهِ فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَقْرِضُ فَأَشْتَرِي لَهُ الْبُرْدَةَ أَوْ غَيْرَهَا فَأَكْسُوهُ وَأُطْعِمُهُ ((٣٦٣)).

و لقد تحمل بلال رضي الله عنه مع الحبيب صلى الله عليه وسلم الشدائد و المشاق تحمل الجوع و الفقر عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «لَقَدْ أُوزِيْتُ فِي اللَّهِ ، وَمَا يُؤْدَى أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَالِثَةٌ مَا بَيْنَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ مَا لِي وَلَيْلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ دُو كَبِدٍ إِلَّا مَا وَارَاهُ إِبْطُ بِلَالٍ» ((٣٦٤)).

بِمَ سَبَقْتَنِي إِلَى الْجَنَّةِ الْبَارِحَةِ!؟

هل تتخيل تلك المكانة و المنزلة التي بلغها بلال رضي الله عنه كان سباقا إلى كل خير وضع الجنة نصب عينيه و رضا ربه و مولاه و طاعته نبيه و مصطفاه صلى الله عليه وسلم لذا نال تلك المكرمة اسمعوا إلى هذا الموقف أيها الأحباب :

قَالَ ابْنُ بُرَيْدَةَ ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ : دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلَالًا فَقَالَ : " يَا بِلَالُ ، بِمَ سَبَقْتَنِي إِلَى الْجَنَّةِ؟ إِنِّي دَخَلْتُ الْجَنَّةَ الْبَارِحَةَ فَسَمِعْتُ خَشْخَشَتَكَ أَمَامِي ، فَأَتَيْتُ عَلَى قَصْرِ مِنْ ذَهَبٍ مُرْبَعٍ ،

(٣٦٢) - (الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ ص١٨٠).

(٣٦٣) - (سنن أبي داود) (٤ / ٦٦١ ت الأرئوط) : «إسناده صحيح»

(٣٦٤) - «مسند أحمد» (١٩ / ٢٤٥ ط الرسالة) «وأخرجه ابن أبي شيبة ١١ / ٤٦٤ و ٣٠٠ / ١٤ ، وابن ماجه (١٥١)»

فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا الْقَصْرُ؟ قَالُوا: لِرَجُلٍ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ، قُلْتُ: فَأَنَا مُحَمَّدٌ، لِمَنْ هَذَا الْقَصْرُ؟ قَالُوا: لِرَجُلٍ مِنْ الْعَرَبِ، قُلْتُ: أَنَا عَرَبِيٌّ، لِمَنْ هَذَا الْقَصْرُ؟ قَالُوا: لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ، قُلْتُ: أَنَا قُرَيْشِيٌّ، لِمَنْ هَذَا الْقَصْرُ؟ قَالُوا: لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ " (٣٦٥).

خشخششتك): الخشخششة حركة لها صوت كصوت السلاح، أي صوت مشيتك.

فهذا بلال الحبشي ينال تلك المنزلة الرفيعة بخبر رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى والذي لا يخرج من لسانه إلا الحق فليتق الله من يسبونها جاهلية فيناضلون بين الناس على أساس عروقهم وأجناسهم وقبائلهم وليعلموا أنه ليس بين الله وبين أحد من خلقه سبب إلا سبب التقوى إن أكرمكم عند الله أتقاكم

وفاة بلال رضي الله عنه :

كانت سيرته رضي الله عنه-نبراسا يستضاء به و دليلا واضحا على عظمة الإسلام الذي رفع من قدره و شأنه و أعلى من منزلته و كرمه و منحه أوسمة كثيرة منها أنه مبشر بالجنة حياة كلها طاعة و جهاد بذل و عطاء صدق ووفاء أمانة وإخلاص و من عاش على شيء مات عليه قَالَ سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: لَمَّا احْتَضَرَ بِلَالُ بْنُ رَبَاحٍ قَالَ: غَدًا نَلْقَى الْأَحِبَّةَ * مُحَمَّدًا وَحِزْبَهُ. قَالَ: تَقُولُ أَمْرًا تَهُ: وَأَوْيَلَاهُ. فَقَالَ بِلَالٌ: وَأَفْرَحَاهُ. ()

تُوفِّيَ بِلَالُ بْنُ رَبَاحٍ بِدِمَشْقَ سَنَةَ عِشْرِينَ وَدُفِنَ عِنْدَ الْبَابِ الصَّغِيرِ فِي مَقْبَرَةِ دِمَشْقَ وَهُوَ ابْنُ بَضْعٍ وَسِتِّينَ سَنَةً (.)

وتأتي لحظة الرحيل التي لا بد لكل حي منها ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] ، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦]- [٢٧] ، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨] " ويموت بلال رضي الله عنه ، ويدفن في الشام ، سنة عشرين بدمشق ، وهو ابن بضع وستين سنة .

ويلحق بالرفيق الأعلى ، ليتقدم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنة ، كما كان يتقدم بين يديه في الدنيا يفسح له الطريق ، ويسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم خشخشة نعليه في الجنة ، فرضي الله عن بلال ، وعن سائر الصحب والآل ، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم المآل .

(٣٦٥) - «مسند أحمد» (٣٨ / ١٤٨ ط الرسالة): «صحيح لغيره»

و أخيرا عباد الله : بعد هذا البيان تبين لنا أنّ القيمة الإنسانية واحدة للجميع ، . يقول القرآن : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [الحجرات: ١٣]. فالعربيّ إنسان، والعجميّ إنسان، والأبيض إنسان، والأسود إنسان، والحاكم إنسان، والمحكوم إنسان، والغنيّ إنسان، والفقير إنسان، وربّ العمل إنسان، والعامل إنسان، والرجل إنسان، والمرأة إنسان، والحرّ إنسان، والعبد إنسان، وما دام لكل إنساناً فهم إذن سواسية كأسنان المشط الواحد.

لقد سوى الإسلام بين بلال الحبشي وأبي بكر القرشي

لقد سوى الإسلام بين صهيب الرومي وعمر بن الخطاب القرشي

لقد سوى الإسلام بين سلمان الفارسي وعثمان بن عفان القرشي

إنها عظمة الإسلام في إنسانيته التي تنبثق عن عقيدة إن ربك واحد، ودينك واحد، وأباكم وبواحد، وحدوا الواحد

الدرس الخامس والثلاثون

وسائل مواجهة ومحاربة الدعوة

الحمد لله الجبار المعبود، الذي أباد بسطوته قوم نوح، وأهلك عاد وقوم هود، وأعاد من بعد عاد دائرة السوء على ثمود، وسلط ضعيف البعوض على النمرود، وأغرق فرعون وقومه لما تلاطمت عليهم الأمواج الصدود، وأعمى بصائر الجاحدين ففي أعناقهم أغلال وفي أرجلهم قيود " فالذين كفرو قطعتم لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤسهم الحميم ... يصهر به ما في بطونهم والجلود وأشهد إن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفيه من خلقه وحبیبه صاحب اللواء المعقود، والحوض المورود

إذا ما شئت في الدارين تسعد فكثرت في الصلاة على محمد

وان شئت قبول لها يقينا فختم بالصلاة على محمد

وقل يا رب لا تقطع رجائي وكن لي بالصلاة على محمد

إخوة الإسلام: نقف اليوم مع الوسائل التي استخدمها المشركون لمحاربة الدعوة والصد عن سبيل الله تعالى لقد استخدم المشركون شتى الوسائل المتاحة لديهم من أجل محاربة الإسلام وتخويف الناس من الدخول في ذلك الدين الجديد نذكر منها:

أسلوب التهيب والتهديد:

وهذا الأسلوب يستخدمه المجرمون في كل زمان و مكان من أجل التنكيل بمخالفينهم استعمل المشركون هذا الأسلوب لثني النبي ﷺ وأصحابه عن الإسلام ونشر دعوته، وكان يتولى هذا الأسلوب كبراء قريش، وطواغيتهم كأبي جهل الذي كان إذا سمع بإسلام رجل من أشرف مكة ومن له شوكة ومنعة أنبأه وأخزاه وقال له: "تركت دين أبيك وهو خير منك! لنسفهن حلمك، ولنضعن رأيك، ولنضعن

شرفك” (٣٦٦) ، وإن كان ذا مال ومتاع وتجارة قال له : ” لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك” (٣٦٧) ، وإن كان ضعيفا مستضعفا ضربه، وأغرى به سفهاء مكة.

أسلوب الأذى المعنوي:

استعمل المشركون كذلك أسلوبا من أشد الأساليب خسة ودناءة في مواجهة المسلمين، ألا وهو أسلوب الأذى المعنوي من خلال: السخرية، والاستهزاء، والتشهير، والغمز واللمز، والاتهام بالسحر، والجنون، وأن النبي ﷺ يأتيه شيطان، والسب والشتيم وغير ذلك.

أ – الاتهام بالجنون وأنه يأتيه شيطان:

حيث رمو النبي ﷺ بالجنون وفي ذلك نزل قوله تعالى: (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) (الحجر: ٦).

وقال تعالى أيضا: {وَأِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ} [القلم: ٥١] وكان بعض الكفار يقول: إن الذي يأتي محمدا شيطان لا ملك، كما ورد في البخاري أن امرأة قالت للرسول ﷺ ساحرة مستهزئة: ” إنني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثا”. (٣٦٨)

وقد كذب الله تعالى ظنهم وسفه منطقهم فال: (وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ) [الشعراء: ٢١٢]، وقوله: (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) [التكوير: ٢٧].

ب – الاتهام بالسحر والكهانة:

(٣٦٦) – سيرة ابن هشام (١ / ٣٢٠).

(٣٦٧) – سيرة ابن هشام (١ / ٣٢٠).

(٣٦٨) – أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب: التفسير، باب: سورة الضحى (٤٦٦٧)، ومسلم في صحيحه، في كتاب: الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٧) من حديث جندب بن سفيان رضي الله.

وقد نزل في ذلك قوله تعالى: (وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا) [الفرقان: ٨] ، وفي قوله تعالى: (وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) [ص: ٤].

وحين سمع الوليد بن المغيرة القرآن من رسول الله ﷺ، قال فيه قولاً يُجمع عليه المشركون فقال: "إن أقرب القول أن تقولوا: ساحر، يفرق بين المرء وبين أبيه، وبين المرء وبين أخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه، فجعلوا يجلسون للناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا له أمره^(٣٦٩)؛ فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة { ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتَ وَحِيدًا } [المدثر: ١١].

ت - الاتهام بالكذب وأنه يأتي بالأساطير:

وفي ذلك يخبرنا المولى سبحانه وتعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا هَذَا إِلَّا إِنْكَافِتْرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) [الفرقان: ٥].

ث - السخرية والاستهزاء والشتيم:

وكانوا يستهزؤون منه ﷺ ومن أصحابه الكرام رضوان الله عليهم فقال تعالى في وصف ذلك { إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ } [المطففين: ٢٩ - ٣١] ، ومر النبي ﷺ يوماً بجماعة من صناديد قريش فتناولوه بالهمز، واللمز، والاستهزاء فغاظه ذلك ، فأنزل الله تعالى: (وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) [الأنعام: ١٠].

وكانوا يشتمون النبي ﷺ ، ويسبونونه ، ويذمونونه ، فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما ، قالت: لما نزلت: { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ } [المسد: ١] ، أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة، وفي يدها فهر وهي تقول: مُذَمِّمًا أَبِينَا، ودينه قَلِينَا، وأمره عَصِينَا، ولم يكن النبي ﷺ يعر لذمهم اهتماماً، ففي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "

(٣٦٩) - السيرة لابن هشام (١/ ٢٨٨).

ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم؟! يشتمون مذمما، ويلعنون مذمما، وأنا محمد".

(٣٧٠)

قال ابن القيم رحمه الله: (٣٧١)

والله يصرف ذاك عن أهل الهدى كـمحمد ومذمـ إسمان

هم يشتمون مذمما ومحمـد عن شتمهم في معزل وصيان

صان الإله محمدا عن شتمهم في اللفظ والمعنى هما صنوان

كصيانة الأتباع عن شتم المعطل للمشبه هكذا الإرثان

والسب مرجعه إليهم إن هم أهل لكل مذمة وهوان

أسلوب الأذى الجسدي:

لما لم تنجح أساليب المشركين السابقة في صد النبي ﷺ وأصحابه عن الإسلام، لجأت إلى أسلوب

الاعتداء، والتصفية الجسدية لإرهاب المسلمين، وثنيهم عن دينهم، وقد نال النبي ﷺ من ذلك

النصيب الأوفى، ففي الصحيحين عن عروة بن الزبير قال: سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع

المشركون برسول الله ﷺ قال: رأيت عُقبة بن أبي مُعيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي، فوضع

رءاه في عنقه فخنقه خنقا شديداً، فجاء أبو بكر فدفعه عنه، وقال: (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله

وقد جاءكم بالبينات من ربكم) (٣٧٢)

وقام أبو جهل لعنه الله ورسول الله ﷺ يصلي "ليطأ على رقبتة" - قال: - فما فجئهم منه إلا وهو

ينكص على عقبه، ويتقي بيديه - قال: - فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخنذاً من نار،

وهولا، وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا»، قال: فأنزل الله

عز وجل لا ندري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطْفَى (٦) أَنْ رَأَهُ اسْتَعْنَى (٧)}

(٣٧٠) - أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب: المناقب، باب: ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ (٣٣٤٠).

(٣٧١) - الكافية الشافية لابن القيم (ص: ٦١٣).

(٣٧٢) - أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب: فضائل الصحابة، باب: ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة (٣٦٤٣).

إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَى (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى { [العلق : ٦ - ١٣] - يعني : أبا جهل - {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَه لِنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَدَّعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطْعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ } [العلق : ١٤ - ١٩] (٣٧٣)

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لرسول الله ﷺ: ” يا رسول الله ﷺ هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: ” لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال، وسلم علي، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وأنا ملك الجبال وقد بعثني إليك ربك لتأمرني بأمرك ما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال رسول الله ﷺ: ” بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا” (٣٧٤) ..

ونال أصحاب النبي ﷺ من ذلك الأذى الجسدي ألوانا وأشكالا، ويحكي لنا الصحابي الجليل خباب بن الأرت رضي الله عنه ذلك الأذى الشديد الذي حصل لهم من المشركين فقال: ” شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون” (٣٧٥) .

(٣٧٣) - أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: باب قوله (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) (٧٢٤٣) ٧٢٤٣).

(٣٧٤) - أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب: بدء الخلق باب: إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه (٣١٣١) ، ومسلم في صحيحه، في كتاب: الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٥)

(٣٧٥) - أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب: الإكراه، باب: من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر (٦٤٣٠).

أسلوب الترغيب والمساومة:

بعد فشل أساليب التهديد والوعيد والتنكيل، وتزايد الداخلين في دين الإسلام، سقط في أيدي المشركين ولجأت صناديدهم إلى أسلوب الترغيب والمساومة، فحاولت قريش أن تجعل الإسلام يلتقي مع الجاهلية في منتصف الطريق، وذلك بأن يتنازل المشركون عن بعض ما هم عليه، ويترك النبي ﷺ بعض ما هو عليه، وقد عبر القرآن الكريم عن نفسية قريش في ذلك فقال: **{وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [القلم: ٩]**، وقد عرضوا على النبي ﷺ أن يعبد ألهمهم يوماً، ويعبدون إلهه يوماً فأنزل الله تبارك وتعالى في ذلك سورة الكافرون: **{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ الْكَافِرُونَ: ٦}**، فقطع القرآن رجاء المشركين، ورفض رفضاً قاطعاً التنازل عن مبادئه.

وقد أراد المشركون أن يساموا النبي ﷺ من خلال عمه أبي طالب، فاقترحوا عليه أن يعطوه أجمل شباب مكة آنذاك وهو عمارة بن الوليد بن المغيرة بدلا عن محمد ﷺ فيأخذوه ويقتلوه^(٣٧٦) ولما فشلوا في ذلك، أرادوا أن يساموه بالمال والجاه والملك عليهم، ولما جاء وفدهم إلى أبي طالب، قال لمحمد ﷺ: "يا بن أخي، هؤلاء أشرف قومك، قد اجتمعوا إليك ليعطوك، وليأخذوا منك، فقال رسول الله ﷺ: نعم: كلمة واحدة تعطونها يملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم"، فقال أبو جهل: نعم وأبيك عشر كلمات، قال: تقولون لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه، فصفقوا بأيديهم ثم قالوا: يا محمد تريد أن تجعل الآلهة إلها واحداً؟ إن أمرك لعجب، ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه، قال: ثم تفرقوا^(٣٧٧) فأنزل الله فيهم أول سورة "ص".

أسلوب الحصار والمقاطعة العامة:

^(٣٧٦) -سيرة ابن هشام (١/ ٣٣٠) من رواية ابن إسحاق بدون إسناد.

^(٣٧٧) -سيرة ابن هشام (١/ ٤١٧)، والروض الأنف (٢/ ٢٢٣).

لما رأَت قريش أن عدد الداخلين في الإسلام في ازدياد، وأن وسائلها وأساليبها السابقة في محاربتهم وقمعهم لم تجد شيئاً، خاصة بعد إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما، أعادت النظر في أساليبها السابقة، وهو أسلوب المقاطعة العامة^(٣٧٨)

حيث أجمع المشركون على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتبوا كتاباً على بني هاشم ألا يناكحهم، ولا يبايعهم، ولا يخالطهم، وكان الذي كتب الصحيفة منصور بن عكرمة العبدي فشلت يده، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة، وقال بعضهم: بل كانت عند أم الجلاس بنت مخربة الحنظلية خالة أبي جهل، وحصروا بني هاشم في شعب أبي طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من حين تنبىء رسول الله ﷺ، وانحاز بنو المطلب بن عبد مناف إلى أبي طالب في شعبة مع بني هاشم، وخرج أبو لهب إلى قريش فظاهرهم على بني هاشم وبني المطلب، وقطعوا عنهم الميرة والمادة، فكانوا لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم، حتى بلغهم الجهد، وسمع أصوات صبيانهم من وراء الشعب، فمن قريش من سره ذلك، ومنهم من ساءه، وقال: أنظروا ما أصاب منصور بن عكرمة، فأقاموا في الشعب ثلاث سنين، ثم أطلع الله رسوله على أمر صحيفتهم، وأن الأرضة قد أكلت ما كان فيها من جور وظلم، وبقي ما كان فيها من ذكر الله عز وجل^{(٣٧٩) (٣٨٠)}

^(٣٧٨) - السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص: ٢١٧).

^(٣٧٩) - الطبقات الكبرى (١/ ٢٠٩).

^(٣٨٠) - أساليب قريش في محاربة دعوته ﷺ د. محمد بن علي اليبس الجزولي

الدرس السادس والثلاثون

معجزة انشقاق القمر

الحمد لله الحي العليم السميع البصير القادر، المتكلم بكلام قديم أزليّ هو به ناه وآمر، زين قلوب العارفين بنور هدايته فأضاء منها السرائر ن من رضي بدونه فهو الخائن الغادر، الشقي من حرمه، والسعيد من رحمته، والطريد من حجبته، والقريب من جذبته، والنادم من أهانه، والسالم من أعانه، وقد علم الوليّ والعدو والرايح والخاصر.

واشهد إن لا اله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير سبحانه أوضح الدلالة وبين، وحبب الإيمان إلى المؤمنين وزين، وطبع على قلوب الجاحدين فهم يجادلون في الحق بعد ما تبين.

أنا خاطئ أنا مذنب أنا عاصي هو راحم هو غافر هو كافي

قابلتهن ثلاثة بثلاثة ولتغلبن أوصافه أوصافي

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفيه من خلقه وحبیبه

مألت بنبوته الوجود وأظهر الدين الصحيح فأسفرا

واستبشر فرحا ببعثته الوری ومحا الضلال كما بذالك خبرا

نص الكتاب مفصلا تفصيلا فصلوا عليه وسلموا تسليما

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين ونحن معهم يا أرحم الراحمين

أما بعد : إخوة الإسلام حديثنا في هذا اللقاء مع معجزة من ابهر المعجزات التي ايد الله بها حبیبه صلى الله عليه وسلم — إنها معجزة شق القمر فأعيروني القلوب والأسماع

تاريخ انشقاق القمر: إخوة الإسلام ذكر المؤرخون ان حادة الانشقاق كانت في السنة التاسعة من المبعث النبوي

جاء في المواهب اللدنية: أن انشقاق القمر كان بمكة قبل الهجرة بنحو خمس سنين

ومن أعظم ذلك كله انشقاق القمر المنير فرقتين، قال الله تعالى {اقتربت الساعة وانشق القمر (١) وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر (٢) وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر (٣) ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مذبذب (٤) حكمة بالغة فما تغن النذر (٥) } [القمر: ١ - ٦] وقد اتفق

العلماء مع بقية الأئمة

على أن انشقاق القمر كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد وردت الأحاديث بذلك من طرق تفيد القطع عند الأمة.

عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: " سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آيَةً فَانْشَقَّ الْقَمَرُ بِمَكَّةَ فِرْقَتَيْنِ مَرَّتَيْنِ {وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر} [القمر: ٢] يَقُولُ: ذَاهِبٌ " (٣٨١).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ أَنَّ أَهْلَ مَالِكٍ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ يُرِيَهُمْ آيَةً فَأَرَاهُمُ الْقَمَرَ شِقَّتَيْنِ حَتَّى رَأَوْا حِرَاءَ بَيْنَهُمَا.. (٣٨٢).

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: " انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَارَ فِرْقَتَيْنِ: فِرْقَةٌ عَلَى هَذَا الْجَبَلِ، وَفِرْقَةٌ عَلَى هَذَا الْجَبَلِ، فَقَالُوا: سَحَرَنَا مُحَمَّدٌ، فَقَالُوا: إِنْ كَانَ سَحَرَنَا فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْحَرَ النَّاسَ كُلَّهُمْ " (٣٨٣).

عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ، قَالَ: نَزَلْنَا مِنَ الْمَدَائِنِ عَلَى فَرَسٍ فَلَمَّا جَاءَتِ الْجُمُعَةُ حَضَرَ وَحَضَرَتْ مَعَهُ فَخَطَبْنَا حُدَيْفَةَ، فَقَالَ: " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: {اقتربت الساعة وانشق القمر} [القمر: ١] أَلَا وَإِنَّ السَّاعَةَ قَدْ اقْتَرَبَتْ أَلَا وَإِنَّ الْقَمَرَ قَدْ انْشَقَّ، أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنْتْ بِفِرَاقٍ، أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارُ وَغَدَا السَّبَاقُ "، فَقُلْتُ لِأَبِي: أَيَسْتَبِقُ النَّاسُ غَدًا؟ قَالَ: يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَجَاهِلٌ، إِنَّمَا يَعْنِي الْعَمَلُ الْيَوْمَ وَالْجَزَاءُ غَدًا، فَلَمَّا جَاءَتِ الْجُمُعَةُ الْأُخْرَى حَضَرْنَا فَخَطَبْنَا حُدَيْفَةَ، فَقَالَ: " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، يَقُولُ:

(٣٨١) - صحيح مسلم (٤: ٢١٥٩)

(٣٨٢) - أخرجه البخاري في المناقب، باب انشقاق القمر ح (٣٨٦٨).

(٣٨٣) - مسند أحمد ط الرسالة (٢٧/ ٣١٥) وأخرجه الترمذي (٣٢٨٩)، والطبراني في "الكبير" (١٥٥٩)، والبيهقي في "دلائل النبوة"

{اقتربت الساعة وانشق القمر} [القمر: ١] أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آدَّتْ بِفِرَاقِ، أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارُ وَغَدًا السَّبَّاقُ، أَلَا وَإِنَّ الْغَايَةَ النَّارُ وَالسَّابِقُ مَنْ سَبَقَ إِلَى الْجَنَّةِ، (٣٨٤).

وقال صاحب الفتح الرباني:

وهذا من المعجزات الكونية التي لم تسبق لنبي غير نبينا صلى الله عليه وسلم. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: قد كان هذا في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة.

قال: وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي صلى الله عليه وسلم وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات.

وقال في التاريخ: وقد أجمع المسلمون على وقوع ذلك زمنه، وجاءت بذلك الأحاديث المتواترة من طرق متعددة تفيد القطع عند من أحاط بها ونظر فيها، وذكر كثيراً من الأحاديث وطرقها في التفسير والتاريخ، أهـ.

وقال الخطابي: انشقاق القمر آية عظيمة لا يكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء، وذلك أنه ظهر في ملكوت السماء خارجاً من جملة طباع ما في هذا العالم المركب من الطبائع، فليس مما يطمع في الوصول إليه بحيلة، فلذلك صار البرهان به أظهر، وقد أنكر ذلك بعضهم فقال: لو وقع ذلك لم يجز أن يخفى أمره على عوام الناس لأنه أمر صدر عن حس مشاهدة، فالناس فيه شركاء والدواعي متوفرة على رؤية كل غريب ونقل ما لم يعهد، فلو كان لذلك أصل لخلد في كتب أهل التسيير والتنجيم، إذ لا يجوز إطباقهم على تركه وإغفاله مع جلالة شأنه ووضوح أمره. والجواب عن ذلك أن هذه القصة خرجت عن بقية الأمور التي ذكروها لأنه شيء طلبه خاص من الناس فوق ليلاً لأن القمر لا سلطان به بالنهار، ومن شأن الليل أن يكون أكثر الناس فيه نياماً ومستكينين بالأبنية، والبارز بالصحراء منهم إذا كان يقظان يحتمل أنه كان في ذلك الوقت مشغولاً بما يلهيه من سمر وغيره، ومن المستبعد أن يقصدوا إلى مرصد مركز القمر ناظرين إليه لا يغفلون عنه، فقد يجوز أنه وقع ولم يشعر به أكثر الناس، وإنما رآه من تصدى لرؤيته ممن اقترح وقوعه، ولعل ذلك إنما كان في قدر اللحظة التي هي مدرك البصر. ثم أبدى حكمة بالغة في كون المعجزات المحمدية لم يبلغ شيء منها مبلغ التواتر الذي لا نزاع فيه إلا

(٣٨٤) - المستدرك على الصحيحين: ج ٤/ص ٦٥١ ح ٨٨٠

القرآن بما حاصله : إن معجزة كل نبي كانت إذا وقعت عامة أعقبت هلاك من كذب به من قومه للاشتراك في إدراكها بالحس ، والنبي صلى الله عليه وسلم بعث رحمة فكانت معجزته التي تحدى بها عقلية ، فاخص بها القوم الذين بعث منهم لما أوتوه من فضل العقول وزيادة الأفهام ، ولو كان إدراكها عاماً لعوجل من كذب به كما عوجل من قبلهم. أه من الفتح.

أقول: لما كان هناك خلاف بين الأئمة في تواتر انشقاق القمر، ولما كانت الآية {وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ} قابلة للتأويل الضعيف بمعنى أنه سينشق، فإننا لا نحكم بكفر من أنكر الانشقاق، لكنه إما ضال وإما فاسق لتكذيبه الأحاديث الصحيحة، وعلى العموم فمثل هذا الإنكار دليل على مرض القلب.^(٣٨٥)

التوثيق التاريخي لانشقاق القمر:

سجل تاريخ الهند اسم ملك من ملوكهم هو: (جاكرواني فرماس) وأنه شاهد حادثة انشقاق القمر، فسجلت إحدى المخطوطات التاريخية الهندية مايلي:

” شاهد ملك ما جبار“ مالابار“ بالهند (جاكرواني فرماس) انشقاق القمر؛ الذي وقع لمحمد، وعلم عند استفساره عن انشقاق القمر بأن هناك نبوة عن مجيء رسول من جزيرة العرب، وحينها عين ابنه خليفة له، وانطلق لملاقاته. وقد اعتنق الإسلام على يد النبي، وعندما عاد إلى وطنه- بناء على توجيهات النبي- وتوفي في ميناء ظفار“^(٣٨٦) وهذه المعلومات في مخطوطة هندية محفوظة في مكتبة دائرة الهند تحتوي على عدة تفصيلات أخرى عن (جاكرواني فرماس).^(٣٨٧)

هذا الرابط يهتم بالدراسات الفلكية للحضارات القديمة ومنها حضارة maya يوضح أن انقساماً للقمر سُجِّل في مخطوطات مدريد ومخطوطات فارسية

<http://www.mayalords.org/restfldr/persia.html>

أشار إلى أنه هناك مخطوطة فارسية تتضمن صورة بها رجل يشير إلى وجه قمر منقسم في السماء وأن نفس الحدث مسجل في مخطوطة مدريد صفحات ٩١-٩٢ و٩٣ يُذكر أن حضارة مايا قد تطورت ببطء

^(٣٨٥) - الأساس في السنة وفقهها - السيرة النبوية (١/ ٢٧١)

^(٣٨٦) - المخطوطة الهندية موجودة في مكتبة مكتبة دائرة الهند بلندن التي تحمل رقم المرجع: عربي ٢٨٠٧، ١٥٢ إلى ١٧٣ وقد اقتبسها حميد الله في كتابه محمد رسول الله.

^(٣٨٧) - بينات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومعجزاته (ص: ٢٢٦)

خلال سنة ٢٠٠٠ق.م. وسنة ٣٠٠ م وأصبحت حضارة معقدة منذ سنة ٣٠٠ م. — ٩٠٠ م. حيث قامت المدن الرئيسية المستقلة سياسيا كمدينة تيكال وباينك وبيدراش ونجراش وكوبان.

الدرس السابع والثلاثون

شهادة زعيم المشركين للقرآن الكريم

الحمد لله الغفور الودود، الكريم المقصود، الملك المعبود قديم الوجود، المتعالي عن الأمثال والأشكال والجهات والحدود، لا يخفى عليه دبيب النملة السوداء في الليالي السود، ويسمع حس الدود في خلال العود، وتردد الأنفاس في الهبوط والصعود، القادر فما سواه فهو بقدرته الوجود، وبمشيئته تصاريف الأقدار.

وأشهد إن لا اله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير شهادة أدخرها عنده ليوم اللقاء

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفیه من خلقه وحبیبه خاتم الرسل والأنبياء، وسيد النجباء والأولياء والأصفیاء، المتصف بالصدق والوفاء.

يا سيدي يا رسول الله:

أرسلت داعية إلى الرحمن ودعوت فاهتز لك الثقلان

أخرجت قومك من ضلالات الهوى وهديتنا للواحد الديان

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين ونحن معهم يا أرحم الراحمين

أما بعد: فيا أحباب الحبيب صلى الله عليه وسلم نحدثكم اليوم عن شهادة زعيم من زعماء المشركين و هو عتبة بن ربيعة و هو يحدث قريش عن القران الكريم و عن حلاوته و عن اثره في القلوب و الأسماع و الفضل ما شهدت به الأعداء

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ، قَالَ حَدَّثْتُ أَنَّ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ وَكَانَ سَيِّدًا قَالَ يَوْمًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادِي قُرَيْشٍ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحَدَّه يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَلَا أَقُومُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَأُكَلِّمُهُ وَأَعْرِضَ عَلَيْهِ أُمُورًا لَعَلَّهُ يَقْبَلُ بَعْضَهَا، فَنُعْطِيهِ أَيَّهَا شَاءَ وَيَكْفَ عَنَّا؟ وَذَلِكَ حِينَ أَسْلَمَ حَمْرَةَ، وَرَأَوْا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَزِيدُونَ وَيَكْثُرُونَ فَقَالُوا: بَلَى يَا أَبَا الْوَلِيدِ قُمْ إِلَيْهِ

فَكَلَّمَهُ فَقَامَ إِلَيْهِ عُتْبَةُ حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّكَ مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ مِنَ السُّطَةِ فِي الْعَشِيرَةِ وَالْمَكَانِ فِي النَّسَبِ وَإِنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ قَوْمَكَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ فَرَّقْتَ بِهِ جَمَاعَتَهُمْ وَسَفَهْتَهُمْ بِهِ أَحْلَامَهُمْ وَعَبَيْتَ بِهِ آلِهَتَهُمْ وَدِينَهُمْ وَكَفَرْتَ بِهِ مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ فَاسْمَعْ مِنِّي أَعْرِضْ عَلَيْكَ أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا لَعَلَّكَ تَقْبَلُ مِنْهَا بَعْضَهَا. قَالَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ" قَالَ يَا ابْنَ أَخِي إِنْ كُنْتُ إِتْمَا تُرِيدُ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَالًا، جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا، حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالًا، وَإِنْ كُنْتُ تُرِيدُ بِهِ شَرَفًا سَوَدْنَاكَ عَلَيْنَا، حَتَّى لَا نَقْطَعَ أَمْرًا دُونَكَ، وَإِنْ كُنْتُ تُرِيدُ بِهِ مُلْكًا مَلَكَنَاكَ عَلَيْنَا، وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ رِثِيًّا تَرَاهُ لَا تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَن نَفْسِكَ، طَلَبْنَا لَكَ الطَّبَّ، وَبَدَلْنَا فِيهِ أَمْوَالَنَا حَتَّى نُبْرِئَكَ مِنْهُ فَإِنَّهُ رُبَّمَا غَلَبَ التَّابِعُ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُدَاوِيَ مِنْهُ أَوْ كَمَا قَالَ لَهُ حَتَّى إِذَا فَرَعَ عُتْبَةُ وَرَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَمِعُ مِنْهُ قَالَ: "أَقْدَ فَرَعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟" قَالَ نَعَمْ قَالَ "فَاسْمَعْ مِنِّي"، قَالَ أَفَعَلُ فَقَالَ {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهَمُّ لَّا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ} [فُصِّلَتْ ١ - ٥]. ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيهَا يَقْرُوهَا عَلَيْهِ فَلَمَّا سَمِعَهَا مِنْهُ عُتْبَةُ انْصَتَ لَهَا، وَأَلْقَى يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا، يَسْمَعُ مِنْهُ ثُمَّ انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى السَّجْدَةِ مِنْهَا، فَسَجَدَ ثُمَّ قَالَ: "قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ، فَأَنْتَ وَدَاكُ"

مَا أَشَارَ بِهِ عُتْبَةُ عَلَى أَصْحَابِهِ

فَقَامَ عُتْبَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ نَحْلِفُ بِاللَّهِ لَقَدْ جَاءَكُمْ أَبُو الْوَلِيدِ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ. فَلَمَّا جَلَسَ إِلَيْهِمْ قَالُوا: مَا وَرَاءَكَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟ قَالَ وَرَائِي أَنِّي قَدْ سَمِعْتُ قَوْلًا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَاللَّهِ مَا هُوَ بِالشَّعْرِ وَلَا بِالسَّحْرِ وَلَا بِالكِهَانَةِ. يَا مَعْشَرَ قُرَيْشِ أَطِيعُونِي وَاجْعَلُوهَا بِي، وَخَلُّوا بَيْنَ هَذَا الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ فَاعْتَرَلُوهُ فَوَاللَّهِ لَيَكُونَنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي سَمِعْتُ مِنْهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ فَإِنْ تُصِبَهُ الْعَرَبُ فَقَدْ كَفَيْتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ وَإِنْ يَظْهَرُ عَلَى الْعَرَبِ، فَمُلْكُهُ مُلْكُكُمْ وَعِزُّهُ عِزُّكُمْ وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ قَالُوا: سَحَرَكَ وَاللَّهِ يَا أَبَا الْوَلِيدِ بِلِسَانِهِ قَالَ هَذَا رَأْيِي فِيهِ فَاصْنَعُوا مَا بَدَأَ لَكُمْ. (٣٨٨)

دروس وعبر

يُظهر الحوار الذي دار بين الرسول صلى الله عليه وسلم، وعتبة بن ربيعة، ذكاء مندوب قيادة قريش، حين استخدم الأسلوب العاطفي مع النبي صلى الله عليه وسلم، فخاطبه بقوله: (يا ابن أخي! إنك منا حيث قد علمت). وقوله: (قومك). ثم كرر: (ابن أخي) مرة أخرى، وربما قصد من الأسلوب العاطفي، التأثير على النبي صلى الله عليه وسلم، عله يستجيب لهم، أو على الأقل يفكر في الأمر. ولإحكام العرض، نوّعت قيادة قريش الخيارات للمصطفى صلى الله عليه وسلم، من مال، وسيادة، ومملك، وهي المطالب التي عادة ما يمكن أن يضرها أصحاب الدعوات الجديدة، والمنادون بالثورة والإصلاح.. فظننت قيادة قريش أن هدف محمد صلى الله عليه وسلم من دعوته هذه، لا يخلو من أحد العروض آنفة الذكر. ولكن فات على قريش جوهر وحقيقة دعوة الإسلام، المغيرة لسائر الدعوات الوضعية، فهي مرتبطة بالسما، غايتها وأهدافها سامية، لذا كان الرد قاطعا وحاسماً من قائد الدعوة: (ما بي ما تقولون، ما جننت بما جننتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم ...)، إنما هدفه وغايته إخراج الناس من الظلمات إلى النور.

- تعقيب:

ربما تساءل بعض الناس: لماذا لم يرض رسول الله صلى الله عليه وسلم -من باب الحكمة والسياسة الزعامة، أو الملك، على أن يقرر في نفسه اتخاذ الملك والزعامة وسيلة إلى تحقيق دعوة الإسلام فيما بعد، خصوصاً وأن للسلطان والملك تأثيراً قوياً في النفوس؟ ولعل الإجابة تكمن في أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرض سلوك هذه السياسة والوسيلة إلى دعوته، لأن ذلك ينافي مبادئ الدعوة نفسها، ولأن المساومة كانت للعدول عن الدعوة، وفي الإسلام الغاية لا تبرر الوسيلة، فالله سبحانه وتعالى تعبدنا بالوسائل كما تعبدنا بالغايات، فليس لأحد أن يسلك إلى الغاية التي شرعها الله، إلا بالوسيلة السليمة الخالصة القاصدة التي شرعها الله، قال تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: ١١٠].

وهذا مبدأ هام من مبادئ الإسلام.. فإذا كانت بعض المواقف في الشدة والمحنة، تحتاج إلى مداراة، فعلى المسلم أن يكون حذراً في ذلك، غير متجاوز حدود الشرع.

ونلاحظ أيضاً حكمة النبي صلى الله عليه وسلم في الرد على عتبة حين تخير هذه الآيات من سورة فصلت، ليعرف محدثه حقيقة الرسالة، والرسول صلى الله عليه وسلم، وكتاب الدعوة الذي فصلت آياته من لدن حكيم خبير إلى خلقه، كي يخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم من ضلال، وينقذهم من خبال.... فكان لهذا الاختيار أثره البالغ على مندوب قريش، حتى طلب من النبي صلى الله عليه وسلم التوقف، ناشدًا إياه بحق الرحم.

ولا يخفى ما في ذلك من جانب مهم، يتمثل في التأثير على العدو، ومحاولة إقناعه، وتغيير أفكاره، وقد كان التأثير على عتبة واضحاً لدرجة أن أصحابه أقسموا على ذلك التأثير قبل أن يخبرهم، فبعد أن كان عدواً ينوي استئصال الدعوة والداعية، إذا به يدعو لعكس ذلك، فيطلب من قريش أن تخلي بين محمد صلى الله عليه وسلم وما يريد.

- قريش تساوم على التنازل عن بعض الإسلام:

لما تأكد لقريش عدم جدوى المفاوضات السابقة في التنازل عن كل المنهج، لجأت إلى أسلوب آخر من المفاوضات، يقوم على طلب بعض التنازلات عن المنهج الإسلامي. فقام وفد من قيادة قريش، يتكون من الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب، وأممية ابن خلف، قاموا بتقديم عرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل في أن يعبد آلهتهم عاماً ويعبدون إلهه عاماً. فقال: (معاذ الله أن أشرك به غيره)، فأنزل الله سورة (الكافرون).^(٣٨٩)

^(٣٨٩) - في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص: ٤٩)

الدرس الثامن والثلاثون

الهجرة إلى الحبشة سنة خمس من البعثة

الحمد لله الذي تفرد بعز كبريائه عن إدراك البصائر، وتقدس بوصف علاه عن الأشباه والنظائر، وتوحد بكمال جبروته فلا العقل في تعظيمه حائر، وتفرد في ملكوته فهو الواحد القهار الأول قبل كل أول الآخر بعد كل آخر، الظاهر بما أبدع فدليل وجوده ظاهر، الباطن فلا يخفى عليه ما هجس في الضمائر.

وأشهد إن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير شهادة أعدها من أكبر نعمه وعطائه، وأعدها وسيلة إلي يوم لقاءه

يا حبيب القلب ما لي ... سواك فارحم اليوم مذنباً أتاك

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفیه من خلقه وحبیبه اختاره من أطيب العناصر، واصطفاه من أنجب العشائر، واختصه من اشرف الذخائر، وأدار على من عاده أفضح الدوائر.

يا سيدي يا رسول الله:

رباك ربك جل من رباك ... ورعاك في كنف الهدى وحماك

سبحانه أعطاك فيض فضائل ... لم يعطها في العالمين سواك

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين ونحن معهم يا أرحم الراحمين

سبب الهجرة إلى الحبشة :

اشتد أذى المشركين على من آمن، وفتنوا جماعة حتى إنهم كانوا يضربونهم ويُلْقونهم في الحرّ ويضعون الصخرة العظيمة على صدر أحدهم في شدة الحرّ، حتى إن أحدهم إذا أُطلق لا يستطيع أن يجلس من

شدة الألم، فيقولون لأحدهم: اللاتُ إلهك من دون الله؟ فيقولُ مكرهاً: نعم. حتى إن الجعل ليمر فيقولون: وهذا إلهك من دون الله، فيقول: نعم^(٣٩٠).

وعن عبد الله بن مسعود قال: كان أول من أظهر إسلامه سبعة، رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد. فأما رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون وألبسوهم أذراع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد، إلا وقد واتهم على ما أرادوا، إلا بلالاً، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه فأخذوه فأعطوه الودان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحدٌ أحد^(٣٩١)

فلما اشتد البلاءُ وضافت أرض مكة على المؤمنين أذن الله سبحانه وتعالى في الهجرة إلى أرض الحبشة، وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم عنده أحد، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه"^(٣٩٢).

فسبب الهجرة إلى الحبشة هو: الفرار بالدين، ووجود الأمان والعدل في مملكة الحبشة ذلك الزمان.

وكان أول خروجهم من مكة في رجب سنة خمسٍ من البعثة، وكان أول من خرج فاراً بدينه إلى الحبشة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وتبعه الناس

أول فوج من الصحابة إلى الحبشة في السنة الخامسة للبعثة، وكان هذا الفوج مكوناً من اثني عشر رجلاً وأربع نساء، كان في مقدمتهم عثمان بن عفان رضي الله عنه، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان رحيلهم تسلاً تحت جناح الظلام حتى لا تشعر بهم قريش، فخرجوا إلى البحر عن طريق جدة، فوجدوا سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة، ولما علمت قريش بخبرهم خرجت في إثرهم وما وصلت إلى الشاطئ إلا وكانوا قد غادروه في طريقهم إلى الحبشة، حيث وجدوا

(٣٩٠) - ابن هشام، السيرة النبوية ١ / ٣٩٦. وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث، وانظر: مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ١٨٥.
(٣٩١) - أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب فضل سلمان وأبي نذر والمقداد ح (١٥٠)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ح (١٢٢).
(٣٩٢) - ابن إسحاق، السيرة والمغازي (رواية يونس بن بكير) ص ١٩٤. بإسناد صحيح، وانظر: سليمان السعود، أحاديث الهجرة ص ٢٢.

الأمن والأمان، ولقوا الحفاوة والإكرام من ملكها النجاشي الذي كان لا يظلم عنده أحد، كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم.

الهجرة الثانية إلى الحبشة

استمر إيذاء المشركين للمؤمنين خاصة بعد محاولة الهجرة الأولى إلى الحبشة، فدفع هذا المسلمين إلى معاودة محاولة الهجرة للمرة الثانية ولكن هذه المرة على نطاق أوسع وأشمل، حيث بلغ عدد المرشحين حوالي ثلاث وثمانون رجلاً وثمانين عشر امرأة من مختلف القبائل، خرجوا على شكل جماعات صغيرة ومتفرقة نحو الشاطئ وأفلتوا من قبضة ومتابعة قريش لهم، خاصة أن هذه الأخيرة كانت على علم مسبق برغبتهم في الهجرة وقد حاولت منعهم من ذلك لكن الله تعالى أراد غير ذلك، فالتحق المسلمون بأرض الحبشة حيث وجدوا الأمن والأمان كما وجده المهاجرون الأوائل من قبلهم.

مثلت هذه الهجرة ضربة موجعة لكفار قريش، فقد نقل المسلمون قضيتهم إلى بلاد مجاورة لجزيرة العرب لها أهميتها الجغرافية والسياسية ولها أيضاً علاقات اقتصادية هامة مع قريش، بإمكان هذه النقطة أن تؤثر سلباً على هذه العلاقات وتكشف الوجه القبيح لقريش أمام الرأي العام الداخلي للحبشة وأمام السلطة الحاكمة هناك وعلى رأسها ملكها العادل " النجاشي "

أحست قريش بخطورة هذه الهجرة وحرصت على إرجاع المهاجرين إلى بلادهم بأي وسيلة كانت، فأرسلت عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة - قبل أن يسلموا - وأرسلوا معهما الهدايا المستترفة للنجاشي ولبطارقتة، وبعد أن ساق الرجلان تلك الهدايا إلى البطارقة، واستطاعا أن يعرضا الحجج المقنعة لطرد المهاجرين إلى مكة، وبعد أن اتفقت البطارقة أن يشيروا على النجاشي بطردهم،

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: لَمَّا ضَاقَتْ مَكَّةُ وَأُوذِيَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفُتِنُوا وَرَأَوْا مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ فِي دِينِهِمْ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَسْتَطِيعُ دَفْعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَمِنْ عَمِّهِ، لَا يَصِلُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا يَكْرَهُ وَمِمَّا يَنَالُ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ بَأْرَضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ، فَالْحَقُّوا بِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرْجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ " .

فَخَرَجْنَا إِلَيْهَا أَرْسَالًا، حَتَّى اجْتَمَعْنَا بِهَا، فَفَزَلْنَا بِخَيْرِ دَارٍ إِلَيَّ خَيْرِ جَارٍ آمِنِينَ عَلَيَّ دِينِنَا، وَلَمْ نُخْشَ فِيهَا ظُلْمًا.

فَلَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّا قَدْ أَصَبْنَا دَارًا وَأَمْنَا غَارُوا مِنَّا، فَاجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى النَّجَاشِيِّ فِينَا لِيُخْرِجَنَا مِنْ بِلَادِهِ وَيُرِدَّنَا عَلَيْهِمْ.

فَبَعَثُوا عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، فَجَمَعُوا لَهُ هَدَايَا وَلِبَطَارِقَتِهِ، فَلَمْ يَدَعُوا مِنْهُمْ رَجُلًا إِلَّا هَيَأُوهُ لَهُ هَدِيَّةً عَلَىٰ حِدَّةٍ، وَقَالُوا لَهُمَا: ادْفَعُوا إِلَيْنَا كُلَّ بَطْرِيقٍ هَدَيْتَهُ قَبْلَ أَنْ تَتَكَلَّمُوا فِيهِمْ، ثُمَّ ادْفَعُوا إِلَيْهِ هَدَايَاهُ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَرُدَّهُمْ عَلَيْكُمْ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ فَافْعَلُوا.

فَقَدِمَا عَلَيْهِ، فَلَمْ يَبْقَ بَطْرِيقٌ مِنْ بَطَارِقَتِهِ إِلَّا قَدِمُوا إِلَيْهِ هَدِيَّتَهُ، فَكَلِمُوهُ فَقَالُوا لَهُ: إِنَّمَا قَدِمْنَا عَلَىٰ هَذَا الْمَلِكِ فِي سَفَهَاتِنَا، فَارْقُوا أَقْوَامَهُمْ فِي دِينِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ.

فَبَعَثْنَا قَوْمَهُمْ لِيُرِدَّهُمُ الْمَلِكُ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا نَحْنُ كَلِمَانَاهُ فَاشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يَفْعَلَ.

فَقَالُوا: نَفْعَلُ.

ثُمَّ قَدِمُوا إِلَى النَّجَاشِيِّ هَدَايَاهُ، وَكَانَ مِنْ أَحَبِّ مَا يُهْدُونَ إِلَيْهِ مِنْ مَكَّةَ الْأَدَمِ^(٣٩٣)، وَذَكَرَ مُوسَىٰ بْنُ عُقْبَةَ أَنَّهُمْ أَهَدَوْا إِلَيْهِ فَرَسًا وَجَبَّةً دِيْبَاجٍ.

فَلَمَّا ادَّخَلُوا عَلَيْهِ هَدَايَاهُ قَالُوا لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّ فِتْنَةَ مِنَّا سَفَهَاءَ فَارْقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لَمْ نَعْرِفْهُ، وَقَدْ لَجَأُوا إِلَيْنَا بِبِلَادِكَ، وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَيْكَ فِيهِمْ عَشَائِرَهُمْ، آبَاؤُهُمْ وَأَعْمَامُهُمْ وَقَوْمُهُمْ لِتُرَدَّهُمْ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ أَعْلَىٰ بِهِمْ عَيْنًا، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ فَتَمْنَعَهُمْ لِذَلِكَ.

فَعَضِبَ ثُمَّ قَالَ: لَا لَعَمْرُ اللَّهِ! لَا أُرَدُّهُمْ حَتَّىٰ أَدْعُوهُمْ فَأُكَلِّمَهُمْ وَأَنْظُرَ مَا أَمْرُهُمْ، قَوْمٌ لَجَأُوا إِلَيْنَا بِبِلَادِي وَاخْتَارُوا جِوَارِيَّ عَلَىٰ جِوَارِ غَيْرِي، فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولُونَ رَدَدْتُهُمْ عَلَيْهِمْ، وَإِنْ كَانُوا عَلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتُهُمْ وَلَمْ ادَّخُلْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ، وَلَمْ أَنْعَمْ عَيْنًا.

وَذَكَرَ مُوسَىٰ بْنُ عُقْبَةَ أَنَّ أَمْرَاءَهُ أَشَارُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ حَتَّىٰ أَسْمَعَ كَلَامَهُمْ وَأَعْلَمَ عَلَىٰ أَيِّ شَيْءٍ هُمْ عَلَيْهِ.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ سَلَّمُوا وَلَمْ يَسْجُدُوا لَهُ، فَقَالَ: أَيُّهَا الرَّهْطُ أَلَا تُحَدِّثُونِي مَا لَكُمْ

(٣٩٣) - الامم: الجلد، أو المصنوع منه.

لَا تُحْيُونِي كَمَا يُحْيِينِي مَنْ أَتَانَا مِنْ قَوْمِكُمْ؟ ! فَأَخْبِرُونِي مَاذَا تَقُولُونَ فِي عَيْسَى، وَمَا دِينُكُمْ؟ أَنْصَارِي
أَنْتُمْ؟ قَالُوا: لَا.

قَالَ: أَفِيَهُودِ أَنْتُمْ؟

قَالُوا: لَا.

قَالَ: فَعَلَى دِينِ قَوْمِكُمْ؟ قَالُوا: لَا.

قَالَ: فَمَا دِينُكُمْ؟ قَالُوا: الْإِسْلَامُ.

قَالَ: وَمَا الْإِسْلَامُ؟ قَالُوا: نَعْبُدُ اللَّهَ، لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا.

قَالَ: مَنْ جَاءَكُمْ بِهِدًا؟ قَالُوا: جَاءَنَا بِهِ رَجُلٌ مِنْ أَنْفُسِنَا، قَدْ عَرَفْنَا وَجْهَهُ وَنَسَبَهُ، بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَيْنَا كَمَا
بَعَثَ الرُّسُلَ إِلَيَّ مِنْ قَبْلِنَا، فَأَمَرَنَا بِالْبِرِّ وَالصَّدَقَةِ وَالْوَفَاءِ وَالْأَمَانَةِ، وَنَهَانَا أَنْ نَعْبُدَ الْأَوْثَانَ، وَأَمَرَنَا
بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَصَدَّقْنَاهُ وَعَرَفْنَا كَلَامَ اللَّهِ، وَعَلِمْنَا أَنَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَلَمَّا
فَعَلْنَا ذَلِكَ عَادَانَا قَوْمُنَا وَعَادُوا النَّبِيَّ الصَّادِقَ، وَكَذَّبُوهُ وَأَرَادُوا قَتْلَهُ، وَأَرَادُونَا عَلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، فَفَرَرْنَا
إِلَيْكَ بِدِينِنَا وَدِمَائِنَا مِنْ قَوْمِنَا.

قَالَ: وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا لَمِنَ الْمَشْكَاتِ الَّتِي خَرَجَ مِنْهَا أَمْرُ مُوسَى.

قَالَ جَعْفَرٌ: وَأَمَّا التَّحِيَّةُ: فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَنَا أَنَّ تَحِيَّةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ

السَّلَامُ، وَأَمَرَنَا بِذَلِكَ فَحَيِّئْنَاكَ بِالذِّي يَحْيِي بَعْضُنَا بَعْضًا.

وَأَمَّا عَيْسَى بْنُ مَرْيَمَ، فَعَبَدَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَكَلِمَتُهُ أُلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَابْنُ الْعَدْرَاءِ الْبُتُولِ.

فَأَخَذَ عُودًا وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا زَادَ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيَّ هَذَا وَزَنَ هَذَا الْعُودِ.

فَقَالَ عَظَمَاءُ الْحَبَشَةِ: وَاللَّهِ لَئِنْ سَمِعْتَ الْحَبَشَةَ لَتَخْلَعَنَّكَ.

فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَقُولُ فِي عَيْسَى غَيْرَ هَذَا أَبَدًا، وَمَا أَطَاعَ اللَّهُ النَّاسَ فِي حِينِ رَدِّ عَلَيَّ مُلْكِي فَأُطِيعَ (١)

النَّاسَ فِي دِينِ اللَّهِ، مَعَادَ اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ.

وَقَالَ يُوُسُّ عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ: فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمُ النَّجَاشِيُّ فَجَمَعَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغَضَ لِعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ مِنْ أَنْ يَسْمَعَ كَلَامَهُمْ.

فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُ النَّجَاشِيِّ اجْتَمَعَ الْقَوْمُ فَقَالُوا: مَاذَا تَقُولُونَ؟ فَقَالُوا: وَمَاذَا تَقُولُ! تَقُولُ وَاللَّهِ مَا نَعْرِفُ وَمَا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دِينِنَا، وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَائِنَ مِنْ ذَلِكَ مَا كَانَ. فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ كَانَ الَّذِي يُكَلِّمُهُ مِنْهُمْ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: مَا هَذَا الدِّينَ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ؟ فَأَرَفْتُمْ دِينَ قَوْمِكُمْ وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي يَهُودِيَّةٍ وَلَا نَصْرَانِيَّةٍ.

فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا عَلَى الشَّرِكِ، نَعْبُدُ الْاَوْثَانَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَسِي الْجَوَارِ، يَسْتَحِلُّ الْمَحَارِمَ بَعْضُنَا مِنْ بَعْضٍ فِي سَفْكِ الدَّمَاءِ وَغَيْرِهَا، لَا نُحِلُّ شَيْئًا وَلَا نُحَرِّمُهُ، فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا نَبِيًّا مِنْ أَنْفُسِنَا نَعْرِفُ وَفَاءَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ، فَدَعَانَا إِلَى أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَنَصِلَ الْأَرْحَامَ وَنَحْمِي الْجَوَارِ، وَنُصَلِّيَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَنُصُومَ لَهُ وَلَا نَعْبُدَ غَيْرَهُ.

وَقَالَ زَيْدٌ عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ: فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْاَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصَلَةِ الْأَرْحَامِ وَحُسْنِ الْجَوَارِ وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدَّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ بَعْنَاهُ عَلَيَّ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا وَأَحَلَّلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا.

فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا فَعَذَّبُونَا لِيَفْتَنُونَا عَنْ دِينِنَا وَيُرِدُونَا إِلَى عِبَادَةِ الْاَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ.

فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا حَرَجْنَا إِلَى بِلَادِكِ وَاخْتَرْنَاكَ عَلَيَّ مَنْ سِوَاكَ، وَرَغِبْنَا فِي جَوَارِكَ وَرَجَوْنَا أَلَّا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ.

قَالَتْ: فَقَالَ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ شَيْءٌ مِمَّا جَاءَ بِهِ؟ فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ " كَهَيْعِص " فَبَكَى وَاللَّهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّى اخْضَلَّتْ لِحْيَتُهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى اخْضَلُّوا مَصَاحِفَهُمْ.

ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ لِيَخْرُجُ مِنَ الْمَشْكَاةِ النَّبِيِّ جَاءَ بِهَا مُوسَى، انْطَلِقُوا رَاشِدِينَ، لَا وَاللَّهِ لَا أَرُدُّهُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْعِمُكُمْ عَيْنًا.

فَخَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ، وَكَانَ أَبْقَى الرَّجُلَيْنِ فِينَا عَبْدُ اللَّهِ بْنِ رَبِيعَةَ، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: وَاللَّهِ لَأَتَيْنَهُ غَدًا بِمَا أَسْتَأْصِلُ بِهِ خَضْرَاءَهُمْ، وَلَأُخْبِرَنَّ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ إِلَهَهُ الَّذِي يَعْبُدُ عَيْسَى بْنُ مَرْيَمَ، عَبْدٌ! فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَبِيعَةَ: لَا تَفْعَلْ، فَإِنَّهُمْ وَإِنْ كَانُوا خَالِفُونَا فَإِنَّ لَهُمْ رَحْمًا وَلَهُمْ حَقًّا. فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأَفْعَلَنَّ.

فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ دَخَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عَيْسَى قَوْلًا عَظِيمًا، فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ فَسَلِّمْهُمْ عَنْهُ.

فَبَعَثَ وَاللَّهِ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَنْزِلْ بِنَا مِثْلَهَا.

فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: مَاذَا تَقُولُونَ لَهُ فِي عَيْسَى إِنْ هُوَ يَسْأَلُكُمْ عَنْهُ؟ فَقَالُوا: نَقُولُ وَاللَّهِ الَّذِي قَالَهُ اللَّهُ فِيهِ، وَالَّذِي أَمَرَنَا نَبِيُّنَا أَنْ نَقُولَهُ فِيهِ.

فَدَخَلُوا عَلَيْهِ وَعِنْدَهُ بَطَارِقَتُهُ، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ؟ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَقُولُ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَدْرَاءِ الْبَتُولِ.

فَدَلَّى النَّجَاشِيُّ يَدَهُ إِلَى الْأَرْضِ فَأَخَذَ عُوْدًا بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ فَقَالَ: مَا عَدَا عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ مِمَّا قُلْتِ هَذِهِ الْعُوْدِ.

فَتَنَاخَرَتْ بَطَارِقَتُهُ، فَقَالَ: وَإِنْ تَنَاخَرْتُمْ وَاللَّهِ! اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ شِيَوْمٌ فِي الْأَرْضِ.

الشِّيَوْمُ: الْأَمْنُونَ فِي الْأَرْضِ.

مَنْ سَبَّكُمْ غَرَمَ، مَنْ سَبَّكُمْ غَرَمَ، مَنْ سَبَّكُمْ غَرَمَ، ثَلَاثًا.

مَا أَحِبُّ أَنْ لِي دَبْرًا وَأَنْبِيَّ آذَيْتُ رَجُلًا مِنْكُمْ، وَالِدَبْرٌ بِلِسَانِهِمْ: الدَّهَبُ.

ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: فَوَاللَّهِ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنِّي الرِّشْوَةَ حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي، وَلَا أَطَاعَ النَّاسَ فِيَّ فَأُطِيعَ النَّاسَ فِيهِ، رَدُوا عَلَيْهِمَا هَدَايَاهُمْ فَلَا حَاجَةَ لِي بِهَا، وَأَخْرَجًا مِنْ بِلَادِي. (٣٩٤)

الدروس المستفادة من هجرة المسلمين إلى الحبشة

هجرة المسلمين إلى الحبشة في المرحلة المكية من الدعوة الإسلامية تحمل العديد والعديد من العبر والعظات لكافة المسلمين وتتمثل الدروس المستفادة من هجرة المسلمين إلى الحبشة كالتالي :

أولاً : يكمن أهم درس من هجرة المسلمين إلى الحبشة في ثبات الصحابة رضوان الله عليهم وتمسكهم بدعوة الإسلام في ظل كل أنواع التعذيب والاضطهاد الذي لاقوه على ايدي مشركي قريش.

يجب توظيف كل القيم والامكانيات والمكتسبات مثل النفس، الوطن، المال والأرض لنشر الدين ونصرتة ليكون دين الإسلام هو دين الله على الأرض.

مفارقة الأوطان والهجرة تمثل نوعاً شديداً من أنواع الألم، ولكن هجرة صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الحبشة لم تكن للراحة أو الدعاية ولكن الهجرة إلى الحبشة كانت نوع من أنواع الاستراتيجيات لتمكين دعوة الدين الإسلامي في الأرض.

ثانياً أن الدين عند الله الإسلام : وقوف النجاشي ملك الحبشة بجوار الصحابة المهاجرين إليه وتوفير الأمان والراحة لهم دليل على أن محمداً وعيسى (عليهم الصلاة والسلام) جاء برسالة واحدة وهي الإيمان بالله الواحد الأحد ونبذ الشرك به سبحانه وتعالى، واستقر نور الايمان بالإسلام داخل النجاشي ملك الحبشة ودخل في دين الإسلام قبل موته.

ثالثاً يجوز للمسلم الدخول في حماية المشرك أو أهل الكتاب إذا دعت الضرورة القصوى لذلك : ولكن بشرط ألا يؤثر ذلك على عقيدة المسلم ودون التنازل عن أيٍّ من أحكام التشريع التي جاءت على لسان نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام.

رابعاً : ظهور شفقة الرسول -صلى الله عليه وسلم- على أصحابه، ورحمته بهم، وحرصه الشديد للبحث عما فيه أمنهم وراحتهم، ولذلك أشار عليهم بالذهاب إلى ملك عادل لا يظلم أحد عنده، فكان الأمر كما قال -صلى الله عليه وسلم-، فأمنوا في دينهم ونزلوا عنده في خير منزل .. فالرسول -صلى الله عليه وسلم- هو الذي وجّه الأنظار إلى الحبشة، وهو الذي اختار المكان الآمن لدعوته وصحابته، كي يحميهم، وهذه تربية نبوية لقيادات المسلمين في كل عصر أن تخطط بحكمة لحماية الدعوة وأتباعها، وتبحث عن الأرض الآمنة التي تكون مركزاً من مراكز انطلاقها .. وفي ذلك أيضاً دلالة على

حكمة النبي - صلى الله عليه وسلم - ومعرفته بما حوله من الدول والممالك ، طيبها من خبيثها ،
وعادلها من ظالمها ..

خامسا فقه الحوار : كذلك أظهرت الهجرة إلى الحبشة فقه الحوار ، والحكمة في الدعوة إلى الله ،
فكان عمرو بن العاص - رضي الله عنه - وهو يمثل في تلك المرحلة عداوة الله ورسوله على مستوى
كبير من الذكاء ، فشحن كل ما لديه من حُجة ، وألقى بها بين يدي النجاشي ، خاصة في قوله :
فهم لا يشهدون أن عيسى ابن مريم إلهاً ، فليسوا على دين قومهم وليسوا على دينك .

سادسا: تحتاج الأقليات المسلمة إلى حسن التعبير عن حقائق الإسلام الرائعة، ونظامه القيم الرفيع ،
كما فعل جعفر رضي الله عنه في خطبته البليغة التي أوجز فيها أمهات الفضائل الإسلامية، وأوضح
الفرق بينها وبين الحياة الجاهلية؛ وبذلك لا يكسب المسلمون تعاطف الناس فقط؛ بل يكسبون الناس
أنفسهم للالتحاق بركب التوحيد.

سابعا: لا بأس من التعايش تحت ظلّ قوانين الدولة غير المسلمة؛ إذ إنها في غالب الأحوال ذات
طابع إداري وتنظيمي، ولا تتعارض في مجملها مع دين الله وشرعه، وليست من ضروب التحاكم إلى
غير الله المنهي عنه، وفي توضيح ذلك يقول الشنقيطي: «اعلم أنه يجب التفريق بين النظام الوضعي
الذي يقتضى تحكيمه الكفر بخالق السماوات والأرض، وبين النظام الذي لا يقتضى ذلك. وإيضاح ذلك
أن النظام قسمان: إداري، وشرعي. أما الإداري الذي يُراد به ضبط الأمور وإتقانها على وجه غير
مخالف للشرع، فهذا لا مانع منه، ولا مخالف فيه من الصحابة، فمنّ بعدهم، وقد عمل عمر رضي الله
عنه من ذلك أشياء كثيرة ما كانت في زمن النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، ككتبه أسماء الجند في ديوان
لأجل الضبط... مع أن النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم لم يفعل ذلك... فمثل هذا من الأمور الإدارية التي
تفعل لإتقان الأمور -مما لا يخالف الشرع- لا بأس به؛ كتنظيم شئون الموظفين، وتنظيم إدارة الأعمال
على وجه لا يخالف الشرع. فهذا النوع من الأنظمة الوضعية لا بأس به، ولا يخرج عن قواعد الشرع
من مراعاة المصالح العامة»^(٣٩٥).

ثامنا: كان مبدأ العدل وحرية العقيدة هو المعيار الواضح الذي وضعه الرسول صلى الله عليه وسلم
لاختيار الحبشة مقصدًا للهجرة؛ حيث قال صلى الله عليه وسلم: «لَوْ حَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ؛ فَإِنَّ

(٣٩٥) - الشنقيطي: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢٦٠/٣.

بِهَا مَلِكًا لَا يُظَلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ». فالذي لا يَظلم يعمل على حفظ حقوق الآخرين، بصرف النظر عن ديانتهم؛ بل بصرف النظر عن حبهم وكرهيتهم، والعدل بذلك من أسس الحكم ودعائمه الأولى، وبغيره لا تستقيم الدنيا ولا ينصلح فيها حال، وهذا معيار لا بُدَّ أن يضعه المسلمون في حساباتهم عند الهجرة إلى بلد معين؛ ومن أبرز ملامح هذا العدل وجود القضاء النزيه الذي ينصف المسلمين في قضيتهم، وقد ظهر ذلك حين انتهت المناظرة مع عمرو بن العاص بانتصار المسلمين، واقتناع النجاشي رحمه الله بعدالة قضيتهم، ورجوع رسولي قريش من عند النجاشي شر مرجع.

تاسعا: أن المبطلين لا يستسلمون أمام أهل الحق بسهولة ويسر، فهم كلما أخفقت لهم وسيلة من وسائل المقاومة والقضاء على دعوة الحق، ابتكروا وسائل أخرى، وهكذا حتى ينتصر الحق انتصاره النهائي ويلفظ الباطل أنفاسه الأخيرة.

الدرس التاسع والثلاثون

إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الحمد لله الذي رسم في جميع مصنوعاته على وجوده وكماله دليلا، الحي العليم السميع البصير الملك الكبير لا يدركه الوهم ولا يحده الفكر تمثيلا، تعالى ذو الملك والملكوت، لم يزل ولا يزال عظيما مقتدرا جليلا، تقدر ذو العزة والجبروت، فلا تستطيع الأوهام إليه وصولا.

وأشهد إن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شيء قدير شهادة أعدها من أكبر نعمه وعطائه، وأعدّها وسيلة إلي يوم لقاءه

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفيه من خلقه وحبیبه

الله زاد محمد تكريما وحباه فضلا من لدنه عظيما

واختاره في المرسلين كريما ذا رافة بالمؤمنين رحيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

يا أمة الهادي خصصتم بالوفا بين الورى والصدق أيضا والصفاء

صلوا على الهادي المصطفى فالله قد صلى عليه قديما

فصلوا عليه وسلموا تسلينا

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين ونحن معهم يا أرحم الراحمين

ترجمته رضي الله عنه:

الفاروق أبو حفص، عمر بن الخطاب بن نُفيل بن عبد العزى القرشي العدوي، ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة (٤٠ عام قبل الهجرة)، عرف في شبابه بالشدة والقوة، وكانت له مكانة رفيعة في قومه إذ كانت له السفارة في الجاهلية فتبعته قريش رسولا إذا ما وقعت الحرب بينهم أو بينهم وبين

عمر يبشهر إسلامه والعاص يجيره من أذى قريش:

ومن حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال (لما أسلم عمر قال: أي قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي، فغدا عليه. قال عبد الله: وغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل، وأنا غلام أعقل كل ما رأيت).

حتى جاءه فقال له: أعلمت يا جميل أنني أسلمت، ودخلت في دين محمد - صلى الله عليه وسلم -؟ قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه، واتبعه عمر، واتبعته أنا، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، وهم في أنديتهم حول الكعبة. ألا أن ابن الخطاب قد صبا.

قال: يقول عمر من خلفه: كذب، ولكنني قد أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه، حتى قامت الشمس على رؤوسهم، قال: وطلع فتعد، وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا.

قال: فبينما هم على ذلك، إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة وقميص موسى، حتى وقف عليهم. فقال: ما شأنكم به؟ فقالوا: صبا عمر.

قال: فمه، رجل اختار لنفسه أمراً فما تريدون؟ أترون بني عدي يسلمون لكم صاحبكم هكذا؟ خلوا عن الرجل.

قال: فوالله لكأنما كانوا ثوباً كشط عنه. قال: فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبت، من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك. قال: ذاك أي بني، العاص بن وائل السهمي (٤٠٠)

عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: (لما أسلم عمر اجتمع الناس إليه عند داره وقالوا: صبا عمر وأنا غلام فوق ظهر بيتي، فجاء رجل عليه قباء من ديباج، فقال: صبا عمر فما ذاك فأنا له جار، قال: فرأيت الناس تصدعوا عنه. فقلت: من هذا؟ قالوا: هذا العاص بن وائل) (٤٠١).

(٤٠٠) - أخرجه عبد الله بن أحمد في زيادته على فضائل الصحابة: ٣٧٢، وابن حبان كما في الإحسان رقم: ٦٨٤٠

(٤٠١) - أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب إسلام عمر بن الخطاب رقم: ٣٨٦٤، ٣٨٦٥، فتح الباري: ٧/ ١٧٧.

عزة المسلمين بإسلام عمر - رضي الله عنه - :

من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - : قال: (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -) (٤٠٢).

عن محمد بن كعب القرظي قال: "كان إسلام حمزة بن عبد المطلب - رضي الله عنه - حَمِيَّةً، وكان يخرج من الحرم فيصطاد، فإذا رجع مر بمجلس قريش، وكانوا يجلسون عند الصفا والمروة، فيمر بهم فيقول: رميت كذا وكذا، وصنعت كذا وكذا، ثم ينطلق إلى منزله، فأقبل من رميه ذات يوم، فلقيته امرأة فقالت: يا أبا عمارة، ماذا لقي ابن أخيك من أبي جهل بن هشام! شتمه، وتناوله، وعمل وفعل. فقال: هل رآه أحد؟

قالت: أي والله، لقد رآه ناس.

فأقبل حتى انتهى إلى ذلك المجلس عند الصفا والمروة، فإذا هم جلوس وأبو جهل فيهم.

فاتكأ على قوسه، وقال: رميت كذا وكذا، وفعلت كذا وكذا، ثم جمع يديه بالقوس، فضرب بها بين أذني أبي جهل فوق سنتها، ثم قال: خذها بالقوس، وأخرى بالسيف: وأشهد أنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وأنه جاء بالحق من عند الله. قالوا: يا أبا عمارة إنه سب آل هنتنا، وإن كنت أنت، وأنت أفضل منه، ما أقرنناك وذاك، وما كنت يا أبا عمارة فاحشاً" (٤٠٣) (١).

وقد جاء من حديث ابن إسحاق عن رجل من أسلم، فذكر القصة أطول مما ذكرت هنا (٤٠٤) (٢).

(٤٠٢) - أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب مناقب عمر رقم: ٣٦٨٤ فتح الباري: ٧ / ٤١

(٤٠٣) - قال الهيثمي في المجمع: ٩ / ٢٦٧، رواه الطبراني مرسلًا، ورجاله رجال الصحيح، وقد جاء بنحوه عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأحنس بن شريق حليف بني زهرة، وقال الهيثمي: ٩ / ٢٦٧ رواه الطبراني مرسلًا، ورجاله ثقات. ومجموع الطرق المرسلة تفيد الحديث قوة وصحة.

(٤٠٤) - رواه الحاكم في المستدرک: ٣ / ١٩٢ - ١٩٣، وابن كثير في السيرة: ١ / ٤٤٥ - ٤٤٦، وقال: وهكذا رواه البيهقي عن الحاكم، عن الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار، عن يونس بن بكير، عن ابن إسحاق ذكره، انظر دلائل النبوة للبيهقي: ٢ / ٢١٣ - ٢١٤ والسيرة النبوية لابن هشام: ١ / ٣٦٠.

الدرس الأربعون

إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه

الحمد لله الذي زين قلوب أوليائه بأنوار الوفاق، وسقى أسرار أحبائه شراباً لذيذ المذاق، وألزم قلوب الخائفين الوجع والإشفاق، فلا يعلم الإنسان في أي الدواوين كتب ولا في أي الفرقين يساق، فأن سامح فبفضله، وان عاقب فبعدله، ولا اعتراض على الملك الخلاق.

وأشهد إن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير شهادة أعدها من أكبر نعمه وعطائه، وأعدّها وسيلة إلي يوم لقاءه

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفیه من خلقه وحبیبه

البشير النذير السراج المنير الذي عم نوره الأفاق، والنور الذي لا يعترض ضيائه كسوف ولا محاق، الحبيب القرب الذي أسري به على البراق، إلي إن جاوز السبع الطباق.

يا سيدي يا رسول الله

يا أجمل ما رأت قط عين ويا أكمل ما ولدت النساء

خلقت مبرأ من كل عيب كأنك خلقت كما تشاء

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين ونحن معهم يا أرحم الراحمين

ترجمته رضي الله عنه:

هو: حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصي بن كلاب، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخوه من الرضاعة.

أم حمزة: هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة، وهي ابنة عم آمنة بنت وهب بن عبد مناف، أم رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٤٠٥)

(٤٠٥) - (الطبقات الكبرى لابن سعد، ج٣، ص٥)، و(الإصابة للعسقلاني، ج١، ص٣٥٣).

ميلاد حمزة: ولد حمزة بن عبد المطلب قبل النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين، وقيل: بأربع سنوات؛^(٤٠٦)

كنية حمزة: أبو يعلى، وأبو عمارة^(٤٠٧).

أولاد حمزة وزوجاته: كان لحمزة من الولد: يعلى - وكان يُكنَّى به حمزة أبا يعلى - وعامر، وأمهما: بنت الملة بن مالك بن عبادة، من الأنصار، وعمارة بن حمزة - وقد كان يُكنَّى به أيضًا - وأمه: خولة بنت قيس الأنصارية، وأمامة بنت حمزة، وأمها: سلمى بنت عميس، أخت أسماء بنت عميس الخثعمية، وأمامة هي التي اختصم فيها عليٌّ وجعفر وزيد بن حارثة، وأراد كل واحد منهم أن تكون عنده، ففضى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لجعفر؛ من أجل أن خالتها أسماء بنت عميس كانت عنده، وزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمة بن أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي؛^(٤٠٨)

إسلام حمزة رضي الله عنه:

أسلم حمزة بن عبد المطلب في السنة السادسة من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، وهاجر إلى المدينة، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين حمزة بن عبدالمطلب، وزيد بن حارثة؛^(٤٠٩).

صفة إسلام حمزة رضي الله عنه:

مرَّ أبو جهل برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا، فأذاه وشتَّمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف لأمره، فلم يُكلِّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومولاةً لعبدالله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة في مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف عنه فعمد إلى نادٍ من قريش عند الكعبة، فجلس معهم، فلم يلبث حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه أن أقبل متوشحًا - أي: متقلدًا - قوسه، راجعًا من قنص (الصيد) له، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على نادٍ من قريش إلا وقف وسلَّم، وتحدَّث معهم، وكان أعزَّ فتى في قريش، وأشدَّ شكيمةً، فلما مرَّ بالمولاة، وقد رجع

^(٤٠٦) - (الإصابة لابن حجر العسقلاني، ج١، ص٣٥٣).

^(٤٠٧) - (الطبقات الكبرى لابن سعد، ج٣، ص٥).

^(٤٠٨) - (الطبقات الكبرى لابن سعد، ج٣، ص٥).

^(٤٠٩) - (الطبقات الكبرى لابن سعد، ج٣، ص٦)، (الاستيعاب لابن عبد البر، ج١، ص٢٧١).

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته، قالت له: يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقي ابنُ أخيك محمدًا آنفًا من أبي الحكم بن هشام وجنده، ها هنا جالسًا فأذاه وسبّه، وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يُكلمه محمدٌ صلى الله عليه وسلم، فاحتلم حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على أحد، مُعِدًّا لأبي جهل إذا لقيه أن يُوقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسًا في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس، فضربه بها فشجّه شجّةً منكراً، ثم قال: أتثتمه وأنا على دينه؛ أقول ما يقول؟ فرُدَّ ذلك عليّ إن استطعت؛ فقامت رجالٌ من بني مخزوم إلى حمزة؛ لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة؛ فإني والله قد سببتُ ابن أخيه سبًّا قبيحًا، وتمّ حمزة رضي الله عنه على إسلامه، وعلى ما تابع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله، فلما أسلم حمزة عرفت قريشٌ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عزَّ وامتنع، وأن حمزة سيمنعه؛ فكفُّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه؛^(٤١٠)

جهاد حمزة رضي الله عنه:

جاهد حمزة بن عبد المطلب مع النبي صلى الله عليه وسلم، وحمل لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الأبواء، وذي العشيرة، وبني قينقاع، وحضر غزوة بدر، واستشهد رضي الله عنه في غزوة أحد^(٤١١).

مناقب حمزة رضي الله عنه:

روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم في بنت حمزة: ((لا تحلُّ لي، يحرِّم من الرِّضَاع ما يحرِّم من النَّسَب، هي بنتُ أخي من الرِّضَاع))؛^(٤١٢)

استشهاد حمزة:

روى البخاري عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري، قال: خرجت مع عبيدالله بن عدي بن الخيار، فلما قدمنا حمص، قال لي عبيدالله بن عدي: هل لك في وحشي؛ نسأله عن قتل حمزة؟ قلت: نعم، وكان وحشيُّ يسكن حمص، فسألنا عنه، فقيل لنا: هو ذاك في ظل قصره، فجننا حتى وقفنا عليه

^(٤١٠) - (سيرة ابن هشام، ج١، ص٢٤٠: ٢٤١).

^(٤١١) - (الطبقات الكبرى لابن سعد، ج٣، ص٥: ٦).

^(٤١٢) - (البخاري حديث: ٢٦٤٥، مسلم، حديث: ١٤٤٧).

بيسير، فسلمنا فرداً السلام، قال عبيدالله: ألا تُخبرنا بقتل حمزة؟ قال: نعم، إن حمزة قتل طعيمة بن عدي بن الخيار ببدر، فقال لي مولاي جبير بن مطعم: إن قتلت حمزة بعمي فأنت حرٌّ، قال: فلما أن خرج الناس عام عينين - وعينين: جبلٌ بحيال؛ أي: من ناحية جبل أحد، بينه وبينه وادٍ - خرجت مع الناس إلى القتال، فلما أن اصطفوا للقتال، خرج سباعٌ، فقال: هل من مبارز؟ قال: فخرج إليه حمزة بن عبدالمطلب، فقال: يا سباع، يا بن أم أنمار مُقَطَّعة البظور - أي: إن أمه كانت تختن النساء - أتحادَّ الله - أي: تعاديه - ورسوله صلى الله عليه وسلم؟ قال: ثم شدَّ عليه، فكان كأمس الذهاب - كناية عن قتله في الحال - قال: وكمننت لحمزة تحت صخرة، فلما دنا مني رميته بحرْبتي، فأضعها في ثنته حتى خرجت من بين وركيه، قال: فكان ذاك العهد به، فلما رجع الناس رجعت معهم، فأقمت بمكة حتى فشا فيها الإسلام، ثم خرجت إلى الطائف، فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولاً، فقيل لي: إنه لا يهيج الرسل - أي: لا يصيبهم بأذى - قال: فخرجت معهم حتى قدِمتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رآني قال: ((أنت وحشي))، قلت: نعم، قال: ((أنت قتلتَ حمزة؟))، قلت: قد كان من الأمر ما بلغك، قال: ((فهل تستطيع أن تغيب وجهك عني))، قال: فخرجت، فلما قبضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج مُسيلمة الكذاب، قلت: لأخْرَجَنَّ إلى مُسيلمة، لعلِّي أقتله فأكافئ به حمزة، قال: فخرجت مع الناس، فكان من أمره ما كان، قال: فإذا رجلٌ قائمٌ في ثلمة جدار - أي: خلل وتصدع فيه - كأنه جملٌ أورق - أي: لونه مثل الرماد من غبار الحرب - ثائر الرأس، قال: فرميته بحرْبتي، فأضعها بين ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه، قال: ووثب إليه رجلٌ من الأنصار، فضربه بالسيف على هامته، قال: قال عبدالله بن الفضل - أحد رواة الحديث - : فأخبرني سليمان بن يسار أنه سمع عبدالله بن عمر يقول: "فقالَت جاريةٌ على ظهر بيت: وأمير المؤمنين - تعني مُسيلمة الكذاب - قتله العبد الأسود - أرادت به وحشياً رضي الله عنه؛" (٤١٣)

وقُتِلَ حمزة بن عبدالمطلب يوم غزوة أحد في شهر شوال، سنة ثلاث من الهجرة، وهو يومئذ ابن تسع وخمسين سنةً؛ (٤١٤)

(٤١٣) - (البخاري حديث: ٤٠٧٢).

(٤١٤) - (الطبقات الكبرى لابن سعد، ج٣، ص٦).

دُفِن حمزة بن عبد المطلب وعبد الله بن جحش في قبر واحد؛ وحمزة خال عبد الله بن جحش، ونزل
في قبر حمزة: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، والزبير بن العوام رضي الله
عنهم؛^(٤١٥)

^(٤١٥) - (الطبقات الكبرى لابن سعد، ج ٣، ص ٦٤).

الدرس الحادي والأربعون

المقاطعة الظالمة

الحمد لله الذي نور بجميل هدايته قلوب أهل السعادة، وطهر بكريم ولايته أفئدة الصادقين فأسكن فيها وداده، ودعاها إلى ما سبق لها من عنايته فأقبلت منقادة، الحميد المجيد الموصوف بالحياة والعلم والقدرة والإرادة، نحمده على ما أولى من فضل وأفاده، ونشكره معترفين بان الشكر منه نعمة مستفاده. واشهد إن لا اله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير شهادة أعدها من أكبر نعمه وعطائه، وأعدّها وسيلة إلي يوم لقاءه وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفيه من خلقه وحبیبه الذي أقام به منابر الإيمان ورفع عماده، وأزال به سنان البهتان ودفع عناده

وشفع في خير الخلائق طرا نبيا لم يزل أبدا حبيبا

هو الهادي المشفع في البرايا وكان له رحيمًا مستجيبا

عليه من المهيمن كل وقت صلاة تملأ الأكوان طيبا

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين ونحن معهم يا أرحم الراحمين

صحيفة المقاطعة:

لما رأّت قريش أن المسلمين الذين هاجروا للحبشة وجدوا بها ملاذا آمنا طيبا، وأن عمر بن الخطاب دخل الإسلام هو وحمزة وقوى بهما المسلمون، اجتمعت قريش لتدبر أمرها، واتفقوا على أن يكتبوا صحيفة يتعاقدون فيها ضد بنى المطلب على ألا يزوجهم أو يتزوجوا منهم، ولا يبيعون لهم، ولا يبتاعون منهم، وأن يقطعوهم، وكتبوا هذه الصحيفة، وتعاهدوا وتوثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة، وكان كاتب الصحيفة هو منصور بن عكرمة بن عامر، ويقال إنه النضر بن الحارث، وقد دعا عليه الرسول صلى الله عليه وسلم فشلت يده.

ازداد إيذاء المشركين من قريش، أمام صبر الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين على الأذى وإصرارهم على الدعوة إلى الله، وإزاء فشو الإسلام في القبائل، وبلوغ الأذى قمته في الحصار المادي والمعنوي، الذي ضربته قريش ظلماً وعدواناً على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ومن عطف عليهم من قرابتهم. ووجدت قريش أن المسلمين يزدادون يوماً بعد يوم، وسياسة التعذيب والاضطهاد لم تثبتهم عن عقيدتهم، وأن مهاجري الحبشة يتمتعون بحماية ملكها، وملسمي مكة يجاهرون بصلاتهم منذ أسلم حمزة وعمر رضي الله عنهما.

قال الزهري إن المشركين اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا، حتى بلغ المسلمين الجهد، واشتد عليهم البلاء، واجتمعت قريش في خيف بني كنانة من وادي المَحْصَبِ، واتفقوا على أن يقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم علانية، فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب، وأمرهم أن يدخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شعبيهم، ويمنعوه ممن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حمية، ومنهم من فعله إيماناً و يقيناً، فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أجمعوا أمرهم ألا يجالسوهم ولا يبيعوهم ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل، وكتبوا في مكرهم صحيفة وعهوداً ومواثيق، لا يتقبلوا من بني هاشم أبداً صلحاً، ولا يأخذهم بهم رافة حتى يسلموه للقتل.

وفي رواية: ... على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم، ولا يدعوا سبباً من أسباب الرزق يصل إليهم، ولا يقبلوا منهم صلحاً، ولا تأخذهم بهم رافة، ولا يخالطوهم، ولا يجالسوهم، ولا يكلموهم، ولا يدخلوا بيوتهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله للقتل، ثم تعاهدوا وتوثقوا على ذلك، وكتبوا ذلك في صحيفة عرفت بـ (صحيفة المقاطعة) وعلقوها في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم وضماناً لتنفيذها وأخذوا العهود والمواثيق فيما بينهم للالتزام بتنفيذ ما جاء فيها. قال ابن القيم: يقال كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم، ويقال نضر بن الحارث، والصحيح أنه بغيض بن عامر بن هاشم، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فَشُلَّتْ يده.

الحصار الظالم: تم هذا الميثاق، فأنحاز بنو هاشم وبنو المطلب، مؤمنهم وكافرهم إلا أبا لهب، وحبسوا في شعب أبي طالب في جبل أبي قبيس (أحد الجبال المحيطة بمكة)، وذلك فيما يقال ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة. وقد قيل غير ذلك.

فلبث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين، فحاصرتهم قريش بها، واشتد عليهم البلاء والجهد. وطال الحصار على رسول الله وبنو هاشم، وأنفقوا جميع ما يملكون ولم يبق لديهم شيء من مال أو طعام: فقد أنفقت خديجة كل ما تملك، وأنفق أبو طالب ما عنده وأنفق كل بني هاشم ما عندهم، وكادوا يهلكون جوعاً، فقد نفذت قريش الحصار بكل دقة، فبنو هاشم كانوا لا يستطيعون الخروج من الشعب لاشتراء الحوائج إلا في الأشهر الحرم، وقد رصدت قريش العيون عليهم ولم تترك طعاماً ولا بيعاً يصل إليهم إلا سبقوهم إليه فاشتروه. وكان أبي جهل ينادي في التجار الوافدين على مكة أن لا يبيعوا بني هاشم شيئاً من تجارتهم ويشترئها منهم بأضعاف ثمنها. فكان الواحد من بني هاشم إذا خرج لشراء طعام أو غيره ضاعف التاجر سعر السلعة فلا يقدر على شرائها ويعود إلى أطفاله بلا طعام وهم يتضرعون من الجوع، وقد اشتد الحصار على الصحابة، وبني هاشم، وبني المطلب، وبلغهم الجهد، حتى اضطروا إلى أكل ورق الشجر، وحتى أصيبوا بظلف العيش وشدته، وحتى لتسمع قريش صوت النساء والصبية يتضاغون من وراء الشعب من الجوع، وكان لا يصل إليهم شيئاً إلا سراً. وكان حكيم بن حزام ربما يحمل قمحاً إلى عمته خديجة رضي الله عنها وقد تعرض له مرة أبو جهل فتعلق به ليمنعه، فتدخل بينهما أبو البختري، ومكنه من حمل القمح إلى عمته.

يقول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وكان أحد المحاصرين، خرجت ليلة لأبول فسمعت قعقة تحت البول، فإذا قطعة من جلد بعير يابسة فأخذتها وغسلتها ثم أحرقتها وطحنتها وسففتها بالماء فقويت بها ثلاثة أيام، وقال أحدهما: وطئت ذات ليلة على شيء رطب فرفعته إلى فمي فابتلعتة فما أدري ما هو إلى الآن.

وكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى فراشه، حتى يراه من أراد به مكرراً أو غائلاً، فإذا نام الناس أخذ أحد بنيهم أو إخواته أو بني عمه، فاضطجع على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمر رسول الله أن يأتي بعض فرشهم فيرقد عليها.

وتحمل الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه عناء هذه المقاطعة بصبر وجلد، وكانت الآيات القرآنية تنزل لتزيدهم ثباتاً وتطالبهم بالصبر وتحدي الحصار والقطيعة، ولم يثن ذلك الرسول عن نشر دعوته فكان يخرج في مواسم الحج والتجارة يدعو كل من وفد مكة إلى الإسلام، ولقد عاب بعض هؤلاء على قريش موقفها من بني هاشم وأعجبوا بثبات محمد وأصحابه فاستحسنوا الإسلام فاعتنقوه وكان هذا على عكس ما أرادت قريش من المقاطعة.

نقض الصحيفة: مر عامان أو ثلاثة أعوام والأمر على ذلك، وفي المحرم سنة عشر من النبوة نقضت الصحيفة وفك الحصار؛ وذلك أن قريشاً كانوا بين راض بهذا الميثاق وكاره له، فسعى في نقض الصحيفة من كان كارهاً لها.

وكان القائم بذلك هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤى، وكان يصل بني هاشم في الشعب مستخفياً بالليل بالطعام، فإنه ذهب إلى زهير بن أبي أمية المخزومي، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، وقال: (يا زهير، أرضيت أن تأكل الطعام، وتشرب الشراب، وأخوالك بحيث تعلم؟) فقال: (ويحك، فما أصنع وأنا رجل واحد؟ أما والله لو كان معي رجل آخر لقمتم في نقضها)، قال: (قد وجدت رجلاً). قال: (فمن هو؟) قال: (أنا). قال له زهير: (ابغنا رجلاً ثالثاً).

فذهب إلى المطعم بن عدي، فذكره أرحام بني هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف، ولامه على موافقته لقريش على هذا الظلم، فقال المطعم: (ويحك، ماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد)، قال: (قد وجدت ثانياً)، قال: (من هو؟) قال: (أنا). قال: (ابغنا ثالثاً). قال: (قد فعلت). قال: (من هو؟) قال: (زهير بن أبي أمية)، قال: (ابغنا رابعاً).

فذهب إلى أبي البختری بن هشام، فقال له نحواً مما قال للمطعم، فقال: (وهل من أحد يعين على هذا؟) قال: (نعم). قال: (من هو؟) قال: (زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا معك)، قال: (ابغنا خامساً).

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه وذكر له قرابتهم وحققهم، فقال له: (وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟) قال: (نعم)، ثم سمي له القوم، فاجتمعوا عند الحَجُون، وتعاهدوا على القيام بنقض الصحيفة، وقال زهير: (أنا أبدأكم فأكون أول من يتكلم).

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير عليه حلة، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أقبل على الناس، فقال: (يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى، لا يباع ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة).

قال أبو جهل، وكان في ناحية المسجد: (كذبت، والله لا تشق).

فقال زمعة بن الأسود: (أنت و الله أكذب، ما رضينا كتابتها حيث كتبت).

قال أبو البختری : (صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها، ولا نفر به).

قال المطعم بن عدی : (صدقتما، وكذب من قال غير ذلك، نبراً إلى الله منها ومما كتب فيها).

وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك. فقال أبو جهل : (هذا أمر قضي بليل، وتُشور فيه بغير هذا المكان).

وبعد أن دار الكلام بين القوم وبين أبي جهل، قام المطعم إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا (باسمك اللهم)، وما كان فيها من اسم الله فإنها لم تأكله.

وروى ابن إسحاق أن الله لما أراد للمحنة الرهيبة أن تزول وللغمة أن تنكشف وأن يجتاز المسلمون الإبتلاء بنجاح، أرسل جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يطلعه أن صحيفة المقاطعة التي كتبتها قريش قد أكلت الأرضة كل ما فيها من ألفاظ القطيعة والظلم، ولم يبق بها إلا أسماء الله، فأخبر النبي عمه أبا طالب بذلك فخرج إلى قريش فأخبرهم بما قاله النبي وقال : (فإن كان كاذباً خلينا بينكم وبينه ودفعناه لتقتلوه، وإن كان صادقاً علمتم أنكم ظالمون لنا، قاطعون لأرحامنا، فهل ذلك ناهيكم عن تظاهركم علينا؟ ورجعتم عن قطيعتنا وظلمنا)، فأخذ عليهم الموثيق وأخذوا عليه، فلما نشرها فإذا هي كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال المطعم بن عدی وهشام بن عمرو : (نحن براء من هذه الصحيفة القاطعة العادية الظالمة، ولن نمالي أحداً في فساد أنفسنا وأشرافنا)، وتتابع على ذلك ناس من أشرف قريش.

فتم نقض الصحيفة وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الشعب، وقد رأى المشركون آية عظيمة من آيات نبوته، ولكنهم، كما أخبر الله عنهم **{وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ}** (سورة القمر، الآية: ٢)، أعرضوا عن هذه الآية وازدادوا كفراً إلى كفرهم.

وعلى الرغم من قسوة الحصار وشدة وطأته على المسلمين، فقد عاد بالخير عليهم وعلى الإسلام، إذ عابت القبائل العربية على قريش سلوكها الشائن مع بني هاشم، فلم يحدث أن سلكت قبيلة عربية مع أحد بطونها هذا السلوك الغريب، كما كان لموقف التحدي الرائع الذي وقفه المسلمون أثر كبير في اجتذاب بعض أفراد هذه القبائل للإسلام، أما قريش فقد هانت في أعين المسلمين بعد أن فشلت كل محاولاتها للنيل من الإسلام والمسلمين.

– من حديث أسامة بن زيد – رضي الله عنهما – قال: قلت يا رسول الله أين تنزل غداً؟ في حجته قال: وهل ترك لنا عقيل منزلاً، ثم قال: نحن نازلون غداً – إن شاء الله بخيف بني كنانة (يعني المحصب) حيث قاسمت قريش على الكفر، وذلك أن بني كنانة حالفت قريشاً علي بنى هاشم، أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يؤوهم، ثم قال عند ذلك: (لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر) واللفظ لأحمد.

قال الزهري: الخيف: الوادي (٤١٦).

من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال لنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ونحن بمنى (نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة، حيث تقاسموا على الكفر) وذلك إن قريشاً وبني كنانة تحالفت علي بنى هاشم وبني المطلب، أن لا يناكحوهم، ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، يعني بذلك المحصب (٤١٧).

وقال الحافظ في الفتح: ولما لم يثبت عند الإمام البخاري شيء من هذه القصة اكتفى بإيراد حديث أبي هريرة لأن فيه دلالة على أصل القصة، لأن الذي أورده أهل المغازي من ذلك كالشرح لقوله في الحديث (تقاسموا على الكفر) (٤١٨).

الدروس والعبر من حادثة المقاطعة

أولاً: صبر والثبات: درس هام من دروس هذا الحصار وهذه المقاطعة، فقد تجرع الصحابة الكرام – رضوان الله عليهم – مرارة هذا الحصار الشديد، فكانوا يأكلون ورق الشجر وما يجدونه، حتى قال سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه -: " خرجت ذات ليلة لأبول فسمعت قعقة تحت البول، فإذا قطعة من جلد بعير يابسة فأخذتها وغسلتها، ثم أحرقتها ثم رضختها، وسففتها بالماء فقويت بها ثلاثاً .. ومع ذلك صبروا وثبتوا، فكانت تربية النبي – صلى الله عليه وسلم – لهم على الصبر عاملاً مهماً من عوامل الصمود والتحدي أمام الباطل وأهله، فالنصر مع الصبر، والبلاء سنة ماضية، وأهل الإيمان لا بد

(٤١٦) – أخرجه البخاري في الفرائض باب لا يرث المسلم الكافر رقم: ٦٧٦٤ فتح الباري: ١٢ / ٥٠ مسلم الفرائض: ١٦١٤ أول كتاب الفرائض،

(٤١٧) – أخرجه البخاري في الحج باب نزول النبي مكة رقم: ١٥٩٠، ١٥٨٩،

(٤١٨) – فتح الباري: ٣ / ٢٥٢، وفي مناقب الأنصار باب تقاسم المشركين على النبي رقم: ٣٨٨٢

أن يتعرضوا للفتن تمحيصاً وإعداداً، قال الله - تعالى -: { أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ } (العنكبوت: ٢).، وقال تعالى: { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ } (آل عمران: ١٤٢)، ومن ثم تجلت التضحيات والمواقف في الثبات - على الدين والدعوة والقيم - عند الصحابة الكرام طوال حياتهم ..

ثانياً: من دروس هذه المقاطعة رد الجميل لأصحابه، ومكافأة المحسنين على إحسانهم، وهذا خُلِقَ حث عليه الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقال: (من أتى إليكم معروفاً فكافئوه) (الطبراني)، فبعد انتهاء هذه المقاطعة، كان النبي - صلى الله عليه وسلم - مقدراً لأصحاب المواقف الإيجابية مع المسلمين، وكافأهم عليها.

فأما عمه أبو طالب فقد قال العباس بن عبد المطلب - رضي الله عنه - للنبي صلى الله عليه وسلم: ما أغنيتَ عن عمك، فوالله كان يحوطك ويغضب لك؟ فقال - صلى الله عليه وسلم -: (هو في ضحاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار) (البخاري) . وذكر ابن هشام في سيرته: أن هشام بن عمرو أسلم فأعطاه النبي - صلى الله عليه وسلم - من غنائم معركة حنين دون المائة من الإبل .
وأما أبو البختري فقد كان في صف المشركين يوم بدر فنهى النبي - صلى الله عليه وسلم - عن قتله . وأما المطعم بن عدي فقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم - في أسارى بدر من المشركين: (لو كان المطعم بن عدي حياً، ثم كلمني في هؤلاء النتن لتركتهن له) (البخاري)، ولفظ أبي داود (لأطلقتهم له) .
ونقل الحافظ ابن حجر في الفتح: " بأن ذلك مكافأة له على يد كانت له عند النبي - صلى الله عليه وسلم -، وهي إما ما وقع من المطعم حين رجع النبي - صلى الله عليه وسلم - من الطائف ودخل في جوار المطعم بن عدي، أو كونه من أشد من قام في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم ومن معهم من المسلمين حين حصرهم في الشعب " .

الدرس الثاني والأربعون

وفاة أبي طالب وأثره على الدعوة

الحمد لله رب العالمين، أحمده على ما يفعل ويصنع، وأشكره على ما يزوى ويدفع، وأتوكل عليه وأقنع، وأرضى بما يعطى ويمنع
سبحانه لا حد يناله، لا عد يحتال، لا أمد يحصره، لا أحد ينصره، لا ولد يشفعه، لا عدد يجمعه،
لا مكان يمسكه، لا زمان يدركه
واشهد إن لا اله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شيء قدير شهادة
أعدها من أكبر نعمه وعطائه، وأعدها وسيلة إلي يوم لقائه يا رب

زادي قليل ما أراه مبلغني أزدى ابكي أم لطول مسافتي

أتحرقني بالنار يا غاية المنى فأين رجائي فيك وأين محبتي

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفيه من خلقه وحبیبه

الحق أنت وأنت إشراف الهدى ولك الكتاب الخالد الصفحات

من يقصد الدنيا بغيرك يلقها تيهها من الأهوال والظلمات

لو شرق القوم الكبار وغرب فإليك حتما منتهى الخطوات

ظلت علومهم برغم نبوغهم وتعرضوا لمهالك الخطرات

وتنكبوا سبل السلام وأقبل يتشدقون بأسفه الكلمات

لو أحسنوا فهم اللام لأسلموا ما غير دينك سلم لنجات

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين
ونحن معهم يا أرحم الراحمين.

إخوة الإسلام: ما إن غادر بنو هاشم شعب أبي طالب حتى أصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم بوفاة عمه أبي طالب - واسمه عبد مناف - وذلك في آخر السنة العاشرة من المبعث، وقد كان أبو طالب "يحوط النبي ويغضب له" و "ينصره"، وكانت قريش تحترمه، وقد جاء زعماءؤها حين حضرته الوفاة، فحرضوا أبا طالب على الاستمساك بدينه وعدم الدخول في الإسلام قائلين: أترغب عن ملة عبد المطلب؟

عن سعيد ابن المسيب عن أبيه: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةَ، جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، فَقَالَ: (أَيَّ عَمِّ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ) فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَعْزِضُهَا عَلَيْهِ، وَيُعِيدَانِهِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ، حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:

(وَاللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَتُكِّرْهُ عَلَيْكَ فَانزَلِ اللَّهُ: (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا

لِلْمُشْرِكِينَ) (التوبة: ١١٣)، وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) (القصص: ٥٦) (٤١٩)

من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعمه (قل لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة).

قال: لولا أن تعيرني قريش، يقولون: إنما حملة على ذلك الجزع، لأقررت بها عينك، فأنزل الله تعالى {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} (٤٢٠) (سورة القصص: ٥٦).

ومن حديث علي بن أبي طالب: "أنه أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: إن أبا طالب مات فقال له - صلى الله عليه وسلم - (اذهب فواره). فقال: إنه مات مشركاً فقال: (اذهب فواره)، فلما واريته رجعت إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال لي: (اغتسل) (٤٢١) (٣).

(٤١٩) - أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب قصة أبي طالب حديث رقم: ٣٨٨٤، فتح الباري: ٧/١٩٣، مسلم كتاب الإيمان باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت حديث رقم: ٢٤،

(٤٢٠) - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت حديث رقم: ٢٥،

(٤٢١) - أخرجه أحمد: ١/٩٥، ١٠٣، ١٣٠، ١٣١ أبو داود رقم: ٣٢١٤

مصير أبي طالب :

عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه - : أنه سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- وذكر عنده عمه فقال: (لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فجعل في ضحاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه) (٤٢٢)

ومن حديث العباس بن عبد المطلب - رضي الله عنه - : قال للنبي - صلى الله عليه وسلم - : ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال (هو في ضحاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار) (٤٢٣).

- نبذة مختصرة عن أبي طالب ومواقفه مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، سيظهر تأثيرها عند تناول الدروس: "كفالتة للنبي في الصغر - دخوله في الحصار مع النبي صلى الله عليه وسلم - نصرته له إلى موته".

ومن أقواله للنبي -صلى الله عليه وسلم-: "وَاللَّهِ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ حَتَّى أُوَسَّدَ فِي التُّرَابِ دَفِينًا!".

وقال :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينًا

لَوْلَا الْمَلَأَةُ أَوْ حَدَارٌ مَسْبِيَةٌ لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَلِكَ مُبِينًا!

دروس وعبر من موت أبي طالب :

(١) فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب :

- أبو طالب الشريف بأعماله الكثيرة للنبي -صلى الله عليه وسلم- يُخلد في النار؛ لأنه مات على الشرك، وغيره من غمار الناس وعمله قليل يدخل الجنة، لأنه مات على التوحيد: عن جرير بن عبد الله -رضي الله عنه- قال: "خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَلَمَّا بَرَزْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ، إِذَا رَاكِبٌ يُوضِعُ نَحْوَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "كَأَنَّ هَذَا الرَّاَكِبَ إِيَّاكُمْ يُرِيدُ"

(٤٢٢) - أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب قصة أبي طالب رقم: ٣٨٨٥،

(٤٢٣) - أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب قصة أبي طالب رقم: ٣٨٨٥

فَأَنْتَهَى إِلَيْنَا الرَّجُلُ، فَسَلَّمَ فَرَدَدْنَا عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟" قَالَ: مِنْ أَهْلِي وَوَلَدِي وَعَشِيرَتِي. قَالَ: "فَأَيْنَ تُرِيدُ؟"، قَالَ: أُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: "فَقَدْ أَصَبْتَهُ" قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَّمَنِي مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: "تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ" قَالَ: قَدْ أَقْرَرْتُ، قَالَ: ثُمَّ إِنَّ بَعِيرَهُ دَخَلَتْ يَدَهُ فِي شَبَكَةِ جُرْذَانٍ، فَهَوَى بَعِيرَهُ وَهَوَى الرَّجُلُ، فَوَقَعَ عَلَى هَامَتِهِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "عَلِيَ بِالرَّجُلِ" فَوُتِبَ إِلَيْهِ عَمَارُ بْنُ يَاسِرٍ وَحَدِيفَةُ بْنُ الْيَمَانِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- فَأَقْعَدَاهُ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُبِضَ الرَّجُلُ! قَالَ: فَأَعْرَضَ عَنْهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَمَا رَأَيْتُمَا إِعْرَاضِي عَنِ الرَّجُلِ، فَإِنِّي رَأَيْتُ مَلَكَيْنِ يَدُسَّانِ فِي فِيهِ مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ مَاتَ جَائِعًا"، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "هَذَا مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) (الأنعام: ٨٢)، ثُمَّ قَالَ: "دُونَكُمْ أَحَاكُم"، قَالَ: فَاحْتَمَلْنَاهُ إِلَى الْمَاءِ فَغَسَلْنَاهُ وَحَنَطْنَاهُ وَكَفَّنَاهُ". وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "هَذَا مِمَّنْ عَمِلَ قَلِيلًا وَأُجِرَ كَثِيرًا" (أخرجه الإمام أحمد في المسند، والطبراني في المعجم الكبير).

- ليس التوحيد الذي ينفع يوم القيامة هو مجرد حروف تُقال، وإلا قالها المشركون: فكان آخر ما قال: "هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ"، فأبى أن يقول: "لا إله إلا الله"، قال الله -تعالى- عن المشركين: (إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ . وَيَقُولُونَ إِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ) (الصافات: ٣٥-٣٦)، وقال -تعالى- عنهم: (أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) (ص: ٥). "يحسن بالمتحدث أن يذكر نبذة مختصرة في معنى التوحيد وأنواعه، أو يردف الموعظة بحديث مستقل عن ذلك".

- قالها المنافقون في الدنيا فلم تنفعهم: قال الله -تعالى-: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) (البقرة: ٨-٩)، وقال: (اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) (المجادلة: ١٦)، وقال -تعالى-: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) (النساء: ١٤٥).

(٢) هداية التوفيق بيد الله:

– الله وحده الذي يملك القلوب : فأعادها عليه النبي –صلى الله عليه وسلم–، فأعادها عليه ، فكان آخر ما قال : ”هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَلَّبِ“، قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: (إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ) (رواه مسلم)، وقال –تعالى–: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) (القصص: ٥٦)، وقال –تعالى–: (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) (الأنعام: ١٢٥).

– خوف الصالحين من سوء الخاتمة: قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: (يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ) (رواه الترمذي، وصححه الألباني)، ويقول: (يَا وَلِيَّ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، ثَبَّنِي بِهِ حَتَّى أَلْقَاكَ) (رواه الطبراني، وصححه الألباني)، وقال –تعالى– عن يوسف: (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِيقِي بِالصَّالِحِينَ) (يوسف: ١٠١).

– الموفق إلى هداية التوفيق، مَنْ أطاع الأنبياء الذين جاءوا بهداية الإرشاد والبيان: قال الله –تعالى–: (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) (النساء: ٨٠)، وقال: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (آل عمران: ٣١)، وقال: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (الشورى: ٥٢)، وقال: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) (الحشر: ٧)، وقال: (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (النور: ٦٣).

(٣) وفاء النبي –صلى الله عليه وسلم– العظيم:

– وهو ظاهر في القصة من جده –صلى الله عليه وسلم–، وحرصه على إسلام عمه الذي أحسن إليه: (أَيَّ عَمِّ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَحْجَأُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ)، وقوله: (وَاللَّهُ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنَّهُ عَنكَ)، وعن أبي سعيد أن النبي –صلى الله عليه وسلم– ذكر عنده عمه أبو طالب، فقال: (لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، يَبْلُغُ كَعْبِيهِ، يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ) (متفق عليه).

– صور من عظيم وفائه لمن أسدى إليه معروفًا، ولو كان من الكفار: قوله –صلى الله عليه وسلم– يوم بدر في أسرى المشركين: (لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بِنِ عَدِيٍّ حَيًّا ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَوْلَاءِ النَّثْنَى لَتَرَكْتَهُمْ لَهُ) (رواه

البخاري). "وحمل عبد الله ابن سلول إلى قبره وفاءً لمعرفه بكسوته قميصه لحمزة عم النبي - صلى الله عليه وسلم-".

(٤) مضرة أصحاب السوء على الإنسان:

- وهو ظاهر في القصة من تأثير الرجلين على أبي طالب "أَتَرَعَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟" وقال النبي - صلى الله عليه وسلم-: (إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوِّءِ كَحَامِلِ الْمَسْكِ، وَنَافِخِ الْكَيْسِ فَحَامِلُ الْمَسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكَيْسِ: إِمَّا أَنْ يَحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً) (متفق عليه)، وقال -صلى الله عليه وسلم-: (الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ) (رواه أحمد والترمذي، وحسنه الألباني).

(٥) مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر من أهل الباطل:

- وهو ظاهر من تلقين الرجلين، وتأثر أبي طالب: "أَتَرَعَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟"، فأعادها عليه النبي -عليه الصلاة والسلام-، فأعادها فكان آخر ما قال: "هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ"، فأبى أن يقول: "لا إله إلا الله"، وقال الله -تعالى-: (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ) (الزخرف: ٢٣).

- خطورة التمسك بما عليه الآباء والكثرة من الناس من أهل الباطل: (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) (يوسف: ١٠٣)، (وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرٌ مِنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ) (الأنعام: ١١٦). "صور مؤسفة: الاعتزاز بالفراعنة والفاطميين، وغيرهم من الأسلاف الكفار وأهل الضلال!".

- الواجب اتباع أمر الله ورسوله، والسلف الصالحين/ والآباء والأجداد المتبعين لهم: (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (النور: ٥١)، (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) (الأحزاب: ٣٦)، (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْهُمُ الْمُتَّقُونَ وَالَّذِينَ تَبِعُوا مِنْ بَاطِنِ الْأَعْيُنِ وَمِنْ بَاطِنِ الْأَفْئِدَةِ وَالَّذِينَ تَبِعُوا مِنْ بَاطِنِ الْأَفْئِدَةِ) (التوبة: ١٠٠)، وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (التوبة: ٢٣).

وقال الحافظ في الفتح: وفي هذا الحديث:

١ - جواز زيارة القريب المشرك وعبادته.

٢ - وفيه أن التوبة مقبولة ولو في شدة مرض الموت، حتى يصل إلى المعاينة فلا يقبل، لقوله تعالى:

{ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا } [غافر: ٨٥]

٣ - وفيه أن الكافر إذا شهد شهادة الحق نجا من العذاب؛ لأن الإسلام يجب ما قبله.

٤ - وفيه أن عذاب الكفار متفاوت، والنفع الذي حصل لأبي طالب من خصائصه ببركة النبي -صلى

الله عليه وسلم-، وإنما عرض النبي -صلى الله عليه وسلم- عليه أن يقول: لا إله إلا الله، ولم يقل فيها محمد رسول الله؛ لأن الكلمتين صارتا كالكلمة الواحدة، ويحتمل أن يكون أبو طالب كان يتحقق أنه رسول الله، ولكن لا يقر بتوحيد الله، ولهذا قال في الأبيات النونية: ودعوتني وعلمت أنك صادق ... ولقد صدقت وكنت قبل أمينا

فاقتصر على أمره بقول: لا إله إلا الله، فإذا أقر بالتوحيد لم يتوقف على الشهادة بالرسالة^(٤٢٤) (١).

(٤٢٤) - انظر فتح الباري (٧/ ٥٩٤).

الدرس الثالث والأربعون

وفاة خديجة رضي الله عنها وشيء من مناقبها

الحمد لله رب العالمين سبحانه سبحانه سبحانه الذي في السماء عرشه ، سبحانه الذي في الأرض حكمه ،
سبحان الذي في القبر قضائه ، سبحان الذي في البحر سبيله ، سبحانه في النار سلطانه ، سبحان الذي
في الجنة رحمته ، سبحان الذي في القيامة عدله

وأشهد إن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير شهادة من
قال ربي الله ثم استقام تقرب لعباده برأفته ورحمته ، ونور قلوب عباده بهدايته ،

سبحان من ملأ الوجود أدلة ليلوح ما أخفى بما أبداه

سبحان من ظهر الجميع بنوره فيه يرى أشياء من صفاه

سبحان من أحيا قلوب عباده بلوائح من فيض نور هداه

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفیه من خلقه وحبیبه

والله ما في الخلق مثل محمد في الفضل والجود والأخلاق

فهو النبي الهاشمي المصطفى من خيرة الأنساب من عدنان

لو حاول الشعراء وصف محمد وأتو بأشعار من الأوزان

ماذا يقول الواصفون لأحمد بعد الذي جاء في القرآن

وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين
ونحن معهم يا أرحم الراحمين

أما بعد : فإن خديجة رضي الله عنها من نعم الله تعالى الجليلة على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-
، فقد آزرته في أخرج الأوقات ، وأعانته على إبلاغ رسالته ، وشاركته مغارم الجهاد المر ، وواسته

بنفسها ومالها، وإنك لتحس قدر هذه النعمة عندما تعلم أن من زوجات الأنبياء من خن (١) الرسالة وكفرن برجالهن، وكن مع المشركين من قومهن وآلهن حرباً على الله ورسوله (٢). (٤٢٥)(٤٢٦)

في العام العاشر من بعثة النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي الشهر الذي تُوفِّي فيه عمُّه أبو طالب، رحلت خديجة رضي الله عنها راضيةً مرضيةً، تاركةً وراءها فراغاً لم يُملأ بعد، ذلك بأنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يفقد بموتها شريكةَ حياته الأولى، ورائدةَ بيته المثلى، وأمَّ ولده الفضلى وحسب، ولكنه فقد بموتها أكبرَ عونٍ له - من بعد الله عزَّ وجل - على تبليغ الرسالة، واحتمال أعباء الدعوة، كما فقد المؤمنون الأوَّلون بموتها أمًّا لم تدهم، ولكنها أوَّلَى من أمهاتهم اللاتي وَلَدَنَّهُمْ بَرًّا، وأقرب لهم نفعًا.

روى الإمام البخاري في صحيحه عن هشام عن أبيه قال: توفيت خديجة قبل مخرج النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة بثلاث سنين (٤٢٧).

عام الحزن: لقد حزن النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على وَزِيرِيهِ أَشَدَّ الحزن وأعظمه، حتى سَمَّى سنةَ وفاتهما عام الحزن! وما بلغ حزنُهُ على موتِ أولاده معشار ما بلغ عليهما! ولكن ماذا يفيدان من الحزن، وإن كان الحزين إمام الصَّابرين؟!

حزن الرسول -صلى الله عليه وسلم- عليها رضي الله عنها: بيته، وأقل الخروج.

قال ابن سعد في طبقاته: لما توفي أبو طالب، وخديجة بنت خويلد رضي الله عنها. . . اجتمعت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مصيبتان (٤٢٨)، فلزم بيته، وأقل الخروج. (٤٢٩)

أبناء النبي وبناته من السيدة خديجة أنجبت السيدة خديجة -رضي الله عنها- للنبي -عليه السلام- كلَّ أولاده إلَّا ابنه إبراهيم الذي أنجبتَه مارية القبطية، وأولاد النبي من السيدة خديجة هم: (٤٣٠)

(٤٢٥) - انظر كتاب فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى ص ١٢٢.

(٤٢٦) - أخرجه الإمام البخاري رقم الحديث (٣٨٩٦).

(٤٢٧) - أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - رقم الحديث (٣٨٩٦).

(٤٢٨) - وهما: موت عمه أبي طالب، وخديجة رضي الله عنها.

(٤٢٩) - الطبقات الكبرى (١/ ١٠١).

(٤٣٠) - محمد الخضر (٢٠٠٩)، السيرة العطرة لأُمِّ المؤمنين خديجة (الطبعة الأولى)، صفحة ٤٢-٤٨. بتصرّف.

القاسم: وهو أول أولاد الرسول -صلى الله عليه وسلم- ولادةً ووفاةً؛ فقد تُوفِّي صغيراً، وكان الرسول يُكنَّى به، وورد أنه تُوفِّي في مكة، إلا أنه لم يُذكر إن كان تُوفِّي قبل البعثة، أم بعدها.

عبد الله: وقد وُلد بعد البعثة؛ ولذلك لُقِّب بالطاهر والطيب، وتُوفِّي وهو صغيرٌ.

زينب: وهي كُبرى بنات النبي -عليه السلام-، تزوّجت من ابن خالتها أبي العاص بن الربيع، وأنجبت منه علياً وأمّامة، وأعلنت إسلامها، وهاجرت مع النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة، وتُوفِّيَت في السنة الثامنة من الهجرة.

رقية: وُلدت حين بلغ الرسول -صلى الله عليه وسلم- ثلاثاً وثلاثين سنةً من عمره، وقد تزوّجت من عتبة بن أبي لهب، إلا أنه فارقتها قبل الدخول بها بعد نزول قول الله -تعالى-: **(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)**، [سورة مسد، آية: ١] ومن ثمّ تزوّجها عثمان بن عفّان، وهاجرت معه إلى الحبشة، وأنجبت منه عبدالله وكنّيتي به، ومات عبدالله بعد أن بلغ العامين، كما هاجرت رقية إلى المدينة المنورة، وتُوفِّيَت في شهر رمضان بعد مرور سبعة عشر شهراً من هجرة الرسول؛ على إثر مرضٍ أصابها.

أم كلثوم: أسلمت أم كلثوم حين أسلمت والدتها السيدة خديجة، وبايعت رسول الله، وهاجرت إلى المدينة، وقد تزوّجت من عثمان بن عفّان في السنة الثالثة للهجرة بعد وفاة أختها رقية، وكان عُنَيبة بن أبي لهب قد طلقها قبل الدخول بها، ولم تنجب من عثمان، وتُوفِّيَت في شهر شعبان من السنة التاسعة للهجرة.

فاطمة: وهي صُغرى بنات الرسول -صلى الله عليه وسلم- على الصحيح من الأقوال، وقيل إنَّ أمّ كلثوم هي الصُغرى، وُلدت فاطمة قبل البعثة، وتزوّجت من علي بن أبي طالب في شهر ذي القعدة أو قبله بقليل في السنة الثانية للهجرة بعد غزوة بدر، وأنجبت منه الحسن، والحسين، وأمّ كلثوم، وزينب، وكانت فاطمة أول أهلها وفاةً بعد أبيها، ورُوي عن أم المؤمنين عائشة في صحيح البخاري أنها قالت: **(دعا النبي صلى الله عليه وسلم فاطمة عليها السلام في شكواه الذي قبض فيه، فسارها بشيء فبكت، ثم دعاها فسارها بشيء فضحكت، فسألنا عن ذلك فقالت: سارني النبي صلى الله عليه وسلم أنه يُقبض في وجعه الذي تُوفِّي فيه فبكت، ثم سارني فأخبرني أنني أول أهله يتبعه فضحكت)**.^(٤٣١)

^(٤٣١) - رواه البخاري، في صحيح البخاري، عن عائشة أم المؤمنين، الصفحة أو الرقم: ٤٤٣٣، صحيح

وفاء النبي للسيدة خديجة: كان الرسول -صلى الله عليه وسلم- شديد الوفاء للسيدة خديجة -رضي الله عنها-، فقال فيها: (إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا)،^(٤٣٢) ومن حبّ الرسول -عليه السلام- للسيدة خديجة ووفاءه لها أنه كان يرسل من لحم الشاة التي يذبحها إلى صديقات خديجة، روت عائشة -رضي الله عنها- في ذلك: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا ذَبَحَ الشَّاةَ، فَيَقُولُ: أَرْسَلُوا بِهَا إِلَى أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ)،^(٤٣٣) كما كان دائم الذكر لها والحديث عنها، حتى وقعت في نفس السيدة عائشة -رضي الله عنها- الغيرة منها دون أن تراها، قالت عائشة -رضي الله عنها-: (مَا غَرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا غَرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ، وَمَا رَأَيْتُهَا، وَلَكِنْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا)،^(٤٣٤) وقالت أيضاً -رضي الله عنها-: (اسْتَأْذَنْتُ هَالَةَ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ أُخْتُ خَدِيجَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ فَارْتَأَحَ لِذَلِكَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ هَالَةَ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ فَعَرْتُ فَقُلْتُ: وَمَا تَذَكَّرُ مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قُرَيْشٍ، حَمْرَاءِ الشِّدْقِيِّينَ، هَلَكْتَ فِي الدَّهْرِ فَأَبْدَلَكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهَا)،^(٤٣٥) وكانت السيدة خديجة من أفضل نساء الأمة في زمانها؛ ولذلك نالت تلك المحبة من رسول الله، قال -عليه السلام-: (خَيْرُ نِسَائِهَا مَرِيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ)^(٤٣٦)، وشاركت السيدة خديجة رسول الله في مختلف ظروف حياته؛ فالتحقت معه في حصار قريش على بني هاشم وبني المطلب في شعب أبي طالب، وعانت ما عاناه من جوعٍ وعطشٍ، فضحّت بنفسها وروحها لتقف بجانب الرسول، وكانت توفرّ للرسول الطعام والشراب عندما كان يعتكف في غار حراء، فقد روي عن أبي هريرة في صحيح البخاري أنه قال: (أَتَى جَبْرِيلُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ، أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِئِي وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَحْبَ فِيهِ، وَلَا نَصَبَ)،^(٤٣٧) والمقصود بالقصب: اللؤلؤ المَجُوفُ الواسع.^(٤٣٨)

^(٤٣٢) - رواه مسلم، في صحيح مسلم، عن عائشة أم المؤمنين، الصفحة أو الرقم: ٢٤٣٥، صحيح

^(٤٣٣) - رواه مسلم، في صحيح مسلم، عن عائشة أم المؤمنين، الصفحة أو الرقم: ٢٤٣٥، صحيح

^(٤٣٤) - رواه البخاري، في صحيح البخاري، عن عائشة أم المؤمنين، الصفحة أو الرقم: ٣٨١٨، صحيح

^(٤٣٥) - رواه مسلم، في صحيح مسلم، عن عائشة أم المؤمنين، الصفحة أو الرقم: ٢٤٣٧، صحيح

^(٤٣٦) - رواه مسلم، في صحيح مسلم، عن علي بن أبي طالب، الصفحة أو الرقم: ٢٤٣٠، صحيح

^(٤٣٧) - رواه البخاري، في صحيح البخاري، عن أبي هريرة، الصفحة أو الرقم: ٣٨٢٠، صحيح.

^(٤٣٨) - محمد الخضر (٢٠٠٩)، السيرة العطرة لأُم المؤمنين خديجة (الطبعة الأولى)، صفحة ٧٥-٨١. بتصرّف.

الدرس الرابع والأربعون

موقف المشركين من النبي صلى الله عليه وسلم والدعوة بعد وفاة أبي طالب و خديجة رضي الله عنها

الحمد لله الذي تقدس في أزليته وأبديته عن النظير والشبيه ، وتنزه في جماله وجلاله عن مقالات أهل التمويه ، الغنى عن خلقه ، فلا أمد يحصره ، ولا أحد ينصره ، ولا ضياء يظهره ، فهو الواحد الأحد القدوس الصمد الذي لا شك فيه

وأشهد إن لا اله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو علي كل شيء قدير

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفيه من خلقه وحبیبه

انتخبه من أشرف القبائل ، وزينه بأكمل الفضائل ، وجعل أتبعه من أشرف الوسائل

يا رب شفعه فينا يوم تبعثنا ف نحن من خوف في غاية الخجل

يا رب اغفر لنا كل الذنوب به وامنن وسامح فهذا غاية الأمل

وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلى يوم الدين ونحن معهم يا أرحم الراحمين

في هذا العام الأليم عام الحزن تعرض النبي صلى الله عليه وسلم إلى أشد المصائب ، فكانت مصيبة وفاة خديجة رضي الله عنها بعد أسابيع قليلة من وفاة أبي طالب ، ولم تهز هذه المصائب مشاعر قريش قط ، إنما على النقيض من ذلك ؛ فقد فقدوا كل نخوتهم ، وزادوا من إيذائهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ليزيدوه حزنًا على حزنه !

ولقد كان إيذاؤهم له في هذه الفترة مختلفًا عن كل المرحلة المكيّة السابقة ؛ فعلى الرغم من تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم للأذى من أول يوم جهّر فيه بالدعوة ، وحتى يوم موت أبي طالب ؛ فإنه لم ير مثل هذا الإيذاء قط ! قال ابن إسحاق : فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْتَهُ وَالتُّرَابُ عَلَى رَأْسِهِ ،

فَقَامَتْ إِلَيْهِ إِحْدَى بَنَاتِهِ تَغْسِلُهُ وَتَبْكِي، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَا تَبْكِي يَا بِنْتِيَّةُ، فَإِنَّ اللَّهَ مَا نِعُ أَبَاكَ». وَيَقُولُ بَيْنَ ذَلِكَ: «مَا نَأَلْتُ مِنِّْي قُرَيْشٌ شَيْئًا أَكْرَهُهُ حَتَّى مَاتَ أَبُو طَالِبٍ»^(٤٣٩).

فالرسول صلى الله عليه وسلم بهذه الكلمات يعتبر كل الأذى الذي تعرّض له قبل ذلك وكأنه لم يكن بالقياس إلى ما حدث بعد وفاة عمّه؛ فإنّ قريشاً تجرّأت عليه وناصبته العداة صريحاً دون حياء ولا خجل، وهذه طبيعة السفهاء من أهل الباطل؛ حيث لا يطلبون جنّة، ولا يخافون ناراً، ولا يرجون حساباً ولا نشوراً، فيفعلون ما بدا لهم وإن كان منكراً في عرف الكرام.

ولم يكن هذا أمراً ينفرد به أحدٌ دون أحدٍ؛ إنّما كان عموم المشركين يفعلونه، نعم هناك أكابر المجرمين الذين بالغوا في تطاولهم؛ ولكنّ أمر الإيذاء فشا في مكة حتى صار العوام يجتمعون عليه صلى الله عليه وسلم يؤذونه، ومن هذا ما رواه الحارث بن الحارث العامدي رضي الله عنه حيث يحكي موقفاً له في طفولته يوم كان يزور مكة مع أبيه فقال: قُلْتُ لِأَبِي: مَا هَذِهِ الْجَمَاعَةُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى صَائِبِي لَهُمْ. قَالَ: فَتَرَلْنَا إِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْإِيمَانِ بِهِ، وَهُمْ يَرُدُّونَ عَلَيْهِ وَيُؤْذُونَهُ، حَتَّى انْتَصَفَ النَّهَارَ وَأَنْصَدَعَ عَنْهُ النَّاسُ، وَأَقْبَلَتْ أَمْرًا قَدْ بَدَأَ نَحْرُهَا تَحْمِلُ قَدْحًا وَمِنْدِيلًا، فَتَنَاوَلَهُ مِنْهَا وَشَرِبَ وَتَوَضَّأَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ: «يَا بِنْتِيَّةُ خَمْرِي عَلَيْكَ نَحْرُكَ، وَلَا تَخَافِي عَلَى أَبِيكَ». قُلْنَا: مَنْ هَذِهِ؟ قَالُوا: زَيْنَبُ بِنْتُهُ^(٤٤٠).

وواضح أنّ زينب رضي الله عنها قد ألهتها مصيبة إيذاء أبيها عن إصلاح ثوبها، فجاءت مسرعةً من بيتها، تحمل الماء له ليغسل تراب المشركين عن رأسه ووجهه، حتى لفت رسول الله صلى الله عليه وسلم نظرها إلى إصلاح خمارها، وطمانها برفقٍ على حياته.

ويبدو أنّ موت أبي طالب كان مؤذناً بذهاب كل ذرة مروءة أو خُلُقٍ عند معظم زعماء قريش؛ لأننا رأينا في هذه المرحلة أنّ مستوى التدنّي في الأخلاق في التعامل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بلغ حدّاً لا يُمكن أن نستوعبه؛ خاصّةً إذا علمنا شرف رسول الله صلى الله عليه وسلم نسباً وأخلاقاً وقيمةً في مجتمع مكة، وإذا علمنا كذلك أنّه في هذه الأحداث قد بلغ الخمسين من عمره، فهو شيخٌ له مكانته

^(٤٣٩) - ابن هشام: السيرة النبوية ٤١٦/١، والطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣٤٤/٢، والبيهقي: دلائل النبوة ٣٥٠/٢، وقال مجدي

فتحى السيد: إسناده مرسل، والحديث حسن. انظر: سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ٢٩/٢.

^(٤٤٠) - الطبراني: المعجم الكبير (٣٣٧٤)، واللفظ له، وابن عساکر: تاريخ دمشق ٤٠٧/١١، وقال الهيثمي: رواه الطبراني، ورجاله

ثقات. انظر: مجمع الزوائد ٢١/٦.

ووضعه ، فوق أنه الصادق الأمين الذي يشهد له القريب والبعيد بالتفوق على أهل مكة ؛ بل على أهل الأرض جميعاً ، ثم ها نحن نجد السفاهة تصل بالقرشيين إلى هذا المستوى ؛ الذي إن حدث من غلام سفيه استغربناه ، فما بالنا نراه من زعماء كبار ، وسادة متمكنين ! ولكن يبدو أن هذه سنة ماضية ؛ وهي أن أهل الباطل يفقدون عقولهم في حال رؤية أهل الحق ثابتين على دينهم ، فتخرج منهم بعض المواقف التي يتعجب لها العقلاء ! وكان منها هذا الموقف السفيه الذي يرويه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ وَجَمْعٌ قُرَيْشٍ فِي مَجَالِسِهِمْ ؛ إِذْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى هَذَا الْمُرَائِي؟ أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى جُرُورِ آلِ فُلَانٍ ، فَيَعْمِدُ إِلَى فَرْثِهَا وَدَمِهَا وَسَلاهَا ، فَيَجِيءُ بِهِ ، ثُمَّ يَمْهَلُهُ حَتَّى إِذَا سَجَدَ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ؟ فَانْبَعَثَ أَشْقَاهُمْ -وفي رواية: عقبة بن أبي معيط^(٤٤١) - ، فَلَمَّا سَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ ، وَتَبَتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَاجِدًا ، فَضَحِكُوا حَتَّى مَالَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ مِنَ الضَّحِكِ ، فَانْطَلَقَ مُنْطَلِقٌ إِلَى فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ -وهي جُوَيْرِيَةٌ- فَأَقْبَلَتْ تَسْعَى ، وَتَبَتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَاجِدًا حَتَّى أَلْقَنَهُ عَنْهُ ، وَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تَسْبُهُمْ ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّلَاةَ ، قَالَ : «اللَّهُمَّ عَلَيكَ بِقُرَيْشٍ ، اللَّهُمَّ عَلَيكَ بِقُرَيْشٍ . ثُمَّ سَمَى : «اللَّهُمَّ عَلَيكَ بِعَمْرٍو بْنِ هِشَامٍ ، وَعَنْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ ، وَالْوَلِيدَ بْنَ عُنْبَةَ ، وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلْفٍ ، وَعُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ ، وَعَمَارَةَ بْنَ الْوَلِيدِ» . قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : فَوَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُهُمْ صَرَخَى يَوْمَ بَدْرٍ ، ثُمَّ سَحَبُوا إِلَيَّ الْقَلِيبِ ، قَالِبِ بَدْرٍ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «وَأُتِيعَ أَصْحَابُ الْقَلِيبِ لَعْنَةً»^(٤٤٢) .

فقد روى البزار بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود قال : بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ ، وَأَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ ، وَشَيْبَةُ ، وَعَنْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ ، وَعُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ ، وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلْفٍ ، وَرَجُلَانِ آخَرَانِ كَانُوا سَبْعَةً ، وَهُمْ فِي الْحَجْرِ ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي ، فَلَمَّا سَجَدَ أَطَالَ السُّجُودَ ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : أَيُّكُمْ يَأْتِي جُرُورَ بَنِي فُلَانٍ ، فَيَأْتِينَا بِفَرْثِهَا ، فَيَلْقِيهِ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَانْطَلَقَ أَشْقَاهُمْ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ ، فَأَتَى بِهِ ، فَأَلْقَاهُ عَلَى كَتِفَيْهِ ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَاجِدٌ لَمْ يَهْتَمَّ ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : وَأَنَا قَائِمٌ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَكَلَّمَ لَيْسَ عِنْدِي مِنْعَةٌ تَمْنَعُنِي ،

^(٤٤١) -البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المشركين بمكة، (٣٦٤١)، ومسلم:

كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين، (١٧٩٤)

^(٤٤٢) -البخاري: أبواب سترة الصلي، باب المرأة تطرح عن الصلي شيئاً من الأذى، (٤٩٨)، واللفظ له، ومسلم: كتاب الجهاد

والسير، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين، (١٧٩٤).

فَأَنَا أَرْهَبُ؛ إِذْ سَمِعَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَقْبَلَتْ حَتَّى أَلْقَتْ ذَلِكَ عَنْ عَاتِقِهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ قَرِيشًا تَسُبُّهُمْ، فَلَمْ يُرْجِعُوا إِلَيْهَا شَيْئًا، وَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأْسَهُ كَمَا كَانَ يَرْفَعُ عِنْدَ تَمَامِ السُّجُودِ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاتَهُ، قَالَ: «اللَّهُمَّ عَلَيكَ بِقُرَيْشٍ». ثَلَاثًا «اللَّهُمَّ عَلَيكَ بِعَنْبَةِ، وَعُقْبَةَ، وَأَبِي جَهْلٍ، وَشَيْبَةَ». ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَلَقِيَهُ أَبُو الْبَخْتَرِيِّ، وَمَعَ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ سَوْطٌ يَتَخَصَّرُ بِهِ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْكَرَ وَجْهَهُ، فَقَالَ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَلَّ عَنِّي». قَالَ: عَلِمَ اللَّهُ لَا أَحْلِيَّ عَنْكَ أَوْ تُخْبِرَنِي مَا شَأْنُكَ، فَلَقَدْ أَصَابَكَ شَيْءٌ؟ فَلَمَّا عَلِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ غَيْرَ مُحَلٍّ عَنْهُ أَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «إِنَّ أَبَا جَهْلٍ أَمَرَ فَطْرِحَ عَلَيَّ فَرْتًا». فَقَالَ أَبُو الْبَخْتَرِيِّ: هَلُمَّ إِلَيَّ الْمَسْجِدِ. فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو الْبَخْتَرِيِّ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ، ثُمَّ أَقْبَلَ أَبُو الْبَخْتَرِيِّ إِلَى أَبِي جَهْلٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْحَكَمِ، أَنْتَ الَّذِي أَمَرْتَ بِمَحْمَدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَطْرِحَ عَلَيْهِ الْفَرْتُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَرَفَعَ السَّوْطَ فَضْرَبَ بِهِ رَأْسَهُ، قَالَ: فَتَارَ الرَّجَالُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ قَالَ: وَصَاحَ أَبُو جَهْلٍ: وَيَحْكُمُ هِيَ لَهْ، إِنَّمَا أَرَادَ مُحَمَّدٌ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَنْ يُلْقِيَ بَيْنَنَا الْعَدَاوَةَ، وَيَنْجُو هُوَ وَأَصْحَابُهُ. وَفِي رِوَايَةٍ فَلَمَّا رَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأْسَهُ، حَمِدَ اللَّهُ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ: اللَّهُمَّ عَلَيكَ الْمَلَأَ مِنْ قُرَيْشٍ»^(٤٤٣).

مع مرارة هذا الموقف الذي مر بنا، ومع شدة حزننا على ما عاناه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن هناك بارقة أمل تظل موجودة في كل مجتمع، مهما كان مشرکاً أو معادياً للإسلام، فهذا أبو البخترى بن هشام لا يكتفي بنقض الصحيفة الظالمة قبل ذلك؛ ولكنّه يدخل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهامة، ويضرب أبا جهل بالسوط في رأسه، مُعرِّضاً نفسه لغضب بني مخزوم، ومُحدِّثاً أمراً قد يُفضي إلى صراعٍ خطيرٍ في داخل مكة، مع أنّه ليس مسلماً، وليس من قبيلة بني هاشم؛ ولكنّه رجلٌ شهيمٌ يُؤيِّد الفضيلة، ويكره الظلم، ولقد شفى الموقف صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين قليلاً، ورفع شيئاً من الحرج الذي أصاب المسلمين.

^(٤٤٣) -البيزار: البحر الزخار ٢٤١/٥، واللفظ له، والطبراني: المعجم الأوسط (٧٦٢)، وأبو نعيم الأصبهاني: دلائل النبوة ص ٢٦٧، وقال الهيثمي: حديث ابن مسعود في الصحيح باختصار قصة أبي البخترى، رواه البيزار، والطبراني في الأوسط، وفيه الأجلح بن عبد الله الكندي، وهو ثقة عند ابن معين، وغيره، وضعفه النسائي، وغيره. انظر: مجمع الزوائد ١٨/٦.

إننا ينبغي أن نبحث عن مثل هذه النماذج في مجتمعاتنا، فلن يخلو مجتمع من رجل أو رجال أمثال أبي البختری بن هشام، وهؤلاء قد يُقدّمون عوناً كبيراً للقضية الإسلامية، وإن كانوا لا يعتنقونها، ولا يؤمنون بها.

ولعلّ سائلاً يسأل: ولماذا لم يُقْمُ بهذا الدور حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وهو فارس قریش، وعمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأجدد بحمايته من أبي البختری بن هشام، كما أنّ حمزة رضي الله عنه في يوم إسلامه ضَرَبَ أبا جهل، ولم يتحرّك أحدٌ من بني مخزوم، وكان ضَرَبُهُ لأبي جهل في موقف أهون من الموقف الذي يتعرّض له الرسول صلى الله عليه وسلم الآن؟

والإجابة أنّ حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه الآن مسلم، وتصرفاته محسوبة على المسلمين وليس على بني هاشم، والمسلمون مطالبون بكفّ اليد، والإعراض عن المشركين، وقيام حمزة رضي الله عنه بضرب أبي جهل لن يُفْضِيَ في الواقع إلى حرب بين بني هاشم وبين بني مخزوم؛ ولكن سيفضي إلى ما هو أخطر! إنه سيفضي إلى حرب بين المسلمين وبين الكفار، وهذا لا يُناسب المرحلة؛ لذلك لم يتحرّك حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه في هذا الموقف ولا غيره حتى لا يتخطى المسلمون مرحلة من المراحل ولم يستعدوا لذلك الاستعداد المناسب.^(٤٤٤)

(٤٤٤) -موقع قصة الإسلام د- راغب السرجاني عام الحزن.. أشد مراحل الإيذاء

الدرس الخامس والأربعون

ذهاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف

الحمد لله الذي تفرد في أزليته بعز كبريائه، وتوحد في صمديته بدوام بقائه، ونور بمعرفته قلوب أوليائه، وطيب أسرار القاصدين بطيب ثنائه، وأسبع على الكافة جزيل عطائه، وأمن خوف الخائفين بحسن رجائه، الحي العليم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في أرضه ولا سمائه، القدير لا شريك له في تدبيره وإنشائه

واشهد إن لا اله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو علي كل شيء قدير

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفيه من خلقه وحبیبه

خاتم أنبيائه، وسيد أصفیائه، المخصوص بالمقام المحمود، في اليوم المشهود، فجمع الأنبياء تحت لوائه

بشراكمو يا أمة المختار في يوم القيامة جنة وحريرا

فضلتموا حقا بأشرف مرسل خير البرية باديا وحضورا

صلى عليه الله ربي دائما ما دامت الدنيا وزاد كثيرا

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين ونحن معهم يا أرحم الراحمين

لقد عانى النبي صلى الله عليه وسلم - معاناةً كبيرة؛ حيث أذى هو وأصحابه من المشركين - كما هو مفصل في كتب السيرة - إيذاءً شديداً ثم جاء عام الحزن؛ حيث فقد النبي صلى الله عليه وسلم - نصيرين، و سَنَدَيْن، هما: عمُّه أبو طالب، وزوجُه السيدة خديجة رضي الله عنها، فاشتد الكرب، و عَظُم الخطب، و كَثُر الأذى، فخرج إلى الطائف؛ باحثاً عن أرضٍ خِصبةٍ تقبل الحق، و تنصر أهله، فخرج صلى الله عليه وسلم - إلى الطائف في شَوَّالٍ من السَّنَةِ العَاشِرَةِ من البَعْثَةِ، و قطع الطريق بين مكة و الطائف (٤٤٥) ماشياً.

(٤٤٥) - المسافة بين مكة والطائف (٨٨) كم حسب ما هو منشور على موقع وزارة النقل السعودية.

وذكر الواقدي: أن مدة إقامته بالطائف كانت عشرة أيام^(٤٤٦)

عن محمد بن كعب القرظي: قال: لما انتهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الطائف، عمد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو بن عمير، ومسعود بن عمرو بن عمير، وحبیب بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام على من خالفه من قومه، فقال له أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك! وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغي لي أن أكلمك.

فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقال لهم فيما ذكر لي: إذا فعلتم ما فعلتم فاكنتموا عني، وكره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يبلغ قومه عنه فيذئروهم ذلك عليه^(٤٤٧)، فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجؤوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل حبله من عنب، فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف، وقد لقي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما ذكر المرأة التي من بني جمح فقال لها: ماذا لقينا من أحماذك؟^(٤٤٨).

عن خالد العدواني: "أنه أبصر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في مشرق ثقيف وهو قائم على قوس، أو عصا حين أتاهم يبتغي عندهم النصر، قال: فسمعتة يقرأ: {وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ} حتى ختمها، قال: فوعيتها في الجاهلية: وأنا مشرك، ثم قرأتها في الإسلام قال: فدعتني ثقيف فقالوا: ماذا سمعت

(٤٤٦) طبقات ابن سعد (١/ ٢٢١).

(٤٤٧) - ويذئروهم عليه: يثيرهم عليه ويجرئهم.

(٤٤٨) - أخرج القصة بطولها ابن هشام: ١/ ٤١٩ والطبري في التاريخ: ٢/ ٣٤٤ - ٣٤٦ والطبراني كما في مجمع الزوائد: ٦/ ٣٥، بسند صحيح عن ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي مرسلًا - مضافاً إليها قصة عداس وانكبابه على يدي الرسول بدون الدعاء فقد جاء بغير سند، والبيهقي في الدلائل: ٢/ ٤١٥ - ٤١٧ من مرسل الزهري، فيتقوى به، وله شاهد من الحديث الذي يليه برقم: ١٢٩.

من هذا الرجل؟ فقرأتها عليهم، فقال من معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا لو كنا نعلم ما يقول حقًا
لاتبعناه" (٤٤٩).

التوجه إلى الله بالشكوى:

من حديث عبد الله بن جعفر - رضي الله عنه - قال: "لما توفي أبو طالب خرج النبي - صلى الله
عليه وسلم - إلى الطائف ماشيًا على قدميه، يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه، فانصرف فأتى ظل شجرة
فصلى ركعتين ثم قال:

(اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وهواني على الناس، أنت أرحم الراحمين، إلى من تكلني إلى عدو
يتجهمني، أم إلى قريب ملكته أمري، إن لم تكن غضبان علي فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي،
أعوذ بوجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن ينزل بي غضبك، أو يحل
بي سخطك، لك العتبي حتى ترضى ولا قوة إلا بالله) (٤٥٠).

قصة عداس النصراني:

وجاءت بوادى الأمل، ومشاعل النور، فإن أشد ساعات الليل سوادا تلك التي تسبق بزوغ الفجر، وأشد
ساعات السماء غيوما تلك التي تسبق هطول المطر، وأشد لحظات المرأة إبلا ما تلك التي تسبق نزول

الولد، وتحول العسر إلى يسر {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [الشرح: ٥، ٦]

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا رَأَى ابْنًا رَبِيعَةَ عْتَبَةَ وَشَيْبَةَ وَمَا لَقِيَ، تَحَرَّكَتْ لَهُ رَحِمُهُمَا، فَدَعَا غُلَامًا نَصْرَانِيًّا
يُقَالُ لَهُ: عَدَّاسٌ. فَقَالَ لَهُ: خُذْ قِطْفًا مِنْ هَذَا الْعِنْبِ، فَضَعَهُ فِي هَذَا الطَّبَقِ، ثُمَّ أَذْهَبَ بِهِ إِلَى ذَلِكَ
الرَّجُلِ، فَقُلْ لَهُ يَاكُلُ مِنْهُ، فَفَعَلَ عَدَّاسٌ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِ حَتَّى وَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله
عليه وسلم -، ثُمَّ قَالَ لَهُ: كُلْ. فَلَمَّا وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - يَدَهُ فِيهِ، قَالَ: " بِسْمِ
اللَّهِ "، ثُمَّ أَكَلَ، فَتَنَزَّرَ عَدَّاسٌ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ مَا يَقُولُهُ أَهْلُ هَذِهِ الْبِلَادِ! فَقَالَ

(٤٤٩) - أخرجه أحمد في المسند: ٤ / ٣٣٥ وقال الساعاتي: ٢٠ / ٢٤٣ في الفتح: وسنده جيد. وقال الحافظ في الإصابة: ١ / ٤٠٢ رواه

أحمد وابن أبي شيبة وابن خزيمة في صحيحه والطبراني رقم: ٤١٢٦، وابن شاهين فذكر الحديث وقال الهيثمي: ٧ / ١٣٦، رواه

أحمد والطبراني وعبد الرحمن ذكره ابن أبي حاتم ولم يجرحه أحد وبقيته رجاله ثقات

(٤٥٠) - قال الهيثمي في المجمع: ٦ / ٣٥ رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق مدلس ثقة وبقيته رجاله ثقات، وأخرجه الخطيب في الجامع

لأخلاق الراوي: ٢ / ٢٧٥ رقم: ١٨٣٩. وله شاهد في ذهابه إلى الطائف من الحديثين السابقين.

لَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " وَمِنْ أَهْلِ أَيْ بِلَادِ أَنْتَ يَا عَدَّاسُ؟ وَمَا دِينُكَ؟ " . قَالَ :
 نَصْرَانِيٌّ ، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ نَيْنَوَى . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " مِنْ قَرِيْبَةِ الرَّجُلِ
 الصَّالِحِ يُؤْنَسُ بْنُ مَتَّى؟ " . فَقَالَ لَهُ عَدَّاسُ : وَمَا يُدْرِيكَ مَا يُؤْنَسُ بْنُ مَتَّى؟ ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " ذَلِكَ أَحْيِي ، كَانَ نَبِيًّا وَأَنَا نَبِيٌّ " . فَأَكَبَّ عَدَّاسُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 - يُقْبِلُ رَأْسَهُ وَيَدِيَهُ وَقَدَمَيْهِ . قَالَ : يَقُولُ ابْنَاءُ رِبِيْعَةَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : أَمَا غُلَامُكَ فَقَدْ أَفْسَدَهُ عَلَيْكَ . فَلَمَّا
 جَاءَهُمَا عَدَّاسُ ، قَالَ لَهُ : وَيْلَكَ يَا عَدَّاسُ ، مَا لَكَ تَقْبَلُ رَأْسَ هَذَا الرَّجُلِ وَيَدَيْهِ وَقَدَمَيْهِ؟ قَالَ : يَا سَيِّدِي ،
 مَا فِي الْأَرْضِ شَيْءٌ خَيْرٌ مِنْ هَذَا ، لَقَدْ أَخْبَرَنِي بِأَمْرٍ مَا يَعْلَمُهُ إِلَّا نَبِيٌّ . قَالَ لَهُ : وَيْحَكَ يَا عَدَّاسُ ، لَا
 يَصْرِفُكَ عَنْ دِينِكَ ، فَإِنَّ دِينَكَ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ . . (٤٥١)

شدة الأذى الذي لقيه - عليه السلام - من أهل الطائف :

عَنْ ابْنِ شِهَابٍ ، قَالَ : حَدَّثَنِي عُرْوَةُ ، أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
 حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ ، قَالَ : " لَقَدْ
 لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ مَا لَقِيتُ ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ
 بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي ، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ
 الثُّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي ، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي ، فَتَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيْلُ ، فَتَادَانِي فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ
 قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ ، فَتَادَانِي
 مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، فَقَالَ ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ ، إِنَّ شِئْتَ أَنْ أُطَبَّقَ عَلَيْهِمْ
 الْأَخْشَبِيْنَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ ،
 لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا " (٤٥٢) .

دروس وعبر

١ - دخل رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مكة في جوار رجلٍ من أشرافها ، وهو القادر على أن
 يأمر ملك الجبال فيطبق على أهلها الأخشبيين عندما أرسله الله إليه ، إنها المفارقة العجيبة . قريش تريد

(٤٥١) - البداية والنهاية ط هجر (٤ / ٣٣٩) حسن

(٤٥٢) - أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء ووافقت إحداهما الأخرى رقم : ٣٢٣١ فتح

الباري : ٦ / ٣١٣ ، ٣١٢ ، مسلم في الصحيح كتاب الجهاد والسير باب ما لقي النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأصحابه من أذى

المشركين والمنافقين رقم : ١٧٩٥ .

أن تفتك به ، وهو يحمل لها في قلبه أملاً في أن يخرج الله تعالى من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً.

فأيّ درس يحمله هذا الموقف من النبيّ - صلى الله عليه وسلم - إلى الدعاة والمصلحين ، لا انتصار للنفس ، ولا تشفٍ من الخلق ، بل نصح وإرشاد ، وشفقة ومحبة.

٢ - لقد كان ثمرة الصبر واللجوء إلى الله سبحانه وتعالى سلسلة من الإكرامات التي أكرم الله بها رسوله - صلى الله عليه وسلم - :

أولها: إسلام عداس ذلك الغلام النصراني.

ثانيها: إرسال ملك الجبال إليه ليأمره بأمره في أعدائه لكنه - صلى الله عليه وسلم - صفح وصبر ورحمهم من الهلاك رغم كفرهم ، ورجا الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده وحده ، فصار منهم من عبد الله فضلاً عن ذرياتهم.

ثالثها: أن الله صرف له طائفة من الجن استمعوا قراءته وآمنوا بالله وصدقوا رسوله.

٣- أن في توجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الطائف بعد أن أعرض أهل مكة عنه ، دليلاً على حرصه - صلى الله عليه وسلم - على هداية الناس ، واستمراره في دعوته للإسلام ، وعدم اليأس من استجابة الناس.

٤- وهذه الرحلة تعلمنا كيفية التعامل مع الآخرين بالأخلاق الحسنة ، وذلك واضح من خلق العفو والصفح الذي واجه به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سادات ثقيف وسفاهها.

- وفي دعاء النبي - صلى الله عليه وسلم - دليل على الصدق في هذه الدعوة المباركة ، وأنه في وقت الشدائد والصعاب يكون الالتجاء لله عز وجل بهذا الدعاء ، ففيه استمداد القوة منه سبحانه ، وفيه الاستعانة بالله عند شدة الأذى ، وفيه الخوف من غضب الله وسخطه على العبد.

٥- وفي قصة عداس حيث أسلم على يد النبي - صلى الله عليه وسلم - كما رجحه بعض العلماء ، نتيجة إيجابية لهذه الرحلة ، حيث رجع النبي - صلى الله عليه وسلم - من الطائف وقد هدى الله عداساً على يديه.

٦— وإن المتأمل في هجرة النبي للطائف وما لاقاه من أذى السفهاء لعظة وعبرة للدعاة الذين يتأسون بسيرته - صلى الله عليه وسلم - ، فإذا كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - لقي ما لقي من المشاق في سبيل إقامة هذا الدين ، فمن باب أولى أن يلقي الدعاة مثل ذلك أو أشد .

وختاماً فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يستسلم لهذا الواقع الأليم ، بل صبر وصابر ، وواصل جهاده في الدعوة إلى الله ، فكان عاقبة صبره نصر من الله ، وفتح عظيم تتفياً الأمة ظلاله ، وتنعم بنوره إلى يومنا هذا ، وإلى يوم الدين .

الدرس السادس والأربعون

إسلام الجن وعودته إلى مكة

الحمد لله شهدت بوجوده آياته الباهرة، ودلت على كرم جوده نعمه الباطنة والظاهرة، وسبحت بحمده الأفلاك الدائرة، والرياح السائرة، والسحب الماطرة، هو الأول فله الخلق والأمر، والآخر فالإله الرجوع يوم الحشر، هو الظاهر فله الحكم والقهر، هو الباطن فله السر والجهر

وأشهد إن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفیه من خلقه وحبیبه

إذا سار سار النور معه، وإذا نام فيح الطيب مضجعه، وإذا تكلم كانت الحكمة مرفعه

هو المختار من البرايا هو الهادي البشير هو الرسول

عليه من المهيمن كل وقت صلاة دائما فيها القبول

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلى يوم الدين ونحن معهم يا أرحم الراحمين

حين انصرفه صلى الله عليه وسلم من الطائف، راجعا إلى مكة، وعند وادٍ في طريق مكة يسمى "نخلة" قام صلى الله عليه وسلم في جوف الليل يصلي، فأتاه سبعة من جن نصيبين، استمعوا لقراءته صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، فلما فرغ من صلاته، أعلنوا إيمانهم وإسلامهم، ثم انصرفوا إلى قومهم دعاة، يحملون الإسلام إليهم، ويوضحون تعاليمه ومزاياه

الجن يسلمون على يد النبي صلى الله عليه وسلم عند عودته من الطائف قال تعالى: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ

نَفْرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا} [الأحقاف: ٢٩].

سبحان الله ما أحسنهم أدبا! {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ} [الأعراف: ٢٠٤] ماذا؟ {فَاسْتَمِعُوا لَهُ}

[الأعراف: ٢٠٤] هذا من الأنفس.

{فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوُا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ} [الأحقاف: ٢٩] {قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى} [الأحقاف: ٣٠] سمع {سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ} [الجن: ١ - ٢].

إذاً في تلك الليلة أو في تلك الرحلة، إن لم تأت ثقيف فقد جاءت الجن وهم أحد الثقليين، والله تعالى يقول: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]، التقديم والتأخير في القرآن له دلالة فلماذا قدم الجن؟ {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ} [الذاريات: ٥٦] الإنس لا شك أنهم أفضل من الجن، ولكن قدم الجن لماذا؟ تقدم ذكر الجن مراعاة للتقدم التاريخي، لأن الجن أسبق في الوجود بالخلقة من الإنس.

ولذلك الملائكة لما عرض الله عليهم خلق آدم وقال: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ} [البقرة: ٣٠] من أين أتوا بهذا؟ لما رأوا من الجنّ والبن قبل الإنس من الإفساد في الأرض، قالوا: قد جربنا ونظرنا؛ {قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٣٠] فتقديم الجن هنا: لأنهم أسبق في الوجود.

إبليس كانوا يقولون له: عبد الله السجّاد، يقولون: ما من شبر في الأرض إلا وله فيه سجدة، لكن لما جاء آدم وجاء الحسد والتكبر، وكانت هذه سيئة، فترتبت عليها سيئة أكبر منها حتى طرد من رحمة الله.

إذاً: كان في تلك الرحلة والعودة منها: استجابة أحد الثقليين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وانطلاقهم دعاءً إلى الله، فأصبحت الرحلة كاسبة، لا كلفوه قتالاً ولا آذوه ولا شيء، بل إنه صلى الله عليه وسلم أخبر بليلة الجن فقال لصحبه: (الجن أحسن منكم استماعاً)، لأنه لما قرأ عليهم سورة الرحمن، كان كلما قرأ: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} قالوا: ولا بشيء من آلاء ربنا نكذب، ولما قرأها على المسلمين كانوا ساكتين، فقال لهم: (الجن أحسن منكم)، فهذه رحلة موفقة.

الرسول يُمنع من دخول مكة بعد عودته من الطائف

جاء الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مكة يريد أن يدخل، فمنع من ذلك؛ لأنه طلب من ثقيف أن يكتموا عنه فامتنعوا وأرسلوا لقريش بالخبر.

إذاً: قريش منعتة أن يدخل، يقولون: خرج ليستعين علينا بغيرنا والآن جاء! فلن يدخل مكة، حتى اضطره الحال أن يدخل في جوار رجل من أهل مكة.

الرسول صلى الله عليه وسلم سيد الخلق، وبالأمس كان معه ملك الجبال يمكن أن يطبق عليهم الأخشبيين، يمكن أن يدخلها بالقوة رغماً عنهم، ولكن تلتطف معهم وطلب جوار رجل منهم، ودخل في جوار رجل مشرك.

وقد ذكر الأموي في مغازيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أريقط إلى الأخنس بن شريق، فطلب منه أن يجيره بمكة، فقال: إن حليف قريش لا يجير على صميمها.

ثم بعثه إلى سيهل بن عمرو ليجيره فقال: إن بني عامر بن لؤي لا تجير على بني كعب بن لؤي.

فبعثه إلى المطعم بن عدي ليجيره فقال: نعم، قل له فليأت.

فذهب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فبات عنده تلك الليلة، فلما أصبح خرج معه هو وبنوه ستة أو سبعة متقلدي السيوف جميعاً، فدخلوا المسجد وقال لرسول الله

صلى الله عليه وسلم: طف.

واحتبوا بحمائل سيوفهم في المطاف.

فأقبل أبو سفيان إلى مطعم فقال: أمجير أو تابع؟ قال: لا بل مجير.

قال: إذا لا تخفر.

فجلس معه حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم طوافه، فلما انصرف انصرفوا معه.

وذهب أبو سفيان إلى مجلسه.

الدرس السابع والأربعون

الإسراء والمعراج

صحيح الإسراء والمعراج

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، الحمد لله العلي الأعلى الذي أنعم علينا بنعم لا تحصى، ودفع عنا من النقم ما لا يعد ولا يستقصى، سبحانه من إله عظيم، أسرى بعبده محمد -صلى الله عليه وسلم- من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وعرج به بصحبة جبريل الأمين إلى السماوات العلى، وأراه من آياته العظمى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا، قال وقوله الحق: **{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى}** [الإسراء: ١] وأشهد أن محمداً عبده ورسوله نبي الهدى وخير الورى، والشفيع يوم القيامة في كل من وحد الله واهتدى -صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الكرماء، وعلى التابعين لهم بإحسان ما دامت الأرض والسما، وسلم تسليماً.

أما بعد:

إخوة الإسلام حديثنا إليكم في هذا اللقاء نتحدث معكم عن صحيح قصة الإسراء و المعراج لان هناك احاديث كثيرة لا تصح في تلك القصة و في الصحيح غنية عن الضعيف فأعيروني القلوب و الأسماع عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما أن نبي الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة أسري به: (بينما أنا في الحطيم وربما قال في الحجر [عند البيت] مضطجعاً بين النائم واليقظان إذ أتاني آت وذكر يعني رجلا بين الرجلين فانطلق بي فقد قال وسمعتة يقول فشق ما بين هذه إلى هذه - وفي رواية: من النحر إلى مرق البطن- وفي أخرى: فشرح صدري إلى كذا وكذا (قال قتادة: فقلت للذي معي: ما يعني؟ قال: إلى أسفل بطنه)، فاستخرج قلبي [ثم غسل البطن بماء زمزم] ثم أتيت بطست من ذهب [فيها من ماء زمزم] مملوءة [حكمة و] إيمانا فغسل قلبي ثم حشي [إيمانا وحكمة] ثم أعيد [مكانه] ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض (فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم؛ يضع خطوه عند أقصى طرفه)، فحملت عليه.

فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به؛ فنعم المجيء جاء. ففتح فلما خلصت فإذا

فيها آدم [عليه السلام] فقال: هذا أبوك فسلم عليه. فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحباً بالابن الصالح والنبيّ الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به؛ فنعم المجيء جاء. ففتح فلما خلصت إذا يحيى وعيسى بن مريم، وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما. فسلمت فردا ثم قالاً مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح.

ثم صعد بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به؛ فنعم المجيء جاء. ففتح فلما خلصت إذا يوسف [عليه السلام] قال: هذا يوسف فسلم عليه. فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح. ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة، فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به؛ فنعم المجيء جاء. ففتح فلما خلصت إلى إدريس [عليه السلام] قال: هذا إدريس فسلم عليه. فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به؛ فنعم المجيء جاء. فلما خلصت فإذا هارون قال: هذا هارون فسلم عليه. فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة، فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به؛ فنعم المجيء جاء. فلما خلصت فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلم عليه. فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح. فلما تجاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال [يا رب!] أبكي لأن غلاماً - وفي رواية: هذا الغلام الذي - بُعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر [وأفضل] ممن يدخلها من أمتي.

ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به؛ فنعم المجيء جاء. فلما خلصت فإذا إبراهيم قال: هذا أبوك [إبراهيم] فسلم عليه. قال: فسلمت عليه، فرد السلام قال: مرحباً بالابن الصالح والنبيّ الصالح.

ثم رفعت لي سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر وإذا ورقها مثل آذان الفيلة. قال: هذه سدرة المنتهى. وإذا [في أصلها] أربعة أنهار؛ نهران باطنان ونهران ظاهران. فقلت: ما هذان يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات.

ثم رفع لي البيت المعمور [فقلت: يا جبريل! ما هذا؟ قال: هذا البيت المعمور] يدخله - وفي رواية: يصلي فيه - كل يوم سبعون ألف ملك [إذا خرجوا] [منه] [لم يعودوا إليه آخر ما عليهم] ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل فأخذت اللبن فقال [أصبت أصاب الله بك] هي الفطرة، أنت عليها وأمتك.

ثم فرضت علي الصلوات خمسين صلاة كل يوم، فرجعت فمررت على موسى، فقال: بم أمرت؟ قال: أمرت بخمسين صلاة كل يوم. قال: أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك. فرجعت فوضع عني عشراً [فجعلها أربعين] فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فوضع عني عشراً [فجعلها عشرين] فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت فقال مثله فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم فرجعت إلى موسى فقال: بما أمرت؟ قلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك قال سألت ربي حتى استحيت [أَنْ أَرْجِعَ إِلَيْهِ] - وفي رواية: مِنْ كَمْ أَرْجِعُ إِلَيْهِ - ولكن أَرْضَى وَأَسْلَم - وفي رواية: سلمت بخير - قال: فلما جاوزت نادى مناد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي [وأجزى الحسنه عشراً] - وفي رواية: عَشْرَ أَمْثَالِهَا. (٤٥٣)

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لما كان ليلة أسري بي ثم أصبحت بمكة. قال: قطعت - وفي رواية: فطعت - بأمرى، وعرفت أن الناس مكذبي.

قال: فقعدت معتزلاً حزيناً، فمر بي عدو الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزئ:

هل كان من شيء؟

قال: نعم.

قال: ما هو؟

قال: إني أسري بي الليلة.

قال: إلى أين؟

(٤٥٣) - أخرجه أحمد (٢٠٨/٤، رقم ١٧٨٦٩)، والبخاري (١٤١٠/٣، رقم ٣٦٧٤)، ومسلم (١٤٩/١، رقم ١٦٤)، والنسائي في الكبرى (١٣٨/١، رقم ٣١٣).

قال: إلى بيت المقدس.

قال: ثم أصبحت بين أظهرنا؟!

قال: نعم.

قال: فلم ير أنه يكذبه مخافة أن يجحد الحديث إن دعا له قومه، قال: إن دعوت إليك قومك أتحدثهم؟

قال: نعم.

قال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي.

قال: فانتفضت إليه المجالس فجاؤوا حتى جلسوا إليهما، قال: حدث قومك ما حدثتني.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنني أسري بي الليلة.

قالوا: إلى أين؟

قال: إلى بيت المقدس.

قال قالوا: ثم أصبحت بين أظهرنا!!

قال: نعم.

فمن بين مصدق - وفي رواية: مصفق - ومن بين واضح يده على رأسه للكذب، قال: وفي القوم من سافر

إلى ذلك البلد ورأى المسجد. قال: قالوا: هل تستطيع أن تنعت لنا المسجد؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فذهبت أنعت لهم، فما زلت أنعت حتى التبس علي بعض النعت.

قال: فجيء بالمسجد حتى وضع [وأنا أنظر] حتى وضع [دون دار عقال أو عقيل]

قال: فنعت المسجد وأنا أنظر إليه. قال: وقد كان مع هذا حديث فنسيته أيضاً. قال القوم: أما النعت

[فوالله لقد] أصاب. (٤٥٤)

(٤٥٤) - سنن النسائي الكبرى - ترقيم شعيب (٣٧٧/٦)

الدرس الثامن والأربعون

دروس عقديّة من رحلة الإسراء والمعراج

الحمد لله الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عرج به إلى الأفق الأعلى إلى سدرة المنتهى، مخترقا أجواء الفضاء العلي، حتى كان قاب قوسين أو أدنى من عرش الله الأسمى، ليرى من آيات الله الكبرى، ويطلع على ملكوته العظمى وأشهد أن لا إله إلا الله الذي يعلم السر وأخفى، وأحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا، وأنعم على عباده بآلاء لا تحصى، فبأي آلاء ربك تتماهى؟ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أفضل هذه الأمة جهاداً وفداءً، وأعظمها قدوةً واصطفاءً، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين ضربوا أروع الأمثلة صفاءً ووفاءً وطهراً ونقاءً، والتابعين ومن تبعهم وسار على نهجهم اهتداءً واقتداءً واقتفاءً، صلاة لا تطاولها أرضٌ أرضاً ولا سماءٌ سماءً، وسلم تسليماً يزيد بهجةً وبهاءً ونوراً وضياءً وبركةً وثناءً.

إخوة الإسلام: إن قصة الإسراء والمعراج بها عديد من الدروس سواء كانت عقديّة او أخلاقيّة و اليوم نستلهم منها الدروس العقديّة الخاصّة بعقيد المسلم فأعيروني القلوب و الأسماع
أولاً: وجوب الإيمان بوقع الإسراء والمعراج إذ منكرهما منكر لمعجزة ثابتة بالكتاب والسنة:

اعلم بارك الله فيك أن الإيمان بالإسراء والمعراج جزء من الإيمان بالله تعالى إذ أن الله تعالى قد اخبرنا بقصة الإسراء والمعراج في القرآن الكريم و على لسان نبيه الأمين فلا ينكر الإسراء والمعراج إلا جاحد لكتاب الله تعالى و سنة نبيه - صلى الله عليه و سلم-
إن من أنكر الإسراء والمعراج، فإنه ينكر شيئاً ثابتاً في القرآن، وهناك قاعدة معروفة صحيحة يجب أن نعرفها جميعاً، وهي أن من أنكر شيئاً ثبت في القرآن فإنه كافر، وكذلك في السنة.

وأما دلالات الآيات التي في القرآن فقد تختلف، وأعظم دليل على الاختلاف اختلاف أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن وهم أفضل الناس عقلاً وفهماً فقلوه سبحانه: ((مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ)) [آل عمران: ٧] هذه آية واضحة وجلية لا نقاش فيها ولا خلاف، ((وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ)) [آل عمران: ٧]

فمذهب أهل السنة والجماعة ما عليه السلف: هو الإيمان والتصديق بالمحكم، والإيمان بالمتشابه ورده إلى المحكم

ما الذي ذكره الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في القرآن صريحاً؟ وما الذي ذكره ضمناً؟ فالإسراء ذُكِرَ صريحاً ((سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ)) [الإسراء: ١] إذاً لو أن أحداً أنكر الإسراء فإنه يكفر رأساً، لأنه بمجرد أن يقرأ الآية أو يسمعها يفهم دلالتها، فيكون منكر الإسراء كافراً.

وإنما حصل الخلاف والإشكال فيمن ينكر المعراج، لأن الدلالة ليست جلية، وهذا يستلزم منا أن نجلبها وأن نوضحها من خلال سورة النجم، فمنها نستطيع أن نبين هذه الحقيقة، فتصبح أيضاً يدل عليها القرآن دلالة لا شك فيها ولا شبهة، فقله سبحانه: ((وَلَقَدْ رَأَوْا نَزْلَةَ أُخْرَى)) [النجم: ١٣] أين رآه؟ ((عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى)) [النجم: ١٤-١٧].

فجملة ((مَا زَاغَ الْبَصَرُ)) تبين أن العروج ليست بمجرد الروح كما يقولون، بل هي حقيقة واضحة ببصره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى تلك الآية الكبرى التي أراه الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- في ذلك الموضع، فنستطيع أن تجلي دلالة القرآن فتكون دلالة صريحة، ثُمَّ نُؤَيِّدُ ذَلِكَ بِالْأَحَادِيثِ الْكَثِيرَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ الَّتِي تَثَبَّتْ الْإِسْرَاءُ وَالْمِعْرَاجُ، فنقول: إن من أنكر المعراج فهو أيضاً كافر بعد بيان الحجة عليه. (٤٥٥)

وأجمعوا على الإيمان بالإسراء والمعراج، وأنه حق وصدق، والحق عند أهل السنة - إن اعتبرنا بعض الخلاف - أنه كان بروحه وجسده، وأنه كان يقظة لا مناما، وأنه كان مرة واحدة. (٤٥٦)

والمعراج حق وقد أسرى بالنبى صلى الله عليه وسلم وعرج بشخصه في اليقظة إلى السماء ثم إلى حيث شاء الله من العلا وأكرمه الله بما شاء وأوحى إليه ما أوحى (ما كذب الفؤاد ما رأى) ف صلى الله عليه وسلم في الآخرة والأولى (٤٥٧)

ثانياً: إثبات صفة العلو للعلي جل جلاله

كان الهدف الاسمي و الجائزة الكبر من قصة المعراج الى السماء هو لقاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - برب العزة - جل جلاله - فأسعد اللحظات إلى قلب النبي - صلى الله عليه وسلم -، حينما تشرف بلقاء الله والوقوف بين يديه ومناجاته، لتتصاغر أمام عينيه كل الأهوال التي عايشها، وكل المصاعب التي مرت به، وهناك أوحى الله إلى عبده ما أوحى، وكان مما أعطاه خواتيم سورة البقرة،

(٤٥٥) - موقع سفر الحوالي

(٤٥٦) - الإجماع العقدي (ص: ٥١)

(٤٥٧) - العقيدة الطحاوية (ص: ٢٩)

وغفران كبائر الذنوب لأهل التوحيد الذين لم يخلطوا بإيمانهم بشرك، ثم فرَضَ عليه وعلى أمته خمسين صلاة في اليوم واللييلة.

وهناك أدلة كثيرة من القرآن والسنة تدل على هذه الصفة نذكر منها:

١- الأسماء الحسنى الدالة على جميع معاني العلو له سبحانه مثل:

(الأعلى؛ العلى؛ المتعال؛ الظاهر؛ القاهر)

١- اسم الأعلى: قال تعالى {سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [الأعلى: ١]

٢- اسم العلى: قال تعالى {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة: ٢٥٥] {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا} [النساء: ٣٤]

٣- اسم المتعال: قال تعالى {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} [الرعد: ٩]

٤- اسم القاهر: قال تعالى {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} [الأنعام: ١٨]

٥- اسم الظاهر: قال تعالى {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ} [الحديد: ٣]

الدليل على اسم الظاهر من السنة قول النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه:

(وأنت الظاهر فليس فوقك شيء) (٤٥٨)

وهذه الأسماء تدل على معاني العلو جميعها (ذاتا وقهرا وشأنا)

ومن ذلك التصريح بالفوقية لله عز وجل:

قال تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} [الأنعام: ١٨]

وقال تعالى: {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ} [النحل: ٥٠]

وقال تعالى: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ} [الملك: ١٦]

الدليل على الفوقية من السنة:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كانت زينب بنت جحش تفخر على أزواج النبي صلى الله عليه

وسلم تقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات (٤٥٩)

وعن معاوية ابن الحكم السلمي قال: قلت يا رسول الله كانت لي جارية ترعى غنيمات لي من قبل أحد

والجوانيه وإنني أطلعتها يوما إطلاعه فوجدت ذئبا قد ذهب منها بشاة وأنا من بنى آدم آسف كما يأسفون

فصككتها صكة فعظم ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت ألا أعتقها فقال ادعها إلي

(٤٥٨) - أخرجه أحمد (٣٨١/٢) والبخاري في الأدب المفرد (١٢١٢). ومسلم (٧٨/٨، ٧٩)

(٤٥٩) - أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التوحيد ٤١٥/١٣، باب وكان عشره على الماء وهو رب العرش العظيم، فتح الباري رقم

٧٤٢٠، وأخرجه أحمد ٢٢٦/٣، والنسائي ٦٥/٦، والترمذي ٣٢١٣، وابن سعد ١٠٦/٨، وأبو نعيم في الحلية ٥٢/٢، وابن قدامة

ص ١٠٨ رقم ٨١ في إثبات صفة العلو.

فقال لها أين الله ؟

قالت الله في السماء

قال فمن أنا ؟

قالت أنت رسول الله

قال اعتقها فإنها مؤمنة (٤٦٠)

دليل العروج:

قال تعالى: { مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ } [المعارج: ٣، ٤]

ثالثاً: إثبات صفة الكلام لرب الأنام

فقد من الله تعالى على نبيه - صلى الله عليه وسلم بالكلام دون حجاب فقد روى ذلك في الاحاديث الصحاح في الحديث { فَرَجَعْتُ فَمَرَرْتُ عَلَى مُوسَى فَقَالَ: بِمَا أُمِرْتُ ؟

قَالَ: أُمِرْتُ بِخَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ وَإِنِّي وَاللَّهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ فَارْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، فَرَجَعْتُ، فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَيَّ مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ... فَارْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ قَالَ: سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ وَلَكِنِّي أَرْضَى وَأَسْلَمُ. (٤٦١)

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - : هذا من أقوى ما استدلل به على أن الله سبحانه وتعالى كلم نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء بغير واسطة. (٤٦٢)

وقال ابن كثير - رحمه الله - : (مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهَ) يعني: موسى ومحمداً صلى الله عليه وسلم، وكذلك آدم، كما ورد به الحديث المروي في " صحيح ابن حبان " عن أبي ذر رضي الله عنه.

(وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ) كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبي صلى الله عليه وسلم الأنبياء في السموات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل. (٤٦٣)

قال الشيخ عبد الرحمن المحمود - حفظه الله - :

(٤٦٠) - أخرجه مسلم (٥٣٧) ، وأبو داود (٩٣٠) ، والنسائي: (١٢١٨) ، وأحمد في مسنده: (٤٤٧ / ٥) .

(٤٦١) - رواه البخاري (٣٦٧٤) ومسلم (١٦٢) .

(٤٦٢) - " فتح الباري " (٢١٦ / ٧) .

(٤٦٣) - " تفسير ابن كثير " (١ / ٦٧٠) .

ولعل العلة -والعلم عند الله سبحانه وتعالى -في تسمية موسى " كلِيم الله " مع أن الله كَلَّمَ مُحَمَّدًا وَكَلَّمَ آدَمَ: أن الله كَلَّمَهُ عَلَى الْأَرْضِ وَهُوَ عَلَى طَبِيعَتِهِ الْبَشَرِيَّةِ ، بخلاف تكليم الله لآدم فإنه كَلَّمَهُ وَهُوَ فِي السَّمَاءِ ، وَتَكْلِيمَ اللَّهِ لِمُحَمَّدٍ فَإِنَّهُ كَلَّمَهُ وَقَدْ عَرَجَ بِرُوحِهِ وَجَسَدِهِ إِلَى السَّمَاءِ ، أما تكليمه لموسى : فهو على الأرض ، وهذا فيه خصوصية لموسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم.(^{٤٦٤})

ففي هذا إثبات صفة الكلام لرب الأنام -جل جلاله - كما ثبت في القرآن الكريم وعن نبينا الكريم -صلى الله عليه وسلم-

تكليم الله-تعالى -آدم -عليه السلام -.

عن أبي أمامة أن رجلا قال: يا رسول الله أنبييُّ كان آدم؟ قال: (نَعَمْ مُكَلَّمٌ) قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: (عَشْرَةَ قُرُونٍ).(^{٤٦٥})

تكليم الله تعالى - موسى -عليه السلام -.

قال تعالى (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) النساء/ ١٦٤ ، وقال عز وجل (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ) الأعراف/ ١٤٣ ، وقال سبحانه (يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلامِي) الأعراف/ ١٤٤ .

رابعا: إثبات وجود الجنة والنار

اعلم بارك الله فيك أن من المتفق عليه عند الجمهور أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان وهما باقيتان ، وأن الله تعالى قد أعدهما وهياًهما ليكونا مستقراً لعباده ، الجنة لأهل الطاعة والإيمان . والنار لأهل الكفر والعصيان .

يقول ابن القيم: «لم يزل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون وتابعوهم وأهل السنة والحديث قاطبة وفقهاء الإسلام وأهل التصوف والزهد على اعتقاد ذلك وإثباته مستنديين في ذلك إلى نصوص الكتاب والسنة وما علم بالضرورة من أخبار الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم فإنهم دعوا الأمم أليها وأخبروا بها ، إلى أن نبغت نابغة من القدرية والمعتزلة فأنكرت أن تكون مخلوقة الآن وقالت بل الله ينشئها يوم القيامة وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة الله فيما يفعله» (^{٤٦٦})

(^{٤٦٤}) - " تيسير لمعة الاعتقاد " (ص ١٥٢) -

(^{٤٦٥}) - رواه ابن حبان في " صحيحه " (١٤ / ٦٩) وصححه شعيب الأرنؤوط محقق الكتاب .

(^{٤٦٦}) - حادي الأفراح إلى بلاد الأفراح ، لابن القيم ، بتحقيق: الدكتور السيد الجميلي ، الباب الأول: في بيان وجود الجنة ، ص: ٣٧ .

ويقول ابن حزم: «ذهبت طائفة من المعتزلة والخوارج إلى أن الجنة والنار لم يخلقها بعد وذهب جمهور المسلمين إلى أنهما قد خلقتا وما نعلم لمن قال أنهما لم يخلقاً». (٤٦٧)

ولقد تضافرت نصوص القرآن والسنة على إثبات ما ذهب جمهور المسلمين من كون الجنة والنار مخلوقتين الآن فالله تعالى يقول في شأن الجنة: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة آل عمران. آية ١٣٣]،

ويقول تعالى ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [سورة الحديد. آية ٢١]،

وغير ذلك من الآيات التي تدل على أن الجنة مخلوقة موجودة الآن. وقد عبر القرآن بصيغة الماضي في قوله (أعدت) وهذا التعبير يفيد أنها مخلوقة موجودة وفي قصة المعراج يقول تعالى ﴿ وَلَقَدْ رَأَىٰ نَزْلَةَ أُخْرَىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ [سورة النجم. آية ١٣ -

[١٦]

مما يفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى سدره المنتهى ورأى عندها جنة المأوى كما في حديث أبي رضي الله عنه في قصة الإسراء حيث يقول في آخره: «ثم أنطلق بي جبريل حتى انتهى بي إلى سدره المنتهى وغشيها ألوان لا أدري ما هي؟ ثم دخلت الجنة فإذا فيها جناز اللؤلؤ وإذا ترابها المسك». (٤٦٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فاقروا إن شئتم (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين). (٤٦٩)

ورأى شجرة الرقوم التي وصفها الله تعالى بقوله: ﴿ والشجرة الملعونة في القرآن ﴾ (الإسراء: ٦٠)، وقوله: ﴿ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم، طلعتها كأنه رءوس الشياطين ﴾ (الصفات: ٦٤ - ٦٥). ورأى مالكا خازن النار

يقول الإمام البربهاري (والإيمان بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم اسرى به إلى السماء وصار إلى العرش وسمع كلام الله ودخل الجنة واطلع في النار ورأى الملائكة وسمع كلام الله عز وجل) (٤٧٠)

(٤٦٧) - لفصل الملل والأهواء والنحل، لابن حزم، الكلام في خلق الجنة والنار، ٨١ / ٤، دار الفكر، ١٤٠٠هـ،

(٤٦٨) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ذكر إدريس عليه السلام، ص: ٥٥٦، رقم الحديث: ٣٣٤٢.

(٤٦٩) - البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، ص: ٥٤١، رقم الحديث: ٣٢٤٤

(٤٧٠) -- شرح السنة - البربهاري (ص: ٣٦)

خامسا: إثبات الحياة البرزخية

و من الدروس و العبر المستفادة من قصة الإسراء و المعراج إثبات عذاب القبر و الإيمان به واجب و منكرة كافر لان الأدلة عليه كثيرة من القران و من سنة النبي-العدنان - صلى الله عليه وسلم- و قد شاهد النبي -صلى الله عليه وسلم- مشاهد من الحياة البرزخية و قبل أن نذكرها أذكركم ببعض الأدلة على إثبات تلك الحياة

الدليل الأول قوله تعالى: **{ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ } [غافر: ٤٦]** والمعنى المقصود أنهم يعرضون على النار فيصلهم من سمومها وعذابها كل يوم مرتين، وقد دلّ العطف في قوله: **{ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ }** أن عرضهم على النار حاصل قبل يوم القيامة، الأمر الذي يثبت وجود الحياة البرزخية ومباينتها لعالم الآخرة.

الدليل الثاني قوله تعالى: **{ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ } [التوبة: ١٠١]**، والمعنى أن الله سبحانه وتعالى كتب على أولئك المنافقين أن يُعذبوا مرتين، إحداهما في إحداهما في الدنيا، والأخرى في القبر، وهذا الذي اختاره الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره حيث قال: " قوله جل ثناؤه: **{ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ }**، دلالة على أن العذاب في المرتين كليهما قبل دخولهم النار. والأغلب من إحدى المرتين أنها في القبر" وقد أورد كلاماً لقتادة ومجاهد والحسن رحمهم الله يدل على هذا المعنى.

الدليل الثالث قوله تعالى: **{ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ } [إبراهيم: ٢٧]**، ودلالته على الحياة البرزخية مأخوذ من حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (المسلم إذا سئل في القبر، يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فذلك قوله: **{ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ }**) متفق عليه^(٤٧١)، ومعلوم أن سؤال الملكين هو أحد مشاهد عالم البرزخ.

الدليل الرابع قوله تعالى: **{ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } [طه: ١٢٤]**، والآية تبين أن جزاء المعرضين عن الدين والغافلين عن الذكر العقوبة بضنك العيش، والعطف في قوله تعالى: **{ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى }** يؤكد أن هذا الضنك حاصل قبل يوم القيامة، والحياة البرزخية داخلية في هذا الإطلاق، ويدل على هذا الدخول أن النبي -صلى الله عليه وسلم- فسّر

^(٤٧١) - أخرجه أحمد (٢٨٢/٤، رقم ١٨٥٠٥)، والبخاري (١٧٣٥/٤، رقم ٤٤٢٢)، ومسلم (٢٢٠١/٤، رقم ٢٨٧١)

هذه الآية بعذاب القبر وذلك في قوله: (ثم يضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه فتلك المعيشة الضنكة التي قال الله: { فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا } (٤٧٢))

وليس في ذلك حصرٌ لمعنى الآية وقصره على عذاب القبر فالآية أعم من ذلك.

الدليل الخامس: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر النبي -صلى الله عليه وسلم- بحائط من حيطان المدينة أو مكة، فسمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يعذبان، وما يعذبان في كبير)، ثم قال: (بلى)، كان أحدهما لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة). ثم دعا بجريدة، فكسرها كسرتين، فوضع على كل قبر منهما كسرة، ف قيل له: يا رسول الله، لم فعلت هذا؟ قال: (لعله أن يخفف عنهما ما لم تيبسا) أو: (إلى أن ييبسا) (٤٧٣)

والشاهد أن الحديث يُثبت عذاب القبر الحاصل في الحياة البرزخية.

الدليل السادس: عن عائشة رضي الله عنها قالت: " دخلت عليّ عجوزان من عُجَز يهود المدينة، فقالتا: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم، فكذبتهما ولم أنعم أن أصدقهما، فخرجتا، ودخل عليّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالت له: يا رسول الله إن عجوزين من عُجَز يهود المدينة دخلتا علي، فزعمتا أن أهل القبور يعذبون في قبورهم، فقال: (صدقتا، إنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم)، تقول عائشة رضي الله عنها: فما رأيته، بعد في صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر " (٤٧٤)

الدليل السابع: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال) (٤٧٥).

أما أقوال الأئمة في إثبات عذاب القبر فكثيرة جداً، وقد اتفقت كلمة فقهاء المذاهب الأربعة على إثبات عذاب القبر أو نعيمه، كما أن لشيخ الإسلام ابن تيمية أقول كثيرة تؤكد هذا الأمر ومن ذلك قوله: "ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم مما يكون بعد الموت، فيؤمنون بفتنة القبر وبعذاب القبر ونعيمه" (٤٧٦)

رؤية النبي -صلى الله عليه وسلم- للمنعمين والمعذبين ليلة الإسراء والمعراج

(٤٧٢) - صحيح ابن حبان - محققاً (٣٨٢/٧) وأخرجه عبد الرزاق "٦٧٠٣"، وابن أبي شيبة "٣٨٣/٣-٣٨٤"،

(٤٧٣) - أخرجه ابن أبي شيبة (١١٥/١)، رقم (١٣٠٤)، وأحمد (٢٢٥/١)، رقم (١٩٨٠)، والبخاري (٨٨/١)، رقم (٢١٥)، ومسلم (٢٤٠/١)،

رقم (٢٩٢)

(٤٧٤) - أخرجه البخاري في: ٨٠ كتاب الدعوات: ٣٧ باب التعوذ من عذاب القبر

(٤٧٥) - أخرجه ابن أبي شيبة (٤٨٩/٧)، رقم (٣٧٤٦٢)، وأحمد (٤٧٧/٢)، رقم (١٠١٨٣)، ومسلم (٤١٢/١)، رقم (٥٨٨)

(٤٧٦) - مجموع الفتاوى ١٤٥/٣

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: رَأَيْتُ مُوسَى يَصَلِّي فِي قَبْرِهِ لَيْلَةَ أُسْرِي (بِي) (٤٧٧)

وعن أنس -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويتبعون في أعراضهم !)) (٤٧٨)

عَنْ سَمْرَةَ بِنْتِ جُنْدُبٍ، قَالَ: قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي رَجُلًا يَسْبُحُ فِي نَهْرٍ وَيُلْقِمُ الْحَجَارَةَ، فَسَأَلْتُ مَا هَذَا، فَقِيلَ لِي: آكِلُ الرَّبَا " (٤٧٩)

عن ابن عباس أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "مررت ليلة أسري بي برائحة طيبة، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ فقال: هذه ماشطة ابنة فرعون كانت تمشطها، فوقع المشط من يدها، فقالت: بسم الله. فقالت ابنة فرعون: أبي؟ فقالت: ربي وربك ورب أبيك. قالت: أقول له؟ قالت: قولي. فقالت: فقال لها: ألك من رب غيري؟ قالت: ربي وربك الذي في السماء. قال: فأحمى لها بقرة من نحاس؟ وقالت له: لي إليك حاجة. قال: وما حاجتك؟ قالت: حاجتي أن تجمع بين عظامي وبين عظام ولدي. قال: ذلك لك، لما لك علينا من الحق. فألقاها وولدها في البقرة واحدا واحدا، وكان لها صبي فقال: يا أمته فاصبري، فإنك على الحق". قال ابن عباس: أربعة تكلموا وهم صغار: ابن ماشطة فرعون، وصبي جريج، وعيسى بن مريم، والرابع لا أحفظه (٤٨٠).

الدرس التاسع والأربعون

(٤٧٧) - مسند البزار (١١٩/١٤)

(٤٧٨) - أخرجه أحمد (٢٢٤/٣) وأخرجه: أبو داود (٤٨٧٨) و(٤٨٧٩).

(٤٧٩) - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٩١/٤)، رقم ٥٥٠٩. وأخرجه أيضاً: أحمد (١٠/٥)، رقم ٢٠١١٣

(٤٨٠) - أخرجه أحمد ٣١٠/١، والبيهقي في "دلائل النبوة" ٣٨٩/٢

دروس تربوية وأخلاقية ودعوية من الإسراء والمعراج

الحمد لله فالتق الحبيب والنوى وخالق العبد وما نوى المطلع على باطن الضمير وما حوى بمشيئته رشد من رشد وغوى من غوى وبإرادته فسد ما فسد واستوى ما استوى صرف من شاء إلى الهدى وعطف من شاء إلى الهوى قرب موسى نجياً وقد كان مطوباً من شدة الطوى فمنحه فلاحاً وكلمه كفاحاً وهو بالواد المقدس طوى وعرج بمحمد إليه فرآه بعينيه ثم عاد وفرأه ما انطوى فأخبر بقربه من ربه وحدث بما رأى وروى فأقسم على تصديقه من حرسه بتوقيفه عن قوى **{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢)}** **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى { [النجم: ١ - ٣]** أحمدته على صرف الهم والجوى حمد من أناب وارغوى.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فيما نشر وطوى وأن محمدا عبده ورسوله أرسله وعود الهدى قد نوى فسقاه ماء المجاهدة حتى ارتوى {صلى الله عليه وسلم} وعلى أبي بكر الصديق صاحبه إن رحل أو ثوى وعلى الفاروق الذي وسم بجده جبين كل جبار وكوى وعلى ذي النورين الصابر على الشهادة ساكناً ما التوى وعلى علي الذي زهد في الدنيا فباعها وما احتوى وعلى عمه العباس الذي منع الله به الخلافة عن غير نبيه وزوى.

ثم أما بعد:

أولاً: أن في المحن منح وأن الفرج مع الكرب

اعلم علمني الله وإياك: أنه توالى على رسول الله قبيل حادثة الإسراء والمعراج الحوادث والأزمات الكثيرة، فإلى جانب ما كان يلاقيه من عنتٍ وعذاب الكفار له وتصديهم لدعوته وإنزال الأذى والضرر به وبمن تبعوه، فقد نصيراً وظهيراً له هو عمه أبو طالب، وكذلك فقد شريكة حياته وحامية ظهره السيدة خديجة التي كانت له السند والعون على تحمّل الصعاب والمشقات في سبيل تبليغ دعوته السامية، فكلاهما مات قبيل حادثة الإسراء والمعراج؛

ومن هنا كان إنعام الله على عبده ورسوله محمد بهذه المعجزة العظيمة؛ تطيباً لخاطره وتسرية له عن أحزانه وآلامه... ثم ليشهد فيها من عجائب المخلوقات وغرائب المشاهد.

ماذا قال في الطائف؟ صدقوا أنه ما من دعاء ينطبق على المسلمين اليوم كهذا الدعاء،

((اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا رب المستضعفين))^(٤٨١)

^(٤٨١) - أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد»، ج ٦ / ٣٥. وأخرج مسلم برقم (١٧٩٥ / ١١١) بعضه. عن عائشة رضي الله عنها.

والله الأمة الإسلامية بأكملها، المليار وخمسمئة مليون مسلم، بدءاً من قاعدتها إلى قممها، لا وزن لها في الأرض، بأي شيء لا يعبأ بها، ولا باحتجاجها، ولا بغضبها، ولا بتنديدها، كأنها غير موجودة، مع أن الثروات عندها، والموقع الاستراتيجي عندها، وبيدها خيارات لا تعد ولا تحصى، ولكن ففتوها، وجزئوها، وجعلوها مشرذمة، هذا الذي حصل.

((اللهم إنني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، يا رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى صديق يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟ اللهم إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولك العتبي حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي)) (٤٨٢)

فكافأه الله تعالى بما يلي:

١- استجابة عبد يسمى عداس إلى الإسلام بعد رفض الكثير له، وهداية واحد خير من الدنيا وما عليها.
٢- ساق الله إليه نفرًا من الجن يستمعون القرآن وأحسنوا الاستماع والإنصات ثم فهموا واجبهم فولوا إلى قومه منذرين.

٣- استجابة ستة من أهل يثرب هم طلائع الدعوة في المدينة المنورة والتمكين للإسلام في الأرض، ومنهم أسعد بن زرارة وعوف بن الحارث، ورافع بن مالك، وقطبة بن عامر وعقبة بن عامر، وجابر بن عبد الله، هذا بعد أن رفضت كل القبائل الأخرى منهم بنو كلب وبنو حنييفة، وبنو عامر بن صعصعة وفزارة وغسان دمرة وسليم وعيس وبنو نضر وكندة وعذرة والحضارمة. وهؤلاء كانوا نواة الدعوة التي نشرت الإسلام في يثرب وتحولت بهم الجماعة الإسلامية المطاردة في مكة إلى دولة ذات عز وتمكين في المدينة المنورة.

٤- عدد من أشرف قبائلهم وقومهم منهم سويد بن الصامت الشاعر وإياس بن معاذ وأبو ذر الغفاري والطفيل بن عمرو الدوسي سيد قبيلة دوس.

٥- الإسراء إلى بيت المقدس والمعراج إلى الملأ الأعلى فدنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى.

ثانياً: العبودية أعلى مقام للبشر

اعلم زادك الله علماً: أن من علو قدر النبي - صلى الله عليه وسلم - عند ربه أن الله تعالى لا يخاطبه باسمه وإنما يخاطبه بوصف النبوة والرسالة بقوله: **(يا أيها النبي)**، و **(يا أيها الرسول)** وإنما ذكر اسمه الشريف في خمسة مواضع من القرآن الكريم جاءت بصيغة الإخبار لا الإنشاء، قال تعالى: **(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ)**، وقال: **(وَمُبَشَّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)** ولكن في آية الإسراء وصفه بوصف آخر، ألا وهو: وصف العبودية.

(٤٨٢) - أوردته الهيئتي في «مجمع الزوائد»، ج ٦ / ٣٥. وأخرج مسلم برقم (١٧٩٥ / ١١١) بعضه. عن عائشة رضي الله عنها.

وحكمة ذلك والله اعلم أنّ الإنسان الذي أسري به هو بشرٌ مثلكم وهو محمد بن عبد الله -صلى الله عليه وسلم - وليخبرنا الله تعالى لو أن نبيكم رفع إلى السماء أو مشى على الماء أو طار في الهواء فهو عبد يتشرف بنسبته إليّ، ولا ينبغي لأحد أن يتعالى ويدّعي مقاما فوق الخلق فلا تضل به أمته فتجعله إلها يُعبد حاشاه عن ذلك، كما ضلت أمة المسيح حيث ادّعته إلهاً.

وليثبت لنا أن العبودية له هي أسمى المراتب التي يصل إليها الإنسان.. فالعبودية لله عزّة ما بعدها عزّة.. وعطاء ما بعده عطاء

إذن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفت أنظارنا إلى (أنّ العبودية له هي أعلى وسام ينعم الله به على الفرد، قال تعالى: **{دُرِّيَّةٌ مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا}** [الإسراء: ٣]، وقال عن أيوب عليه الصلاة والسلام: **{إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}** [ص: ٤٤] ألا ترى أنه لما ذكر موسى عليه السلام عند المناجاة باسمه فقال: **{وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ}** [الأعراف: ١٤٣]

قال أبو حيان: (لو كان لرسول الله -صلى الله عليه وسلم - اسمٌ أشرف منه لسماه به في تلك الحالة) (٤٨٣)

قال ابن عجيبة: (العبودية أشرف الحالات وأرفع المقامات، بها شرفٌ من شرفٍ، وارتفع من ارتفع، عند الله، وما خاطب الله أحبائه إلا بالعبودية، فقال تعالى: **{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا}** [الإسراء: ١]، وقال: **{وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ}** [ص: ٤٥]، **{وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ}** [ص: ١٧]، **{وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ}** [ص: ٤١]، **{نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}** [ص: ٣٠]... إلى غير ذلك). (٤٨٤)

ثالثاً: الثبات على الحق والتزام المبدأ

ويتضح ذلك من المشهد الذي رآه النبي صلى الله عليه وسلم لما شطت ابنة فرعون، عن ابن عباس قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "لما كانت الليلة التي أسري بي فيها، أتت على رائحة طيبة، فقلت: يا جبريل، ما هذه الرائحة الطيبة؟، فقال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها، قال: قلت: وما شأنها؟، قال: بينا هي تمشط ابنة فرعون ذات يوم إذ سقطت المدرى من يديها، فقالت: بسم الله، فقالت لها ابنة فرعون: أبي!، قالت: لا، ولكن ربي ورب أبيك الله، قالت: أخيره بذلك؟، قالت: نعم، فأخبرته، فدعاها، فقال: يا فلانة، وإن لك رباً غيري؟، قالت: نعم، ربي وربك الله، فأمر ببقرة: من نحاس فأحميت، ثم أمر بها أن تلقى هي وأولادها فيها، قالت له: إن لي إليك حاجة، قال: وما

(٤٨٣) - البحر المحيط في التفسير (٩ / ٧)

(٤٨٤) - البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (١ / ٥٩٨)

حاجتك؟، قالت: أحب أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد وتدفننا، قال: ذلك لك علينا من الحق، قال: فأمر بأولادها فألقوا بين يديها واحداً واحداً، إلى أن انتهى ذلك إلى صبي لها مَرُضِعٌ، وكأنها تقاعست من أجله، قال: يا أمه، اقتحمي، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فافتحمت، قال: قال ابن عباس: تكلم أربعة صغار: عيسى ابن مريم عليه السلام، وصاحب جُرَيْج، وشاهد يوسف، وابن ماشطة ابنة فرعون. (٤٨٥)

رابعاً: ارث الأمة الإسلامية للمسجد الأقصى

ومن ذكرى الإسراء والمعراج يجب ألا ننسى أن القدس وديعة سيدنا رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لكل المسلمين، ففي درج البيان الذي يشرح التاريخ رسالة هامة لكل مسلم: أن عليه واجباً نحو البيت المقدس أيّاً كان موقعه وموضعه، وفحواها: أن التاريخ قد سجّل منذ أزمان أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد فتحها، وأن صلاح الدين الأيوبي قد حررها، فسجلوا أنفسكم في ديوان النصر، فإنه قادم لا محالة، وقد يبطن زماً؛ لكن له موعدٌ قدره ربنا الرحمن - سبحانه.

فالقدس قدسية إسلامية، وهي تمثل في حس المسلمين ووعيمهم الإسلامي:

١-القدس: القبلة الأولى:

أول ما تمثله القدس في حس المسلمين وفي وعيمهم وفكرهم الديني أنها القبلة الأولى التي ظل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه يتوجهون إليها في صلاتهم منذ فرضت الصلاة ليلة الإسراء والمعراج وظلوا يصلون إليها في مكة، وبعد هجرتهم إلى المدينة، حتى نزل القرآن يأمرهم بالتوجه إلى الكعبة، كما قال تعالى: { وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَأَنَّمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [البقرة: ١٤٩].

٢-القدس ثالث المدن المعظمة:

القدس ثالث المدن المعظمة في الإسلام فالمدينة الأولى هي مكة المكرمة، التي شرفها الله بالمسجد الحرام، والمدينة الثانية هي طيبة (أي المدينة المنورة)، التي شرفها الله بالمسجد النبوي، والتي ضمت قبره - صلى الله عليه وسلم -، والثالثة مدينة القدس، التي شرفها الله بالمسجد الأقصى.

(٤٨٥) - أخرجه أحمد (١ / ٣١٠) وابن حبان (٣٦ و ٣٧) والطبراني (١٢٢٧٩) وغيرهم وفيه ضعف لاختلاط عطاء بن السائب وما قيل من سماع حماد منه قبل اختلاطه فقد قيل أيضاً: إنه سمع منه بعد الاختلاط كما هو مبين في (التهذيب) و (الأحاديث الضعيفة) (٨٨٠) فقول السيوطي في (الخصائص) (١ / ٣٩٩): (سنده صحيح)

وقد أعلن القرآن عن أهمية المسجد الأقصى وبركته، قبل بناء المسجد النبوي، وقبل الهجرة بسنوات، والإسلام حين جعل المسجد الأقصى ثالث المسجدين العظيمين في الإسلام، وبالتالي أضاف القدس إلى المدينتين الإسلاميتين المعظمتين (مكة والمدينة) ليقرر مبدأ هاماً من مبادئه، وهو أنه جاء ليبنى لا ليهدم، وليتم لا ليحطم، فالقدس كانت أرض النبوات، والمسلمون أولى الناس بأنبياء الله ورسله كما قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليهود المدينة: ((نحن أولى بموسى منكم)).^(٤٨٦)

٣-القدس أرض النبوات والبركات:

القدس هي جزء من أرض فلسطين، ولقد وصف الله هذه الأرض بالبركة في خمسة مواضع في كتابه العزيز:-

أ- {لَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ} [الإسراء: ١] في سورة الإسراء حين وصف المسجد الأقصى بهذا.

ب- {وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ٧١] حين تحدث في قصة خليله إبراهيم.

ت- { وَأُورَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ} [الأعراف: ١٣٧] في قصة موسى حيث قال هذا عن بني إسرائيل بعد إغراق فرعون وجنوده.

ث- {وَلَسَلِيمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ} [الأنبياء: ٨١] وهذا في قصة سليمان وما سخر الله له من ملك لا ينبغي لأحد بعده ومنه تسخير الريح.

ج - {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ} [سبأ: ١٨] في قصة سبأ وكيف من الله عليهم بالأمن، فهذه القرى التي بارك الله فيها هي قرى الشام وفلسطين.

خامسا: وحدة الأديان السماوية:

واعلم أن صلاة النبي -صلى الله عليه وسلم- بالأنبياء إماما لهم في بيت المقدس دليل على وحدة الأديان السماوية، وأنها كلها من مشكاة واحدة، وأن الدين الخاتم، الذي نسخ الأديان قبله، وأصبح على كل من عرفه أن يؤمن به هو الإسلام. قال تعالى: { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [آل عمران: ٨٥]. ويقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: "والذي نفسي بيده، لو كان موسى حيا، ما وسعه إلا أن يتبعني" حسنه في الإرواء. ويحسم هذه المسألة قول النبي -صلى الله عليه

^(٤٨٦) - أخرجه البخاري (٤٦٨٠) ومسلم (١١٣٠) وابن ماجه (١٧٣٤) والترمذي (٧٥٥) مختصراً.

وسلم -الصريح: "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ: يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ" مسلم.

فهل هو دين واحد، نسعى لإقناع غيرنا به بالتالي هي أحسن، أم هو التعايش بين الإسلام وأديان أخرى تناقض التوحيد، وتشرك برب العالمين؟

سادسا: الأعلام المضلل وأثره في قصة الإسراء والمعراج:

واعلم بارك الله فيك: أن الآلة الإعلامية المضللة تقف أمام الحق وتشوه وجهه الجميل وتزيف الحقائق وتزعم بالتهمة التي هي نابعة عن حقد دفين وحسد بغيض عن ابن عباس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لما كان ليلة أسري بي، وأصبحت بمكة، فطعت بأمرى، وعرفت أن الناس مكذبي» ففقد معتزلا حزينا، قال: فمر به عدو الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعم» قال: ما هو؟ قال: «إنه أسري بي الليلة» قال: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس؟» قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: «نعم» قال: فلم ير أنه يكذبه، مخافة أن يجحده الحديث إن دعا قومه إليه، قال: رأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتني؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعم». فقال: هيا معشر بني كعب بن لؤي حتى قال: فانتفضت إليه المجالس، وجاءوا حتى جلسوا إليهما، قال: حدث قومك بما حدثتني. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني أسري بي الليلة، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس، قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟» قال: «نعم» قال: فمن بين مصفق، ومن بين واضح يده على رأسه، متعجبا للكذب زعم قالوا: وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد؟ وفي القوم من قد سافر إلى ذلك البلد، ورأى المسجد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فذهبت أنعت، فما زلت أنعت حتى التبس علي بعض النعت»، قال: «فجيء بالمسجد وأنا أنظر حتى وضع دون دار عقال أو عقيل فنعته، وأنا أنظر إليه»، قال: «وكان مع هذا نعت لم أحفظه» قال: " فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب" (٤٨٧).

سابعا: الثبات على المبدأ:

قد كان حادث الإسراء مُستغرباً عند البشر، إلا أن رجلاً كأبي بكر الصديق لم يُخالج هذا الاستغراب داخله، ولم يتردد في تصديقه؛ قال له الكفار: إن صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس ثم عاد، ونحن نقطع أكباد الإبل شهراً ذهاباً وشهراً إياباً، وكان أبو بكر فطناً فلم يقل لهم مباشرة: لقد صدق؛ لاحتتمال أنهم افتعلوا هذا الأمر ونسبوه إلى المصطفى - صلى الله عليه وسلم - إنما قال: إن كان قال فقد صدق؛ إني أصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء، فاستحق بهذا التصديق أن

(٤٨٧) - مسند أحمد ت شاكر (٣/ ٢٥١) إسناده صحيح، والحديث في تفسير ابن كثير ٥: ١٢٨

يكون صديقاً، بل من حينها كان جديراً أن يكون ثاني اثنين، واستحق أن يكون إيمانه أثقل من إيمان الأمة جميعها.

وقصة الإسراء والمعراج هي قضية الثبات على المبدأ المتمثل في موقف سيدنا أبي بكر - رضي الله عنه - وقضية القدرة الإلهية التي تُضمد جراح المُخلصين لها وتمدُّهم بالعون والمدد، والقصة العظيمة يجب ألا تقاس بمقياس العقول البشرية، وهي تدعو الدعاة إلى الصبر على الطريق غير المحفوف بالورود، ووتوجّه رسالةً إلى المسلمين أن يستيقظوا من رقدتهم الطويلة، وأن يهبوا هبةً رجل واحد لتطهير بيت المقدس من أعداء الله الذين قالوا ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، الذين ذهبوا إلى قبر صلاح الدين ونادوا عليه وقالوا: ها نحن هنا يا صلاح الدين

ثامنا: فضل التجربة:

يؤخذ أيضاً من خطاب موسى عليه الصلاة والسلام مع رسول الله: فضل التجربة وأنها قد تفوق المعرفة الكثيرة، فموسى قد جرب بنى إسرائيل وعالجهم كما قال، فنصح النبي - صلى الله عليه وسلم - بما خبر الناس به.

تاسعا: بذل لنصيحة لمن يحتاج إليها ولو لم يستشر الناصح:

فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يستشر موسى، لكن موسى رأى ذلك واجبا عليه، يبدي النصيحة قيل أن يسألها، فأشار على النبي - صلى الله عليه وسلم - بما رآه خيراً.

عاشرا: الدين الإسلامي ليس بالعقل وإنما بالوحي والنص:

فالعقول لا تستقل بإدراك مصالحها دون الوحي، فمن استعمل عقله في خبر الإسراء والمعراج وتجاهل النص أضله عقله، ومن سلّم للنص واستسلم له، وفق وهدي.

الحادي عشر: شق صدره صلى الله عليه وسلم في ليلة الإسراء:

يقول ابن حجر - رحمه الله -:

بل ثلاث مرات ولكل حكمة: فالأول كان في زمن الطفولة لينشأ على أكمل الأحوال من الحفظ من الشيطان، ثم كان عند البعث زيادة في إكرامه، ليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوي، في أكمل الأحوال من التطهير، ثم عند الإسراء ليتأهب للمناجاة، وقال أيضاً كلاماً رائعاً: " ويحتمل أن تكون الحكمة في هذا الغسل، لتقع المبالغة في الإسباغ لحصول المرة الثالثة، كما هي شرعته صلى الله عليه وسلم في الطهارة. (٤٨٨)

(٤٨٨) - الآية الكبرى في شرح قصة الإسراء، الحافظ السيوطي ص ١١٧.

الثاني عشر: لماذا كان الإسراء ليلاً؟:

قال ابن المنير: إنما كان الإسراء ليلاً: لأنه وقت الخلوة والاختصاص عرفاً، ولأنه وقت الصلاة التي كانت مفروضة عليه في الليل، وليكون أبلغ للمؤمن في الإيمان بالغيب وفتنة للكافر، بالإضافة إلى أن الله تعالى أكرم أقواماً في الليل بأنواع الكرامات، كقوله في قصة إبراهيم: { فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ } [الأنعام: ٧٦]، وفي لوط: { فَاسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ } [هود: ٨١]، وفي موسى { وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً } [الأعراف: ١٤٢]، وناجاه ليلاً وأخر إخراج قومه ليلاً في قوله { فَاسْرِبْ بِعِبَادِي لَيْلًا } [الدخان: ٢٣]، واستجابة دعاء يعقوب فيه، وهو المراد في قوله: { قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي } [يوسف: ٩٨]، قال المفسرون: " أخره إلى وقت السحر من ليلة الجمعة " (٤٨٩).

الدرس الخمسون

مظاهر التوفيق في رحلة الإسراء والمعراج

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، الحمد لله العلي الأعلى الذي أنعم علينا بنعم لا تحصى، ودفن عنا من النقم ما لا يعد ولا يستقصى،

(٤٨٩) - الآية الكبرى للسيوطي المرجع السابق بتصريف يسير جداً ص ١١٩.

سبحانه من إله عظيم، أسرى بعبده محمد - صلى الله عليه وسلم - من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى،
وعرج به بصحبة جبريل الأمين إلى السماوات العلى، وأراه من آياته العظمى،

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا، قال وقوله
الحق: **{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى}** [الإسراء: ١]

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله نبي الهدى وخير الورى، والشفيح يوم القيامة في كل من وحد الله واهتدى
- صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الكرماء، وعلى التابعين لهم بإحسان ما دامت الأرض والسماء، وسلم
تسليماً.

أما بعد:

أولاً: لتوفيق للمتابعة في ربط البراق

أول صور التوفيق أن وفق الله - تعالى - النبي - صلى الله عليه وسلم لربطه البراق في الحلقة التي
كان يربط بها الأنبياء فاستن بسنتهم و اقتدى بهم كما قال الله تعالى **{ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ
فَبِهَدَاهُمْ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ }** [الأنعام: ٩٠]

عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال * أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل
فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه قال فركبته حتى أتيت بيت المقدس قال
فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء) (٤٩٠)

أي ربطت البراق وقيده بالحبل، يقال ربط من باب ضرب يربط ربطاً (بالحلفة) أي بحلقة باب
مسجد بيت المقدس

يؤخذ من قوله: (فربطته بالحلقة) الأخذ بالاحتياط في الأمور وتعاطي الأسباب، وأن ذلك لا يقدر
في التوكل على الله. قاله النووي. وأنكره حذيفة، إذ روي عند أحمد والترمذي من حديث حذيفة
قال: تحدثوا أنه ربطه؟ أخاف أن يفر منه وقد سخره له عالم الغيب والشهادة؟ قال البيهقي:
المثبت مقدم على النافي، يعنى من أثبت ربط البراق معه زيادة علم على من نفى ذلك، فهو أولى
بالقبول. (٤٩١)

(٤٩٠) - أخرجه أحمد (١٤٨/٣)، رقم (١٢٥٢٧)، ومسلم (١٤٥/١)، رقم (١٦٢)

(٤٩١) (فتح المنعم شرح صحيح مسلم (١/٥٦٦))

ثانيا: التوفيق لاختيار الفطرة:

ومن أظهر صور التوفيق للنبي -صلى الله عليه وسلم- أن وفقه الله تعالى لاختيار الفطرة عندما عرض عليه ثلاثة أقذاح اللبن وعسل و الخمر فختار نبينا المختار-صلى الله عليه وسلم - اللبن، عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} رفعت لي السدرة فإذا أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فأما الظاهران فالنيل والفرات وأما الباطنان فنهران في الجنة وأتيت بثلاثة أقذاح قدح فيه لبن وقدح فيه عسل وقدح فيه خمر فأخذت الذي فيه اللبن فقبل لي أصبت الفطرة) (٤٩٣)

قال النووي: ألهمه الله تعالى اختيار اللبن، لما أرادته سبحانه وتعالى من توفيق هذه الأمة واللفظ بها. أه.

قال ابن المنير: لم يذكر السر في عدوله عن العسل إلى اللبن، كما ذكر السر في عدوله عن الخمر، ولعل السر في ذلك كون اللبن أنفع، وبه يشتد العظم، وينبت اللحم، وهو بمجرد قوت، ولا يدخل في السرف بوجه، وهو أقرب إلى الزهد، ولا منافاة بينه وبين الورع بوجه، والعسل وإن كان حلالاً، لكنه من المستلذات التي قد يخشى على صاحبها أن يندرج في قوله تعالى: {أذهبتم طيباتكم} [الأحقاف: ٢٠] قال الحافظ ابن حجر: ويحتمل أن يكون السر في ذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان قد عطش، فأثر اللبن لما فيه من حصول حاجته، دون الخمر والعسل، فهذا هو السبب الأصلي في إثثار اللبن، وصادف مع ذلك رجحانه عليهما من عدة جهات. اهـ. (٤٩٣)

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: جَاءَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ لَمَّا أَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّبْنَ قِيلَ لَهُ: أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ... وَحَيْثُ جَاءَتْ الْفِطْرَةُ فِي كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَالْمُرَادُ بِهَا فِطْرَةُ الْإِسْلَامِ لَا غَيْرَ.

وكان لهداية النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء للفطرة حين خير بين اللبن والخمر آثار فيما بعد، فوفقه الله تعالى لأحسن الدين { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا } [النساء: ١٢٥] وهداه لأحسن القول { وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [فصلت: ٣٣] وهداه لأحسن الحكم { أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ

(٤٩٢) - أخرجه البخاري (٢١٢٨/٥)، رقم (٥٢٨٧)

(٤٩٣) - فتح المنعم شرح صحيح مسلم (١٧٥ / ٨)

الله حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿ [المائدة: ٥٠] وهدهاه لأحسن الحديث ﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي ﴾ [الزمر: ٢٣]. ((٤٩٤))

ثالثا: التوفيق لعدم إزاعة بصره:

و من صور توفيق - صلى الله عليه وسلم- أدبه الجم مع ربه و مع الحضرة الربانية يصور الله تعالى لنا ذلك المشهد بقوله - {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى } [النجم: ١٣ - ١٨]

إن هذا وصف لأدبه صلى الله عليه وسلم في ذلك المقام. إذ لم يلتفت جانبا. ولا تجاوز ما رآه. وهذا كمال الأدب. والإخلال به: أن يلتفت الناظر عن يمينه وعن شماله، أو يتطلع أمام المنظور. فالالتفات زيغ. والتطلع إلى ما أمام المنظور: طغيان ومجاوزة. فكمال إقبال الناظر على المنظور: أن لا يصرف بصره عنه يمنا ولا يسرة. ولا يتجاوزة.

هذا معنى ما حصلته عن شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه.

وفي هذه الآية أسرار عجيبة. وهي من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البشر صلى الله عليه وسلم: تواطأ هناك بصره وبصيرته. وتوافقا وتصادقا فيما شاهده بصره. فالبصيرة مواطنة له. وما شاهده بصيرته فهو أيضا حق مشهود بالبصر. فتواطأ في حقه مشهد البصر والبصيرة.

ولهذا قال سبحانه وتعالى: {ما كذب الفؤاد ما رأى - أفتمارونه على ما يرى} [النجم: ١١ - ١٢] أي ما كذب الفؤاد ما رآه ببصره.

فإن عادة النفوس، إذا أقيمت في مقام عال رفيع: أن تتطلع إلى ما هو أعلى منه وفوقه. ألا ترى أن موسى - صلى الله عليه وسلم - لما أقيم في مقام التكليم والمناجاة: طلبت نفسه الرؤية؟ ونبينا صلى الله عليه وسلم لما أقيم في ذلك المقام، وفاه حقه: فلم يلتفت بصره ولا قلبه إلى غير ما أقيم فيه ألبتة؟

ولأجل هذا ما عاقه عائق. ولا وقف به مراد، حتى جاوز السماوات السبع حتى عاتب موسى ربه فيه. وقال: يقول بنو إسرائيل: إني كريم الخلق على الله. وهذا قد جاوزني وخلفني علوا. فلو أنه وحده؟ ولكن معه كل أمته. وفي رواية البخاري «فلما جاوزته بكى. قيل: ما يبكيك؟ قال: أبكي

(٤٩٤) - حاشية ابن القيم على سنن أبي داود (٣١٨/١٢)

أن غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي». ثم جاوزه علوا فلم تعقه إرادة. ولم تقف به دون كمال العبودية همة. (٤٩٥)

رابعاً: التوفيق في مراجعة موسى عليه السلام له في فرض الصلاة:

و من صور التوفيق توفيق الله تعالى له بأن راجعه موسى عليه السلام في شأن الصلاة حيث أمره كلیم الله تعالى أن يراجع ربه في عدد الصلوات كما صح ذلك عنه صلى الله عليه وسلم—
أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقدام، ففرض الله على أمتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى، فقال: ما فرض الله لك على أمتك قلت: فرض خمسين صلاة، قال فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعني فوضع شطرها فرجعت إلى موسى فقلت: وضع شطرها؛ فقال: راجع ربك فإن أمتك لا تطيق، فراجعته فوضع شطرها، فرجعت إليه، فقال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعته، فقال: هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي فرجعت إلى موسى فقال راجع ربك، فقلت استحيت من ربي ثم انطلق بي حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى، وغشيتها ألوان لا أدري ما هي ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حبايل اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك (٤٩٦)

خامساً: التوفيق في وصف المسجد لكفار مكة:

و من صور التوفيق في قصة الإسراء و المعراج ما توفق الله تعالى لنبيه في وصف بيت المقدس رغم انه — صلى الله عليه وسلم دخله ليلا و لم يتفقده، و كان بعض أهل مكة قد زار بيت المقدس و يعرف وصفه فأرادوا أن يتأكدوا من ذاهب النبي — صلى الله عليه وسلم إلى هنالك فسألوه عن وصفه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: ((لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي، فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كربة ما كربت مثله قط، فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا نبأتهم، (٤٩٧)

انه توفيق الله تعالى و تسديده لحبيبه و مصطفاه — صلى الله عليه وسلم—

قوله: (فجلى الله لي بيت المقدس) قيل معناه كشف الحجب بيني وبينه حتى رأيته، ووقع في رواية عبد الله بن الفضل عن أم سلمة عند مسلم المشار إليها " قال فسألوني عن أشياء لم أثبتها،

(٤٩٥) — مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ٣٦١)

(٤٩٦) — أخرجه البخاري في: ٨ كتاب الصلاة: ١ باب كيف فرضت الصلاة: في الإسراء

(٤٩٧) — أخرجه مسلم (٢٧٨)

فكربت كربا لم أكرب مثله قط، فرفع الله لي بيت المقدس أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا نبأتهم به ” ويحتمل أن يريد أنه حمل إلى أن وضع بحيث يراه ثم أعيد، وفي حديث ابن عباس المذكور ” فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع عند دار عقيل فنعته وأنا أنظر إليه ” وهذا أبلغ في المعجزة، ولا استحالة فيه، فقد أحضر عرش بلقيس في طرفة عين لسليمان، وهو يقتضي أنه أزيل^(٤٩٨)

أسباب حصول التوفيق الإلهي:

وبعد أيها الآباء لعل سائل يسأل ويقول وما هو الطريق إلى التوفيق؟

إليكم أيها الأحباب بعض وسائل التوفيق

إذا أردت أن تكون من الموفقين فعليك بما يلي:

أولاً: العمل الصالح: عموماً يوصلك إلى أعلى مراقي التوفيق العمل الصالح عموماً على اختلاف أنواعه بديناً أو مالياً أو قولياً، والله عز وجل بين أن الطاعة والتوفيق لها هو الفوز العظيم فقال سبحانه: **(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)** [الأحزاب: ٧١]،

وها هو صلى الله عليه وسلم يوضح لك حقيقة التوفيق أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: «إذا أراد الله بعبده خيراً استعمله، فقيل له: كيف يستعمله يا رسول الله؟ قال: يُؤَفِّقُهُ لعل صالح قبل الموت»^(٤٩٩)

قال أبو بكر - رضي الله عنه -: «أن رجلاً قال: «يا رسول الله، أيُّ الناس خير؟ قال: مَنْ طال عمره، وحَسُنَ عمله، قال: فأَيُّ الناس شرٌّ؟ قال: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وسَاءَ عمله.»^(٥٠٠)

ثانياً المجاهدة والمصابرة على الطاعة: قال الله تعالى **{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}** [العنكبوت: ٦٩]

قال السعدي - رحمه الله - **{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا}** وهم الذين هاجروا في سبيل الله، وجاهدوا أعداءهم، وبذلوا مجهودهم في اتباع مرضاته، **{لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}** أي: الطرق الموصلة إلينا، وذلك لأنهم محسنون.

^(٤٩٨) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٧ / ٣٥٨)

^(٤٩٩) - إسناده صحيح: أخرجه أحمد (١٠٦/٣)

^(٥٠٠) - أخرجه أحمد (٤٤/٥)

{ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } بالعون والنصر والهداية. دل هذا، على أن أحرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد، وعلى أن من أحسن فيما أمر به أعانه الله ويسر له أسباب الهداية، وعلى أن من جد واجتهد في طلب العلم الشرعي، فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية، خارجة عن مدرك اجتهاده، وتيسر له أمر العلم، فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله، بل هو أحد نَوْعِي الجهاد، الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان، للكفار والمنافقين، والجهاد على تعليم أمور الدين، وعلى رد نزاع المخالفين للحق، ولو كانوا من المسلمين. (٥٠١)

ثالثاً: التوكل على الله والإنابة إليه: قال الله تعالى عن شعيب (عليه الصلاة والسلام): { وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } [هود: ٨٨]، فالتوفيق منزلة عظيمة يهبها الله لمن أحب من عباده، فإذا علم الله من عبده الصدق والإنابة إليه وفقه الله وهداه، قال تعالى: { قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ } [الرعد: ٢٧]، وإذا وفق الله العبد اجتباه ويسر له أبواب الخير يضرب بسهم في كل باب تواقفاً منهوماً مستسهلاً للصعاب طارحاً للعقبات..

رابعاً: بر الوالدين:

ومن أسباب التوفيق بر الوالدين فالبر أثره في الدنيا التوفيق والسداد وفي الآخرة الجنة أخرج الإمام مسلم في صحيحه: كان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم: أفيكم أويس بن عامر حتى أتى على أويس رضي الله عنه، فقال له: أنت أويس بن عامر؟

قال: نعم.

قال: من مراد ثم من قرن؟

قال: نعم.

قال: فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم؟

قال: نعم.

قال: لك والددة؟

قال: نعم.

(٥٠١) - تفسير السعدي (ص: ٦٣٥)

قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم له والدة هو بها بر لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل"، فاستغفر لي، فاستغفر له، فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة.

قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟

قال: أكون في غرباء الناس أحب إلي.

فلما كان من العام المقبل حج رجل من أشرافهم فوافق عمر فسأله عن أويس، فقال: تركته رث البيت قليل المتاع.

قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد من أهل اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم له والدة هو بها بر لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل، فأنتى أويسا فقال: استغفر لي.

قال: أنت أحدث عهداً بسفر صالح فاستغفر لي.

قال لي: لقيت عمر؟

قال: نعم، فاستغفر له، ففطن له الناس فانطلق على وجهه. (٥٠٢)

لماذا أغلق باب التوفيق عن الناس

لماذا أغلق باب التوفيق عن بعض الناس؟

قال شقيق بن إبراهيم رحمه الله: أغلق باب التوفيق عن الخلق من ستة أشياء:

- ١- اشتغالهم بالنعمة عن شكرها.
- ٢- رغبتهم بالعلم وتركهم العمل.
- ٣- المسارعة إلى الذنب وتأخير التوبة.
- ٤- الاغترار بصحبة الصالحين وترك الاقتداء بأفعالهم.
- ٥- إدبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها.

(٥٠٢) - أخرجه: مسلم ١٨٨/٧ (٢٥٤٢)

٦- إقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها. (٥٠٣)

الدرس الحادي والخمسون

إسلام الأنصار واستجابتهم لله ولرسوله

الحمد لله الذي تفرد بجلال ملكوته، وتوحد بجمال جبروته وتعزز بعلو أحديته، وتقدس بسمو صمديته، وتكبر في ذاته عن مضارعة كل نظير، وتنزه في صفائه عن كل تناه وقصور، له الصفات المختصة بحقه، والآيات الناطقة بأنه غير مشبهه بخلقه.

(٥٠٣) الفوائد (ص: ١٧٧)

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير،
شهادة موقن بتوحيده، مستجير بحسن تأييده

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفیه من خلقه وحبیبه

هذا النبي محمد خير الوری ونبیهم وبه تشرف آدم

وله البها وله الحياء بوجهه كل الغنى من نوره يتقسم

يا فوز من صلى عليه فانه في جنة المأوى غدا يتنعم

صلى عليه الله جل جلاله ما راح حاد باسمه يترنم

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم
الدين ونحن معهم يا أرحم الراحمين

الاتصالات الأولى بالأنصار في مواسم الحج والعمرة:

١- إسلام سويد بن الصامت:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب، له اسم وشرف إلا
تصدى له ودعاه إلى الله وعرض عليه ما جاء به من الهدى والحق، فقدم سويد بن الصامت- أخو
بني عمرو بن عوف- مكة حاجاً أو معتمراً، وكان سويد يسميه قومه فيهم الكامل، لجلده،
وشعره، وشرفه، ونسبه، فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به، فدعاه إلى
الله والإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي؟ فقال له رسول الله صلى الله
عليه وسلم: «وما الذي معك؟» قال: مجلة^(٥٠٤) لقمان، فقال له رسول الله: «اعرضها علي»
فعرضها عليه فقال: «إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله عليّ، هو
هدى ونور» فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه،
وقال: إن هذا القول حسن، ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتله الخزرج،
وقد كان رجال من قومه يقولون: إنا لنراه قُتل وهو مسلم، وكان قتله يوم بَعَاث^(٥٠٥) وعلى أية
حال لا توجد دلائل على قيام سويد بن الصامت بالدعوة إلى الإسلام وسط قومه^(٥٠٦)

^(٥٠٤) - المجلة: الصحيفة، وتطلق على الحكمة أي حكمة لقمان.

^(٥٠٥) - سيرة ابن هشام (٤٠ / ٢) إسناد حسن.

^(٥٠٦) - السيرة النبوية الصحيحة (١ / ١٩٥).

٢ - إسلام إياس بن معاذ:

لما قدم أبو الحيسر بن رافع مكة ومعه فتیان من بني عبد الأشهل، فيهم إياس بن معاذ، يلتسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتاهم فجلس إليهم، فقال: «هل لكم في خير مما جئتم له؟» قالوا: وما ذاك؟ قال: «أنا رسول الله إلى العباد أَدْعُوهم إلى أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به شيئاً وأنزل عليّ الكتاب»، ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن فقال إياس بن معاذ وكان غلاماً حدثاً: هذا والله خير مما جئتم له فياخذ أبو الحيسر كفاً من تراب، فضرب به وجهه، وقال: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس، وقام رسول الله عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بُعث بين الأوس والخزرج، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك، وقد روي من حضره من قومه أنه ما زال يهلل الله ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أنه مات مسلماً، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمع^(٥٠٧).

عرض الرسول نفسه على القبائل وبدء إسلام الأنصار

كان النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خلال هذه الفترة كلها، يعرض نفسه في موسم الحج من كل سنة على القبائل التي تتوافد إلى البيت الحرام، يتلو عليهم كتاب الله ويدعوهم إلى توحيد الله فلا يستجيب له أحد.

يقول ابن سعد في طبقاته: «كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوافي الموسم كل عام يتبع الحجاج في منازلهم في المواسم بعكاظ ومجنة وذو المجاز، يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربِّه ولهم الجنة، فلا يجد أحداً ينصره، ويقول: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب وتذلّ لكم العجم، وإذا آمنتم كنتم ملوكاً في الجنة»، وأبو لهب وراءه يقول: «لا تطيعوه فإنه صابئ كاذب»، فيردون على رسول الله أقبح الرد ويؤذونه^(٥٠٨). وروى ابن إسحاق عن الزهري: «أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتى بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله عزَّ وجلَّ، وعرض عليهم نفسه، فقال رجل منهم يقال له بيحرة بن فراس: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال: رأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال الأمر إلى الله، يضعه حيث

^(٥٠٧) -سيرة ابن هشام (٢/ ٤١) بإسناد حسن.

^(٥٠٨) -الطبقات الكبرى لابن سعد: ١/ ٢٠٠ و ٢٠١، وروى ابن إسحاق نحوه، انظر سيرة ابن هشام: ١/ ٤٢٣

يشاء، قال، فقال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك»^(٥٠٩)

وفي السنة الحادية عشرة من البعثة عرض نفسه على القبائل شأنه كل عام، فبينما هو عند عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان يوم بعثت يوماً قدمه الله لرسوله - صلى الله عليه وسلم -، فقدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد افترق ملؤهم، وقتلت سرواتهم وجرحوا، فقدمه الله لرسوله - صلى الله عليه وسلم - في دخولهم في الإسلام"^(٥١٠)

قال ابن إسحاق: (فلما أراد الله -عَزَّ وَجَلَّ- إظهار دينه، وإعزاز نبيه - صلى الله عليه وسلم -، وإنجاز مواعده له، خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، وهم فيما يزعمون ستة فيهم جابر بن عبد الله بن رثاب"^(٥١١) .

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا: "لما لقيهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لهم: (من أنتم؟) قالوا: نفر من الخزرج قال: (أمن موالي يهود؟) قالوا: نعم قال: (أفلا تجلسون أكلمكم؟) قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن.

قال: وكان مما صنع الله بهم في الإسلام، أن يهود كانوا معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد عَزُّوهم ببلادهم^(٥١٢)، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبياً مبعوث الآن، قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما كلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أولئك النفر ودعاهم إلى الله. قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام.

وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن

^(٥٠٩) -سيرة ابن هشام: ٤٢٥ / ١، وتاريخ الطبري: ٣٥٠ / ٢

^(٥١٠) - أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب مناقب الأنصار حديث رقم: ٣٧٧٧ فتح الباري: ٧ / ١١٠ أحمد في المسند: ٦١ / ٦ وانظر الفتح الرباني: ٦٧ / ٢٠.

^(٥١١) - قال الهيثمي في المجمع: ٤٢ / ٦ رواه الطبراني ورجاله ثقات، السيرة النبوية: ٨١ / ٢.

^(٥١٢) - عَزُّوهم: معناها: غلبوهم، ومنه قوله تعالى: {وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ} (ص: آية ٢٣).

يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا" (٥١٣).

الدرس الثاني والخمسون

بيعة العقبة الأولى

الحمد لله العليم الحكيم العزيز الغفار، القهار الذي لا تخفى معرفته على من نظر في بدائع مملكته بعين الاعتبار، القدوس الصمد التعالي عن مشابه الأغيار، الغني عن جميع الموجودات فلا تحويه الجهات والأقطار، الكبير الذي تحيرت العقول في وصف كبريائه فلا تحيط به الأفكار، الواحد الأحد المنفرد بالخلق والاختيار، الحي العليم الذي تساوى في علمه الجهر والإسرار، السميع البصير الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار.

(٥١٣) - أخرجه ابن هشام في السيرة: ٤٢٨ / ١ ، ٤٢٩ ، والبيهقي في الدلائل: ٤٣٣ / ٢ ، ٤٣٥ ، وأبو نعيم في الدلائل رقم: ٣٢٣ ، وإسناده حسن رجاله ثقات، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث، وابن كثير في السيرة: ١٧٦ / ٢ - ١٧٧ ، ورواه ابن سعد في الطبقات: ٢١٨ / ١ - ٢١٩ ، من طريق فيها الواقدي وأسامة بن زيد من غير طريق ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل: ٤٣٣ / ٢ - ٤٣٥ من طريق ابن إسحاق، ورواه الطبراني مرسله وفي سندها ابن لهيعة وفيه ضعف، وهو حسن الحديث، وبقية الرجال ثقات انظر المجمع: ٦ / ٤٠ - ٤٢ ورواه أبو نعيم في الدلائل ص: ١٠٤.

وأشهد إن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفیه من خلقه وحبیب

إن الصلاة على المختار إن ذكرت في مجلس فاح منه الطيب إن نفحاً

محمد أحمد المختار من مضر أزكى الخلائق جمعا أفصح الفصحا

صلى عليه إله العرش ثم على أهليه والصحب نعم السادة النصحا

وعلي اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين
ونحن معهم يا أرحم الراحمين

من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: (كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً فبايعنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفترض الحرب، على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا ننزي، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتریه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلکم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمرکم إلى الله إن شاء عذبکم، وإن شاء غفر لکم" (٥١٤).

إرسال الرسول مصعباً إلى المدينة وانتشار الإسلام فيها:

عن عاصم بن عمر بن قتادة: "أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إنما بعث مصعباً حين كتبوا إليه أن يبعثه إليهم، وكان يصلي بهم، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض رضي الله عنهم أجمعين" (٥١٥).

قال ابن إسحاق: حدثني عبيد الله بن المغيرة بن معيقيب، وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبد الأشهل، ودار بني ظفر،

(٥١٤) - أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب وفود الأنصار وبيعة العقبة رقم: ٣٨٩٣ فتح الباري: ٧ / ٢١٩، مسلم كتاب الحدود

باب الحدود كفارات لأهلها رقم الحديث: ١٧٠٩

(٥١٥) - أحمد في المسند: ٥ / ٣٢٣، وانظر الفتح الرباني: ٢٠ / ٢٦٩، وابن هشام في السيرة: ١ / ٤٣٣ عن ابن إسحاق بسند صحيح

وكان سعد بن معاذ بن النعمان ابن امرئ القيس بن زبير بن عبد الأشهل ابن خالة أسعد ابن زرارة،
فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر يقال لها: بئر مرق.

فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد بن معاذ وأسيد ابن حضير يومئذ سيدي
قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه، فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد
بن حضير: لا أبالك، انطلق إلى هذين الرجيين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما
وأنههما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن
خالتي ولا أجد عليه مقدماً.

قال: فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا
سيد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه؛ قال مصعب: إن يجلس أكلمه.

قال: فوقف عليهما متشتماً، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما
بأنفسكما حاجة. فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كف عنك ما
تكره، قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن، فقالا:
فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، في إشراقه وتسهله، ثم قال: ما أحسن
هذا الكلام، وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟

قالا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي، فقام فاغتسل، وطهر ثوبيه،
وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه
أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم
جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه
الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين، فوالله
ما رأيت بهما بأساً وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حدثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى
أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك، ليخفروك.

قال: فقام سعد مغضباً مبادراً، تخوفاً للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال:
والله ما أراك أغنيت شيئاً، ثم خرج إليهما، فلما رآهما سعد مطمئنين، عرف سعد أن أسيداً إنما أراد
منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتماً، ثم قال لأسعد ابن زرارة: يا أبا أمامة، (أما والله) لولا ما

بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني ، أتغشانا في دارينا بما نكره -وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أي مصعب ، جاءك والله سيد من وراءه من قومه ، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان- قال: فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع ، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره.

قال سعد: أنصفت ، ثم ركز الحربة وجلس ، فعرض عليه الإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، قالاً: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، لإشراقه وتسهله ، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالاً: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ركعتين ، قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه ، وتشهد شهادة الحق ، ثم ركع ركعتين ، ثم أخذ حربته ، فأقبل عامداً إلى نادي قومه ، ومعه أسيد بن حضير.

قال: فلما رآه قومه مقبلاً: قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟

قالوا: سيدنا (وأوصلنا) وأفضلنا رأياً ، وأيمننا نقيبة ، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

قالاً: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة ، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة ، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام ، حتى لم يتبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد ، وخطمه ، ووائل ، وواقف ، وتلك أوس الله ، وهم من الأوس بن حارثة ، وذلك أنهم كان فيهم أبو قيس ابن الأسلت ، واسمه صيفي ، وكان شاعراً لهم قائداً يستمعون فيه ويطيعونه فوقف بهم عن الإسلام حتى كان بعد الخندق" (٥١٦) .

فوائد ودروس وعبر

١ - اتجه التخطيط النبوي للتركيز على يثرب بالذات ، وكان للنفر الستة الذين أسلموا دور كبير في بث الدعوة إلى الإسلام خلال ذلك العام.

(٥١٦) - أخرجه ابن إسحاق في السيرة انظر سيرة ابن هشام: ١/ ٤٣٥ - ٤٣٧ والطبري في التاريخ: ٢/ ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، وسنده حسن ، وهو مرسل ، وانظر ابن كثير في السيرة: ٢/ ١٨١ - ١٨٥ ، السيرة النبوية للذهبي: ١٩٨ - ٢٠٠ ،

٢ - كانت هناك عدة عوامل ساعدت على انتشار الإسلام في المدينة منها:

٣- ما طبع الله عليه قبائل الخزرج والأوس من الرقة واللين، وعدم المغالاة في الكبرياء وجحود الحق، وذلك يرجع إلى الخصائص الدموية والسلالية التي أشار إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وفد وفد من اليمن بقوله: «أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوباً»^(٥١٧) وهما ترجعان في أصليهما إلى اليمن، نزح أجدادهم منها في الزمن القديم^(٥١٨) فيقول القرآن الكريم مادحاً لهم: (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [الحشر: ٩].

٤- ومنها التشاحن والتطاحن الموجودان في قبيلتي المدينة، الأوس والخزرج، وقد قامت بينهما الحروب الطاحنة كيوم بُعث وغيره، وقد أفنت هذه الحرب كبار زعمائهم ممن كان نظرائهم في مكة والطائف وغيرها، حجر عثرة في سبيل الدعوة، ولم يبقَ إلا القيادات الشابة الجديدة المستعدة لقبول الحق، إضافة إلى عدم وجود قيادة بارزة معروفة يتواضع الجميع على التسليم لها، وكانوا بحاجة إلى من يأتلفون عليه، ويلتئم شملهم تحت ظله، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «كان يوم بُعث يوماً قدمه الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم، فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد افترق ملؤهم وقتلت سرواتهم»^(٥١٩) وجرحوا، فقدمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في دخولهم الإسلام»^(٥٢٠).

٥- ومنها مجاورتهم لليهود مما جعلهم على علم -ولو يسير- بأمر الرسالات السماوية، وخبر المرسلين السابقين، وهم في مجتمعهم يعيشون هذه القضية في حياتهم اليومية وليسوا مثل قريش التي لا يساكنها أهل كتاب وإنما غاية أمرها أن تسمع أخباراً متفرقة عن^(٥٢١)

٦- استطاع سفير رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل في عام واحدٍ الكثير، وما ذلك إلا بتوفيق الله تعالى، ثمَّ بصدق ذلك الداعية وإخلاصه، فأين سفراء دول المسلمين اليوم من سفير رسول الله صلى الله

^(٥١٧) - البخاري، كتاب المغازي، باب قدوم الأشعريين، رقم ٤٣٨٨.

^(٥١٨) - السيرة النبوية، لأبي الحسن الندوي، ص ١٥٤

^(٥١٩) - السروات: الأشراف

^(٥٢٠) - البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب الأنصار (٤/٣٦٧)، رقم ٣٧٧٧.

^(٥٢١) - السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (ص: ٢٤٢)

عليه وسلم ، فعلى ولاية الأمر أن يختاروا السَّفير المؤمن الملتزم الموهوب؛ الَّذِي يستطيع أن يمثِّل بلاده، ودينه قولاً وعملاً، وخُلُقاً وسلوكاً، فيرى النَّاسُ، ويسمعون من خلاله.

٧- استطاع السَّفير مصعب رضي الله عنه أن يهيئ البيئة الصَّالحة، لانتقال الدَّعوة والدَّولة إلى مقرِّها الجديد؛ حيث استطاع ترجمة روح بيعة العقبة الأولى عملياً وسلوكياً، والتي تعني الالتزام التَّام بنظام الإسلام.

٨- أن الإسلام يذهب جميع الفوارق والعداوات ويصهر أتباعه في وحدة واحدة من أول لحظة يعتنقه أتباعه إذا كانوا على الفطرة، فهذا هو قد أذهب الشحنة بين الأوس والخزرج في أول سنة فيقدم وفد العقبة من الأوس والخزرج.

٩- أن هذا الدين ما إن تخالط بشاشته القلوب حتى يصبح معتنقه نشطاً في الدعوة، فالأنصار لما رجعوا إلى أهلهم -ومع أنهم لم يجلسوا مع صاحب الرسالة إلا مرة واحدة- إلا أنهم حملوا مشعل هذا الدين واعتبروا أنفسهم الدعاة المناط بهم تبليغه ونشره؛ فلهذا أسلم على أيديهم أعداد كثيرة.

١٠- العناية التامة باختيار الداعية فقد توفر بمصعب عدة صفات، فإلى جانب حفظه للقرآن ومعرفته بالإسلام، فهو يتميز بالذكاء والفطنة وحسن التصرف، وجودة العرض، والقدرة على الإقناع

الدرس الثالث و الخمسون

بيعة العقبة الثانية

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادةً أدخرها لي ولكم إلى يوم المصير {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ... إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: ٨٨ - ٨٩]، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، أرسله الله رحمةً للعالمين، فشرح به الصدور، وأثار به العقول، وفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسانٍ وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد :

عَنْ جَابِرِ بْنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْثَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يَتَّبِعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ فِي الْمَوَاسِمِ وَمَجَنَّةَ وَعُكَاظَ يَقُولُ مَنْ يُؤْوِيَنِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي؟ حَتَّى أُبْلَغَ رِسَالَاتِ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَنْصُرُهُ وَلَا يُؤْوِيَهُ حَتَّىٰ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَرْحَلُ مِنْ مُضَرَ أَوْ الْيَمَنِ إِلَىٰ ذِي رَحِمِهِ فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ فَيَقُولُونَ لَهُ احْذَرْ غُلَامًا قُرَيْشِي لَا يَفْتِنُكَ وَيَمْشِي بَيْنَ رِجَالِهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ حَتَّىٰ بَعَثْنَا اللَّهُ مِنْ يَثْرِبَ فَيَأْتِيهِ الرَّجُلُ مِمَّا فَيُؤْمِنُ بِهِ وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَيَسْلِمُونَ بِإِسْلَامِهِ حَتَّىٰ لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ وَبَعَثْنَا اللَّهُ إِلَيْهِ فَأَنْتَمَرْنَا وَاجْتَمَعْنَا وَقُلْنَا : حَتَّىٰ مَتَىٰ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ فَرْحَلْنَا حَتَّىٰ قَدِمْنَا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ فَوَاعَدْنَا بَبِيعَةِ الْعُقَبَةِ فَقَالَ لَهُ عَمَةُ الْعَبَّاسِ يَا ابْنَ أَخِي مَا أَدْرِي مَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الَّذِينَ جَاءُوكَ إِنِّي ذُو مَعْرِفَةٍ بِأَهْلِ يَثْرِبَ فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَهُ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ فَلَمَّا نَظَرَ الْعَبَّاسُ فِي وُجُوهِهَا قَالَ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا نَعْرِفُهُمْ هَؤُلَاءِ أَحْدَاثٌ فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَامَ تُبَايِعُكَ؟ قَالَ " تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ وَعَلَى النَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَعَلَى أَنْ تَقُولُوا فِي اللَّهِ لَا تَأْخُذْكُمْ لَوْمَةٌ لَائِمٌ وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ وَتَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَرْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ وَلَكُمْ الْجَنَّةَ فَمَنْ تَبَايَعَهُ فَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ وَهُوَ أَصْغَرُ السَّبْعِينَ فَقَالَ رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ إِنَّا لَمْ نَضْرِبْ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْمَطِيِّ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ إخراجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةَ الْعَرَبِ كَافَّةً وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ وَأَنْ تَعْضُكُمُ السِّيُوفُ فِيمَا أَنْتُمْ تَصِيرُونَ عَلَىٰ ذَلِكَ فَخُذُوهُ وَاجْرِكُمْ عَلَى اللَّهِ وَإِمَّا أَنْتُمْ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْفَةً فَذُرُّوهُ فَهُوَ أَعْدَرُ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ فَقَالُوا : يَا أَسْعَدُ أَمِطْ عَنَّا يَدَكَ فَوَاللَّهِ لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ وَلَا نَسْتَقْبِلُهَا فَمَنْ تَبَايَعْنَا إِلَيْهِ رَجُلًا رَجُلًا فَأَخَذَ عَلَيْنَا وَشَرَطَ يُعْطِينَا بِدَلِكِ الْجَنَّةِ ثُمَّ انْصَرَفُوا إِلَى الْمَدِينَةِ وَبَعَثَ مَعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمْرُو بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَمُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ يُعْلِمَانِ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ الْقُرْآنَ وَيَدْعُوَانِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَتَزَلَّ عَلَى أَبِي أُمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ وَكَانَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ يُؤْمَهُمْ وَجَمَعَ بِهِمْ لَمَّا بَلَغُوا أَرْبَعِينَ فَأَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِمَا بَشْرٌ كَثِيرٌ مِنْهُمْ أُسَيْدُ بْنُ الْحَضِيرِ وَسَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ وَأَسْلَمَ بِإِسْلَامِهِمَا يَوْمَئِذٍ جَمِيعُ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ الرَّجَالِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا أُصَيْرِمَ عَمْرُو بْنُ تَابِتِ بْنِ وَقْشٍ فَإِنَّهُ تَأَخَّرَ إِسْلَامُهُ إِلَى يَوْمٍ أُحِدٍ وَأَسْلَمَ حِينَئِذٍ وَقَاتَلَ فَقُتِلَ قَبْلَ أَنْ يَسْجُدَ لِلَّهِ سَجْدَةً فَأُخْبِرَ عَنْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " (٥٢٢) .

(٥٢٢) - أخرجه أحمد: ٣/ ٣٢٢، ٣٢٩، ٣٩٤، والبيهقي في السنن: ٩/ ٩، من طريق ابن خيثم عن أبي الزبير ورجاله ثقات، ابن حبان:

١٦٨٦، الحاكم: ٢/ ٦٢٤ - ٦٢٥ وصححه ووافقه الذهبي، كشف الأستار عن زوائد البزار: ١٧٥٦ ورجاله رجال الصحيح، قال

من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه وسياقه أطول وتفصيله أكثر: وكان ممن شهد العقبة وبايع رسول الله قال: "خرجنا في حجاج قومنا من المشركين، وقد صلينا وفقهنا، معنا البراء بن معرور، كبيرنا وسيدنا، فلما توجهنا لسفرنا، وخرجنا من المدينة، قال البراء لنا: يا هؤلاء إنني قد رأيت رأياً، وإنني والله ما أدري توافقوني عليه أم لا؟ قلنا له: وما ذلك؟

قال: إنني قد رأيت أن أدع هذه البنية حتى تظهر، يعني الكعبة، وأن أصلي إليها، قال: فقلنا والله بلغنا أن نبينا - صلى الله عليه وسلم - يصلي إلا إلى الشام، وما نريد أن نخالفه، قال: فقال: إنني لمصل إليها. قال: فقلنا له: لكننا لا نفعل قال: فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام وصلى هو إلى الكعبة، حتى قدمنا مكة.

قال: وكنا قد عتبنا عليه، وأبي إلا الإقامة عليه، فلما قدم مكة قال لي: يا ابن أخي انطلق بنا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، حتى نسأله عما صنعت في سفري هذا، فإنه والله لقد وقع في نفسي منه شيء، لما رأيت من خلافكم إياي فيه.

قال: فخرجنا نسأل عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وكنا لا نعرفه، ولم نره قبل ذلك فلقينا رجلاً من أهل مكة، فسألناه عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: هل تعرفانه؟ فقلنا: لا قال: فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه؟

قال: قلنا: نعم، قال: وقد كنا نعرف العباس - كان لا يزال يقدم علينا تاجرًا قال: فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس. قال: فدخلنا المسجد فهذا العباس جالس، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - جالس معه، فسلمنا ثم جلسنا إليه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للعباس: هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟

قال: نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك.

قال: فوالله ما أنسى قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: الشاعر؟ قال: نعم، فقال له البراء بن معرور: يا نبي الله إنني خرجت في سفري هذا، وقد هداني الله للإسلام، فرأيت أن لا أجعل هذه

الحافظ في الفتح: ٢٢٠ / ٧ رواه أحمد بإسناد حسن وصححه الحاكم، وقال ابن كثير في السيرة: ١٩٦ / ٢، هذا إسناد جيد على شرط مسلم، وانظر المطالب العالبي باختصار: ٤٢٩٠، وقال رواه أبو بكر بن أبي شيبة وهو صحيح، وأبو يعلى وقال الهيثمي في المجمع: ٤٦ / ٦ رواه أحمد والبخاري وأحمد رجال الصحيح، واللفظ لأحمد.

البنية مني بظهر، فصليت إليها، وقد خالفني أصحابي في ذلك، حتى وقع في نفسي من ذلك شيء،
فماذا ترى يا رسول الله؟

قال: قد كنت على قبلة لو صبرت عليها. قال: فرجع البراء إلى قبلة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
-، وصلى معنا إلى الشام. قال: وأهله يزعمون أنه صلى إلى الكعبة حتى مات، وليس ذلك كما قالوا،
نحن أعلم به منهم.

قال: وخرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالعقبة من أوسط أيام التشريق،
قال: فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لها، ومعنا
عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر، سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا، وكنا نكتم
من معنا من قومنا من المشركين أمرنا، فكلّمناه وقلنا له: يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا، وشريف
من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبًا للنار غدًا، ثم دعواناه إلى الإسلام وأخبرناه
بميعاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إيانا العقبة. قال: فأسلم وشهد معنا العقبة، وكان نقيبا.

قال: فتمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول
الله - صلى الله عليه وسلم -، نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى إذا اجتمعنا في الشعب عند العقبة،
ونحن ثلاث وسبعون رجلًا، ومعنا امرأتان من نساينا نسيبه بنت كعب أم عمارة - إحدى نساء بني
مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي، إحدى نساء بني سلمة، وهي أم منيع.

قال: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، حتى جاءنا ومعه (عمه) العباس
بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له، فلما
جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج - وكانت العرب، إنما يسمون
هذا الحي من الأنصار: الخزرج خزرجها وأوسها - إن محمدًا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من
قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز
إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما
تحملتكم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في
عز ومنعة من قومه وبلده.

قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

قال: فتكلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فتلا القرآن، ودعا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ورغب في الإسلام، ثم قال: (أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم).

قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق نبياً، لنمنعك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة^(٥٣٣)، ورثناها كابرا عن كابر.

قال: فاعترض القول، والبراء يكلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حباً، وأنا قاطعوها -يعني اليهود- فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

قال فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم قال: (بل الدم الدم، والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم).

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (أخرجوا لي اثني عشر نقيباً منكم يكونون على قومهم، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً منهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس).

- وأما معبد بن مالك حديثه عن أخيه عن أبيه كعب بن مالك -قال: كان أول من ضرب على يد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - البراء بن معرور، ثم بايع بعد القوم، فلما بايعنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط: يا أهل الحباحب -المنازل- هل لكم في مذم والصبابة معه، قد اجتمعوا على حربكم، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (هذا أذب العقبة، هذا ابن أزيب -أسمع أي عدو الله، أما والله لأفرغن لك).

ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (ارفضوا إلى رحالكم). قال: فقال له العباس بن عباد بن فضله: والله الذي بعثك بالحق: إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيا ففنا؟

قال: فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (لم نؤمر، بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم).

قال: فرجعنا إلى مضاجعنا، فمنا عليها حتى أصبحنا.

^(٥٣٣) - الحلقة: السلاح. الهدم الهدم: أي ذهمتي ذمتكم، وحرمتي حرمتكم. مذموم جداً، الصبابة: جمع صابئ، وكان يقال للرجل إذا أسلم في زمن النبي صابئ أذب العقبة: اسم شيطان. ارفضوا: تفرقوا.

قال: فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش، حتى جاءونا في منازلنا، فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، لأنه والله ما من حي من أحياء العرب أبغض إلينا، إن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم.

قال: فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء، وما علمناه، قال: وقد صدقوا، لم يعلموه.

قال: وبعضنا ينظر إلى بعض. قال: ثم قام القوم، ومنهم الحارث بن هشام ابن المغيرة، وعليه نعلان جديدان، قال: فقلت كلمة كأني أشرك القوم بها فيما قالوا: ما تستطيع يا أبا جابر، وأنت سيد من ساداتنا أن تتخذ نعلين مثل نعلي هذا الفتى من قريش، قال: فسمعها الحارث، فخلعهما من رجله، ثم رمى بهما إلى، وقال: والله لتنتعلنهما. قال: يقول أبو جابر: أحفظت والله الفتى، اردد عليه نعليه، قال: فقلت: والله لا أردهما قال: قال والله صالح، لئن صدق الفأل لأسلبنه^(٥٢٤).

أسماء النقباء من الأنصار

* نقيب بني النجار:

١ - أسعد بن زرارة - رضي الله عنه.

* نقيب بني سلمة:

٢ - البراء بن معرور - رضي الله عنه - ٣ - عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر - رضي الله عنه -

* نقيب بني ساعدة:

٤ - سعد بن عبادة - رضي الله عنه - ٥ - المنذر بن عمرو - رضي الله عنه.

^(٥٢٤) - أخرجه أحمد: ٤٦٠ / ٣، ٤٦٢، الطيالسي: ٩٠ / ٢ - ٩٤ رقم الحديث: ٢٣٣٣، من طريق ابن إسحاق، السيرة النبوية ابن هشام: ٤٤٠ / ١، ٤٤٨ ابن جرير في التاريخ: ٩٠ / ٢ - ٩٣ بسند صحيح، وصححه ابن حبان كما في الفتح: ٤٢٥ / ٥ الموارد ص: ٤٠٨، السيرة النبوية ابن كثير: ١٩٢ / ٢ - ١٩٤، السيرة النبوية للذهبي: ٢٠٣ - ٢٠٦، وقال الهيثمي في المجمع: ٤٢ / ٦ - ٤٥: رواه أحمد والطبراني بنحو. ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع. ورواه البيهقي في الدلائل: ٤٤٥ / ٥ - ٤٤٩ وفي السنن: ٩ / ٩، والحاكم في المستدرک: ٦٢٤ / ٢ - ٦٢٥، وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقال الذهبي صحيح.

* نقيب بني زريق :

٦ - رافع بن مالك بن العجلان - رضي الله عنه - ..

• نقيب بني الحارث بن الخزرج :

٧ - عبد الله بن رواحة - رضي الله عنه - ٨ - سعد بن الربيع - رضي الله عنه - .

* نقيب بني عمرو بن عوف بن الخزرج :

٩ - عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - .

* نقباء الأوس :

* نقيب بني عبد الأشهل :

١٠ - أسيد بن حضير - رضي الله عنه - .

* نقيب بني عمرو بن عوف :

١١ - سعد بن خيثمة - رضي الله عنه - ١٢ - رفاعة بن عبد المنذر - رضي الله عنه - (٥٢٥)

الدروس والعبر من بيعة العقبة الثانية

١ - كانت هذه البيعة العظمى بملابساتها، وبواعثها، وآثارها، وواقعها التاريخي (فتح الفتوح)^٥ لأنها كانت الحلقة الأولى في سلسلة الفتوحات الإسلامية التي تتابعت حلقاتها في صور متدرجة مشدودة بهذه البيعة

٢ - إن حقيقة الإيمان وأثره في تربية النفوس تظهر آثارها في استعداد هذه القيادات الكبرى لأن تبذل أرواحها ودماءها في سبيل الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - ، ولا يكون لها الجزاء في هذه الأرض كسبًا ولا منصبًا ولا قيادة ولا زعامة، وهم الذين أفنوا عشرات السنين من أعمارهم يتصارعون على الزعامة والقيادة، إنه أثر الإيمان بالله وبحقيقة هذا الدين عندما يتغلغل في النفوس.

(٥٢٥) - قال ابن هشام في السيرة (٢/٥٨) : وأهل العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التيهان، ولا يعدون رفاعة.

٣- يظهر التخطيط العظيم في بيعة العقبة ، حيث تمت في ظروف غاية في الصعوبة ، وكانت تمثل تحدياً خطيراً وجريئاً لقوى الشرك في ذلك الوقت^٥ ولذلك كان التخطيط النبوي لنجاحها في غاية الإحكام والدقة على النحو التالي :

أ- سرية الحركة والانتقال لجماعة المبايعين ، حتى لا ينكشف الأمر ، فقد كان وفد المبايعة المسلم ، سبعين رجلاً وامرأتين ، من بين وفد يثربي قوامه نحو خمسمائة ، مما يجعل حركة هؤلاء السبعين صعبة ، وانتقالهم أمراً غير ميسور ، وقد تحدد موعد اللقاء في ثاني أيام التشريق بعد ثلث الليل ، حيث النوم قد ضرب أعين القوم ، وحيث قد هدأت الرِّجُل ، كما تم تحديد المكان في الشعب الأيمن ، بعيداً عن عين من قد يستيقظ من النوم لحاجة .

ب- الخروج المنظم لجماعة المبايعين إلى موعد ومكان الاجتماع ، فخرجوا يتسللون مستخفين ، رجلاً رجلاً ، أو رجلين رجلين .

ج- ضرب السرية التامة على موعد ومكان الاجتماع ، بحيث لم يعلم به سوى العباس بن عبد المطلب الذي جاء مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ليتوثق له وعلي بن أبي طالب الذي كان عيئاً للمسلمين على فم الشعب ، وأبو بكر الذي كان على فم الطريق وهو الآخر عينٌ للمسلمين ، أما من عداهم من المسلمين ، وغيرهم فلم يكن يعلم عن الأمر شيئاً ، وقد أمر جماعة المبايعين أن لا يرفعوا الصوت ، وأن لا يطيلوا في الكلام ، حذراً من وجود عين يسمع صوتهم ، أو يجس حركتهم .

د- متابعة الإخفاء والسرية حين كشف الشيطان أمر البيعة ، فأمرهم النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يرجعوا إلى رحالهم ولا يحدثوا شيئاً ، رافضاً الاستعجال في المواجهة المسلحة التي لم تنتهياً لها الظروف بعد ، وعندما جاءت قريش تستبرئ الخبير ، موه المسلمون عليهم بالسكوت ، أو المشاركة بالكلام الذي يشغل عن الموضوع .

هـ- اختيار الليلة الأخيرة من ليالي الحج ، وهي ليلة الثالثة عشر من ذي الحجة ، حيث سينفر الحجاج إلى بلادهم ظهر اليوم التالي وهو اليوم الثالث عشر ، ومن ثم تضيق الفرصة أمام قريش في اعتراضهم أو تعويقهم إذا انكشف أمر البيعة ، وهو أمر متوقع وهذا ما حدث .

٤- كانت البنود الخمسة للبيعة من الوضوح والقوة بحيث لا تقبل التمييع والتراخي، إنه السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في اليسر والعسر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام في الله لا تأخذهم فيه لومة لائم، ونصر لرسول الله وحمايته إذا قدم المدينة. (٥٢٦)

الدرس الرابع والخمسون

هجرة المسلمين إلى المدينة

الحمد لله رب العالمين، ولي الصالحين، ولا عدوان إلا على الظالمين.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله الأولين والآخريين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إمام المجاهدين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ناشري لواء الدين، وعلى من تبعهم من سلف هذه الأمة وخلفها ممن جاهد وبذل ورافق وناصح في كل وقت وحين.
معشر الإخوة والأخوات والبنين: حياكم الله وأحياكم، وأطال أعماركم، وأحسن أعمالكم، وذخراً للأمة أعدكم، تُعلون صروحها، وتضمدون جروحها، وتداوون قروحها، ولللمة تسمون في سماها، وتحمون حماها، وترمون من رماها.

(٥٢٦) - السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (ص: ٢٤٧)

تحية أنفاس الرياض وشى بها

فجاءت كأن المسك خالط نفحها لها في أنوف الناشقين تَضَوُّعُ

قال الزهري: عن عروة، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ - وهو يومئذ بمكة - للمسلمين: "قد أريت دار هجرتكم، أريت سبخة ذات نخل بين لابتين"، فهاجر من هاجر قبل المدينة حين ذكر ذلك رسول الله ﷺ، ورجع إلى المدينة من كان هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين. رواه البخاري وقال أبو موسى: عن النبي ﷺ: "أريت في المنام أنى أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وهلى إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب".

ورواه مسلم كلاهما: عن أبي كريب، زاد مسلم وعبد الله بن مراد كلاهما عن أبي أسامة، عن يزيد بن عبد الله بن أبي بردة، عن جده أبي بردة، عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري، عن النبي ﷺ الحديث بطوله.

أول من هاجر إلى المدينة

عَنْ سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ جَدَّتِهِ أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَتْ: لَمَّا أَجْمَعَ أَبُو سَلَمَةَ الْخُرُوجَ إِلَى الْمَدِينَةِ رَحَّلَ لِي بَعِيرَهُ، ثُمَّ حَمَلَنِي عَلَيْهِ، وَجَعَلَ مَعِيَ ابْنِي سَلَمَةَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ فِي حِجْرِي، ثُمَّ خَرَجَ يَقُودُ بِي بَعِيرَهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ رِجَالُ بَنِي الْمُغِيرَةَ قَامُوا إِلَيْهِ، فَقَالُوا: هَذِهِ نَفْسُكَ غَلَبَتْنَا عَلَيْهَا، أَرَأَيْتَ صَاحِبَتَنَا هَذِهِ عَلَامَ تَنْرُكِكَ تَسِيرُ بِهَا فِي الْبِلَادِ؟ قَالَتْ: فَتَزَعُوا خَطَامَ الْبَعِيرِ مِنْ يَدِهِ، وَأَخَذُونِي مِنْهُ. قَالَتْ: وَغَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ بَنُو عَبْدِ الْأَسَدِ رَهْطُ أَبِي سَلَمَةَ، فَقَالُوا: وَاللَّهِ لَا تَنْرُكُ ابْنَنَا عِنْدَهَا إِذْ تَرَعْتُمُوهَا مِنْ صَاحِبِنَا، قَالَتْ: فَتَجَادَبُوا ابْنِي سَلَمَةَ بَيْنَهُمْ حَتَّى خَلَعُوا يَدَهُ، وَأَنْطَلَقَ بِهِ بَنُو عَبْدِ الْأَسَدِ، وَحَبَسَنِي بَنُو الْمُغِيرَةَ عِنْدَهُمْ، وَأَنْطَلَقَ زَوْجِي أَبُو سَلَمَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، قَالَتْ: فَفَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِي وَبَيْنَ زَوْجِي. قَالَتْ: فَكُنْتُ أُخْرِجُ كُلَّ غَدَاةٍ فَأَجْلِسُ فِي الْأَبْطَحِ، فَمَا أزالُ أَبْكِي حَتَّى أُمْسِيَ - سَنَةً أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا - حَتَّى مَرَّ بِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَمِّي أَحَدُ بَنِي الْمُغِيرَةَ، فَرَأَى مَا بِي فَرَحِمَنِي، فَقَالَ لِبَنِي الْمُغِيرَةَ: أَلَا تُخْرِجُونَ هَذِهِ الْمُسْكِينَةَ؟ فَرَفْتُمْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ زَوْجِهَا وَبَيْنَ وَلَدِهَا؟ قَالَتْ: فَقَالُوا لِي: الْحَقِّي بِزَوْجِكَ إِنْ شِئْتَ. قَالَتْ: فَردَّ بَنُو عَبْدِ الْأَسَدِ إِلَيَّ عِنْدَ ذَلِكَ ابْنِي، قَالَتْ: فَارْتَحَلْتُ بَعِيرِي، ثُمَّ أَخَذْتُ ابْنِي فَوَضَعْتُهُ فِي حِجْرِي، ثُمَّ خَرَجْتُ أُرِيدُ زَوْجِي بِالْمَدِينَةِ، قَالَتْ: وَمَا مَعِيَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، حَتَّى إِذَا كُنْتُ بِالتَّنْعِيمِ لَقِيتُ عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ بْنَ أَبِي طَلْحَةَ أَخَا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، فَقَالَ: إِلَى أَيْنَ يَا ابْنَةَ أَبِي

أُمِّيَّة؟ قُلْتُ: أُرِيدُ زَوْجِي بِالْمَدِينَةِ. قَالَ: أَوْ مَا مَعَكَ أَحَدٌ؟ قُلْتُ: مَا مَعِيَ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ وَابْنِي هَذَا. فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا لَكَ مِنْ مَتْرَكٍ. فَأَخَذَ بِخِطَامِ الْبَعِيرِ فَأَنْطَلَقَ مَعِيَ يَهْوِي بِي، فَوَاللَّهِ مَا صَحَبْتُ رَجُلًا مِنَ الْعَرَبِ قَطُّ أَرَى أَنَّهُ كَانَ أَكْرَمَ مِنْهُ؛ كَانَ إِذَا بَلَغَ الْمَنْزِلَ أَنْأَخَ بِي، ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا نَزَلْتُ اسْتَأْخَرَ بَعِيرِي فَحَطَّ عَنْهُ، ثُمَّ قَيَّدَهُ فِي الشَّجَرِ، ثُمَّ تَدَحَّى إِلَى شَجَرَةٍ فَاضْطَجَعَ تَحْتَهَا، فَإِذَا دَنَا الرَّوْحُ قَامَ إِلَيَّ بَعِيرِي فَقَدَّمَهُ فَرَحَلَهُ، ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنِّي، وَقَالَ: ارْكَبِي. فَإِذَا رَكِبْتُ فَاسْتَوَيْتُ عَلَى بَعِيرِي، أَتَى فَأَخَذَ بِخِطَامِهِ فَقَادَنِي حَتَّى يَنْزِلَ بِي، فَلَمْ يَزَلْ يَصْنَعُ ذَلِكَ بِي حَتَّى أَقْدَمَنِي الْمَدِينَةَ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيَّ قَرِيبَةَ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِقُبَاءٍ، قَالَ: زَوْجُكَ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ - وَكَانَ أَبُو سَلَمَةَ بِهَا نَازِلًا - فَادْخُلِيهَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ. ثُمَّ انْصَرَفَ رَاجِعًا إِلَى مَكَّةَ فَكَانَتْ تَقُولُ: مَا أَعْلَمُ أَهْلَ بَيْتٍ فِي الْإِسْلَامِ أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَ آلَ أَبِي سَلَمَةَ، وَمَا رَأَيْتُ صَاحِبًا قَطُّ كَانَ أَكْرَمَ مِنْ عُمَانَ بْنِ طَلْحَةَ.

أَسْلَمَ عُمَانُ بْنُ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ الْعَبْدَرِيُّ هَذَا بَعْدَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَهَاجَرَ هُوَ وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ مَعًا، وَفُقِلَ يَوْمَ أَحَدٍ أَبِيهِ وَإِخْوَتُهُ؛ الْحَارِثُ، وَكِلَابٌ،^(٥٢٧)

وإن لنا هنا لوقفه عند قصة عثمان هذا، فقد كان يومئذ كافرا، لأنه لم يسلم إلا أوائل عام الفتح، وهي تشهد لما ذكرته من نفاسة معدن العرب، وفضائلهم في الجاهلية، ولا سيما خلق المروءة والنجدة، وحماية الضعيف، فقد أبت عليه مروءته وخلقته العربي الأصيل أن يدع امرأة شريفة تسير واحدها في هذه الصحراء الموحشة، وإن كانت على غير دينه، وهو يعلم أنها بهجرتها تراغمه وأمثاله من كفار قريش!!

فأين من هذه الأخلاق - يا قومي المسلمين والعرب - أخلاق الحضارة في القرن العشرين، من سطو على الحريات، واغتصاب للأعراض، بل وعلى قارعة الطريق، وما تطالعنا به الصحافة كل يوم من أحداث يندى لها جبين الإنسانية، ومن تفنن في وسائل الاغتصاب، وانتهاك الأعراض، والسطو على الأموال. إن هذه القصة - ولها مثل ونظائر - لتشهد لما قلته حينما تحدثت عن العرب من أن رصيدهم في الفضائل كان أكثر من مثالبهم وذنائبهم، فمن ثم اختار الله منهم خاتم أنبيائه ورسوله، وكانوا أهلا لحمل الرسالة وتبليغها إلى الناس كافة.

(٥٢٧) - البداية والنهاية ط هجر (٤/ ٤٢٣)

مواكب المهاجرين

هجرة عامر بن ربيعة وزوجه:

ثم قدمها بعد أبي سلمة عامر بن ربيعة حليف بني عدي بن كعب، ومعه زوجته السيدة ليلى بنت أبي حثمة، قال الإمام ابن عبد البر: إنها أول طعيينة قدمت المدينة، وقال موسى بن عقبة: أول طعيينة السيدة أم سلمة، ولكل وجهة، فالسيدة أم سلمة أول من خرجت مهاجرة من النساء، ولولا منع أهلها لها لكانت أول من وصلت المدينة، والسيدة ليلى أول من وصلت إليها من النساء.

هجرة مصعب، وابن أم مكتوم، وبلال، وسعد، وعمار:

ثم تتابع المسلمون سراعا إلى الهجرة، فهاجر مصعب بن عمير، وعبد الله ابن أم مكتوم، وكانا يقرئان القرآن للأنصار، وبلال بن رباح، وسعد بن أبي وقاص- رضي الله عنهم-. روى البخاري في صحيحه بسنده عن البراء بن عازب قال: «أول من قدم علينا- زاد في رواية الحاكم في الإكليل: من المهاجرين- مصعب بن عمير وابن أم مكتوم».

بنو جحش: ثم هاجر بنو جحش: عبد الله بن جحش بن رباب الأسدي، ينتهي نسبه إلى أسد بن خزيمة حليف بني أمية بن عبد شمس، احتمل بأهله، ومعه أخوه أبو أحمد عبد بن جحش، وكان أبو أحمد رجلا ضريب البصر، وكان يطوف مكة أعلاها وأسفلها بلا قائد، وكان شاعرا، وكانت عنده الفارعة بنت أبي سفيان بن حرب، وكان معهما محمد بن عبد الله بن جحش، وكان منزلهما ومنزل أبي سلمة بن عبد الأسد على مبشّر بن عبد المنذر بقباء في بني عمرو بن عوف.

وكذلك هاجر نساؤهم: زينب بنت جحش، وحمنة بنت جحش- زوج مصعب بن عمير- وأم حبيب بنت جحش- زوجة عبد الرحمن بن عوف، فغلقت دار بني جحش بسبب الهجرة، فمر بها عتبة بن ربيعة، والعباس بن عبد المطلب، وأبو جهل بن هشام، وهم مصعدون إلى أعلى مكة، فنظر إليها عتبة تخفق أبوابها يبأبا(٥٢٨) ليس بها ساكن، فلما راها كذلك تنفس الصعداء ثم قال:

كل دار وإن طالَّت سلامتها ... يوماً ستدركها النكباء والحبوب (٥٢٩)

ثم قال عتبة: أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها، فقال أبو جهل:

وما تبكي من فل ابن فل (٥٣٠) ، ثم قال للعباس: هذا من عمل ابن أخيك هذا، فرّق جماعتنا،
وشتت أمرنا، وقطع بيننا.

وقد عدا أبو سفيان بن حرب على دار بني جحش فتملكها، وقيل: باعها من عمرو بن علقمة العامري،
فذكر ذلك عبد الله بن جحش- لما بلغه- لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال له: «ألا ترضى يا عبد
الله أن يعطيك الله بها داراً في الجنة خيراً منها»؟ قال: بلى، قال: «فذلك لك» .

فلما فتحت مكة كلم أبو أحمد عبد بن جحش رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دارهم، فأبطأ عليه
الرسول، فقال الناس: يا أبا أحمد إنه- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يكره أن ترجعوا في شيء أصيب منكم في
الله، فأمسك أبو أحمد عن الكلام في ذلك، وقد سجل أبو أحمد هجرة بني جحش في قصيدة له (٥٣١)

بنو غنم بن دودان: ثم قدم المسلمون أرسالا، وكان بنو غنم بن دودان أهل إسلام قد أوعبوا إلى المدينة
هجرة: رجالهم ونساؤهم، منهم- غير بني جحش ونسائهم-:

عكاشة بن محصن، وشجاع وعقبة ابنا وهب، وأربد بن حميرة (٥٣٢) ، ومنقذ بن نباتة، وسعيد بن
رقيش، ومحرز بن نضلة، ويزيد بن رقيش وغيرهم.

ومن نسائهم: جذامة بنت جندل، وأم قيس بنت حصن، وأم حبيب بنت ثمامة، وامنة بنت رقيش،
وسخبرة بنت تميم (٥٣٣) .

(٥٢٩) - الحوب: التوجع. وهذا البيت لأبي دؤاد الإيادي في قصيدة له.

(٥٣٠) - هكذا في السيرة لابن إسحاق، وفل: فلان، وفي السيرة لابن هشام «من قل» بالقاف، قال ابن هشام: القل: الواحد، واستشهد
ببيت لبدي بن ربيعة.

(٥٣١) - سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٧٢، ٤٧٣.

(٥٣٢) - بضم الحاء، وفتح الميم، وتشديد الباء المكسورة، وقال ابن هشام: ويقال: ابن حميرة بإسكان الياء.

(٥٣٣) - السيرة ج ١ ص ٤٧٠-٤٧٢؛ والبداية والنهاية ج ٣ ص ١٧٠، ١٧١.

الدرس الخامس والخمسون

هجرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه-

الحمد لله رب العالمين المنفرد بالقدم والبقاء والعظمة والكبرياء والعز الذي لا يرام، الصمد الذي لا بصوره العقل ولا يحده الفكر ولا تدركه الأفهام، القدوس الذي تنزهه عن أوصاف الحدوث فلا يوصف بعوارض الأجسام الغني عن جميع المخلوقات فالكل مفتقر إليه وهو الغني على الدوام، سبق الزمان فلا يقال متى كان، وخلق المكان فلا يقال أين كان فتبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام.

وأشهد إن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفیه من خلقه وحبیب

صلوا على خير الأنام محمد إن الصلاة عليه نور يعقد

من كان صلى عليه قاعد يغفر له قبل القيام وللمتاب يجدد

وكذلك إن صلى عليه وهو قائما يغفر له قبل القعود ويرشد

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلي يوم الدين
ونحن معهم يا أرحم الراحمين

إخوة الإسلام : راينا في الدرس الماضي بدء الهجرة إلى المدينة و كيف أن المسلمون خرجوا إليها سرا
تحت جنح الظلام مخافة المشركين الذين يتربصون بهم الدوائر فقد ترك هؤلاء أموالهم و ديارهم فرارا
بدينهم و اليوم نقف مع هجرة الفاروق رضي الله عنه لنتعرف على حقيقة هجرته فقد تعرض عمر بن
الخطاب رضي الله عنه بعد إسلامه للإيذاء من قبل مشركي قريش، ولم يكف عنه المشركون حتى
أجاره العاص بن وائل السهمي، فلما أذن الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة
كان رضي الله عنه من المهاجرين الأولين على الرغم من منزلته ومكانته بمكة التي تنكر لها القرشيون
بعد إسلامه.

هجرة عمر بن الخطاب سرًا : قال ابن عمر رضي الله عنهما: لما قدم المهاجرون الأولون من مكة إلى
المدينة نزلوا بالعصبة (من جهات قباء) إلى جنب قباء، فأهمهم سالم مولى أبي حذيفة لأنه كان أكثرهم
قرآنًا، فيهم عمر بن الخطاب، وأبو سلمة بن عبد الأسد^(٥٣٤).

وهاجر رضي الله عنه مستخفياً (سرًا) كالمهاجرين قبله والمهاجرين بعده ومنهم رسول الله صلى الله
عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه.

قال رضي الله عنه وهو يحكي قصة هجرته: اتعدت لما أردنا الهجرة إلى المدينة أنا وعياش بن أبي
ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل السهمي التناضب من أضاة بني غفار (حي على بعد ١٣ كيلو من

(٥٣٤) - رواه ابن سعد: الطبقات ٣/٥٢٢، ٨٧/٣، ٨٨، ابن أبي شيبة: المصنف ١/٣٠٢، ٣٠٣، ابن شبة: تاريخ المدينة ١/٤٨، ٤٩

مكة)، فوق سرف، وقلنا: أينما لم يصبح عندها فقد حبس، فليمض صاحباه، قال: فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب، وحبس عنا هشام، ففتن فافتتن^(٥٣٥).

ولحق بعمر رضي الله عنه عدد من قرابته وحلفائهم وعددهم عشرون. قال البراء بن عازب رضي الله عنه: أول من قدم علينا -يعني المدينة- مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، وكانا يقرئان الناس، فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

وممن هاجر مع عمر رضي الله عنه ابنه عبد الله، فلما فرض عمر رضي الله عنه العطاء فرض للمهاجرين الأولين أربعة آلاف، وفرض لابن عمر ثلاثة آلاف وخمسمائة، فقيل له: هو من المهاجرين، فلم نقصته من أربعة آلاف؟ فقال: إنما هاجر به أبواه، يقول: ليس هو كمن هاجر بنفسه.

ولما وصل عمر رضي الله عنه المدينة نزل ومن معه العُصبة، وهي من منازل الأوس، وجاء في رواية أنه نزل على رفاعه بن عبد المنذر. ولا تعارض في ذلك فرفاعه من الأوس سكان العُصبة^(٥٣٦).

هل هاجر عمر بن الخطاب جهرا وعلانية؟

انتشرت رواية تنص على ان عمر رضي الله عنها لما أراد ان يهاجر اعلنها على الملا و لم يبال و هذا الرواية لم تأت من طرق ثابتة، وفيها أن عمر رضي الله عنه لما همَّ بالهجرة، تقلد سيفه، وتنكب قوسه، وانتضى (استخرج من كنانته) في يده أسهماً، واختصر عنزته (وهي شبه العكازة) ومضى قبل الكعبة، والملا من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعمائة متمكناً ثم أتى المقام فصلى متمكناً، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة وقال لهم: شأهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس (الأنوف)، من أراد أن تتكله أمه ويؤتم ولده، وترمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي، قال علي: فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم ومضى لوجهه^(٥٣٧).

(٥٣٥) - السيرة النبوية لابن هشام ١٢٩/٢، ابن سعد: الطبقات ٢٧١/٣، ٢٧٢.

(٥٣٦) - البخاري: الصحيح ٢: ٣٣٥، ٣٣٧، ٢١٤/٣ وغيره.

(٥٣٧) - رواه ابن عساکر: تاريخ دمشق ص ٤٥، ابن الأثير: أسد الغابة ٥٨/٤، وفي إسناده عندهما الزبير بن محمد بن خالد العثماني وعبد الله بن القاسم الأيلي وأبيه القاسم لم أجد لهم تراجم وقال الشيخ ناصر الدين الألباني: وهؤلاء الثلاثة في عداد المجاهدين فإن أحداً من أهل الجرح والتعديل لم يذكرهم مطلقاً، دفاع عن الحديث النبوي والسيرة ص ٤٣، ٤٢. وأشار الدكتور أكرم العمري في كتابه السيرة النبوية الصحيحة إلى ضعف هذه القصة ٢٠٦/١. وهذه القصة لم يذكرها ابن إسحاق وابن هشام وابن كثير في السيرة والذهبي في السيرة وابن حجر في الإصابة في ذكرهم لهجرة عمر رضي الله عنه.

ومن هنا نعلم ضعف هذه الرواية وعدم ثبوتها كما بينت في الهامش ونجد بعض الذين يتكلمون عن هذه القصة يضعون لها المبررات إذ كيف يهاجر عمر جهرا و يهاجر النبي صلى الله عليه وسلم سرا و لو وقفوا على اصل القصة لاستراحوا من تعليقات و اجتهادات لا محل لها

وصول عمر بن الخطاب المدينة

وكان وصول عمر رضي الله عنه المدينة قبل وصوله صلى الله عليه وسلم، كما في حديث البراء بن عازب المتقدم الذكر حيث ذكر وصوله صلى الله عليه وسلم بعد قدوم عمر، وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال وهو يصف حال المسلمين بالمدينة قبل مقدم النبي صلى الله عليه وسلم إليهم: كنا قد استبطأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدوم علينا، وكانت الأنصار يغدون إلى ظهر الحرة، فيجلسون حتى يرتفع النهار، فإذا ارتفع النهار وحميت الشمس رجعت إلى منازلها، قال عمر: وكنا ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رجل من اليهود قد أوماً على أطم من آطامهم، فصاح بأعلى صوته: يا معشر العرب، هذا صاحبكم الذي تنتظرون، قال عمر: وسمعت الوجبة في بني عمرو بن عوف فأخرج من الباب، وإذا المسلمون قد لبسوا السلاح، فانطلقت مع القوم عند الظهر، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين، حتى نزل في بني عمرو بن عوف^(٥٣٨).

من آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين عمر بن الخطاب؟

وبعد وصول النبي صلى الله عليه وسلم المدينة شرع الله له المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في السنة الأولى من الهجرة، وذلك بسبب ما لقيه المهاجرون من فقد أموالهم، وهجرهم لأوطانهم وأهليهم وإصابتهم بالحمى. فأصبح لكل مهاجري أختاً من الأنصار. وترتب على المؤاخاة حقوق خاصة كالمواساة والتعاون على أعباء الحياة بين الاثنين وكذلك توارثهما دون ذوي الرحم. فلما ألف المهاجرون الحياة في المدينة، وعوضهم عن بعض ما فقدوه من أموالهم بعد موقعة بدر ألغى الله تعالى التوارث بنزول قوله تعالى: {وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ} [الأحزاب: ٦].

(٥٣٨) - رواه البزار: المسند ٤٠٦/١.

وقد جاءت روايات متعددة في ذكر من آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فروي أن النبي صلى الله عليه وسلم آخى بين عمر رضي الله عنه وبين بعض الصحابة، فروي أنه صلى الله عليه وسلم آخى بين عمر وبين أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وروي أنه آخى بينه وبين عتبان بن مالك وقيل بينه وبين عويم بن ساعدة رضي الله عنهما. وقيل آخى بينه وبين معاذ بن عفراء رضي الله عنه فالله أعلم^(٥٣٩).

وقد ذكر ابن حجر رحمه الله أنه كانت هناك مؤاخاة أولى بين المهاجرين بعضهم بعضاً، لأن بعضهم كان أقوى بالمال والعشيرة، فعلى هذا يحمل ما ورد من مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب مع أبي بكر، وهي مؤاخاة أولى^(٥٤٠).

وأما أخو عمر رضي الله عنه من الأنصار فلم يرد في تحديده نص ثابت. ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم آخى بينه وبين أحد الأنصار، والذي أرجحه -والله أعلم- أنه عتبان بن مالك، لأنه ثبت عن عمر رضي الله عنه أنه كان له جار من الأنصار يتناوب معه النزول إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ووضح العلماء أن هذا الجار هو عتبان بن مالك، وذكر ابن حجر أنه ورد في كتاب الصلاة من صحيح البخاري أن عمر قال: كان لي أخ من الأنصار. وهذا هو الذي رجّحه ابن كثير وتابعه ابن إسحاق فيه^(٥٤١).

(٥٣٩) - انظر هذه الروايات في: ابن إسحاق: السيرة النبوية لابن هشام ١٧٣/٢، ٢٧٤/٤، البلاذري: أنساب الأشراف ص: ١٥٧،

ابن سعد: الطبقات ٢٧٢/٣. البخاري: التاريخ الصغير ٦٩/١، ابن شبه: تاريخ المدينة ٢٢٩/٢.

(٥٤٠) - ابن حجر: فتح الباري ٢٧١/٧.

(٥٤١) - البخاري في الصحيح ٢٨/١، ٢٥٨/٣. ابن كثير: السيرة النبوية ٣٢٥/٢.

الدرس السادس والخمسون

عمل النبي بتجارة أيام المواسم قبل الهجرة

الحمد لله الذي وفق العاملين لطاعته فوجدوا سعيهم مشكورا، وحقق آمال الآملين برحمة فمنحهم عطاء موفورا، وبسط بساط كرمه للتائبين فأصبح وزرهم مغفورا، وأسبل من نعمه على الطالبين وابلا غزيرا، سبحانه فتح الباب للطلبين، وأظهر غناه للراغبين، وأطلق للسؤال السنة القاصدين، وقال في كتابه المبين ((ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين))
واشهد إن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو علي كل شيء قدير

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمد عبد الله ورسوله وصفیه من خلقه وحبیب الذي سیح نفسه بما
أولاه من وده، فقال جل وعلی ((سبحان الذي أسرى بعبده))

یا سیدی یا رسول الله :

أنت الذي تستوجب التفضیلا فصلوا علیه بكرة وأصیلا

ملئت بنبوته الوجود فأظهرا بحسامه الدين الصحيح فأسفرا

ومن لم یصلي علیه كان بخيلا فصلوا علیه وسلموا تسليما

وعلى اله وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسك بسنته واقتدى بهديه واتبعهم بإحسان إلی يوم الدين
ونحن معهم یا أرحم الراحمین

عن سويد بن قيس، قال: جلبت أنا ومخرقة العبدي بزاً من هجر فأتينا به مكة فجاءنا رسول الله
صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم يمشي، فساومنا بسرراويل: فبعناه، وثم رجل يزن بالأجر، فقال
له رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: (زن وأرجح).^(٥٤٢)

عن سويد بن قيس قال: جلبت أنا ومخرقة العبدي بزاً من هجر، فأتانا رسول الله صلى الله عليه
وعلى آله وصحبه وسلم ونحن بمني، ووزان يزن بالأجر، فاشتري منا سراويل، فقال للوزان: (زن
وأرجح).^(٥٤٣)

عن سماك بن حرب. قال: سمعت مالكا، أبا صفوان بن عميرة، قال: بعث من رسول الله صلى الله
عليه وعلى آله وصحبه وسلم رجل سراويل قبل الهجرة. فوزن لي، فأرجح لي.^(٥٤٤)

عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: (إذا وزنتم
فأرجحوا).

(٥٤٢) - صحيح ابن ماجه ٢٢٢٠.

(٥٤٣) - صحيح ابن ماجه ٢٢٢٠.

(٥٤٤) - صحيح أحاديث البيوع.

عن أبي صفوان بن عميرة، قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، بمكة قبل أن يهاجر - بهذا الحديث - ولم يذكر يزن بأجر. (٥٤٥)

دروس وعبر

أولاً: سُمعةٌ تجاريةٌ طيبةٌ:

فالأمانة سبيل نجاح التاجر وأهم رأس مال يستثمره في التجارة، فإذا اجتمع مع الأمانة الصدقُ، توافرت الأرضية التجارية السليمة، وهو ما اجتمع للرسول صلى الله عليه وسلم، فقد عرّف الله عليه وسلم قبل الرسالة بالصادق الأمين، فسُمعتهُ التجارية الطيبة ولقّبهُ الأمين جَعَلَا السيدة خديجة - رضي الله عنها - تختاره ليتولى القيام بتجارتها أولاً، ثم تتزوجه صلى الله عليه وسلم.

للسمعة التجارية الطيبة أثر واضح على المجتمع التجاري، وضح ذلك في ضوء سيرة النبي صلى الله عليه وسلم.

ذكاءٌ ومهارةٌ في التجارة:

كان صلى الله عليه وسلم ذا ذكاء شديد ومهارة في التجارة، وليس أدل على ذلك مما عمله صلى الله عليه وسلم في مال خديجة، فروي أنه (لما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ما جاء به، فأضعف أو قريباً) [دلائل النبوة للبيهقي]. أي إنه صلى الله عليه وسلم عاد من رحلته في تجارة خديجة بربح مُضَاعَفٍ، ولا شك أن الأسواق التي كان يغشاها رسول الله صلى الله عليه وسلم - مثل سوق عكاظ - كانت تمتلئ بالتجار ذوي التجارب ممن يكبرونه سنّاً وخبرة.

إضافة إلى ذلك فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتمتع بالفطنة في المعاملات التجارية وفهم التجار. وقصته صلى الله عليه وسلم مع التاجر الذي يَغْشُ مشهورة، فقد روى أبو هريرة - رضي الله عنه - ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَرَّ عَلَى صُبْرَةٍ (أي: كومة) طَعَامٍ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا فَتَأَلَّتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا»، فَقَالَ: «مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟!»، قَالَ: «أَصَابَهُ الْمَطَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ»، قَالَ: «أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ؟ مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي» (رواه مسلم).

فمن النظرة الأولى للطعام بدا فائق الجودة والنضارة، لكن بعد الفحص الدقيق فطن النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما كان خافياً، فقد أدخل النبي صلى الله عليه وسلم يده الشريفة إلى تلك الكومة فإذا بها مبتلة على نحو يوحى بقرب فسادها، فلم يكتف بالنظر لظاهر السلعة المعروضة، بل قام بالفحص والتدقيق للتأكد من جودتها ظاهراً وباطناً.

– في العصر الحديث أسلم الملايين في العالم وخاصة في شرق آسيا بسبب امتثال بعض التجار المسلمين لأمر وهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وضح ذلك، واذكر أمثلة من بعض الدول.

– كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تاجراً وهو مرسل من عند الله، فهل هو في حاجة للتجارة وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! وما دلالة ذلك؟

سماحته صلى الله عليه وسلم في البيع والشراء

كان من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم السماحة في البيع والشراء، يروي لنا عن ذلك ابن عمر – رضي الله عنهما – فيقول: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فَكُنْتُ عَلَى نَاقَةٍ صَغِيرَةٍ كَثِيرَةَ النُّفُورِ لِعُمَرَ، فَكَانَ يَغْلِبُنِي فَيَتَقَدَّمُ أَمَامَ الْقَوْمِ، فَيَزْجُرُهُ عُمَرُ وَيُرُدُّهُ، ثُمَّ يَتَقَدَّمُ فَيَزْجُرُهُ عُمَرُ وَيُرُدُّهُ» فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعُمَرَ: «بِعْنِيهِ» قَالَ: «هُوَ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «بِعْنِيهِ» فَبَاعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هُوَ لَكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ تَصْنَعُ بِهِ مَا شِئْتَ!» (رواه البخاري)، فأخذها من الأب وأهداها لابن ليفعل بها ما يشاء؛ سماحة منه صلى الله عليه وسلم.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمَحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى». (رواه البخاري).

حثَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على السماحة في البيع والشراء، فما آثار تطبيق ذلك اجتماعياً؟

وصيته صلى الله عليه وسلم بالبرِّ والصدِّقِ والصدِّقةِ

أوصى النبي صلى الله عليه وسلم التجار في بيعهم بالبر والصدق والصدقة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَّا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَّتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا». (متفق عليه).

وذات يوم «خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُصَلَّى، فَرَأَى النَّاسَ يَتَّبِعُونَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ، فَاسْتَجَابُوا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَفَعُوا أَعْنَاقَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ إِلَيْهِ فَقَالَ: (إِنَّ التُّجَّارَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فُجَّارًا، إِلَّا مَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَبَرَّ وَصَدَّقَ)». (رواه الترمذي وابن ماجه والطبراني).

كيف تقتدي به صلى الله عليه وسلم؟

١. كُنْ تاجراً أميناً وصادقاً في بَيْعِكَ وشرائك كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم.
٢. كُنْ سَمَحاً في بَيْعِكَ وشرائك مقتدياً في ذلك بالنبي صلى الله عليه وسلم.
٣. لا تغش ولا تخادع مهما كان ذلك جالباً للمكسب والربح فيما يبذو.
٤. إِيَّاكَ والحلفَ الكاذبَ في بَيْعِكَ؛ فإنه يُدْهَبُ ببركة بَيْعِكَ.
٥. إِيَّاكَ واحتكارَ السَّلْعِ ورفعَ ثمنها مُسْتَعِلاً حاجاتِ الناسِ؛ بل ارفق بهم وتجاوز عنهم.
٦. أَكْثِرْ من الصدقة وساعدِ الفقراءَ والمحتاجين فهذا ينمي مالك وبارك لك فيه.
٧. كن مثالاً للتاجر المسلم الأمين الصادق السمح الرفيق المنفق، تكن تجارتك دعوة لله، وتكن ممن اقتدى بخير البشر صلى الله عليه وسلم.

الدرس السابع والخمسون

المؤمرة الكبرى في دار الندوة

الحمد لله وحده، نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، أحمدته سبحانه وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله؛ بعثه بالهدى ودين الحق، صبر وصابر، وجاهد وهاجر حتى ارتفعت أعلام الدين، وحق القول على الكافرين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأخيار، من المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان ما تعاقب الليل والنهار.

أما بعد :

فقد تحولت قريش في اجتماعاتها الحاسمة إلى حمم من الغضب .. دار الندوة تحولت إلى بركان ثائر يريد رأس رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بأي ثمن .. فقد أيقنت قريش بأنه لا محالة خارج إلى مدينة الإسلام الجديدة متلحقاً بأصحابه .. الوضع مخيف جداً .. قريش يخيفها مستقبلها المجهول إن انتصر عدوها محمد - صلى الله عليه وسلم - .. لذلك اجتمعت في يوم أسمته (يوم الزحمة)

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: (أَنَّ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ وَمِنْ أَشْرَافِ كُلِّ قَبِيلَةٍ اجْتَمَعُوا لِيَدْخُلُوا دَارَ النَّدْوَةِ، وَاعْتَرَضَهُمْ إِبْلِيسُ فِي صُورَةِ شَيْخٍ جَلِيلٍ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ، سَمِعْتُ بِمَا اجْتَمَعْتُمْ لَهُ فَأَرَدْتُ أَنْ أَحْضَرُكُمْ، وَلَنْ يَعِدْكُمْ مِنِّي رَأْيِي وَنُصْحِي، قَالُوا: أَجَلٌ، فَادْخُلْ، فَدَخَلَ مَعَهُمْ، قَالَ: انظُرُوا فِي شَأْنِ هَذَا الرَّجُلِ، فَوَاللَّهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يُؤَاثِبَكُمْ فِي أَمْرِكُمْ بِأَمْرِهِ، فَقَالَ قَائِلٌ: أَحْبِسُوهُ فِي وَثَاقٍ ثُمَّ تَرَبَّصُوا بِهِ الْمُنُونَ حَتَّى يَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الشُّعْرَاءِ؛ زُهَيْرٌ وَنَابِغَةُ فَإِنَّمَا هُوَ كَأَحَدِهِمْ، فَقَالَ عَدُوُّ اللَّهِ الشَّيْخِ النَّجْدِيِّ: لَا وَاللَّهِ مَا هَذَا لَكُمْ بِرَأْيِي، وَاللَّهِ لَيُخْرِجَنَّ رَأْيَهُ مِنْ مَحْبَسِهِ إِلَى أَصْحَابِهِ فَلَيُوشِكَنَّ أَنْ يَبْثُبُوا عَلَيْهِ حَتَّى يَأْخُذُوهُ مِنْ أَيْدِيكُمْ ثُمَّ يَمْنَعُوهُ مِنْكُمْ فَمَا آمَنَ عَلَيْكُمْ أَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ بِلَادِكُمْ، فَاَنْظُرُوا فِي غَيْرِ هَذَا الرَّأْيِ، فَقَالَ قَائِلٌ: فَأَخْرِجُوهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ فَاسْتَرِحُوا مِنْهُ، فَإِنَّهُ إِذَا خَرَجَ لَمْ يَضُرْكُم مَّا صَنَعَ وَآيَنَ وَقَعَ، وَإِذَا غَابَ عَنْكُمْ آذَاهُ اسْتَرَحْتُمْ مِنْهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فِي غَيْرِكُمْ، فَقَالَ الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ: وَاللَّهِ مَا هَذَا لَكُمْ بِرَأْيِي، أَلَمْ تَرَوْا حَلَاوَةَ قَوْلِهِ وَطَلَاقَةَ لِسَانِهِ وَأَخْذَهُ لِلْقُلُوبِ بِمَا يَسْتَمِيعُ مِنْ حَدِيثِهِ؟ وَاللَّهِ لَئِنْ فَعَلْتُمْ ثُمَّ اسْتَعْرَضَ الْعَرَبَ لِيَجْتَمِعَنَّ عَلَيْهِ ثُمَّ لَيَسِيرَنَّ إِلَيْكُمْ حَتَّى يُخْرِجَكُمْ مِنْ بِلَادِكُمْ وَيَقْتُلَ أَشْرَافَكُمْ، قَالُوا: صَدَقَ وَاللَّهِ، فَاَنْظُرُوا رَأْيًا غَيْرَ هَذَا، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: وَاللَّهِ لِأَشِيرَنَّ عَلَيْكُمْ بِرَأْيِي مَا أَرَى أَبْصَرْتُمُوهُ بَعْدُ، مَا أَرَى غَيْرَهُ، قَالُوا: وَمَا هَذَا؟ قَالَ: نَأْخُذُ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ غُلَامًا سَيِّطًا شَابًّا نَهْدًا، ثُمَّ نُعْطِي كُلَّ غُلَامٍ مِنْهُمْ سَيْفًا صَارِمًا، ثُمَّ يَضْرِبُونَهُ يَعْنِي: ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمُوهُ تَفَرَّقَ دَمُهُ فِي الْقَبَائِلِ كُلِّهَا، فَلَا أَظُنُّ هَذَا الْحَيُّ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ يَقْوُونَ عَلَى حَرْبِ قُرَيْشٍ كُلِّهِمْ، وَأَنْتُمْ إِذَا رَأَوْا ذَلِكَ قَبِلُوا الْعَقْلَ وَاسْتَرَحْنَا وَقَطَعْنَا عَنَّا آذَاهُ، فَقَالَ الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ: هَذَا وَاللَّهِ هُوَ الرَّأْيِ، الْقَوْلُ مَا قَالَ الْفَتَى لَا أَرَى غَيْرَهُ، فَتَفَرَّعُوا عَلَى ذَلِكَ وَهُمْ مُجْمِعُونَ لَهُ، قَالَ: فَآتَى جِبْرِيلُ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - فَأَمَرَهُ أَنْ لَا يَبِيَّتَ فِي مَضْجَعِهِ الَّذِي كَانَ يَبِيَّتُ، وَأَخْبَرَهُ بِمَكْرِ الْقَوْمِ، فَلَمْ يَبِتْ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - فِي بَيْتِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَأَذِنَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ فِي الْخُرُوجِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ بَعْدَ

قُدُومِهِ الْمَدِينَةَ فِي الْأَنْفَالِ، يَذْكُرُ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ وَبَلَاءَهُ عِنْدَهُ: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}.. (٥٤٦)

إخبار الله تعالى رسوله -صلى الله عليه وسلم- بمكر المشركين له :

وقد أخبر الله تعالى نبيه -صلى الله عليه وسلم- بهذه المؤامرة، فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال في قوله تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال: ٣٠].

قال -رضي الله عنه-: تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح، فأثبتوه بالوثاق، يريدون النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه، فأطلع الله عز وجل نبيه -صلى الله عليه وسلم- على ذلك، فبات علي -رضي الله عنه- على فراش النبي -صلى الله عليه وسلم- تلك الليلة (٥٤٧).

قال الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله تعالى: اتفق زعماء قريش على ارتكاب أكبر جريمة في تاريخ الجنس البشري، وهي قتل الرسول -صلى الله عليه وسلم-.

جريمة لو تمت، لما كانت في التاريخ دمشق، ولا بغداد، ولا القاهرة، ولا قرطبة، ولا كانت للراشدين دولة، ولا للأُمويين، ولا للعباسيين، ولا فتح بنو عثمان القسطنطينية، ولا بني الأموي، ولا النظامية ولا الحمراء، ولما قامت الحضارة التي قبست منها أوروبا حضارتها من الشام في الحروب الصليبية، ومن الأندلس بعد ذلك، ولابدل التاريخ طريقه، ولكننا اليوم على حال لا يعلمها إلا الله (٥٤٨).

الترتيب النبوي للهجرة: :

عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ لَا يُحْطَى رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنْ يَأْتِيَ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ أَحَدَ طَرَفَيْ النَّهَارِ، إِمَّا بُكْرَةً وَإِمَّا عَشِيَّةً، حَتَّى إِذَا كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي أُذِنَ فِيهِ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى

(٥٤٦) - الدر المنثور: ٤ / ٥١، بسند رجاله ثقات، والطبري: ٦ / ٢٢٥. سيرة ابن هشام (٢ / ٩٤) - البداية والنهاية (٣ / ١٨٩) - الطبقات الكبرى لابن سعد (١ / ١٠٩) - دلائل النبوة لأبي نعيم (١ / ٢٠٢) - دلائل النبوة للبيهقي (٢ / ٤٦٧) - الروض الأنف (٢ / ٣٠٦) - شرح المواهب (٢ / ٩٤).

(٥٤٧) - انظر كتاب رجال من التاريخ للشيخ علي الطنطاوي رحمه الله تعالى ص ١٥.

(٥٤٨) - كتاب رجال من التاريخ للشيخ علي الطنطاوي رحمه الله تعالى ص ١٥.

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي الْهَجْرَةِ، وَالْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ مِنْ بَيْنِ ظَهْرِي قَوْمِهِ، أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِالْهَاجِرَةِ، فِي سَاعَةٍ كَانَتْ لَا يَأْتِي فِيهَا: قَالَتْ: فَلَمَّا رَأَى أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: مَا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هَذِهِ السَّاعَةَ إِلَّا لِأَمْرٍ حَدَثَ. قَالَتْ: فَلَمَّا دَخَلَ، تَأَخَّرَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ عَنْ سَرِيرِهِ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَلَيْسَ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ إِلَّا أَنَا وَأُخْتِي أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَخْرَجْ عَنِّي مَنْ عِنْدَكَ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا هُمَا ابْنَتَايَ، وَمَا ذَاكَ؟ فَذَكَ أَبِي وَأُمِّي! فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ وَالْهَجْرَةِ. قَالَتْ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصُّحْبَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: الصُّحْبَةَ. قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا شَعَرْتُ قَطُّ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ أَحَدًا يَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ، حَتَّى رَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ يَبْكِي يَوْمَئِذٍ، ثُمَّ قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! إِنَّ هَاتَيْنِ رَاحِلَتَيْنِ قَدْ كُنْتُ أَعَدَدْتُهُمَا لِهَذَا. فَاسْتَأْجَرَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَرْقَطٍ -رَجُلًا مِنْ بَنِي الدُّثَلِ بْنِ بَكْرٍ، وَكَانَتْ أُمُّهُ امْرَأَةً مِنْ بَنِي سَهْمِ بْنِ عَمْرِو، وَكَانَ مُشْرِكًا- يَدُلُّهُمَا عَلَى الطَّرِيقِ، فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، فَكَانَتَا عِنْدَهُ يِرْعَاهُمَا لِمِعَادِهِمَا.

١- اختيار صاحب المناسب وهو أبو بكر الصديق اختاره من بين جميع الصحابة كما في البخاري.

٢- التعريض له بالخبر، فلم يقطع له النبي - صلى الله عليه وسلم - بأمر الصحبة في الهجرة وإنما قال: ((لعل الله يجعل لك صاحباً)) كما في البخاري.

٣- إعداد راحلتين قبل مدة طويلة من الهجرة، إذ لو اشترى الراحلتين قبيل الهجرة فربما لفت أنظار قريش إلى ذلك، وماذا يريد أبو بكر بهاتين الراحلتين إلا لأمر بيته مع محمد؟ وبخاصة بعد تفاقم الأزمة واشتداد الوحشة بعد بيعة العقبة الثانية، وهذه رواية البخاري.

٤- دفع الراحلتين إلى الدليل قبل الهجرة، كما في البخاري.

٥- زيارة أبي بكر كل يوم، فقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - لا يخطئه يوم أن يأتي أبا بكر غدوة وعشية، وعلى هذا لم يكن الأمر غريباً على قريش في مجيئه إليه وقت التخطيط للهجرة، كما في البخاري.

٦- تغيير الوقت المعتاد للزيارة، ولعل ذلك بسبب الرصد من قبل قريش لزياراته في الوقت المعتاد، كما في البخاري.

٧- اختيار الوقت المناسب للزيارة وهو وقت الظهيرة حيث يستظل الناس ويكونون في بيوتهم، كما في البخاري.

٨- الخروج إلى أبي بكر متنكراً بالقناع حتى لا يعرف، كما في البخاري.

٩- الإسراع لأبي بكر بخبر الهجرة، وكتمان ذلك عن أهل بيته في بداية الأمر حيث قال له: أخرج من عندك، كما في البخاري.

١٠- الإسراع في إعداد الزاد وتجهيزه، كما في البخاري.

الدرس الثامن والخمسون

ليلة الهجرة

الحمد لله الذي زين قلوب أوليائه بأنوار الوفاق، وسقى أسرار أحبائه شراباً لذيذ المذاق، وألزم قلوب الخائفين الوجَل والإشفاق، فلا يعلم الإنسان في أيِّ الدواوين كتب ولا في أيِّ الفريقين يساق، فإنَّ سامحاً فبفضله، وإنَّ عاقب فبعدله، ولا اعتراض على الملك الخلاق.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، إله عزَّ من اعتز به فلا يضام، وذلك من تكبر عن أمره ولقي الآثام.

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وشفیعنا محمداً عبد الله ورسوله، وصفیه من خلقه وحبیبه، خاتم أنبیائه، وسید أصفیائه، المخصوص بالمقام المحمود، في اليوم المشهود، الذي جُمع فيه الأنبياء تحت لوائه.

آياتُ أحمدَ لا تحدُّ لوصفٍ ولو آتاهُ أُملي وعاش دهوراً

بشراكمُ يا أمة المختار في يوم القيامة جنة وحريراً

فُضِّلْتُمْ حَقًّا بِأَشْرَفِ مَرْسَلٍ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ بَادِيًّا وَحَضُورًا

صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ رَبِّي دَائِمًا مَا دَامَتِ الدُّنْيَا وَزَادَ كَثِيرًا

وعلى آله وأصحابه، ومن سار على نهجه، وتمسك بسنته، واقتدى بهديه، واتبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ونحن معهم يا أرحم الراحمين.

ثم أما بعد: عاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعدما أخبر أبا بكر بالإذن له في الهجرة، وبعد أن أعد العدة للهجرة إلى بيته، وكان جبريل - عليه السلام - أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - أن لا يبيت على فراشه، فلما كانت عتمة الليل اجتمع فتيان من قريش على بابه، وبيدهم السيوف المرهفة، ويتطير من عيونهم شر الغدر والمكيدة، فلما رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكانهم قال لعلي بن أبي طالب نوم علي في فراش النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: "شرى علي نفسه، وليس ثوب النبي - صلى الله عليه وسلم -، ثم نام مكانه: وكان المشركون يرمون رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وقد كان رسول الله عليه وآله وسلم ألبسه بردة، وكانت قريش تريد أن تقتل النبي - صلى الله عليه وسلم -، فجعلوا يرمون عليًا، ويرونه النبي - صلى الله عليه وسلم -، وقد لبس برده، وجعل علي رضي الله عنه يتضور، فهذا هو علي، فقالوا: إنك للئيم إنك لتتضور، وكان صاحبك لا يتضور، ولقد استنكرناه منك" (٥٤٩).

وقد جاء تفصيل قصة مكوثهم على باب الرسول عليه الصلاة والسلام، ووضعه عليه الصلاة والسلام التراب على رؤوسهم وخروجه دون أن يروه، عن ابن إسحاق في السيرة فقال:

عن محمد بن كعب القرظي قال: "لما اجتمعوا له، وفيهم: أبو جهل بن هشام فقال: وهم على بابه: إن محمدًا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره، كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنات كجنات الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها.

قال: وخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فأخذ حفنة من التراب في يده، ثم قال: (أنا أقول ذلك، أنت أحدهم)، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه، فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على

(٥٤٩) - أخرجه الحاكم في المستدرک: ٤ / ٣ وقال: هذ حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقد رواه أبو داود الطيالسي وغيره عن أبي عوانة بزيادة ألفاظ، ووافقه الذهبي. وأخرجه أحمد كما في الفتح الرباني: ٢٧٩ / ٢٠.

رؤسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات من يس {يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥)} إلى قوله: {فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} حتى فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من هؤلاء الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب.

فأتاهم آت فيمن لم يكن معهم، فقال: ما تنظرون ها هنا؟ قالوا: محمدًا، قال: خيبكم الله! قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلًا إلا وضع على رأسه ترابًا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟

قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليا على الفراش متسجياً ببرد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائمًا، عليه برده. فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام علي رضي الله عنه عن الفراش فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي حدثنا" (٥٥٠).

أبو بكر يحمل كل ماله:

عَنْ عَبَادِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ جَدَّتِهِ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ، قَالَتْ: لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَخَرَجَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، احْتَمَلَ أَبُو بَكْرٍ مَالَهُ كُلَّهُ مَعَهُ خَمْسَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ أَوْ سِتَّةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ، قَالَتْ: وَأَنْطَلَقَ بِهَا مَعَهُ، قَالَتْ: فَدَخَلَ عَلَيْنَا جَدِّي أَبُو قُحَافَةَ، وَقَدْ ذَهَبَ بَصْرَهُ، فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَاهُ قَدْ فَجَعَكُم بِمَالِهِ مَعَ نَفْسِهِ. قَالَتْ: قُلْتُ: كَلَّا يَا أَبَتِ إِنَّهُ قَدْ تَرَكَ لَنَا خَيْرًا كَثِيرًا. قَالَتْ: فَأَخَذْتُ أَحْجَارًا فَتَرَكْتُهَا فَوَضَعْتُهَا فِي كُوَّةٍ فِي الْبَيْتِ كَانَ أَبِي يَضَعُ فِيهَا مَالَهُ، ثُمَّ وَضَعْتُ عَلَيْهَا تَوْبًا، ثُمَّ أَخَذْتُ بِيَدِهِ. فَقُلْتُ: يَا أَبَتِ، ضَعْ يَدَكَ عَلَى هَذَا الْمَالِ. قَالَتْ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: لَا بَأْسَ إِنْ كَانَ قَدْ تَرَكَ لَكُمْ هَذَا فَقَدْ أَحْسَنَ، وَفِي هَذَا لَكُمْ بَلَاغٌ. قَالَتْ: وَلَا وَاللَّهِ مَا تَرَكَ لَنَا شَيْئًا، وَلَكِنِّي قَدْ أَرَدْتُ أَنْ أُسْكِنَ الشَّيْخَ بِذَلِكَ.. (٥٥١).

(٥٥٠) - أخرجه ابن هشام في السيرة: ٤٨٣/١ وإسناده رجاله ثقات وهو مرسل حسن، وأخرجه الطبري في تاريخه: ٣٧٣/٢، وأبو نعيم في الدلائل ص: ٦٤، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث، وله شاهد من حديث ابن عباس رقم: ١٥٥، ١٥٨، وبه يكون الحديث حسنًا.

(٥٥١) - [درجته: سنده صحيح، رواه من طريقه الإمام أحمد (٦ - ٣٥٠)، والطبراني في الكبير (٢٤ - ٨٨)، والحاكم (٣ - ٦)، هذا السند: صحيح: ابن إسحاق صرح بالسماع من شيخه يحيى بن عباد، وشيخه يحيى ثقة، انظر التقريب (٢/٣٥٠) والتهذيب

النبي -صلى الله عليه وسلم - وصاحبه في الغار:

خرج الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصاحبه وقد تزودوا بالزاد والماء ليلاً من خوخة في ظهر بيت أبي بكر حتى لا يراها أحد، وسلكا طريقاً غير معهودة، فبدلاً من أن يسيرا نحو الشمال ذهبوا إلى الجنوب حيث يوجد (غار ثور) وكان خروجه كما قال ابن إسحاق لهلا ربيع الأول ، وقيل: في أواخر صفر.

عن ابن أبي مليكة قال: لما هاجر النبي -صلى الله عليه وسلم - خرج ومعه أبو بكر فأخذوا طريق ثور قال فجعل أبو بكر يمشي خلفه ويمشي أمامه فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - مالك؟ فقال: يا رسول الله أخاف أن تؤتى من خلفك فتأخر، وأخاف أن تؤتى من أمامك فأتقدم، قال: فلما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر. يا رسول الله كما أنت حتى أقمه. قال نافع فحدثني رجل عن بن أبي مليكة أن أبا بكر رأى جحرًا في الغار فألقمها قدمه وقال: يا رسول الله إن كانت لسعة أو لدغة كانت بي. (٥٥٢)

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ: ذُكِرَ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ عُمَرَ فَكَانَتْهُمْ فَضَلُّوا عُمَرَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَاللَّهِ لَلَّيْلَةَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ خَيْرٌ مِنْ آلِ عُمَرَ، وَلَيَوْمٍ مِنْ أَبِي بَكْرٍ خَيْرٌ مِنْ آلِ عُمَرَ، لَقَدْ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ أَنْطَلَقَ إِلَى الْغَارِ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَجَعَلَ يَمْشِي سَاعَةً بَيْنَ يَدَيْهِ وَسَاعَةً خَلْفَهُ حَتَّى فَطِنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ مَا لِكَ تَمْشِي سَاعَةً بَيْنَ يَدَيَّ وَسَاعَةً خَلْفِي؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَذْكَرُ الطَّلَبَ، فَأَمْشِي خَلْفَكَ، ثُمَّ أَذْكَرُ الرَّصَدَ فَأَمْشِي بَيْنَ يَدَيْكَ، فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، لَوْ كَانَ شَيْءٌ أَحْبَبْتُ أَنْ يَكُونَ لَكَ دُونِي؟» قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا كَانَتْ لِيَتَكُنَّ مِنْ مُلِمَّةٍ إِلَّا أَحْبَبْتُ أَنْ تَكُونَ لِي دُونَكَ، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا مِنَ الْغَارِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَكَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَتَّى اسْتَبْرَأْتُ لَكَ الْغَارَ فَدَخَلْتُ فَاسْتَبْرَأْتُ حَتَّى إِذَا كَانَ فِي أَعْلَاهُ ذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَبْرِ الْجُحْرَةَ، فَقَالَ: مَكَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَتَّى اسْتَبْرَأْتُ

(١١/ ٢٣٤) ووالده: عباد، كان قاضي مكة زمن أبيه وخليفته إذا حج، وهو تابعي ثقة. انظر التقريب (١/ ٣٩٢) والتهذيب (٥) -

[٩٨].

(٥٥٢) - حسن ورجاله ثقات لكنه مرسل، رواه: رواه البغوي سيرة ابن كثير (٢ - ٢٣٧)، وابن هشام،

الْجُحْرَةَ، فَدَخَلَ فَاسْتَبْرَأَ، ثُمَّ قَالَ: انزِلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَنَزَلَ فَقَالَ عُمَرُ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتِلْكَ اللَّيْلَةُ
خَيْرٌ مِنْ آلِ عُمَرَ " (٥٥٣)

دور ذات النطاقين في الهجرة:

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: "صَنَعْتُ سُفْرَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِ
أَبِي بَكْرٍ حِينَ أَرَادَ أَنْ يَهَاجِرَ إِلَى الْمَدِينَةِ قَالَتْ فَلَمْ نَجِدْ لِسُفْرَتِهِ وَلَا لِسِقَائِهِ مَا نُرْبِطُهُمَا بِهِ فَقُلْتُ لِأَبِي
بَكْرٍ وَاللَّهِ مَا أَجِدُ شَيْئًا أُرْبِطُ بِهِ إِلَّا نِطَاقِي قَالَ فَشَقِيهِ بِاثْنَيْنِ فَارْبِطِيهِ بِوَاحِدِ السَّقَاءِ وَبِالْآخِرِ السُّفْرَةَ
فَفَعَلْتُ فَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النُّطَاقِي" (٥٥٤)

وأصبحت هذه منقبة لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها، لا يجحدها إلا حاقده حاسد.

هشام عن أبيه وعن وهب بن كيسان قال كان أهل الشام يعيرون ابن الزبير يقولون يا ابن ذات النطاقين
فَقَالَتْ لَهُ أَسْمَاءُ يَا بُنَيَّ إِنَّهُمْ يُعَيِّرُونَكَ بِالنُّطَاقَيْنِ هَلْ تَدْرِي مَا كَانَ النُّطَاقَانِ إِنَّمَا كَانَ نِطَاقِي شَقَقْتُهُ
نِصْفَيْنِ فَأَوْكَيْتُ قَرِيبَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَحَدِهِمَا وَجَعَلْتُ فِي سُفْرَتِهِ آخَرَ قَالَ فَكَانَ أَهْلُ
الشَّامِ إِذَا عَيَّرُوهُ بِالنُّطَاقَيْنِ يَقُولُ إِيهَا وَالِإِلَهَ تِلْكَ شِكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا" (٥٥٥)

(٥٥٣) - أخرجه الحاكم في المستدرک: ٦ / ٣ وقال: حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين لولا إرسال فيه لم يخرجاه ووافقه

الذهبي، وقال: صحيح مرسل، والحافظ في الفتح: ٢٣٧ / ٧ عن دلائل النبوة للبيهقي من مرسل محمد بن سيرين وقال: وذكره أبو
القاسم البصري من مرسل ابن أبي مليكة نحوه، وذكر ابن هشام من زياداته عن الحسن البصري بلاغاً نحوه.

(٥٥٤) - البخاري، كتاب الجهاد، باب حمل الزاد في الغزو. (٦ / ١٢٩ فتح).

(٥٥٥) - أخرجه البخاري (ح ٥٣٨٨)

الدرس التاسع والخمسون

معجزات على طريق الهجرة

الحمد لله مقدر الأيام والشهور، ومصرف الأعوام والدهور، أحمده سبحانه وأشكره على سوابغ نعمه التي تقرّ بالشكر فلا تبور، وأستمنحه جل في عليائه التوفيق في كل الأمور، فهو سبحانه المؤمل لكشف كل كرب وجبر كل مكسور،

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الغفور الشكور، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله، بعثه الله بالهدى والنور، فأشرقت شمس الحق في كل الربوع والدور، وزكت النفوس العليلة فغدت في سعادة وسرور، ورضوان وحبور، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ليوث الوغى والقذور، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم البعث والنشور، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: ما زلنا معاشر الموحدين نتكلم عن هجرة سيد الأولين و الآخرين صلى الله عليه و سلم و اليوم نقف مع احدث ليلة الهجرة

أخذ الله أبصار الكفار عند الخروج من البيت وعندما كان في الغار

بعث الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالهدي ودين الحق، ووعده بالنصر والتأييد، وكان تأييده تعالى لرسوله بأمر كثيرة منها المعجزات والتي هي خوارق العادات، فقد وقعت له معجزات كثيرة، ومنها ما كان على طريق الهجرة، وهو ما سنقف عليه في هذه الكلمات.

حول البيت: كما راينا أيها الاحباب كيف تجمع كفار مكة حول بيت النبي صلى الله عليه وسلم ينتظرون ساعة الصفر لضرب النبي صلى الله عليه وسلم ضربة رجل واحد و هنا تتجلى العانية الربانية بخير البرية صلى الله عليه وسلم فيخرج النبي كما في الحديث (وخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فأخذ حفنة من التراب في يده، ثم قال: (أنا أقول ذلك، أنت أحدهم)، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه، فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات من يس {يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥)}

{(٥)} إلى قوله: {فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَمَهُم لَّا يَبْصُرُونَ} حتى فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من هؤلاء الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب. فأتاهم آت فيمن لم يكن معهم، فقال: ما تنظرون ها هنا؟ قالوا: محمداً، قال: خيبكم الله! قد والله خرج عليكم محمداً، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وضع على رأسه تراباً، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟

قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليا على الفراش متسجياً يبُرد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائماً، عليه برده. فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام علي رضي الله عنه عن الفراش فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي حدثنا" (٥٥٦).

و يتكرر المشهد مرة ثانية عندما يقف المشركون على فم الغار و لو نظر احدهم تحت قدميه لراى رسول الله صلى الله عليه وسلم و أبا بكر و لكنه النعاية التي عبر عنها رسل الله صلى الله عليه وسلم كما في الحديث " وانطلق مشركو مكة في اثار المهاجرين يرصدون الطرق، ويفتشون كلَّ مهرب، وراحوا ينقبون في جبال مكة، وكهوفها، حتى وصلوا- في دأبهم- قريبا من غار ثور، وأنصت الرسول صلى الله عليه

(٥٥٦) - أخرجه ابن هشام في السيرة: ١/ ٤٨٣ وإسناده رجاله ثقات وهو مرسل حسن، وأخرجه الطبري في تاريخه: ٢/ ٣٧٣، وأبو نعيم في الدلائل ص: ٦٤، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث، وله شاهد من حديث ابن عباس رقم: ١٥٥، ١٥٨، وبه يكون الحديث حسناً.

وسلم وصاحبه إلى أقدام المطاردين، تخفق إلى جوارهم، فأخذ الروع أبا بكر، وهمس يحدث كما في الحديث عن أبي بكر الصديق قال نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رُءُوسِنَا وَنَحْنُ فِي الْغَارِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرْنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ فَقَالَ « يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِإِثْنَيْنِ اللَّهُ تَأَلَّفَهُمَا ». « (٥٥٧)

معجزة في خيمة أم معبد :

وبعد ثلاث ليالٍ من دخول النبي صلى الله عليه وسلم في الغار، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه من الغار، وقد هدأ الطلب ويئس المشركون من الوصول إلى رسول الله، وقد قلنا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر قد استأجرا رجلاً من بني الدليل يسمى عبد الله بن أريقط وكان مشركاً، وقد أمناه فدفعنا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليالٍ براحتيهما، وقد جاءهما فعلا في الموعد المحدد وسلك بهما طريقاً غير معهودة ليخفي أمرهما عن يلحق بهم من كفار قريش ، وفي الطريق إلى المدينة مر النبي صلى الله عليه وسلم بأُم معبد^(٥٥٨) في قديد^(٥٥٩) حيث مساكن خزاعة، وهي أخت خنيس بن خالد الخزاعي الذي روى قصتها، وهي قصة تناقلها الرواة وأصحاب السير، وقال عنها ابن كثير: «وقصتها مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضاً»

حُبَيْشُ بْنُ خَالِدٍ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حِينَ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ خَرَجَ مِنْهَا مُهَاجِرًا إِلَى الْمَدِينَةِ هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ وَمَوْلَى لِأَبِي بَكْرٍ عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ، وَدَلِيلُهُمَا اللَّيْثِيُّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْأَرَيْقُطِ، مَرُّوا عَلَى خَيْمَتِي أُمِّ مَعْبِدِ الْخَزَاعِيَّةِ، وَكَانَتْ بَرَزَةً^(٥٦٠) جَلْدَةً^(٥٦١) تَحْتِي^(٥٦٢) بِفَنَاءِ الْقُبَّةِ، ثُمَّ تَسْتَقِي وَتُطْعَمُ،

(٥٥٧) - رواه البخاري ٧ / ٩ و ١٠ في فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب مناقب المهاجرين وفضلهم، وباب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وفي تفسير سورة براءة، باب قوله: {ثَانِيَانِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ} ، ومسلم رقم (٢٣٨١) في فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر رضي الله عنه، والترمذي رقم (٣٠٩٥) في التفسير، باب ومن سورة التوبة.

(٥٥٨) - هي عاتكة بنت كعب الخزاعية.

(٥٥٩) - وادي قديد: يبعد عن الطريق المعبدة حوالي ثمانين ميلاً.

(٥٦٠) - يقال: امرأة برزة إذا كانت كهلة لا تحتجب احتجاب الشواب، وهي مع ذلك عفيفة عاقلة تجلس للناس وتحدثهم، من البروز وهو الظهور والخروج. انظر النهاية (١/ ١١٨).

(٥٦١) - جلدة: أي قوية في نفسها وجسمها. انظر النهاية (١/ ٢٧٥).

(٥٦٢) - الاحتباء: هو أن يضم الإنسان رجليه إلى بطنه بثوب يجمعهما به مع ظهره، ويشده عليها، وقد يكون الاحتباء باليدين عوض الثوب. انظر النهاية (١/ ٣٢٤).

فَسَأَلُوهَا تَمْرًا وَلَحْمًا يَشْتَرُونَهُ مِنْهَا، فَلَمْ يُصِيبُوا عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، وَكَانَ الْقَوْمُ مُرْمِلِينَ^(٥٦٣)
 مُسْنِنِينَ^(٥٦٤)، فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى شَاةٍ فِي كَسْرِ الْخَيْمَةِ^(٥٦٥) فَقَالَ: «مَا هَذِهِ الشَّاةُ
 يَا أُمَّ مَعْبِدٍ؟» قَالَتْ: شَاةٌ خَلَفَهَا الْجَهْدُ عَنِ الْعَنَمِ، قَالَ: «هَلْ بِهَا مِنْ لَبْنٍ؟» قَالَتْ: هِيَ أَجْهَدُ مِنْ
 ذَلِكَ، قَالَ: «أَتَأَذِّبِينَ أَنْ أَحْلُبَهَا؟» قَالَتْ: نَعَمْ يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، إِنْ رَأَيْتَ بِهَا حَلْبًا فَاحْلُبْهَا. فَدَعَا بِهَا
 رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَسَحَ بِيَدِهِ ضَرْعَهَا، وَسَمَّى اللَّهَ، وَدَعَا لَهَا فِي شَاتِهَا، فَتَفَاجَّتْ^(٥٦٦)
 عَلَيْهِ وَدَرَّتْ وَاجْتَرَّتْ^(٥٦٧)، وَدَعَا بِإِنَاءٍ يَرِيضُ الرَّهْطَ، فَحَلَبَ شَجًّا حَتَّى عَلَاهُ الْبَهَاءُ، ثُمَّ سَقَاهَا حَتَّى
 رُوِيَتْ، ثُمَّ سَقَى أَصْحَابَهُ حَتَّى رَوُوا، ثُمَّ شَرِبَ آخِرَهُمْ، ثُمَّ حَلَبَ ثَانِيًا بَعْدَ بَدءِ حَتَّى مَلَأَ الْإِنَاءَ، ثُمَّ
 غَادَرَهُ عِنْدَهَا وَبَايَعَهَا وَارْتَحَلُوا عَنْهَا. فَقَلَّمَا لَبِئْتُ حَتَّى جَاءَ زَوْجُهَا أَبُو مَعْبِدٍ يَسُوقُ أَعْمُرًا عِجَافًا^(٥٦٨)
 تَسَاوَكْنَ^(٥٦٩) هَزَلًا، مُخْهِنٌ^(٥٧٠) قَلِيلٌ، فَلَمَّا رَأَى أَبُو مَعْبِدٍ اللَّبْنَ عَجِبَ وَقَالَ: مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا يَا أُمَّ مَعْبِدٍ،
 وَالشَّاءُ عَازِبٌ^(٥٧١) حِيَالٌ^(٥٧٢) وَلَا حَلُوبَ فِي الْبَيْتِ؟ قَالَتْ: لَا وَاللَّهِ، إِلَّا أَنَّهُ مَرَّ بِنَا رَجُلٌ مُبَارَكٌ مِنْ
 حَالِهِ كَذَا وَكَذَا. قَالَ: صِفِيهِ لِي يَا أُمَّ مَعْبِدٍ، قَالَتْ: رَجُلٌ ظَاهِرُ الْوُضَاءَةِ^(٥٧٣)، أَبْلَجُ الْوَجْهِ^(٥٧٤)، حَسَنٌ

(٥٦٣) - مرملين: أي نفذ زاهم. وأصله من الرمل، كأنهم لصقوا بالرمل. انظر النهاية (٢/ ٢٤٠).

(٥٦٤) - مسننين: أي أصابتهم السنة، والسنة هي الجذب، يقال أخذتهم السنة إذا أجدبوا وأقحطوا. انظر النهاية (٢/ ٣٧١).

(٥٦٥) - ناحية الخيمة

(٥٦٦) - التفاج: المبالغة في تفريح ما بين الرجلين. انظر النهاية (٣/ ٣٧٠).

(٥٦٧) - الجرة: ما يخرج البعير من بطنه ليمضغه ثم يبيلعه، ومنه شاة أم معبد، انظر النهاية (١/ ٢٥١).

(٥٦٨) - عجافا: جمع عجفاء، وهي المهزولة من الغنم. انظر النهاية (٣/ ١٦٩).

(٥٦٩) - يتساوكن: يقال تساوكت الإبل إذا اضطربت أعناقها من الهزال، أراد أنها تتمايل من ضعفها. انظر النهاية (٢/ ٣٨١).

(٥٧٠) - عازب: أي بعيدة المرعى. انظر النهاية (٣/ ٢٠٥).

(٥٧١) - حائل: هي التي لم تحمل. انظر النهاية (٣/ ٢٠٥).

(٥٧٢) - ولا حلوب: أي ولا شاة تحلب. انظر النهاية (١/ ٤٠٥).

(٥٧٣) - الوضاعة: هي الحسن والبهجة. انظر النهاية (٥/ ١٦٩).

(٥٧٤) - أبلج الوجه: أي مشرق الوجه مسفره. انظر النهاية (١/ ١٤٩).

الْخُلُقِ، لَمْ تَعِبُهُ ثُجْلَةٌ، ^(٥٧٥) وَلَمْ تَزُرْ ^(٥٧٦) بِهِ صَعْلَةٌ ^(٥٧٧)، وَسِيمٌ ^(٥٧٨) قَسِيمٌ ^(٥٧٩)، فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ ^(٥٨٠)،
 وَفِي أَشْفَارِهِ ^(٥٨١) وَطَفٌ، ^(٥٨٢) وَفِي صَوْتِهِ صَحَلٌ، ^(٥٨٣) وَفِي عُنُقِهِ سَطَعٌ ^(٥٨٤)، وَفِي لِحْيَتِهِ كَثَاثَةٌ، ^(٥٨٥)
 أَزَجٌ ^(٥٨٦) أَقْرُنٌ، ^(٥٨٧) إِنْ صَمَتَ فَعَلَيْهِ الْوَقَارُ ^(٥٨٨)، وَإِنْ تَكَلَّمَ سَمَا وَعَلَاهُ الْبِهَاءُ ^(٥٨٩)، أَجْمَلُ النَّاسِ وَأَبْهَاهُ
 مِنْ بَعِيدٍ، وَأَحْسَنُهُ وَأَحْلَاهُ مِنْ قَرِيبٍ، حُلُوُ الْمَنْطِقِ ^(٥٩٠)، فَصْلٌ ^(٥٩١) لَا نَزْرٌ ^(٥٩٢) وَلَا هَذِرٌ ^(٥٩٣)، كَانَ مَنْطِقَهُ
 حَزْرَاتٌ نَظْمٌ يَتَحَدَّرْنَ، ^(٥٩٤) لَا يَأْسَ مِنْ طُولٍ، وَلَا تَقْتَحِمُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصْرٍ، غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ، فَهُوَ أَنْزُرٌ
 الثَّلَاثَةُ مَنْظَرًا، وَأَحْسَنُهُمْ قَدْرًا، لَهُ رُفَقَاءٌ يَحْفُونُ ^(٥٩٥) بِهِ، إِنْ قَالَ أَنْصَتُوا لِقَوْلِهِ، وَإِنْ أَمَرَ تَبَادَرُوا إِلَى

(٥٧٥) - ثجلة: أي ضخم البطن. انظر النهاية (٢٠٢ / ١).

(٥٧٦) - الإزدراء: الاحتقار والانتقاص والعيب. انظر النهاية (٢٧٣ / ٢).

(٥٧٧) - صعلة: هي صغر الرأس، وهي أيضا الدقة والنحول في البدن. انظر النهاية (٣٠ / ٣).

(٥٧٨) - الوسامة: هي الحسن الوضيء الثابت. انظر النهاية (١٦١ / ٥).

(٥٧٩) - القسامة: هي الحسن، ورجل مقسم الوجه: أي جميل كله، كأن كل موضع منه أخذ قسما من الجمال. انظر النهاية (٤ / ٥٦).

(٥٨٠) - الدعج والدعجة: هو السواد في العين وغيرها، تريد أن سواد عينيه كان شديداً السواد، وقيل الدعج: شدة سواد العين في شدة بياضها. انظر النهاية (١١١ / ٢).

(٥٨١) - الأشفار: هي جفن العين الذي ينبت عليه الشعر. انظر النهاية (٤٣٣ / ٢).

(٥٨٢) - وطف: أي أن في شعر أذنيه طول. انظر النهاية (١٧٧ / ٥).

(٥٨٣) - أي حدة وصلابة. انظر النهاية (٥٩ / ٣).

(٥٨٤) - سطع: أي ارتفاع وطول. انظر النهاية (٣٢٩ / ٢).

(٥٨٥) - الكثاثة في اللحية: أن تكون غير رقيقة ولا طويلة، ولكن فيها كثافة. انظر النهاية (١٣٢ / ٤).

(٥٨٦) - أزج: أي تقوس في الحاجب مع طول في طرفه وامتداد. انظر النهاية (٢٦٨ / ٢).

(٥٨٧) - قال ابن الأثير في النهاية (٤٨ / ٤): جاء في صفته - صلى الله عليه وسلم -: سوابغ في غير قرن، القرن بالتحريك - التقاء الحاجبين، وهذا خلاف ما روت أم معبد، فإنها قالت في صفته - صلى الله عليه وسلم -: أزج أقرن: أي مقرون الحاجبين، والأول الصحيح في صفته - صلى الله عليه وسلم -

(٥٨٨) - الوقار: هو الحلم والرزانة. انظر النهاية (١٨٥ / ٥).

(٥٨٩) - البهاء: المنظر الحسن الرائع المألئ للعين. انظر لسان العرب (٥٢٩ / ١).

(٥٩٠) - المنطق: الكلام. انظر لسان العرب (١٨٨ / ١٤).

(٥٩١) - فصلا: أي بين ظاهر، يفصل بين الحق والباطل. انظر النهاية (٤٠٤ / ٣).

(٥٩٢) - النزر: القليل، أي ليس بقليل فيدل على عي أي الجهل، ولا كثير فاسد. انظر النهاية (٣٤ / ٥).

(٥٩٣) - هذر: أي لا قليل ولا كثير، والهذر، بالتحريك: الهذيان. انظر النهاية (٢٢٢ / ٥).

(٥٩٤) - قال الدكتور محمد أبو شهبه في كتابه السيرة النبوية (٤٨٩ / ١): أي كلامه - صلى الله عليه وسلم - متناسق، ومتصل بعضه ببعض، يشبه في تناسقه الدر، وفي تواليه الخرزات إذا تتابعت.

(٥٩٥) - يحفون به: يحيطون به من جميع جوانبه. انظر لسان العرب (٢٤٤ / ٣).

أَمْرِهِ، مَحْفُودٌ^(٥٩٦) مَحْشُودٌ^(٥٩٧)، لَا عَابِسٌ^(٥٩٨)، وَلَا مُفَنَّدٌ^(٥٩٩). قَالَ أَبُو مَعْبِدٍ: فَهَذَا وَاللَّهِ صَاحِبُ قُرَيْشٍ
الَّذِي ذُكِرَ لَنَا مِنْ أَمْرِهِ مَا ذُكِرَ بِمَكَّةَ، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَصْحَبَهُ، وَلَأَفْعَلَنَّ إِنْ وَجَدْتُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا.
وَأَصْبَحَ صَوْتُ بِمَكَّةَ عَالٍ يَسْمَعُونَ الصَّوْتَ، وَلَا يَدْرُونَ مَنْ صَاحِبُهُ، وَهُوَ يَقُولُ:

جَزَى اللَّهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ ... رَفِيقَيْنِ قَالَا خَيْمَتِي أُمَّ مَعْبِدٍ

هُمَا نَزَلَا بِالْهُدَى وَاهْتَدَيَا بِهِ ... فَقَدْ فَازَ مَنْ أَمَسَى رَفِيقَ مُحَمَّدٍ

فِيَا لَقْصِي مَا زَوَى اللَّهُ عَنْكُمْ ... بِهِ مِنْ فِعَالٍ لَا يُجَازِي وَسُؤْدٍ

لِيَهْنَ بَنِي كَعْبٍ مَكَانَ فَتَاتِهِمْ ... وَمَقْعَدَهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْصِدٍ

سَلُوا أُحْتَكُمُ عَنْ شَاتِيهَا وَإِنَائِيهَا ... فَإِنَّكُمْ إِنْ تَسْأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَدُ

دَعَا بِشَاةٍ حَائِلٍ فَتَحَلَّبْتُ ... عَلَيْهِ صَرِيحًا ضُرَّةَ الشَّاةِ مُزِيدٍ

فَعَادَرَهَا رَهْنًا لَدَيْهَا بِحَالِبٍ ... يُرَدُّهَا فِي مَصْدَرٍ ثُمَّ مَوْرِدٍ

فَلَمَّا سَمِعَ بِذَلِكَ حَسَانُ الْأَنْصَارِيِّ شَبَّ بِجَاوِبِ الْهَاتِفِ فَقَالَ:

لَقَدْ خَابَ قَوْمٌ زَالَ عَنْهُمْ نَبِيُّهُمْ ... وَقَدَّسَ مَنْ يَسْرِي إِلَيْهِ وَيَعْتَدِي

تَرَحَّلَ عَنْ قَوْمٍ فَضَلَّتْ عُقُولُهُمْ ... وَحَلَّ عَلَى قَوْمٍ بِنُورٍ مُجَدِّدٍ

هَدَاهُمْ بِهِ بَعْدَ الضَّلَالَةِ رَبُّهُمْ ... وَأَرْشَدَهُمْ مَنْ يَتَّبِعِ الْحَقَّ يَرْشُدُ

وَهَلْ يَسْتَوِي ضَلَّالٌ قَوْمٍ تَسْفَهُوا ... عَمَائِيَّتَهُمْ هَادٍ بِهِ كُلُّ مُهْتَدِي

وَقَدْ نَزَلَتْ مِنْهُ عَلَى أَهْلِ يَثْرِبَ ... رِكَابُ هُدَى حَلَّتْ عَلَيْهِمْ بِأَسْعَدِ

نَبِيِّ يَرَى مَا لَا يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ ... وَيَتْلُو كِتَابَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَسْجِدِ

(٥٩٦) - المحفود: الذي يخدمه أصحابه ويعظمونه ويسرعون في طاعته. انظر النهاية (٣٩٠/١).

(٥٩٧) - المحشود: أي أن أصحابه يخدمونه ويجتمعون إليه. انظر النهاية (٣٧٣/١).

(٥٩٨) - العابِس: الكريه الملقى، مقطب الوجه. انظر النهاية (١٥٦/٣).

(٥٩٩) - مفند: هو الذي لا فائدة من كلامه لكبر أصابه. انظر النهاية (٤٢٧/٣).

وَأَنَّ قَالَ فِي يَوْمٍ مَقَالَةً غَائِبٍ ... فَتَصَدِّقُهَا فِي الْيَوْمِ أَوْ فِي ضُحَى الْغَدِ

لِيَهْنَ أَبَا بَكْرٍ سَعَادَةَ جَدِّهِ ... بِصُحْبَتِهِ مَنْ يُسْعِدِ اللَّهَ يُسْعِدَ

قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها: مكثنا ثلاث ليال، وما ندرى أين وجه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة فأنشده هذه الأبيات، والناس يتبعونه يسمعون صوته وما يرونه حتى خرج من أعلى مكة، قالت: فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأن وجهه إلى المدينة (٦٠٠)

قصة سراقه بن معبد:

ولندع رواية سراقه بن مالك تكمل الخبر التاريخي ففيها تفاصيل تكشف عن المعجزة النبوية قال عبد الرحمن بن مالك بن جعشم المدلجي، أن أباه مالكا أخبره أن أخاه سراقه بن جعشم أخبره أنه لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجرا إلى المدينة جعلت قريش لمن رده عليهم مائة ناقة قال: فبينما أنا جالس في نادي قومي إذ جاء رجل منا، فقال: والله لقد رأيت ركبا ثلاثة مروا علي أنفا، إني لأظنه محمدا قال: فأومأت إليه بعيني: أن اسكت، وقلت: إنما هم بنو فلان، يبتغون ضالة لهم قال: لعله، ثم سكت. قال: فمكثت قليلا، ثم قمت فدخلت بيتي وأمرت بفرسي، فقيدت إلى بطن الوادي، وأخرجت سلاحي من وراء حجراتي، ثم أخذت قداحي أستقسم بها، ثم ليست لأمتي، ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها، فخرج السهم الذي أكره: لا تضره، وكنت أرجو أن أرده فأخذت المائة ناقة. قال: فركبت على أثره، فبينما فرسي يسير بي عثر، فسقطت عنه قال: فأخرجت قداحي فاستقسمت بها فخرج السهم الذي أكره: لا تضره، فأبيت إلا أن أتبعه، فركبت، فلما بدا لي القوم فنظرت إليهم عثر بي فرسي فذهبت يده في الأرض، فسقطت عنه، فاستخرج يديه وأتبعهما دحان مثل الغبار، فعلمت أنه قد منع مني، وأنه ظاهر، فنأديتهم، فقلت: أنظروني فوالله لا أذيتكم، ولا يأتاكم مني شيء تكرهونه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " قل له: ماذا تبتغي؟ " قال: قلت: اكتب لي كتابا يكون بيني وبينك آية قال: اكتب له يا أبا بكر قال: فكتب لي، ثم ألقاه إلي، فرجعت، فسكت، فلم أذكر شيئا مما كان حتى إذا فتح الله عز وجل مكة، وفرغ رسول الله صلى الله

(٦٠٠) - أخرج قصة أم معبد: الحاكم في المستدرک - كتاب الهجرة - باب حديث أم معبد في الهجرة - رقم الحديث (٤٣٣) -

والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٩١) - وابن سعد في طبقاته (١/ ١١١) - وإسنادها حسن.

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَهْلِ حَبِيرٍ، خَرَجْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَلْقَاهُ وَمَعِيَ الْكِتَابُ الَّذِي كَتَبْتُ لِي، فَبَيْنَمَا أَنَا عَامِدٌ لَهُ دَخَلْتُ بَيْنَ ظَهْرِي كَتِيبَةً مِنْ كِتَابِ الْأَنْصَارِ قَالَ: فَطَفِقُوا يَفْرَعُونَنِي بِالرَّمَاكِ، وَيَقُولُونَ: إِلَيْكَ، إِلَيْكَ حَتَّى دَنَوْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَيَّ نَاقَتِهِ أَنْظُرُ إِلَى سَاقِهِ فِي غَرْزِهِ، كَأَنَّهَا جُمَّارَةٌ، فَرَفَعْتُ يَدِي بِالْكِتَابِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا كِتَابُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَوْمٌ وَفَاءٍ وَبِرٍّ، اذْنُهُ» قَالَ: فَأَسْلَمْتُ، ثُمَّ ذَكَرْتُ شَيْئًا أَسْأَلُ عَنْهُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: إِنَّمَا سَأَلَهُ عَنِ الضَّالَّةِ، وَشَيْءٍ فَعَلَهُ فِي وَجْهِهِ الَّذِي كَانَ فِيهِ فَمَا ذَكَرْتُ شَيْئًا إِلَّا أَنِّي قَدْ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: الضَّالَّةُ تَغْشَى حِيَاضِي قَدْ مَلَأَتْهَا لِإِبِلِي، هَلْ لِي مِنْ أَجْرٍ إِنْ سَقَيْتُهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَعَمْ، فِي كُلِّ كَبِدٍ حَرَّى» قَالَ: وَأَنْصَرَفْتُ فَسُقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدَقْتِي.

قَالَ أَبُو جَهْلٍ فِي أَمْرِ سُرَاقَةَ أَبْيَاتًا: فَقَالَ سُرَاقَةُ يُجِيبُ أَبَا جَهْلٍ:

أَبَا حَكَمٍ وَاللَّاتِ لَوْ كُنْتَ شَاهِدًا ... لِأَمْرِ جَوَادِي إِذْ تَسِيخُ قَوَائِمُهُ

عَجِبْتَ وَلَمْ تَشْكُكْ بِأَنَّ مُحَمَّدًا ... نَبِيٌّ وَبِرْهَانٌ فَمَنْ ذَا يُقَاوِمُهُ

عَلَيْكَ بِكَفِّ النَّاسِ عَنْهُ فَإِنِّي ... أَرَى أَمْرَهُ يَوْمًا سَتَبْدُو مَعَالِمُهُ

بِأَمْرِ يَوْمِ النَّصْرِ فِيهِ بِإِلَيْهَا ... لَوْ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ طُرًّا تُسَالِمُهُ" (٦٠١)

دروس وعبر

قال الماوردي: " .. فمن معجزاته - صلى الله عليه وسلم - : عصمته من أعدائه ، وهم الجُمُ الغفير ، والعددُ الكثير ، وهم على أتم حنقٍ عليه ، وأشدُّ طلبٍ لنفسيه ، وهو بينهم مسترسل قاهر ، ولهم مخالطٌ ومكاثر ، ترمقهُ أبصارهم شزراً ، وترتد عنه أيديهم ذعراً ، وقد هاجر عنه أصحابه حذراً حتى استكمل مدته فيهم ثلاث عشرة سنة ، ثم خرج عنهم سليماً ، لم يكلم في نفسٍ ولا جسد ، وما كان ذاك إلا

(٦٠١) - سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٢ - ١٠٤ بإسناد صحيح لغيره، لأن ابن إسحاق توبع في صحيح البخاري، تابعه عقيل (صحيح

البخاري كما في فتح الباري ٧/ ٢٣٠ - ٢٤٨، وبين الحافظ ابن حجر وصل حديث الزهري في ٧/ ٢٤٠).

بعصمة إلهية وعده الله تعالى بها فحققها ، حيث يقول : { وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ } (المائدة: من الآية ٦٧) فَعَصَمَهُ مِنْهُمْ ..

* ويبدو لنا من موقف سراقه حين أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم وعجزه عن الوصول إليه دليل على نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت قوائم فرسه تسيخ في الرمل وهي متجهة صوب الرسول ، حتى إذا نزل عنها ووجهها شطر مكة نشطت من كبوتها ، فإذا أراد أن يعيدها كرة في اتجاه الرسول صلى الله عليه وسلم عادت إلى عجزها وكعبها [ضعفها] ، أفترى هذا يقع إلا لنبي مرسل مؤيد من الله بالنصر والعون؟ كلا ، وهذا ما أدركه سراقه ، فنادى الرسول بالأمان ، وأدرك أن للرسول صلى الله عليه وسلم من العناية الإلهية ما تعجز عن إدراكه قوى البشر ، فرضي أن يخسر الجائزة ويفوز بالوعد.

* وفي وعد الرسول صلى الله عليه وسلم لسراقه بسواري كسرى معجزة أخرى ، فالإنسان الذي يبدو هاربا من وجه قومه لا يؤمل في فتح الفرس والاستيلاء على كنوز كسرى ، إلا أن يكون نبيا مرسلا ، ولقد تحقق وعد الرسول صلى الله عليه وسلم له ، وطالب كسرى عمر بن الخطاب بإنفاذ وعد الرسول صلى الله عليه وسلم له حين رأى سواري كسرى في الغنائم ، فألبسهما عمر سراقه على ملاء من الصحابة ، وقال : « الحمد لله الذي سلب كسرى سواريه وألبسهما سراقه بن جعشم الأعرابي » وهكذا تتوالى المعجزات في هذه الهجرة واحدة بعد أخرى ليزداد المؤمنون ويستيقن الذين أوتوا الكتاب من المترددين والجاهدين أنه رسول من رب العالمين.

الدرس الستون

فوائد ودروس وعبر من هجرة سيد البشر

الحمد لله مقدر الأيام والشهور، ومصرف الأعوام والدهور، أحمده سبحانه وأشكره على سوابغ نعمه التي تقرّ بالشكر فلا تبور، وأستمحه جل في عليائه التوفيق في كل الأمور، فهو سبحانه المؤمل لكشف كل كرب وجبر كل مكسور،

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الغفور الشكور، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله، بعثه الله بالهدى والنور، فأشرقت شمس الحق في كل الربوع والدور، وزكت النفوس العليلة فغدت في سعادة وسرور، ورضوان وحبور، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ليوث الوغى والقدور، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم البعث والنشور، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

أولاً: أن الهجرة من سنن الرسل الكرام:

أن من أهم الدرس التي ينبغي علينا أن نعتلها أن نعلم أن الهجرة من سنن الأنبياء والمرسلين إن فلهجرة في سبيل الله سنة قديمة ، إن هجرة نبينا لم تكن بدعاً في سيرة الأنبياء والمرسلين ، بل لقد هاجر الأنبياء والمرسلون صلوات الله وسلامه عليهم قبل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، كإبراهيم خليل الرحمن على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ، فبعد أن دعا قومه إلى الله وقال : **{إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَأَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}** [العنكبوت: ٢٥].

وأبى قومه أن يؤمنوا به ، قال تعالى : **{فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}** [العنكبوت: ٢٤].

بعد هذا قال إبراهيم عليه السلام : **{إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** [العنكبوت: ٢٦].

فترك تلك الأرض التي أبى أهلها إلا الكفر والإلحاد والشرك به جل جلاله ، وهاجر إلى الله عز وجل .

وكذلك نوح عليه السلام لما دعا قومه إلى الله فأبوا الإيمان بالله تعالى ، فقال له قومه : **{قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ}** [الشعراء: ١١٦].

قيل المراد بالمرجومين : المخرجين .

وكذلك لوط عليه السلام قال له قومه : **{لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ}**

[الشعراء: ١١٦].

وكذلك نبي الله موسى عليه السلام لما خاف على نفسه من فرعون اللئيم أن يصيبه بسوء خرج من

مصر ، كما قال الله عز وجل : **{فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}**

[القصص: ٢١].

ثانياً- الصراع بين الحق والباطل صراع سنة إلهية :

منذ أن انقسم الناس إلى قسمين : فريق حق وفريق باطل ، بدأ الصراع بين الحق والباطل ، وبدأت المواجهات بين حزب الله وحزب الشيطان ، بين حزب الحق وحزب الباطل ، وهاهي الفلوجة اليوم تسطر صوراً من صور المواجهة بين الحق والباطل ، كما سطر التاريخ من مثل تلك الصور الشيء الكثير ،

وهاهو الكفر يتزعمه الصليب ومن خلفه من أبناء القردة والخنازير، ومن أبناء الكفر بكل أنواعها ومللها ونحلها قد جمعت أحزابها، وحاصرت الفلوجة من كل الجهات براً وبحراً وجواً، يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

فما المطلوب منا في مثل هذه الظروف، وفي مثل هذه الأحوال؟ أقول: اقرءوا التاريخ إذ فيه العبر ضل قوم ليس يدرون الخبر وحتى نتتصر في مثل هذه الظروف لا بد من إظهار عدة المؤمنين المستمدة من قوله جل وعلا: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: ١٣٩ - ١٤١]، فمنذ قرون مضت، وحين ظهر نور الإسلام بدأت المؤامرات، وبدأت الدسائس تحاك على الإسلام يوماً بعد يوم، ولم يتعرض دين لمثل تلك الدسائس التي تعرض لها الإسلام، فسنوات بل قرون طوال وهم يمكرون بالإسلام وأهله، ولو لم يكن الإسلام دين حق لما استطاع أن يقاوم تلك الدسائس ومكر الليل والنهار.

ثالثاً: أد الأمانة إلى من ائتمنك:

و من الدروس الأخلاقية التربوية التي ينبغي علينا أن نتعلمها من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أداء الأمانة من الأخلاق القويمة التي يتصف بها أهل الإسلام وان أداء الأمانة لا يكون مع المسلمين فقط بل مع غير المسلمين و أعداء الدعوة الى الله فقد كانت أمانات المشركين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم: وفي إيداع المشركين ودائعهم عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع محاربتهم له وتصميمهم على قتله دليل باهر على تناقضهم العجيب الذي كانوا واقعين فيه، ففي الوقت الذي كانوا يكذبونه ويزعمون أنه ساحر أو مجنون أو كذاب لم يكونوا يجدون فيمن حولهم من هو خير منه أمانة وصدقاً ، فكانوا لا يضعون حوائجهم ولا أموالهم التي يخافون عليها إلا عنده! وهذا يدل على أن كفرانهم لم يكن بسبب الشك لديهم في صدقه ، وإنما بسبب تكبرهم واستعلائهم على الحق الذي جاء به ، وخوفاً على زعامتهم وطغيانهم، وصدق الله العظيم : ؟ {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَأُكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} [الأنعام: ٣٣]

وفي أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - لعلي رضي الله عنه بتأدية هذه الأمانات لأصحابها في مكة ، رغم هذه الظروف الشديدة التي كان من المفروض أن يكتنفها الاضطراب ، بحيث لا يتجه التفكير إلا

إلى إنجاح خطة هجرته فقط، رغم ذلك فإن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما كان لينسى أو ينشغل عن رد الأمانات إلى أهلها، حتى ولو كان في أصعب الظروف التي تنسي الإنسان نفسه فضلاً عن غيره عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تحن من حنانك" (٦٠٢).

رابعاً: معية الله وحفظه وتأييده لأنبيائه وأوليائه:

قال الله تعالى: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٤٠] ، فالله عز وجل أرحم بنبيه وصاحبه من أن يجعلهما نهباً لعدوهما، كما تؤكد الآية كذلك حماية الله لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ونصره وتأييده حين تخلت عنه قوة الأرض، والجنود التي يخذل بها الباطل وينصر بها الحق ليست مقصورة على نوع معين من السلاح ولا صورة خاصة من الخوارق، إنها أعم من أن تكون مادية أو معنوية، وإن كانت مادية فإن خطرها لا يتمثل في فخامتها، فقد تفتك جرثومة لا تراها العين بجيش عظيم، {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} [المدثر: ٣١].

فتعمية أبصار المشركين عن رؤية النبي - صلى الله عليه وسلم - وصاحبه في غار "ثور" وهم عنده، مثل تخشع له القلوب من أمثلة عناية الله بأنبيائه ورسله ودعائه وأحبائه، فما كان الله ليقوع رسوله - صلى الله عليه وسلم - في قبضة المشركين، فيقضوا عليه وعلى دعوته، وهو الذي أرسله الله رحمة للعالمين، وليس في نجاته الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصاحبه بعد أن أحاط بهما المشركون في غار ثور إلا تصديق قوله تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [غافر: ٥١] ، وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} [الحج: ٣٨].

فالدعاة إلى الله بحاجة دائماً إلى أن يكون راسخاً في أعماقهم عون الله لهم حين تعجز قوتهم البشرية عن إدراك ما يخطط لهم العدو بعد استنفاد الطاقة واستفراغ الوسع، وأن تكون لديهم القناعة التامة،

(٦٠٢) - سنن أبي داود ت الأرنبوط (٥/ ٣٩٥) وأخرجه الترمذي (١٣١٠)

أن النصر أولاً وأخيراً من عند الله. قال تعالى: {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [آل عمران: ١٢٦].

خامساً: مكر خصوم الدعوة بالداعية أمر مستمر متكرر:

و اعلموا ببارك الله فيكم أن مكر أعداء الدعوة مستمر عبر الزمان و المكان سواء عن طريق الحبس أو القتل أو النفي والإخراج من الأرض ، وعلى الداعية أن يلجأ إلى ربه وأن يثق به ويتوكل عليه ويعلم أن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله قال الله تعالى في بيان شان هؤلاء و كيف أن مكرهم لا يحيق إلا بهم {اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} [فاطر: ٤٣] ، كما قال عز وجل: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال: ٣٠].

ومن مكر أهل الباطل وخصوم الدعوة استخدام سلاح المال لإغراء النفوس الضعيفة للقضاء على الدعوة والدعاة ولذلك رصدوا مائة ناقة لمن يأتي بأحد المهاجرين حياً أو ميتاً، فتحرك الطامعون ومنهم سراقه ، الذي عاد بعد هذه المغامرة الخاسرة مادياً بأوفر ربح وأطيب رزق، وهو رزق الإيمان، وأخذ يعمي الطريق على الطامعين الآخرين الذين اجتهدوا في الطلب، وهكذا يرد الله عن أوليائه والدعاة {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ} [الأنفال: ٣٦].

اليد العليا في الدعوة خير من اليد السفلى:

و ها هنا درس آخر يعلمه لنا رسولنا الكريم صلى الله عليه و سلم أن اليد العليا خير من اليد السفلى لذا لم يقبل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يركب الراحلة حتى أخذها بثمنها من أبي بكر رضي الله عنه واستقر الثمن ديناً بذمته ، وهذا درس واضح بأن حملة الدعوة ما ينبغي أن يكونوا عالة على أحد في وقت من الأوقات ، فهم مصدر العطاء في كل شيء .

إن يدهم إن لم تكن العليا فلن تكن السفلى ، وهكذا يصير عليه السلام أن يأخذها بالثمن وسلوكه ذلك هو الترجمة الحقة لقوله تعالى : ؟ { وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ }

[الشعراء: ١٠٩] .

إن الذين يحملون العقيدة والإيمان ويبشرون بهما ما ينبغي أن تمتد أيديهم إلى أحد - إلا الله - لأن هذا يتناقض مع ما يدعون إليه وقد تعود الناس أن يعوا لغة الحال لأنها أبلغ من لغة المقال ، وما تأخر المسلمون وأصابهم ما أصابهم من الهوان إلا يوم أصبحت وسائل الدعوة والعاملين بها خاضعة للغة المادة ، ينتظر الواحد منهم مرتبة ، ويومها تحول العمل إلى عمل مادي فقد الروح والحيوية والوضاءة ، وأصبح للأمر بالمعروف والموعظة الحسنات ، وأصبح الخطباء موظفين ، وأصبح الأئمة موظفين .

إن الصوت الذي ينبعث من حنجرة وراءها الخوف من الله والأمل في رضاه غير الصوت الذي ينبعث ليتلقى دراهم معدودة ، فإذا توقفت توقف الصوت ، وقديماً قالوا: ليست النائحة كالثكلى ولهذا قلَّ التأثير وبعد الناس عن جادة الصواب^(٦٠٣) .

أهمية العقيدة والدين في إزالة العداوة والضغائن :

في هجرة المصطفى مغزى لمذكر لا تجهلوا مجدكم يا قوم وادكروا

لو كان للمال أو للجاه قد خرجوا أو للرياسة أو للفخر ما انتصروا

الله يعلم أن القوم تحفزهم عقيدة ولها الأرواح قد ندروا

فبالعقيدة قام القوم وانتلفوا وبالعقيدة يرمى القوس والوتر

وبالعقيدة ذلّ الشرك وارتفعت منارة بسنا التوحيد تفتخر

وبالعقيدة كان النصر وانهزمت جيوش كسرى فلا تاج ولا سرور

وبالعقيدة راج العلم وازدهرت رياضته فله الأزهار والثمر

ضعف العقيدة داء الشرق فانتبهوا قووا العقيدة فالإيمان يُحتضر

(٦٠٣) - معين السيرة : ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

إن العقيدة الصحيحة السليمة والدين الإسلامي العظيم لهم أهمية كبرى في إزالة العداوات والضغائن ، وفي التآليف بين القلوب والأرواح ، وهو دور لا يمكن لغير العقيدة الصحيحة أن تقدم به وها قد رأينا كيف جمعت العقيدة الإسلامية بين الأوس والخزرج ، وأزالت آثار معارك استمرت عقوداً من الزمن ، وأغلقت ملف العقيدة في نفوس الأنصار ، فاستقبلوا المهاجرين بصدور مفتوحة ، وتآخوا معهم في مثالية نادرة ، لا تزال مثار الدهشة ومضرب المثل ، ولا توجد في الدنيا فكرة أو شعار آخر فعل مثلما فعلت عقيدة الإسلام الصافية في النفوس .

ومن هنا ندرك السر في سعي الأعداء الدائب إلى إضعاف هذه العقيدة وتقليل تأثيرها على نفوس المسلمين ، واندفاعهم المستمر نحو تذكية النعرات العصبية والوطنية والقومية وغيرها ، وتقديمها كبديل للعقيدة الصحيحة^(٦٠٤) .

الدرس الحادي و الستون

من وحي الهجرة تأييد الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم-

الحمد لله مقدر الأيام والشهور، ومصرف الأعوام والدهور، أحمده سبحانه وأشكره على سوابغ نعمه التي تقرّ بالشكر فلا تبور، وأستمحه جل في عليائه التوفيق في كل الأمور، فهو سبحانه المؤمل لكشف كل كرب وجبر كل مكسور،

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الغفور الشكور، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله، بعثه الله بالهدى والنور، فأشرق شمس الحق في كل الربوع والدور، وزكت النفوس العليلة فغدت في سعادة وسرور، ورضوان وحبور، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ليوث الوغى والقدر، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم البعث والنشور، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

(٦٠٤) - الهجرة النبوية المباركة، ص ٤٠٥.

نعيش معكم لنستلهم من وحي الهجرة المباركة الدروس والعبر ولنسقط أحداثها على واقع الأمة الأليم
لعلنا نعود إلى جادة الطريق

فالهجرة لم تكن حدثا عاديا بل كانت ملحمة بين أهل الإيمان وأهل الكفر والطغيان

الهجرة كانت وما زالت سراجا يضيء للأمة لتتكشف به الغمة

الهجرة كانت معونة وتأييدا من الله تعالى لنبيه-صلى الله عليه وسلم-

الهجرة كانت نصرا وانتصارا وفتحا مبينا لإقامة المدينة الفاضلة، مدينة الإيمان، مدينة الأمن، مدينة
الرحمة، مدينة الأخلاق.

هيا لنشرف الآذان ببعض صور التأييد وكيفية الوصول إلى تأييد الله تعالى لنا

في هجرة المصطفى مغزى لمذكر لا تجهلوا مجدكم يا قوم وادكروا

لو كان للمال أو للجاه قد خرجوا أو للرياسة أو للفخر ما انتصروا

الله يعلم أن القوم تحفزهم عقيدة ولها الأرواح قد نذروا

فبالعقيدة قام القوم وائتلفوا وبالعقيدة يرمى القوس والوتر

وبالعقيدة ذل الشرك وارتفعت منارة بسنا التوحيد تفتخر

وبالعقيدة كان النصر وانهمت جيوش كسرى فلا تاج ولا سرر

وبالعقيدة راج العلم وازدهرت رياضة فله الأزهار والثمر

ضعف العقيدة داء الشرق فانتبهوا قووا العقيدة فالإيمان يُحتَضَرُ الأساس

ما معنى التأييد؟

التأييد: من الأيد وهو القوة كأنه يأخذه معه بيده في الشيء الذي يقويه به كأخذ قوة المظاهرة من الظهر
لأن الظهر موضع قوة الشيء في ذاته، واليد موضع قوة تناوله لغيره، قاله الحرالي. (٦٠٥)

أنواع التأييد:

واعلم زادك الله علما: أن التأييد على نوعين:

أحدهما: ما يحصل من غير واسطة أسباب معتادة: كتأييد الله لنبيه صلى الله عليه وسلم- بالمعجزات
كانشقاق القمر ونصره بالرعب

والثاني: ما يحصل بواسطة أسباب معتادة الملائكة والمؤمنين

يقول الإمام الخازن في تفسيره: التأييد والنصر من الله عز وجل وحده لكنه يكون بأسباب باطنة غير
معلومة وبأسباب ظاهرة معلومة فأما الذي يكون بالأسباب الباطنة فهو المراد بقوله **{هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ**

بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال: ٦٢]

لأن أسبابه باطنة بغير وسائط معلومة وأما الذي يكون بالأسباب الظاهرة فهو المراد بقوله **{**

وَبِالْمُؤْمِنِينَ} لأن أسبابه ظاهرة بوسائط وهم المؤمنون والله سبحانه وتعالى هو مسبب الأسباب وهو
الذي أقامهم لنصره ثم بين كيف أيدته بالمؤمنين فقال تعالى: **{أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}** [الأنفال: ٦٣] ^(٦٦)

آيات التأييد في القرآن الكريم:

واعلم بارك الله فيك- أن آيات التأييد في القرآن الكريم تسع آيات نذكر منها

١ - أيد الله عيسى بروح القدس،: **{إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ
إِذْ أَيْدَتِكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
وَإِذْ تَخَلَّقْنَا مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفَخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَاللَّبْرَصَ
بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ}** [المائدة: ١١٠]

(٦٠٦) - تفسير الخازن- طدار الفكر (٣/ ٤٨)

٢ - الله أيد الرسول بنصره وبالمؤمنين: {وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال: ٦٢].

٣ - الله أيد المؤمنين المستضعفين بنصره: ((وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)) - [الأنفال ٨ / ٦٢].

٤ - الله هو الذي أيد المؤمنين من بني إسرائيل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنْتُ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} [الصف: ١٤].

٥ - الله هو من أنزل سكينته والرسول في الغار وأيده بجنود لا يراها الناس، {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٤٠].

٦ - الله كتب في قلوب المؤمنين الإيمان وأيدهم بروح منه: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة: ٢٢].

٧ - الله يؤيد بنصره من يشاء - : {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ} [آل عمران: ١٣].

صور تأييد الله تعالى لرسوله -صلى الله عليه وسلم-:

ومن أجل صور التأييد التي نسلط عليها الضوء في هذا الموضوع التأييد الإلهي للحبيب النبي -صلى الله عليه وسلم- في الهجرة المباركة و يتجلى ذلك في عدة نقاط:

أولاً: أيده الله تعالى نبيه-صلى الله عليه وسلم - إذ جاءه جبريل عليه السلام بالوحي من الله تعالى
يخبره بالمؤمرة التي حاكها كفار مكة ضده جاء في الحديث (. فأتى جبريل عليه السلام رسول الله -
صلى الله عليه وسلم -فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه. فلما كانت عتمة
من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه ، فلما رأى رسول الله -صلى الله عليه
وسلم -مكانهم فقال لعلي بن أبي طالب ، نم على فراشي ، وتسج ببردي هذا الحضرمي الأخضر فم
فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم. وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم -ينام في برده ذلك
إذا نام (٦٠٧)

و قد صور الله تعالى لنا ذلك المشهد بقوله تعالى (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ
يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال: ٣٠].

ثانياً: خروج النبي صلى الله عليه وسلم - من وسط تلك السيوف المشهورة ويحثو فوق تلك الجماجم
التراب دليل على تأييد رب الأرباب لنبيه الأواب -صلى الله عليه وسلم-

عن ابن إسحاق قال : وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظر أمر الله حتى إذا اجتمعت قريش
فمكرت به وأرادوا به ما أرادوا أتاه جبريل عليه السلام ، فأمره أن لا يبيت في مكانه الذي كان يبيت
فيه ، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب ، فأمره أن يبيت على فراشه ، ويتسجى
ببرد له أخضر ، ففعل ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على القوم وهم على بابه وخرج معه
بحفنة من تراب فجعل يذرهما على رؤوسهم ، وأخذ الله عز وجل بأبصارهم عن نبيه وهو يقرأ : يس
والقرآن الحكيم إلى قوله : فأغشيناهم فهم لا يبصرون (٦٠٨).

أي سخرية هذه؟ وأي احتقار للقوم؟ شباب أقوياء وسيوفهم في أيديهم، يخرج عليهم رسول الله وحيدا،
ولكنه في رعاية الله، ويضع التراب على رؤوسهم متحديا تلك السيوف التي ذبلت في أيديهم كأنها
أغصان فصلت عن شجرتها، فلم تغن عنهم شيئا.

ثالثاً: حماية الله تعالى لنبيه-صلى الله عليه وسلم-وصاحبه أبي بكر-رضي الله عنه-

(٦٠٧) - الصحيح من أحاديث السيرة النبوية (ص: ١٤١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ١١٢.

(٦٠٨) - ابن هشام (٩١/٢) .

وصل المشركون إلى الغار، ورأى سيدنا أبو بكر -رضي الله عنه- أقدامهم فقال: "يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر تحت قدميه أبصرنا"، والرسول يهدئ من روع أبي بكر ويقول: "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ لا تحزن إن الله معنا" {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}. {سورة التوبة: الآية ٤٠}.

لقد كان رسول الله في ثقة تامة بالله -عز وجل- وكيف لا وهو لم يهمل سببا من الأسباب، ولم يقصر في أمر يستطيعه، وأكثر من هذا فقد كان خروجه بأمر الله، والله -تبارك وتعالى- لا يضيع نبيه أبدا. لهذا كان الرسول يخاطب أبا بكر وهو موقن أن الله لن يضيعهما ولا بد أن يرد عنهما عدوهما، وقد كان.

أخذ الله تعال أبصارهم فأعماها عن رؤية النبي -صلى الله عليه وسلم- كما أعمى قلوبهم عن رؤية الهداية والنور الذي جاء به صلى الله عليه وسلم-

رابعا - سراقه بن مالك -رضي الله عنه- وتأيد الله تعالى لنبيه بسراقه

عن سراقه بن مالك بن جعشم رضي الله عنه قال: "جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج، إذا أقبل رجل منهم، حتى قام علينا ونحن جلوس فقال: يا سراقه إني قد رأيت آتفاً أسوداً بالساحل أراهما محمداً وأصحابه، قال سراقه: فعرفت أنهم هم، فقلت: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلائاً وفلائاً انطلقوا بأعيننا.

ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي -وهي من وراء أكمة- فتحبسها علي، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت فخطت بزجه الأرض، وخفضت عاليه، حتى أتيت فرسي، فركبتها، فرفعتها تقرب لي، حتى دنوت فعثرت بي فرسي فخررت عنها، فقامت فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزام، فاستقسمت بها: أضرهم أم لا؟ فخرج الذي أكره. فركبت فرسي -وعصيت الأزام- تقرب بي، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغت الركبتين، فخررت

عنها، ثم زجرتها، فنهضت فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عنان ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقلت له :

إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتكم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزائي، ولم يسألاني إلا أن قال: (أخف عنا). فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من آدم، ثم مضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (٦٠٩).

معجزة في خيمة أم معبد:

ومن تأييد الله تعالى لنبيه - صلى الله عليه وسلم - شاة أم معبد : فقد اشتهر في كتب السيرة والحديث خبر نزول الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه بخيمة أم معبد بقديد طالبين القرى ، فاعتذرت لهم لعدم وجود طعام عندها إلا شاة هزيلة لا تدرّ لبناً ، فأخذ الشاة فمسح ضرعها بيده ، ودعا الله ، وحلب في إناء حتى علت الرغوة ، وشرب الجميع ، ولكن هذه الرواية طرقها ما بين ضعيفة وواهية . إلا طريقاً واحدة يرويها الصحابي قيس بن النعمان السكوني ونصها (لما انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم و أبو بكر يستخفيان نزلاً بأبي معبد فقال : والله مالنا شاة ، وإن شاءنا لحوامل فما بقي لنا لبن . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحسبه - فما تلك الشاة ؟ فأتى بها . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة عليها ، ثم حلب عساً فسقاه ، ثم شربوا ، فقال : أنت الذي يزعم قريش أنك صابيء ؟ قال : إنهم ليقولون . قال : أشهد أن ما جئت به حق . ثم قال : أتبعك . قال : لا حتى تسمع أنا قد ظهرنا . فاتبعه بعد) .. (٦١٠)

كيف يؤيدنا الله تعالى

(٦٠٩) - أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب هجرة النبي - صلى الله عليه وسلم - حديث رقم: ٣٩٠٦.

(٦١٠) - رواه البزار بإسناد حسن وقال معقباً: لا نعلم روى قيس عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا هذا، ولا نعلمه بهذا اللفظ إلا عنه وهو يخالف سائر الأحاديث في قصة أم معبد (كشف الأستار ٢/ ٣٠١) وقال الهيثمي: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح (٦/ ٥٨) وقال الحافظ ابن حجر: "أخرجها الطبراني من حديث قيس بن النعمان بسند صحيح وسياق أتم. (الإصابة ٥/ ٥٠٦).

إن الناظر إلى أحوال الأمة وما يحاك ضدها وما يحدث لأبنائها في بورما وغيرها من بلدان العالم ليرى أننا بحاجة ماسة إلى أن نصحح المسار و أن نبحث عن مواطن الخلل في نفوسنا و في مجتمعاتنا
وها أنا استلهم من وحي الهجرة أسباب التأييد والنصر وإليك بعض تلك الأسباب :

أولاً: الإيمان العميق :

أول شروط التأييد من الله تعالى أن يكون إيمانك عميق قد تخلل نياط قلوب و عروق دمك ان يخالط الإيمان بشاشة القلوب قال الله تعالى { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [النور: ٥٥]

وقال أيضاً: "حقيقة الإيمان: هو التصديق التام بما أخبرت به الرُّسل، المتضمن لانقياد الجوارح"
قال السعدي - رحمه الله- هذا من أوعاده الصادقة، التي شوهت تأويلها ومخبرها، فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة، أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وهو دين الإسلام، الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة، لفضلها وشرفها ونعمته عليها، بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة، في أنفسهم وفي غيرهم، لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين، وأنه يبدلهم من بعد خوفهم الذي كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه، وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار، وكون جماعة المسلمين قليلين جدا بالنسبة إلى غيرهم، وقد رماهم أهل الأرض عن قوس واحدة، وبعوا لهم الغوائل.(٦١١)

ثانياً: الولاء والبراء :

هو موافقة العبد ربه فيما يحبه ويرضاه من الأقوال والأفعال والاعتقادات والذوات، فسمة ولي الله هو محبته لما يحب الله. ورضاه بما يرضي الله، وعمله بذلك كله، وميله إليه على وجه الملازمة له(٦١٢).

تعريف البراء شرعاً: هو موافقة العبد ربه فيما يسخطه ويكرهه ولا يرضاه من الأقوال والأفعال

(٦١١) - تفسير السعدي (ص: ٥٧٣)

(٦١٢) - المدخل (١٩١)

والاعتقادات والذوات، فسممة البراء الشرعي هو البغض لما يبغضه الله على وجه الملازمة، والاستمرار على ذلك (٦١٣).

واعلم بارك الله فيك أن الولاء و البراء اوثق عرى الإيمان و هو سبيل التأييد كما اخبرنا بذلك الغني الحميد قال تعالى {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة: ٢٢]

روى أحمد في مسنده عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، «أوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله». (٦١٤)

صور مشرقة من الولاء والبراء:

أبو عبيدة بن الجراح يقتل والده يوم بدر

عن ابن شوذب قال: جعل أبو أبي عبيدة يتصدى لأبي عبيدة يوم بدر فجعل أبو عبيدة يحيد عنه فلما أكثر قصده أبو عبيدة فقتله فأنزل الله عز و جل فيه هذه الآية حين قتل أباه {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} إلى آخر الآية. ((٦١٥))

عبد الله بن أبي بن سلول-رضي الله عنه - مع أبيه راس النفاق:

عن جابر بن عبد الله: (كنا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال الأنصاري: يا لأنصار! وقال المهاجري: يا للمهاجرين! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بال دعوى الجاهلية؟! قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال: دعوها فإنها منتنة) يعني: دعوى الجاهلية، فسمعها عبد الله بن أبي فأشعل نار الفتنة أول ما سمع بهذا الحديث فقال:

(٦١٣) - المدخل (١٩١).

(٦١٤) - أخرجه الطبراني (٢١٥/١١ ، رقم ١١٥٣٧).

(٦١٥) - أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١/١٥٤)(٣٦٠)

قد فعلوها! فوالله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال صلى الله عليه وسلم: (دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه).

فلما بلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي ما كان من أبيه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله! لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالديه مني، وإنني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا).^(٦١٦)

ثالثاً: الثقة بمعية الله تعالى:

الثقة بالله صفة من صفات الأنبياء؛ فهذا خليل الرحمن إبراهيم -عليه السلام- حينما ألقى في النار كان على ثقة عظيمة بالله؛ حيث قال: "حسبنا الله ونعم الوكيل" فكفاه الله شر ما أرادوا به من كيد، وحفظه من أن تصيبه النار بسوء، قال تعالى: {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ} [الأنبياء(٦٩)].

والثقة صفة من صفات الأولياء الصادقين؛ قال يحيى بن معاذ: "ثلاث خصال من صفة الأولياء: الثقة بالله في كل شيء، والغنى به عن كل شيء، والرجوع إليه من كل شيء"^(٦١٧) في الهجرة المباركة لما خاف الصديق على رسول الله من أذى قريش، وقال لرسول الله: "لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قَدَمَيْهِ لِأَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ"، رفض الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الرسالة السلبية وقال له في ثبات المؤمن ويقينه بربه: «يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ يَا ثَنِينِ اللَّهِ تَالِثُهُمَا

سهرت أعين، ونامت عيون *** في أمور تكون أو لا تكون

فادراً الهم ما استطعت عن النفس *** فحملانك الهموم جنون

(٦١٦) - أخرجه البخاري (١٨٦١/٤ ، رقم ٤٦٢٢) ، ومسلم (١٩٩٨/٤ ، رقم ٢٥٨٤)

(٦١٧) - [شعب الإيمان(٣٥٤/٢) للبيهقي].

إن رباً كفأك بالأمس ما كان *** سيكفيك في غدٍ ما يكون

فليعلم المسلم أن الصراع بين الحق والباطل: صراع قديم وممتد، وهو سنة إلهية نافذة قال عز وجل:
{الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ
لَهَدَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ
عَزِيزٌ} [الحج: ٤٠]. ولكن هذا الصراع معلوم العاقبة: {كَتَبَ اللَّهُ لِأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ
{ [المجادلة: ٢١].

واشدد يديك بحبل الله معتصما ... فإنه الركن إن خانتك أركان

رابعا الصبر والثبات:

ومن مؤهلات النصر والتأييد الصبر والثبات وعدم التزعزع والشك والريب قال الله تعالى {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ
أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة: ٢٤]

قال بعض العلماء: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

عَنْ حَبَابِ بْنِ الْأَرْتِّ، قَالَ: «شَكَّوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ، فِي ظِلِّ
الْكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو لَنَا، فَقَالَ: قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ، فَيُحْفَرُ لَهُ فِي
الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيَجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيَمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ،
مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ، لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صُنْعَاءَ
إِلَى حَضْرَمَوْتٍ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَالذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» (٦١٨)

خامسا: التضحية:

واعلم زادك الله علما—أن من مؤهلات النصر والتأييد التضحية، والهجرة النبوية المباركة كانت ملحمة
من ملاحم التضحية بجميع أشكالها وألوانها

التضحية بالنفس وتتمثل في نوم علي بن أبي طالب — رضي الله عنه— في فراش رسول الله —صلى الله
عليه وسلم—

(٦١٨) - (أخرجه أحمد: ١٠٩/٥، والبخاري: ٢٤٤/٤، وأبو داود: ٢٦٤٩، والنسائي: ٢٠٤/٨).

التضحية بالأهل وتتمثل في أبي سلمة رضي الله عنه—عندما ترك ابنه وزوجته

التضحية بالوطن وتتمثل في جميع الصحابة الذين غادروا ملاعب الصبا والديار والأوطان

التضحية بالمال وتتمثل في صهيب الرومي الذي ضحى بثروته من اجل الهجرة وكذا أبو بكر الصديق — رضي الله عنهم أجمعين كانت هذه إشارات و قطرات من وحي هجرة سيد الكائنات صلى الله عليه وسلم—

الثاني و الستون

هجرة القلوب إلى علام الغيوب

الحمد لله مقدر الأيام والشهور، ومصرف الأعوام والدهور، أحمده سبحانه وأشكره على سوابغ نعمه التي تقرّ بالشكر فلا تبور، وأستمحه جل في عليائه التوفيق في كل الأمور، فهو سبحانه المؤمل لكشف كل كرب وجبر كل مكسور،

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الغفور الشكور، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله، بعثه الله بالهدى والنور، فأشرقتم شمس الحق في كل الربوع والدور، وزكت النفوس العليله فغدت في سعادة وسرور، ورضوان وحبور، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ليوث الوغى والقذور، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم البعث والنشور، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

—هجرة من الشك إلى اليقين:

ما أحوجنا في هذه الفترة العصبية إلى أن نهجر إلى الله تعالى من الشك إلى اليقين، فالذي ينظر إلى أحوال كثير من شبابنا ليرى علامات الحيرة على وجوههم حيث يرون أن الباطل قد انتفش والحق قد انقشع يرون للباطل جولة ولاتباعه صولة

يرون المسلمين في ربوع الأرض مستضعفين يختطفهم الناس من حولهم فيتطرق الشك إلى القلوب ويوسوس الشيطان لهم بما تنفطر له السماوات وتنشق من هوله الأرض وتخر الجبال من عظمه هذا

فبعضهم يقولون السنا على الحق؟

أليسوا هم على الباطل؟

أليس الله هو الملك العدل فاين العدل مما يكال للامة الإسلامية

الجواب: هيا بنا نهجر إلى ارض اليقين وإلى أرض الثقة بالله تعالى

يقول الله جل في علاه {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ

(١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ} [الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦]

ويعد سبحانه -ووعده الحق { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [النور: ٥٥]

والله لقد جاء صحابي متحمس كتحمس شبابنا الأطهار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة يوماً ليقول له: كما في حديث عن خباب بن الأرت قال شكونا إلى رسول الله {صلى الله عليه وسلم} وهو متوسدٌ بردةً له في ظل الكعبة فقلنا ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا فقال قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدده ذلك عن دينه والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه لكنكم تستعجلون. أخرجه البخاري ومسلم

أيها الشباب! اصبروا، والله ذلكم وعد الله، ووعد من لا ينطق عن الهوى عن تميم الداري، قال :
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله
بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزا يعز الله به الإسلام، وذلا يذل
الله به الكفر.

وكان تميم الداري، يقول : قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف
والعز، ولقد أصاب من كان منهم كافرا الذل والصغار والجزية والحديث رواه أحمد و الطبراني واللفظ له
وهو حديث صحيح الإسناد من حديث تميم الداري رضي الله عنه.

قال تعالى : **{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِئْسَاءِ
وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ }** (٢١٤)
سورة البقرة

يقول ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى : **{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ }** قبل أن تُبْتَلُوا وتختبروا
وتمتحنوا، كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم؛ ولهذا قال : **{ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ
مَسْتَهْمُ الْبِئْسَاءِ وَالضَّرَّاءُ }** وهي : الأمراض؛ والأسقام، والآلام، والمصائب والنوائب.

قال ابن مسعود، وابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومرة الهمداني، والحسن،
وقتادة، والضحاك، والربيع، والسدي، ومقاتل بن حيان : **{ الْبِئْسَاءُ }** الفقر. قال ابن عباس : **{
وَالضَّرَّاءُ }** السقم.

{ وَزُلْزَلُوا } خَوْفًا من الأعداء زلزالا شديداً، وامتحنوا امتحاناً عظيماً،

ابشروا وأملوا فالنصر قريب: قال عدي بن حاتم: عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ قَالَ بَيْنَا أَنَا
عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَاَ إِلَيْهِ الْفَاقَةَ ثُمَّ أَتَاهُ آخَرٌ فَشَكَاَ إِلَيْهِ قَطَعَ السَّبِيلَ فَقَالَ
يَا عَدِيُّ هَلْ رَأَيْتَ الْحَيْرَةَ قُلْتُ لَمْ أَرَهَا وَقَدْ أُنبِئْتُ عَنْهَا قَالَ فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ فَلْتَرَيْنِ الطَّعِينَةَ تَرْتَجِلُ
مِنَ الْحَيْرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ قُلْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي فَأَيْنَ دَعَارِطِي
الذي قَدْ سَعَرُوا الْبِلَادَ وَلَيْتَنُ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لِيَفْتَحَنَّ كُنُوزَ كِسْرَى قُلْتُ كِسْرَى بَنُ هُرْمُرَ قَالَ كِسْرَى بَنُ
هُرْمُرَ وَلَيْتَنُ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيْنِ الرَّجُلَ يَخْرُجُ مَلَأَ كَفْلَهُ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ وَيَلْقَيْنِ

اللَّهُ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ يُتْرَجِمُ لَهُ فَيَقُولَنَّ أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيَبْلُغُكَ فَيَقُولُ بَلَى فَيَقُولُ أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَأَفْضَلَ عَلَيْكَ فَيَقُولُ بَلَى فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ قَالَ عَدِيُّ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَإِنْ لَمْ يَجِدْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ قَالَ عَدِيُّ فَرَأَيْتُ الطَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحَبِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَكُنْتُ فِيْمَنْ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزٍ وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ الْحَيَاةُ لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْرُجُ مَلَأَ كَفَّهُ. (٦١٩)

الهجرة من حب الدنيا إلى حب الآخرة:

فَعَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « يُوْشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أَفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكْلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا ». قَالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ قَالَ « أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُنَاءً كَغُنَاءِ السَّيْلِ يَنْتَزِعُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ ». قَالَ قُلْنَا وَمَا الْوَهْنُ قَالَ « حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ » (٦٢٠)

وهذا ما صار إليه حالنا، فان حياتنا باسم الدنيا وللدنيا ومن اجل الدنيا،

وهذا هو السر في منع نصره الله لأمة الإسلام، ويوم تكون حياتنا باسم الله

ولله وفي الله سيأتي نصر الله وما ذلك على الله بعزيز.

ها هو الصحابي الجليل أبو الدرداء رضي الله عنه لما فتح المسلمون جزر البحر المتوسط جلس يبكي،

فقالوا له: أتبكي يوم النصر يا أبا الدرداء؟ فقال

نعم أبكي على حال هؤلاء-الكفار-عصوا الله فمكنا الله من رقابهم فانتصرنا

عليهم وأخشى أن يأتي اليوم الذي نعصي فيه الله فيمكنهم الله من رقابنا فينتصروا علينا.

كان هرم بن حيان يقول: ما رأيت مثل الجنة نام طالبها، ولا مثل النار نام هاربها، وكان يقول:

أخرجوا من قلوبكم حب الدنيا وأدخلوا قلوبكم حب الآخرة.

(٦١٩) - صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة ح رقم ٣٥٩٥ وانظر: (فتح الباري ٦/ ٦١٠)

(٦٢٠) - "صحيح الجامع" صحيح أبي داود.

قال محمد بن الحنفية: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الْجَنَّةَ ثَمَنًا لَأَنْفُسِكُمْ فَلَا تَبِيعُوهَا بِغَيْرِهَا.

قال الحسن من أحب الدنيا وسرته خرج حب الآخرة من قلبه

عن الحسن، أنه كان يقول: من أحب الدنيا وسرته ذهب خوف الآخرة من قلبه، وما من عبد يزداد علما ويزداد على الدنيا حرصا، إلا ازداد إلى الله عز وجل بغضا، وازداد من الله بعدا "

أين الأكاسرة الجبابرة الألى * * * كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا

من كل من ضاق الفضاء بجيشه * * * حتى ثوى فحواه لحد ضيق

فالموت آت والنفوس نفائس . * * * والمستغر بما لديه الأحمق

هجرة الصحابة والتابعين من حب الدنيا إلى حب الآخرة:

عَنْ أَبِي وَائِلٍ، قَالَ: عُدْنَا حَبَابًا، فَقَالَ: "هَاجَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تُرِيدُ وَجْهَ اللَّهِ، فَوَقَعَ أَجْرُنَا عَلَى اللَّهِ، فَمِنَّا مَنْ مَضَى، لَمْ يَأْخُذْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا، مِنْهُمْ مُصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ، قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَتَرَكَ نَمْرَةَ، فَكُنَّا إِذَا غَطَيْنَا بِهَا رَأْسَهُ، بَدَتْ رِجْلَاهُ، وَإِذَا غَطَيْنَا رِجْلَيْهِ، بَدَا رَأْسُهُ، فَأَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نُغَطِّيَ رَأْسَهُ، وَنَجْعَلَ عَلَى رِجْلَيْهِ شَيْئًا مِنْ إِذْخِرٍ، وَمِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ، فَهُوَ يَهْدِيهَا." (٦٢١)

والنمرة كساء ملون من الصوف - يهدبها : يقطفها .

هكذا استطاع هؤلاء الرجال حين تخففوا من حب الدنيا وكرهية الموت، وصدقوا في طلب الآخرة، أن يتقدموا في ميادين الشهادة، باسمه شفاهم مرفوعة رؤوسهم خفاقة بالشوق إلى لقاء الله قلوبهم، يجدون عند أرض المعركة ريح الجنة التي وعد المتقون، ويتنسمون عبير الحياة التي كتبت للشهداء وهم أحياء عند ربهم يرزقون .

(٦٢١) - أخرجه البخاري في الجنائز باب إذا لم يجد كفنًا إلا ما يوارى رأسه أو قدميه رقم: ١٢٨٦، في مناقب الأنصار باب هجرة النبي: ٣٨٩٧، ٣٩١٤، وفي المغازي باب غزوة أحد: ٤٠٤٧، باب من قتل من المسلمين يوم أحد رقم: ٤٠٨٢، وفي الرقاق باب ما يحذر من زهرة الدنيا رقم: ٦٤٣٢، باب فضل الفقر: ٦٤٤٨، مسلم في الجنائز باب كفن الميت رقم: ٩٤٠، أبو داود: ٣١٥٥، في الجنائز الترمذي في المناقب: ٣٨٥٢، والنسائي في الجنائز، باب القميص من الكفن: ٢٨/٤، أحمد في المسند: ١١٢/٥.

رسالة زلزلت عروش الجبابرة:

وها هو عمير بن الحمام يضرب لنا أروع الأمثلة في ذلك عندما دنا المشركون من المسلمين في غزوة بدر قال-صلى الله عليه وسلم - : "روى مسلم بسنده من طريق أبي هريرة أن رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَوْمُوا إِلَى جَنَّةِ عَرْضِهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، قَالَ: يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: بَخٍ، بَخٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ، بَخٍ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِلَّا رَجَاءً أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: فَأَخْرَجَ تَمْرَاتٍ مِنْ قَرْنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِّبْتُ حَتَّى آكُلَ تَمْرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قَالَ: فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ، رَحِمَهُ اللَّهُ".^(٦٢٢) رواه مسلم.

قال أبو بكر - رضي الله عنه لخالد بن الوليد، غداة مسيره لمحاربة المرتدين : (احرص على الموت توهب لك الحياة)، فكانت حياة خالد وجنده من الصحابة الكرام ترجمة عملية لهذه الوصية، مما جعله يقول لهرقل، قبيل معركة اليرموك فعن عامر الشعبي قال: كتب خالد بن الوليد زمن الحيرة إلى مرزبة فارس:

بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد إلى مرزبة فارس، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، الحمد لله الذي فض خدمتكم وفرق جمعكم وخالف بين كلمتكم فإذا جاءكم كتابي هذا فاعتقدوا مني الذمة، وأجيبوا إلى الجزية، فإن لم تفعلوا أتيتكم بقوم يحبون الموت حبكم الحياة. (قال أبو معاوية البيروتي: إسناده صحيح

هجرة القلوب من الرياء إلى الإخلاص

فكم من مصلي يصلي ليقال عنه مصلي

وكم من الحاج يحج ليقال عنه حاج

وكم من متصدق يتصدق ليقال عنه جواد

(٦٢٢) - مسلم (٣/ ١٥١٠) ٣٣ - كتاب الإمارة - ٤١ - باب: ثبوت الجنة الشهيد.

وكم من قارئ للقران يقرا ليقال عنه قارئ

وكل هذا من الرياء الذي يرده رب الأرض والسماء

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرُويهِ عَنْ رَبِّهِ، قَالَ:

«أَنَا خَيْرُ الشُّرَكَاءِ - وَقَالَ بُنْدَارٌ: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، فَمَنْ عَمَلَ عَمَلًا فَأَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ»^(٦٢٣).

هاجر بقلبك إلى ارض الإخلاص، فالإخلاص مسك والرياء جيفة

قال الجنيد: الإخلاص سرُّ بين الله تعالى وبين العبد، لا يعلمه ملكٌ فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله.

ولتصحيح اتجاهات القلب؟ وضمان تجرده من الأهواء الصغيرة؟

عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْمُنْبَرِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِيَ هِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»^(٦٢٤) رواه البخاري ومسلم.

قال شهر بن حوشب: «جاء رجل إلى عبادة بن الصَّامت، فقال: أنبئني عما أسأل عنه، أ رأيت رجلا يصلِّي يبتغي وجه الله ويحب أن يحمده؟» .

فقال عبادة: «ليس له شيء، إنَّ الله تعالى يقول: أنا خير شريك فمن كان له معي شريك فهو له كله لا حاجة لي فيه»

هجرة القلوب من الحقد والحسد إلى الحب والألفة

ما أحوجنا عباد الله أن نهاجر من تلك المهلكة المضلة التي هي داء الأمم من قبلنا

ترى لماذا يهجر الأخ أخاه؟

(٦٢٣) - مسند أحمد ط الرسالة (٣٧٧ / ١٣) أخرجه الطيالسي (٢٥٥٩) ، ومسلم (٢٩٨٥) ، وابن ماجه (٤٢٠٢) ،

(٦٢٤) - وأخرجه البخاري (١) ، ومسلم (١٩٠٧) ، وأبو داود (٢٢٠١) ، والترمذي (١٧٤٢) ، والنسائي (١ / ٥٨ و ٦ / ١٥٨ و ٧ / ١٣

ترى لماذا العداوة والشحناء بين الأصحاب والأصدقاء والجيران؟

ترى لماذا تدابرنا وتقاطعنا وتقاتلنا؟

الجواب أننا مازلنا في تلك الأرض المهلكة المفسدة

هيا لنهاجر إلى ارض الحب والألفة والأخوة عن أبي هريرة، قَالَ: ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ عِبَادًا لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ، يَغِيْبُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ، قِيلَ: مَنْ هُمْ لَعَلْنَا نُحِبُّهُمْ؟، قَالَ: هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِنُورِ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ أَرْحَامٍ وَلَا انْتِسَابٍ، وَجُوهُهُمْ نُورٌ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزَنَ النَّاسُ"، ثُمَّ قَرَأَ: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [يونس: ٦٢]. «^(٦٢٥) أخرج ابن حبان

عن ابن الفضيل قال: أتيت أبا إسحق السبيعي بعدما كف بصره قال: قلت تعرفني؟ قال: فضيل؟ قلت: نعم، قال: إني والله أحبك لولا الحياء منك لقبلتك فضمني إلى صدره ثم قال: حدثني الأحوص عن عبد الله {لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ} [الأنفال: ٦٣] نزلت في المتحابين.

عن علي بن المدني يقول: غبت عن البصرة في مخرجي إلى اليمن - أظنه ثلاث سنين - وأمي حية. فلما قدمت قالت: يا بني فلان لك صديق، وفلان لك عدو. قلت: نم أين علمت يا أمه؟ قالت: كان فلان وفلان، فذكرت منهم يحيى بن سعيد يجيئون مسلمين، فيعزوني، ويقولون: اصبري، فلو قدم عليك، سرك الله بما ترين. فعلمت أن هؤلاء أصدقاء. وفلان إذا جاؤوا، يقولون لي: اكتبني إليه، وضيقي عليه ليقدم.

حملتُ جبالَ الحبِّ فيك وإنني ... لأعجزُ عن حملِ القميصِ وأضعفُ

وما الحبُّ من حُسنٍ ولا من سماحةٍ ... ولكنه شيءٌ به الروحُ تكلفُ

الهجرة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:

(٦٢٥) - موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان ت حسين أسد (١٨٦ / ٨) إسناده صحيح، وهو في صحيح ابن حبان برقم (٥٧٣)

الهجرة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالحب: أن نحب رسولنا-صلى الله عليه وسلم -
أشد من انفسنا و أبنائنا و أموالنا قال الله تعالى { قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ
وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } [التوبة:

[٢٤

فكم نرى من يقدم هواه على سنة نبيه - صلى الله عليه وسلم -

وكم نرى من يطعنون في هدية وسيرته

وكم شاهدنا من يسب النبي - صلى الله عليه وسلم - ولا نتحرك ولا نغضب

أما آن لنا أن نهاجر إلى هديه ومحبهه - صلى الله عليه وسلم -؟

تكون الجرة إلى الحبيب - صلى الله عليه وسلم - بمحبته

إنَّ محبة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي دليل الإيمان الصادق مصداقا لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده والناس أجمعين»

وليس هذا الحب مجرد عاطفة جوفاء، وإنما هو حب حقيقي نابع من القلب ومن العقل معا ودليل
صدق تلك المحبة هو اتباع المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل ما أمر به، أو نهى عنه، فالمحب
مطيع دائما لمن يحبه ولذلك قيل:

لو كان حبك صادقا لأطعته * * * إنَّ المحب لمن يحب مطيع

وقال آخر:

ولو لم يكن في القلب حبُّ محمدٍ * * * لعمت بك البلوى ودام الضلالُ

نبي الهدى قد أوجب الله صدقه * * * به الفرضُ فرضُ والمحال محالُ

وقد منح المولى الكريم لذاته * * * جمالا غشته هيبة وجلالُ

وهذه شواهد من حياة الصحابة الكريمة تدلنا على صدق المحبة الحقيقية العميقة وتبين لنا كيف تكون هذه المحبة والطاعة :

١- فهذا أبو بكر الصديق لما قام يدافع عن النبي : ضربوه ووطئوه بأقدامهم، ثم حملة بنو تميم ولما تكلم في آخر النهار كان أول ما قال: ما فعل رسول الله، ثم بعث زوجته إلى أم جميل بنت الخطاب لتسألها عن رسول الله، ثم جاءت أم جميل ورأت أبا بكر، وأخبرته بخبره، فقال : والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى آتي رسول الله، وفي الليل خرج حتى أتاه . (٦٢٦)

٢- وهذه امرأة من الأنصار قتل أخوها وزوجها وأبوها يوم أحد مع رسول الله فقالت : ما فعل رسول الله، قالوا خيرا هو بحمد الله كما تحبين، كل مصيبة بعدك جلل . (٦٢٧)

٣- أما خبيب الصحابي الشهيد لما غدر المشركون به وبإخوانه من القراء ثم أعطوه لأهل مكة ليقتلوه، ووضعوه على الخشبة نادوه قائلين فقالوا: أَتُحِبُّ أَنْ مُحَمَّدًا مَكَانَكَ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أُحِبُّ أَنِّي فِي أَهْلِي وَوَلَدِي وَأَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْكَ بِشَوْكَةٍ، (٦٢٨)

٤- ومن حبه لرسول الله أن أحدهم ما كان ليقدم على عمل فيسبق به رسول الله فعند ما بعث عثمان إلى مكة قبل صلح الحديبية ليفد على قريش قال المسلمون هنيئا لعثمان لعله طاف بالكعبة، ولما جاء قال : والله ما كنت لأقدم على ذلك قبل أن يطوف رسول الله .

٥- وكان لرسول الله مكانة أكبر من مكانة الوالد في النفوس، فلما قدم أبو سفيان إلى المدينة ودخل على أم حبيبة، طوت الفراش عنه رغبة بفراش رسول الله أن يجلس عليه كافر.

* تكون الهجرة إلى الحبيب النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - باتباعه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطاعته هما الدليل على محبة الله تعالى ،

يقول أبو سليمان الداراني: لما ادعت القلوب محبة الله، أنزل الله لها محنة (أي اختبارا) هي قوله سبحانه: { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } (آل عمران/ ٣١) فقوله يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ

(٦٢٦) - شرح روضة الأنوار في سيرة النبي المختار (المرحلة المكية (ص: ٣٥)

(٦٢٧) - ابن هشام في السيرة: ٩٩ / ٢ والبيهقي في الدلائل: ٣ / ٣٠٢، والطبري في تاريخه: ٥٣٣ / ٢، بسند ابن إسحاق إلى سعد بن أبي وقاص وسنده حسن وقد صرح بالحديث فزالت شبهة تدليس.

(٦٢٨) - عيون الأثر (٢ / ٦٢)

إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها فدليلها، أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، وثمرتها محبة المرسل لكم (وهو المولى عز وجل) فما لم تحصل المتابعة فليست محبتكم له حاصلة ومحبتة لكم منتفية.

هجرة محبة الذنوب والمعاصي إلى الطاعة

هيا لنهاجر من المعاصي والذنوب إلى طاعة علام الغيوب

هيا لنهاجر من الذل والتبعية إلى العزة والحرية

هيا لنهاجر من أمام الشاشات والفضائيات إلى بيوت رب الأرض والسموات

هيا لنهاجر من الكسل إلى النشاط والجد

هيا لنهاجر من السلبية إلى الإيجابية

المسلم مكلف بأن يهجر كل ما حرم الله، وأن يهاجر إلى ما أحل الله؛ لأن هذا هو الهدف من استخلاف في الأرض لقوله تعالى: **{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }** [الذاريات: ٥٦]. وهل

العبادة إلا طاعة الله فيما أمر، والانتهاة عما نهى عنه وزجر؟

عَنْ فَصَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَالْمُسْلِمِ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُجَاهِدِ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ، وَالْمُهَاجِرِ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ» (٦٢٩)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَاجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ». (٦٣٠)

فهجر ما نهى الله عنه يعني هجر السيئات والمعاصي والمفاسد القولية منها والفعلية، والتي هي الأساس في فساد البلاد والعباد؛ ولهذا أكد الحديث على (كف اللسان واليد)؛ إذ إنهما الأعضاء التي تصدر عنها المفاسد القولية والفعلية. وإذا كانت هذه الأعضاء سلاحاً ذا حدين يمكن أن يصدر عنها الخير كما يمكن أن يصدر عنها الشر، فإن إمكانية صدور الشر عنها أرجح من صدور الخير

(٦٢٩) - المستدرك على الصحيحين للحاكم (ط التأصيل) (١/ ٢٢٨)

(٦٣٠) - أخرجه مسلم "٤١"

* المهاجر من هجر لذة النوم وتجافى جنبه عن وثير الفراش ودفننه لما سمع - أو قبل أن يسمع بسويعة - نداء الفلاح: ". الهجرة قلب لدولة عادات النفس؛ الهجرة إذن سلوك مستمر متجدد في حياة المسلم، وفرار إلى الله تعالى بالمسارعة والتسابق إلى الخير وكل عمل صالح يجلب مرضاته سبحانه؛ الهجرة هروب مما يغضبه وينزل مقتته، "والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه" كما في حديث البخاري.

* المهاجر من وفق - بتوفيق منه سبحانه - لهجر عاداته وترك مألوفاته مأكلا ومشربا وملبسا وقولا وسلوكا بنية التقرب إليه عز سلطانه، وطوع نفسه لتحب محاب الله ورسوله حتى يكون هواه تبعا لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في الحديث، وخرج من سلطان شهواته:

* المهاجر من هجر الغفلة والغافلين وانتظم في سلك الراجين وجهه سبحانه لما وقع في سمع قلبه نداء رب العالمين يأمره أن يصبر نفسه مع الذاكرين الله بالغدو والعشي وبينها عن صحبة المنفرط أمرهم المشتت شملهم {وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [الكهف: ٢٨].

المهاجر من هجر النفاق وأهله، لما دعاه ربه ليكون مع الصادقين ويحبهم ويعمل عملهم استجابة لأمره تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: ١١٩] المهاجر من هجر سيء الأخلاق وفضاظة الطبع وغلظة القلب في التعامل مع الزوج والأولاد والجيران والناس أجمعين، لما علم أن المؤمن ينال بحسن الخلق عظيم درجات الآخرة

* المهاجر من هجر البطالة وشمر على ساعده يعمل ويعلم الناس أسباب الكسب الحلال صونا لماء وجه المؤمن وعزة الأمة لما بلغه حب الله تعالى للعامل

فالله اسأل أن ينفع بذلك العمل المسلمين والمسلمات وأن يجعله لنا ولهم ذخرا إلى يوم الممات وأن يكون زادا لنا إلى أعالي الجنات والنظر إلى وجه رب الأرض والسموات. أمين

انتهى الجزء الأول ويليه الجزء الثاني وبدايته دخول النبي صلى الله عليه وسلم المدينة

الفهرس

إهداء	٣
المقدمة	٤
الدرس الأول أهمية السيرة النبوية	٦
الدرس الثاني حالة العرب قبل الإسلام	١٥
الدرس الثالث: حادثة حفر بئر زمزم	٢١
الدروس المستفادة من حفر زمزم	٢٣
الدرس الرابع: نذر عبد المطلب ذبح أحد أولاده	٢٦
دروس وعبر من قصة عبد المطلب وحفر زمزم	٢٨
الدرس الخامس: قصة حادثة الفيل	٢٩
الدرس السادس: فوائد من حادثة الفيل	٣٥
الدرس السابع: نسب النبي ومولده صلى الله عليه وسلم	٣٩

الدرس الثامن زواج عبد الله بن عبد المطلب بآمنة بنت وهب مولد الهدى والنور صلى الله عليه وسلم.....	٤٤
العناية به في عالم الغيب.....	٤٥
الدرس التاسع: ميلاد الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ومرضعاته.....	٥٠
الدرس العاشر: النبي صلى الله عليه وسلم وحليمة السعدية.....	٥٥
دروس وعبر.....	٥٨
الدرس الحادي عشر: حادثة شق الصدر ووفاة أمه وجده.....	٦٠
الحكمة من شق صدر النبي صلى الله عليه وسلم.....	٦٢
وفاة أمه وكفالة جده ثم عمه.....	٦٣
دروس وعبر.....	٦٤
الدرس الثاني عشر: عمله صلى الله عليه وسلم في الرعي.....	٦٦
الدرس الثالث عشر: حفظ الله تعالى لنبيه قبل البعثة ولقاء بحيرة الراهب.....	٧١
يستفاد من قصة بحيرا.....	٧٤
الدرس الرابع عشر: مشاركة النبي صلى الله عليه وسلم في حرب الفجار وحلف الفضول.....	٧٥
دروس وعبر وفوائد.....	٧٧
الدرس الخامس عشر: تجارته لخديجة وزواجه منها.....	٨٠
دروس وعبر وفوائد.....	٨١
اشتراكه في بناء الكعبة الشريفة.....	٨٣
دروس وعبر وفوائد.....	٨٤
الدرس السادس عشر: إرهاصات نبوته صلى الله عليه وسلم ونزول الوحي.....	٨٨

- الدرس السابع عشر: نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم..... ٩٣
- دروس وعبر..... ٩٥
- الدرس الثامن عشر: فترة انقطاع الوحي والحكمة منها..... ٩٩
- الدرس التاسع عشر: إِسْلَامُ حَدِيْجَةَ بِنْتُ حُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا..... ١٠٥
- أولاً: الأمر الرباني بتبليغ الرسالة: ١٠٥
- * إِسْلَامُ حَدِيْجَةَ بِنْتُ حُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: ١٠٦
- دروس وعبر..... ١٠٧
- الدرس العشرون إِسْلَامُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -رضي الله عنه..... ١٠٨
- دروس وعبر: ١١١
- الدرس الحادي العشرون: إِسْلَامُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ -رضي الله عنه- ١١٣
- الدرس الثاني والعشرون: تابع الدعوة السرية..... ١١٦
- إِسْلَامُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ -رضي الله عنه..... ١١٦
- بركة أبي بكر الصديق ودعوته للإسلام..... ١١٨
- ذِكْرُ مَنْ أَسْلَمَ عَلَى يَدِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ -رضي الله عنه-..... ١١٨
- * تَسَامُعُ النَّاسِ دَعْوَةَ الْإِسْلَامِ: ١١٩
- دروس وعبر..... ١٢٠
- الدرس الثالث والعشرون: إِسْلَامُ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ -رضي الله عنه- ١٢٢
- الفوائد والعبر..... ١٢٤
- الدرس الرابع والعشرون: إِسْلَامُ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ -رضي الله عنه- ١٥٢
- الفوائد والعبر..... ١٢٧

- الدرس الخامس والعشرون: دار الأرقم بن أبي الأرقم أول مركز سلامي في الإسلام..... ١٢٩
- أبرز سمات المرحلة السرية..... ١٣١
- أهم الدروس والعبر..... ١٣٤
- السادس والعشرون: إسلام عمرو بن عبسة السلمي..... ١٣٦
- الفوائد والعبر..... ١٣٨
- الدرس السابع والعشرون: قصة إسلام عبد الله بن مسعود رضي الله عنه..... ١٤٠
- الفوائد والعبر..... ١٤١
- الدرس الثامن والعشرون: قصة إسلام أبي ذر رضي الله عنه..... ١٤٣
- دروس وعبر من قصة إسلام أبي ذر رضي الله عنه..... ١٤٦
- الدرس التاسع والعشرون: قصة إسلام ضماد بن ثعلبة الأزدي..... ١٤٩
- دروس وعبر من إسلام ضماد بن ثعلبه..... ١٥٠
- الدرس الثلاثون: الدرس الجهر بالدعوة..... ١٥٤
- دروس وعبر..... ١٥٧
- الدرس الثاني والثلاثون: موقف قريش من النبي صلى الله عليه وسلم..... ١٦٠
- الدرس الثالث والثلاثون: الابتلاء والتنكيل بمن أسلموا..... ١٦٦
- تعذيب سمية بنت الخياط واستشهادها..... ١٦٧
- تعذيب عمار بن ياسر رضي الله عنهما..... ١٦٩
- الدرس الرابع والثلاثون: خباب بن الأرت رمز الصمود..... ١٧٠
- الدرس الخامس والثلاثون: بلال بن رباح رمز التضحية والثبات..... ١٧٤
- الدرس السادس والثلاثون: وسائل مواجهة ومحاربة الدعوة..... ١٨٠

- الدرس السابع والثلاثون: معجزة انشقاق القمر..... ١٨٦
- الدرس الثامن والثلاثون: شهادة زعيم المشركين للقرآن الكريم..... ١٩٢
- دروس وعبر..... ١٩٤
- الدرس التاسع والثلاثون: الهجرة إلى الحبشة سنة خمس من البعثة..... ١٩٦
- سبب الهجرة إلى الحبشة..... ١٩٦
- الدروس المستفادة من هجرة المسلمين إلى الحبشة..... ٢٠٢
- الدرس الأربعون: إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه..... ٢٠٦
- الدرس الحادي والأربعون: إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه..... ٢١٠
- الدرس الثاني والأربعون: المقاطعة الظالمة..... ٢١٥
- الدروس والعبر من حادثة المقاطعة..... ٢٢٠
- الدرس الثالث والأربعون: وفاة أبي طالب وأثره على الدعوة..... ٢٢٢
- دروس وعبر من موت أبي طالب..... ٢٢٤
- الدرس الثالث والأربعون: وفاة خديجة رضي الله عنها وشيء من مناقبها..... ٢٢٨
- الدرس الرابع والأربعون: موقف المشركين من النبي صلى الله عليه وسلم والدعوة بعد وفاة أبي طالب وخديجة رضي الله عنها..... ٢٣٣
- الدرس الخامس والأربعون: ذهاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف..... ٢٣٨
- قصة عداس النصراني..... ٢٤٠
- دروس وعبر..... ٢٤١
- الدرس السادس والأربعون: إسلام الجن وعودته إلى مكة..... ٢٤٤
- الدرس السابع والأربعون: الإسراء والمعراج..... ٢٤٦

- صحيح الإسراء والمعراج.....٢٤٦
- الدرس الثامن والأربعون: دروس عقديّة من رحلة الإسراء والمعراج.....٢٥١
- الدرس التاسع والأربعون: دروس تربويّة وأخلاقيّة ودعويّة. من الإسراء و المعراج.....٢٦٠
- الدرس الخمسون: مظاهر التوفيق في رحلة الإسراء والمعراج.....١٦٨.
- الدرس الحادي والخمسون: إسلام الأنصار واستجابتهم لله ولرسوله.....٢٧٦
- الدرس الثاني والخمسون: بيعة العقبة الأولى.....٢٨٠
- فوائد ودروس وعبر:٢٨٣
- الدرس الثالث والخمسون: بيعة العقبة الثانية.....٢٨٥
- أسماء النقباء من الأنصار.....٢٩٠
- الدروس والعبر من بيعة العقبة الثانية.....٢٩١
- الدرس الرابع والخمسون: هجرة المسلمين إلى المدينة.....٢٩٢
- أول من هاجر إلى المدينة.....٢٣٩
- مواكب المهاجرين.....٢٩٥
- الدرس الخامس والخمسون: هجرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.....٢٩٨
- الدرس السادس والخمسون: عمل النبي بتجارة أيام المواسم قبل الهجرة.....٣٠٣
- الدرس السابع والخمسون المؤمّرة الكبرى في دار الندوة.....٣٠٦
- الدرس الثامن والخمسون: ليلة الهجرة.....٣١١
- الدرس التاسع والخمسون: معجزات على طريق الهجرة.....٣١٦
- الدرس الستون فوائد ودروس وعبر من هجرة سيد البشر.....٣٢٥
- الدرس الحادي و الستون : من وحي الهجرة تأييد الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم.....٣٣٠

الثاني و الستون : هجرة القلوب إلى علام الغيوب..... ٣٤٢.....

الفهرس ٣٥٤.....